مَنشُورَاتُ المَكْتَبَة البُولِسِيَّة
جونيه - شارع القدّيس بولس -- ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحْلة - مقابل مطرانيّة الروم الكاثوليك - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ
ܕܝܠܗ ܡܠܦܢܐ ܐܒܪܗܡ ܢܘܪܐ ܐܘܪܗܝܐ

Ex Libris
Beth Mardutho Library
The Malphono Abrohom Nuro Collection

KK_1326

تاريخ الزوقنيني المنحول
لديونيسيوس التلمحري

ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ ܕܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ
Church History:
Chronicles (ABC)
Beth Mardutho Library

جميع الحقوق محفوظة

*

٢٠٠٦

*

منشورات المكتبة البولسيّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – مقابل مطرانيّة الروم الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة
الكنائس المسيحيّة الشرقيّة
٤

تاريخ الزوقنينيّ المنحول
لديونيسيوس التلمحريّ

ترجمه من السريانيّة
الشمّاس بطرس قاشا

قدّم له وعلّق عليه ووضع حواشيه
الأب سهيل بطرس قاشا

مقدّمة المؤلّف

يبتدئ هذا التاريخ من خِلقَة العالم، وحتّى مولد إبراهيم الخليل ومملكة نينوس الذي بنى نينوى وحكم فيها اثنتين وخمسين سنة. وفي السنة الثانية والأربعين من حكمه وُلد إبراهيم أبو الآباء، كما يشهد أوسابيوس الذي عنه أخذنا، ودوّناه في كتابنا هذا حتّى سني الملك قوسطنطينوس المؤمن.

ومن تيؤدوسيوس إلى يوسطنينيا الملك، أخذنا من كتاب القدّيس يعقوب أسقف آسيا التي هي سنة ٨٨٥ للإسكندر[١].

ومن السنة هذه، وحتّى السنة التي نحن فيها اليوم وهي السنة ١٠٨٦ للإسكندر[٢]، والتي يقابلها السنة ١٥٨هـ لم نجد كتابًا يدوّن أخبار هذه الفترة التي مرّت على آبائنا وعلينا، حيث من جرّاء خطايانا أصبحنا أسرى بيد الأشوريّين والبرابرة، فلم نرَ أحدًا يكتب عمّا أصابنا من المرارة والمصائب. وهذا ما حملنا أن نذكر زمننا الشرّير هذا بكتاب نخبر فيه ما حملته الأرض على أيدي الأشوريّين:

ولهذا جعلنا لنا إرادة للكتابة للّذين يأتون بعدنا إلى هذا العالم، ليتّعظوا ويخافوا الله. ويسلكوا أمامه بالحقّ لكي لا يغضب عليهم إلههم كما غضب علينا، وجعلنا بيد هذا الأب القاسي. ومكتوب: أوصوا أولادكم.. واسأل والدك وهو يخبرك وأجدادك وهم يقولون لك.

وقد فتّشنا كثيرًا، وبأماكن كثيرة. والحقيقة لم نجد شيئًا مكتوبًا إلاّ النزر اليسير من الأخبار. والذي سمعناه من الشيوخ القدماء الذين رأوا ومرّوا عليه، وما نحن رأيناه بأعيننا ممّا جرى من الأمور. فأردنا أن نجمعها بهذا الكتاب.

والقارئ الذي يقف على هذه الأخبار قد يرفضها ويرذلها، إلاّ أنّنا نؤكّد أنّ هذه

---

(١) يقابلها سنة ٥٧٤ ميلاديّة.

(٢) يقابلها سنة ٧٧٥ ميلاديّة.

لم تجرِ فقط في بلد واحد أو مملكة واحدة، أو جهة واحدة. وليعلم القارئ أيضًا إذا ما صادف تاريخًا آخر لا يتطابق وتاريخنا هذا، فليعلم أنّ التواريخ القديمة هي الأخرى لا تتطابق، فلا بدّ لواحد أن يزيد ولآخر أن ينقّص. الواحد أن يغيّر والآخر أن يحوّر وهكذا.

كما أنّ هناك من يكتب أخبار الكنيسة والآخر يدوّن أخبار العالم. وهذه الأمور كلّها لا تضرّ الحكماء، فقد يخطأ المؤرّخ بسنة أو سنتين، وقد يقدّم سنة أو يؤخّر سنة. ولكنّ النتيجة هي أن يعلم القارئ ما أصاب السابقين له من ضربات ونكبات ليتجنّب الإثم ولا يحلّ بهم مثل ما حلّ بنا وبالأوّلين.

فكونوا إذن على حذر، واتّقوا الله لئلاّ تأتي أيّام عليكم بما أتت علينا.

وإنّنا نبتدئ كتابنا هذا من السنة ٨٩٨ للإسكندر[١].

(١) يقابلها سنة ٥٨٧ ميلاديّة.

مقدّمة المترجم

للسريان، تاريخ مجيد، ومؤرّخون مبدعون، بما خطّوه بريشتهم الخالدة من أخبار وأحداث وسِير، جمعوها بأسفار ثمينة جليلة، أرّخت لنا أخبارهم الكنسيّة والزمنيّة، أمثال البطريرك ميخائيل الكبير (١١٦٦-١١٩٩) والمفريان ابن العبريّ (١٢٢٦ - ١٢٨٦) والراهب الرهاويّ المجهول (؟ - ١٢٣٤) وغيرهم كثيرين، وما زلنا ننهل من مناهلهم تاريخنا العظيم.

واليوم بين يديّ سِفر جليل، وتاريخ فريد بما يضمّه بين دفّتيه من أخبار معاصرة لكاتبه الراهب الزوقنينيّ (٧٧٥) والمنحول لديونيسيوس التلمحريّ البطريرك (٨١٨-٨٤٥) الذي ضاع كتابه واختفى بين أحداث الزمن المرير، وقد حفظ قسمًا منه البطريرك ميخائيل السريانيّ الكبير في تاريخه المشهور.

ونزولاً عند رغبة ولدي سهيل المتتبّع لأخبار الأوّلين، وفائدة لأبناء جلدتي أقوم بتعريبه من السريانيّة - وقد نشره الأب يوحنّا شابو بالفرنسيّة عام ١٨٩٥م - وقد أقدمتُ على ترجمته من السريانيّة عن نسخة مطبوعة جلبها لي ولدي سهيل بواسطة القسّ يوسف حبّي من نيافة المطران مار زكّا عيواص مطران بغداد والبصرة للسريان الأرثوذكس.

قرأت الكتاب مرّة ومرّتين، ومن ثمّ شرعت بترجمته ترجمة حرفيّة للنصّ، لأنّني كنت شديد الحرص في تعريب الكلمات والأسطر، إذ لم أكن أكتفي بالترجمة المعنويّة للجملة أو الفقرة، أي بمعنًى أدقّ لم أترجم الفكرة بعد قراءتها وأصوغها بقالب عربيّ وبتصرّف، إنّما كان اهتمامي في تعريب النصّ لفظة لفظة وسطرًا سطرًا، إلاّ في بعض الحالات - والنادرة - كنت أضطرّ للتصرّف لركاكة النصّ أو الخطأ الإملائيّ أو اللغويّ. وأحياناً للنقص الوارد فيه. فكنت أحاول جهدي أن أعطي المعنى الصرف ليس إلاّ.

لم أحاول أن أستعمل اللغة العربيّة الصعبة إنّما اكتفيت بالعبارة السلسة السهلة، لتأتي الترجمة مطابقة للغة السريانيّة المكتوب بها الكتاب، دون التزويق والتنميق إنّما الترقيق والتدقيق، لغاية في نفسي ألا وهي إيصال التاريخ الواضح إلى القارئ الاعتياديّ.

وهكذا أنجزت الكتاب بحلّة عربيّة جديدة.

والله وليّ التوفيق.

الموصل

كانون الثاني – ١٩٧١

الشمّاس بطرس متى قاشا

الراهب الزوقنينيّ وتاريخه

١ - هويّة الراهب الزوقنينيّ وترجمة النصّ من السريانيّة

راهب، سريانيّ يعقوبيّ من دير زوقنين القريب من آمد (دياربكر)، وضع عام ٧٧٥م كتابًا ضخمًا بجزئين يتناول فيه أخبارًا تاريخيّة من الخِلقَة حتّى زمانه. وقد نقل عن المؤرّخين القدماء. غير أنّ اسمه ضاع بضياع الصفحات الأولى من المخطوطة، فنسبه السمعانيّ خطأً إلى ديونيسيوس التلمحريّ. إلاّ أنّ النقد العلميّ أوضح بلسان (نو) و (نولدكه) إلى القول إنّه من وضع راهب عاش إلى سنة ٧٧٤ في دير زوقنين، وإلى الفرباذوط لعازر.

لم يدقّق الزوقنينيّ في ضبط السنين. ولّما قارب زمانه سنة ٧٢٠م، بسط القول بما كان فيه من الأحداث الدينيّة والمدنيّة والخوارق الطبيعيّة، فأورد وقائع مفصّلة تتعلّق بأواخر الدولة الأمويّة (٦٦١ - ٧٥٠) وصدر الدولة العبّاسية إلى زمان الخليفة المهديّ (٧٧٥ - ٧٨٥). وتفرّد في كثير منها، فلا تجده في أيّ تاريخ سريانيًّا كان أم يونانيًّا أم عربيًّا، كاشفًا الستار عن النكبات التي أحاطت بالأهلين في بلاد الجزيرة. واضطراب حبل الأمن، بنوع خاصّ لحيف الملوك وعمّالهم، فاستوعبت أحداثه الأخيرة مئتي صفحة. وكان إقدامه على التأليف باقتراح كوركيس خورفسقوفس آمد وأوتيليوس رئيس ديره ولعازر الزائر وأنسطاس والرهبان قاطبة[١].

يشتمل هذا التاريخ على ما يلي:

١ - من الخلقة وحتّى سنة ٣١٣ م: تقول حاشية فيه إنّ مادّته مستقاة من تاريخ أوسابيوس القيصريّ، كما من مصادر أخرى أضيفت عليه فيما بعد كقصّة الإسكندر المنحولة مضافة من كتاب (مغارة الكنوز) كما أضيفت عليه قصّة المجوس مستقاة من كتاب لاتينيّ منحول وإحدى روايات أهل الكهف في أفسس.

---

(١) برصوم، اللؤلؤ النثور، رقم ١٣٦ ص. ٣٢٠ - ٣٢١.

٢ - السنوات: ٣١٣ - ٤٨٥ م: ومصدرها المؤرِّخ سقراط ما خلا رواية أهل الكهف، ورواية يوحنّا روفي وغيرها.

٣ - السنوات: ٤٩٧ - ٥٠٦ م: كأنّها فترة مستقلّة في هذا القسم من هذا الكتاب الموجّه إلى الأنبا سرجيوس. فإنّ الكاتب يكتب في الرها بعد سنة ٥٠٧ تحت عنوان (تاريخ الأزمنة والنكبة الحالّة بالرها وآمد وكلّ بلاد ما بين النهرين).

٤ - السنوات: ٤٨٩ - ٥٧٨ م: يعتمد المؤلّف فيها على القسم الثاني من تاريخ يوحنّا الأفسسيّ، ويضيف رسالة شمعون الأرشميّ بشأن الشهداء النجرانيّين.

٥ - السنوات: ٥٨٧ - ٧٧٥ م: يقول كاتبها إنّها مكتوبة سنة ١٠٨٦ي / ٧٧٥ م. الأحداث الممتدّة من سنة ٥٨٧ وحتّى ٧١٣ موجزة، وتطول بعد سنة ٧٧٥ حتّى إنّها تتضمّن وصفًا للأوضاع الاقتصاديّة[١].

وهذا هو القسم الذي قمنا بتعريبه عن نسخة شابو المنشورة بالطبع عام ١٨٩٥م.

هذا التاريخ لا يخلو من ضعف وأخطاء وألفاظ دخيلة، عدا اضطراب السنين. فإنشاؤه والحالة هذه رديء وركيك.

يعدّ هذا التاريخ من أهمّ التواريخ المحلّيّة التي تناولت تاريخ الجزيرة وبلاد ما بين النهرين العليا في فترة كانت «من أشدّ فترات التاريخ الإسلاميّ فعّاليّة سياسيًّا ونشاطًا فكريًّا[٢]». فقد أفرد المؤلّف طرفًا كبيرًا من تاريخه لتسجيل ردود الفعل السياسيّة لسكان البلاد ضدّ السلطة العبّاسيّة التي أخذت تمدّ نفوذها إلى أطراف البلاد، كما أشار إلى إنكارهم الشديد للمركزيّة الإداريّة والضغط الذي كان يمارسه الوالي العبّاسيّ.

ويفصّل كذلك في شرح الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي أدّت في النهاية إلى ظهور الكثير من مدّعي النبوّة، وقطّاع الطرق، والخوارج، إضافة إلى تقديمه معلومات اقتصاديّة واجتماعيّة وماليّة تتضمّن إشارات وفيرة إلى نوعيّة الأراضي

---

(١) الأب يوسف حبّي. التواريخ السريانيّة. مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، هيئة اللغة السريانيّة، المجلّد السادس، بغداد (١٩٨١ - ١٩٨٢)، ص. ٧٦ - ٧٨.

(٢) د. فاروق فوزي، طبيعة الدعوة العبّاسيّة، ص. ٤٢.

والممتلكات في المدن والقرى، وتوضح العلاقة بين سكّان المدينة والقرية والريف. والتصادم الشديد الذي ينشب بين طبقات المجتمع ذات المستويات الاقتصاديّة والاجتماعيّة المختلفة. ويتحدّث بشكل خاصّ عن الطبقة دون المتوسّطة وعن الفلاّحين والزرّاع بحيث لا يضاهيه في هذه الأخبار أحد من مؤرّخي عصره، وذلك لارتباطه المذهبيّ والقوميّ بجماعة «ذوي الطبيعة الواحدة» (السريان). وكانت هذه الفئة تؤلّف أكبر شريحة من مجتمع بلاد ما بين النهرين في القرنين السابع والثامن، ولا ترتبط بأيّة طبقة أرستقراطيّة أو سلطة حكوميّة.

ولا يقلّ تاريخ الزوقنينيّ أهمّيّة عن تاريخ الموصل لأبي زكريّا الأزديّ من حيث كونه تاريخًا محلّيًّا، لأنّ كليهما «يشمل بحثًا للحالة السياسيّة لمنطقة الجزيرة وكذلك الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة. ويتّفق كلاهما في موقفه العدائيّ تجاه السلطة العبّاسيّة المركزيّة[١]».

ومع أنّ الزوقنينيّ يفصّل في معلوماته الاقتصاديّة، والأزدي بمعلوماته السياسيّة، إلاّ أنّهما يتّفقان في أنّ كثرة الضرائب وعنف أسلوب الجباية هي التي أجبرت الفلاّحين على الهجرة، وبالتالي أدّت إلى تدهور الحالة الاقتصاديّة في بلاد ما بين النهرين[٢].

وتنحصر أهمّيّة كتاب الزوقنينيّ إضافة إلى ما مرّ، في تفرّده في مجموعة من أخبار لا ترد في المطوّلات التاريخيّة، لعدم تنبّه المؤرّخين الرسميّين إليها من جهة، ولوقوعها في منطقة الثغور الداخليّة حيث عاش المؤرّخ من الجهة الأخرى. كما جمع طائفة من أخبار متفرّقة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالكنيسة المسيحيّة الشرّقيّة وبخاصّة السريانيّة، ومدى علاقة هذه الكنيسة بالدولة العبّاسيّة. الأمر الذي يهيّىء فرشًا تاريخيًّا للمؤرّخ المعاصر الذي لا يستطيع أن يقف على ما يضارعها في التواريخ المماثلة.

---

(١) د. يوسف متّي إسحق، التاريخ الزوقنينيّ المنحول وديونيسيوس التلْمحريّ. مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ. الهيئة السريانيّة، بغداد (١٩٨٤) مج ٨ ص. ٦٣-١٣٥.

(٢) فاروق عمر فوزي، طبيعة «الدعوة العبّاسيّة». ص. ٤٤؛ والجزيرة الفراتيّة. ص. ٢٠.

٢ - ملاحظات حول تاريخ الزوقنينيّ

١ - المؤلّف ذو معرفة تامّة بالكتاب المقدّس، وصاحب إلمام كامل بالنبوّات، حيث يحاول أن يفسّر نبوّات العهد القديم أو يحقّقها في الأحداث التي عاصرته، أو التي يكتب عنها. ولذا نجده دومًا بين آونة وأخرى يورد نصوصًا قصيرة أو طويلة من نبوّات إرميا وأشعيا وغيرهما، وكأنّي به يريد القول إنّها تحقّقت بأيّامه هو. وهذا نابع من الروح الصوفيّة التي يتمتّع بها، وأنّه قد أسلم كلّ مقاليد الأمور بيد الله، وأنّ الله المحور في صنع حركة التاريخ.

٢ - يعزو كلّ الأحداث المحزنة والمفجعة إلى أنّها نتيجة لخطايا البشر، وبمثابة عقاب الله على الإنسان محقّقًا قول الربّ «لي النقمة وأنا أجازي». وهنا كأنّ حركة التاريخ يصنعها الله في الإنسان، وليس الإنسان في العالم. وهذه نظرة نسكيّة تزهّديّة إلى العالم.

٣ - يورد طرفًا من أدوات التعذيب في عهد صدر الدولة العبّاسيّة، وكيف كان الولاة والقضاة يتفنّنون في استنباطها والتعذيب بها. لاسيّما الذين لا يملكون دفع الضرائب، حتّى يؤول المصير بهم إلى الموت أحيانًا، أو بيع الأنفس، أو التأجير، أو بيع الأولاد من بنين وبنات، وتأجير النساء للعمل لقاء الأموال المطلوبة لمدّة معيّنة قد تطول وقد تقصر بحسب ما يفرض عليهم.

٤ - يمتاز بأسلوب الإسهاب المملّ - خاصّة في قسمه الأخير- حيث كثير من اللفّ والدوران في الكلام عن الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة للسنوات ٧٧٢-٧٧٥م ، حتّى إنّ القارئ يكاد يقرأ الفكرة عدّة مرّات في صفحات متتابعة، وكأنّي به يريد أن يرسّخ في ذهن القارئ ما يريد أن يقوله، أو يريد أن يعرّف مدى ألمه الداخليّ وحسّه المرهف تجاه بني جلدته أو طائفته من الغبن والظلم الذي لحقهم. ولذا نجده يكرّر ذات المعاني وذات الأفكار تحت عناوين مترادفة كقوله: شهادة زور، الدائن والمدين، حفر القبور، وتذرية العظام وغيرها.

٥ - كما أنّه يتحدّث بإسهاب عن العلامات الطبيعيّة والمناخيّة من هزّات الأرض والعلامات الفلكيّة والجوع والقحط ويجعلها كأنّها أحد رموز غضب الربّ على البشر

أو أنّها تنبيهات للإنسان ينذر الربّ بها العالم للتوبة الصادقة والمحبّة الخالصة. وهو في ذلك كالمعلّم الذي يعطي الدروس لسامعيه يحاول تفسيرها بأبسط الطرق وأسهلها.

٣ - ترجمة النصّ من السريانيّة

في أوائل عام ١٩٧٠ ، ومن خلال الحوارات التي كنّا نتبادلها مع الأب يوسف حبّي، طرح عليّ فكرة ترجمة القسم الرابع من كتاب تاريخ الزوقنينيّ المنحول لديونيسيوس التلمحريّ، بعد أن حدّثته عن قابليّة والدي المرحوم الشمّاس بطرس متّي قاشا وتمكّنه من الترجمة من السريانيّة إلى العربيّة، وكان قد فرغ حديثًا من ترجمة «تاريخ الرهاويّ المجهول»[1]. فطابت لي الفكرة وراقت كذلك لوالدي الجليل.

استعار الأب يوسف حبّي الكتاب من نيافة المطران زكّا عيواص مطران بغداد والبصرة سابقًا (قداسة البطريرك الآن) وأعطى الكتاب لوالدي الذي راح بكلّ عزم وتصميم ورحابة صدر وغيرة سريانيّة يتصفّح الكتاب ويطالعه مرّة ومرّتين وثلاثًا. ثمّ شرع بترجمته فترجمه خلال بضعة أشهر ترجمة أولى. ثمّ رجع إليها ثانية وثالثة. حتّى ثبتت الترجمة النهائيّة. إذ كنت أقرأ النصّ المترجم ويقابله هو بالنصّ السريانيّ. ومن ثمّ رحت أبيّض الترجمة التي هي الآن بين يديك أيّها القارئ العزيز.

أخبرت الأب يوسف حبّي بانتهاء الترجمة كاملة فطلب قراءتها ومراجعتها. ومن ثمّ تحقيقه على المصادر الأجنبيّة. وبقيت المخطوطة لديه ما يقارب السنة دون أن ينظر فيها، وأعادها إلينا. فوضعتها في أحد أدراج مكتبتنا الخاصّة. وطواها الزمن إلى يوم وفاة والدي رحمه الله عام ١٩٨٩م.

عندئذ، عرفانًا بالجميل. وإحياءً لذكراه العطرة تناولت المخطوطة من جديد وشرعت أشذّب بها وأهذّب، ومن ثمّ انعكفت على تحقيقها ما أستطيع إليه سبيلاً على المصادر السريانيّة المترجمة من قبل الوالد مثل: تاريخ الرهاويّ المجهول، وتاريخ الأزمنة لابن العبريّ، وتاريخه الكنسيّ. تاريخ ميخائيل الكبير وغيرها.

---

(١) نشر من هذه الترجمة نصوصٌ تحت عنوان «الفتوحات العربيّة في تاريخ الرهاويّ المجهول». في مجلّة بين النهرين (الموصل ١٩٧٦) عدد ٤ العدد الخاصّ. ص ١٣٥-١٤٧.

كذلك رجعت إلى أمّهات المصادر العربيّة أمثال تاريخ الطبريّ، والكامل لابن الأثير، ومعجم البلدان للحمويّ، ومروج الذهب للمسعوديّ، وتاريخ اليعقوبيّ، وتاريخ الموصل للأزديّ وغيرها.

ثمّ حاولت تعريف كافّة الأقاليم والمدن والقرى مع الأديرة التي وردت في الكتاب، إضافة إلى سائر الأعلام التي ورد ذكرها فيه لكي يكون واضحًا ودقيقًا أمام القارئ العربيّ الكريم والسريانيّ العزيز على حدّ سواء، مع بعض التوضيحات والإشارات والتعليقات الخاصّة والعامّة والمفيدة في جعله كتابًا يرجع ويستند إليه الباحث المبتدئ والمؤرّخ المختصّ. فارتقى الكتاب إلى هذه الصورة التي هي عليه الآن.

٤ – ومضات من سيرة المترجم

هو بطرس بن متّي بن بهنام بن إسحاق بن إيليّا بن كوركيس بن القسّ متّي قاشا. ولد في باخديدا يوم ٨ أيّار سنة ١٩١٠ م. وترعرع في أحضان عائلته الشريفة آل قاشا. تحت أنظار أبيه وأمّه ذوي الأصول الكريمة والجذور الأصيلة.

تلقّى علومه الأوّليّة ولاسيّما دروسه السريانيّة والعربيّة في مدرسة البلدة الأهليّة وخاصّة لدى الراهبات في رسالة باخديدا للأخوات الكاترينات. وعندما شبّ، شغف بطلب العلم وجني المعرفة فتتلمذ أوّلاً على كهنة البلدة وشمامستها، وخاصّة «القسّ جبرائيل حبش» والقسّ منصور دديزا والشمّاس صليوا كسكو والشمّاس إبراهيم عطاالله والشمّاس إسحق حبش وبالأخصّ خاله الشمّاس عبو يونو قاشا، فأخذ عنهم العربيّة والسريانيّة.

ولدى افتتاح المدرسة الابتدائيّة في باخديدا في أواخر تشرين الثاني ١٩١٨ انخرط في صفوف طلاّبها وانتظم في الصفّ الأعلى آنذاك، الرابع، وراح يتلقّى العلوم الحديثة ويهضم دروسها بسهولة وحيويّة حتّى بزّ أقرانه ولاسيّما في اللغتين العربيّة والإنكليزيّة إضافة إلى الرياضيّات والتاريخ والعلوم الأخرى، وله فيها ذكريات عطرة.

ولثقافته المبكّرة والموسوعيّة فقد دعته مرّات عديدة المقاماتُ الرسميّة للالتحاق بالمدارس العالية لإكمال دراسته في بغداد أو بالجامعة الأمريكيّة في بيروت، وممّن

دعوه الأستاذ ساطع الحصريّ، إلاّ أنّه رفض لعدم موافقة والديه على ذلك.

اقتبل الدرجات الأولى للشمّاسيّة (المزمّر والقارئ) بوضع يد الطران جرجس دلال في ٢٧ آذار سنة ١٩٢٧ ، ثمّ اقتبل درجة الرسائليّ (الأوفدياقون) يوم ٥ آذار سنة ١٩٣٤ من يد المطران دلال أيضًا. علمًا أنّه انخرط في أخويّة الرهبنة الثالثة لمار عبد الأحد في باخديدا يوم ٦ آب ١٩٣٠ وقدّم النذور فيها يوم ٤ آب ١٩٣٤ على يد الأب لويس صائغ الدومنيكيّ.

اضطر إلى مغادرة مسقط رأسه باخديدا عام ١٩٥٤ لمتابعة دراسة ولديه سهيل وجلال واستقرّ المقام مع عائلته في محلّة حوش الخان إلى يوم رحيله إلى عالم البقاء يوم ٢٣ أيّار ١٩٨٩. ودفن في كنيسة الطاهرة في باخديدا.

– تراثه ومآثره

كم نافع الشيء الذي لم ينزل إلى القبر، حتّى يسير بعد صاحبه على الأرض حيًّا خالدًا. وهذا ما جرى لفقيدنا المرحوم الشمّاس بطرس متّي قاشا الذي ترك مكتبة جليلة فيها أنواع الكتب بكافّة ميادين المعرفة لا سيّما التاريخ والدين والأدب، إضافة إلى ما تركه من كتابات على هيئة قصائد شعريّة وخواطر صبّ فيها آراءه وأفكاره وخبرته ونفح فيها من روحه النقيّ، وهو بذلك حيّ بيننا نراه عبر صفحاتها ونسمعه عبر سطورها ونتحسّس أحاديثه عبر كلماتها، فهو والحالة هذه خالد بين عارفيه. يسكن في قلوب أصدقائه.

– ومن مؤلّفاته:

١ – تاريخ باخديدا على نسق الحوليّات جمعه من بطون المخطوطات التي وصلت إليه، ومن عدد كبير من المصادر والمراجع ومن مشاهداته.

٢ – تاريخ العوائل الخديديّة تضمّن شرحًا وافيًا لكافّة الأسر الخديديّة: أهلها وأنسابها وأعلامها.

٣ – تاريخ دعوى أراضي قَرَهْ قوش، جمعه من الوثائق التي حصل عليها من

المحامين والمسؤولين وما دوّنه هو حينما كان عضوًا في لجنة المتابعة لصدور الدعوى، إذ كان قد عيّنه فيها المطران جرجس دلاّل (+١٩٥١).

٤ – تاريخ أسرة آل قاشا التي ينتسب إليها.

٥ – كتاب المذكّرات واليوميّات الشخصيّة جعله بشكل نُبذ عاشها وسجّلها يومًا بعد يوم منذ عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٨٩.

٦ – فهرس مخطوطات قَرَهْ قوش السريانيّة والعربيّة مع الحواشي والهوامش التي وجدها في بطون هذه المخطوطات، إضافة إلى الكتابات المحفورة على شواهد القبور وأبواب الكنائس وجدرانها.

٧ – كتاب السيرة الذاتيّة.

٨ – ديوان مدح وهجاء (إخوانيّات) بالسريانيّة.

– ترجماته

أمّا الكتب المترجمة، فلشغفه بتاريخ السريان وتراثهم الحيّ إضافة إلى عشقه للغة السريانيّة، انكبّ على ترجمة عيون هذا التراث وخاصّة الكتب التاريخيّة من السريانيّة إلى العربيّة والتي تفرّغ لها. وفرغ منها وهي:

١ – كتاب تاريخ الأمّة السريانيّة لمؤلّفه إبراهيم جبرائيل صومو. أنجزه عام ١٩٦٩

٢ – كتاب تاريخ الزوقنينيّ، الذي نقدّمه هنا في ترجمته هذه. أنجزه عام ١٩٧٠.

٣ – كتاب تاريخ الرهاويّ المجهول. أنجزه عام ١٩٧١.

٤ – تاريخ الزمان لابن العبريّ، أنجزه عام ١٩٧٣.

٥ – التاريخ الكنسيّ لابن العبريّ وقد أنجزه عام ١٩٧٥.

٦ – كتاب الأحاديث المطربة لابن العبريّ، أنجزه عام ١٩٧٧.

٧ – كتاب عن الأدوية والنباتات، أنجزه عام ١٩٧٨.

٨ – جزء من كتاب التاريخ الكنسيّ ليوحنّا الأفسسيّ، أنجزه عام ١٩٧٩.

٩ - كتاب تاريخ ميخائيل السريانيّ الكبير أنجزه عام ١٩٨٠.

١٠ - تاريخ أربيل لمشيحا زخا أنجزه عام ١٩٨٤.

١١ - كتاب في علم الفلك لمؤلّف مجهول، أنجزه عام ١٩٨٦.

١٢ - كتاب إكليل الورود لأدّي شير، أنجزه عام ١٩٨٧.

الأب سهيل قاشا

دير الشرفة

١٠ تشرين الأوّل ١٩٩٧

تمهيد

تاريخ الزوقنينيّ المنحول لديونيسيوس التلمحريّ

الأب سهيل قاشا[1]

قبل دراسة مصادر هذا التاريخ، دراسة كرونولوجيّة تحليليّة، أرى لزامًا عليّ أن أعرّف بهذا التاريخ وأقدّم وصفًا لمخطوطته الأصليّة، ومكان العثور عليها، واختلاف العلماء في تحديد مؤلّفه وشيوع نحله للبطريرك ديونيسيوس التلمحريّ المؤرّخ المشهور.

المخطوطة

جاء هذا التاريخ الكبير، في الأصل، في مخطوطة سريانيّة فريدة محفوظة في الخزانة الفاتيكانيّة تحت الرقم ١٦٢ ، ينقصها سبع ورقات (١–٧) وقد عَثر على هذه الصفحات السبع العلاّمة أوجين تيسّران في المتحف البريطانيّ تحت العدد ١٤٦٦٥.

تضمّ النسخة الفاتيكانيّة ١٧٣ طلحيّة من الرقّ، بقياس ٢٤٠ × ١٥٢ مم. ويلاحظ أنّ بعض هذه الرقوق كان قد استعمل من قبل، ثمّ بوشرت الكتابة الأولى، وعولجت الرقوق مرّة أخرى، ودوّن عليها جزء كبير من هذا التاريخ. وتشمل هذه الرقوق الصفحات (١–٦٥، ٦٧–١٢٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣).

قدّم تيسّران وصفًا لهذه المخطوطة النادرة، عند قيامه بإعداد الكتاب المقدّس، العهد القديم، للنشر في روما عام ١٩١١م. ولكن هناك وصفان آخران لهذه المخطوطة، أقدم عهدًا من وصف تيسّران، جاء الأوّل في الـ Apographa codicis Romae كتبه

---

(١) راجع التفاصيل لدى د. يوسف متّي إسحق، التاريخ الزوقنينيّ المنحول وديونيسيوس التلمحريّ. مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، الهيئة السريانيّة. المجلّد الثامن. ص٦٣–١٣٥ ، بغداد ١٩٨٤.

المستشرق أوتو تولبرغ في أوبسالا عام ١٨٤٨، وكتب الوصف الثاني الأب بول مارتان في باريس حوالي سنة ١٨٦٧.

قرأ تولبرغ الصفحات (٢–٤٣) من المخطوطة قراءة جيّدة، كما يبدو من ملاحظاته المدوّنة على هوامش هذا الجزء من المخطوطة. وتابع الأب مارتان قراءة الصفحات (٤٤–١٥٤). وقد حفظت مسوّدات هذه الصفحات في خزانة المكتبة الوطنيّة في باريس تحت الرقم (Syr. 284-285).

ويرى العلاّمة شابو أنّ الهوامش مكتوبة بقلم الرصاص، وأنّها واضحة كلّ الوضوح، غير أنها لا تخلو من بعض الهنات.

موطن المخطوطة

قدِم السمعانيّ بهذه المخطوطة إلى مدينة روما في حدود سنة ١٧١٧م من برّية الأسقيط. وزعم أنّها كتبت في دير السيّدة العذراء للسريان في مصر. ولكنّ الأرجح أنّ المخطوطة المذكورة كانت من جملة الكتب والمخطوطات النفيسة التي حملها الراهب موسى النصيبينيّ (٩٠٧–٩٤٤م) رئيس دير السريان في مصر. من بلاد الرافدين، في أثناء رحلته من مصر إلى بغداد، التي طالت ستّ سنوات، وانتهت عام **٩٣٢**[1].

ووهم السمعانيّ بسبب قدم الرقوق، وعثوره على النسخة في مصر، أنّ الكتابة الأولى الممسوحة على الرقوق كانت باللغة القبطيّة. إلاّ أنّ العلاّمة ماي (Mai) وتولبرغ ورايت (Wright)، نقضوا ما ذهب إليه السمعانيّ، بعد أن درسوا هذه الرقوق دراسة متأنّية، مثبتين أنّ الكتابة الأصليّة تحت السريانيّة كانت يونانيّة دون شكّ[2].

---

(١) جاء في مخطوطة سريانيّة في خزانة المتحف البريطانيّ تحت الرقم ٥٨٥ ما يلي: في سني ٩٢٠–٩٣٠ حضر القسّ موسى النصّيبينيّ إلى هنا وأخذ من دير مار موسى الحبشيّ بجوار النبك (بليدة في سوريا) بعض المخطوطات السريانيّة ونقلها إلى دير والدة الإله في صعيد مصر. (أنظر المشرق مجلّد ٤٣: ١٩٤٩ ص ٤٤٩) وجاء في المنتخبات السريانيّة تقرير شامل عن هذه الزيارة مع إحصاء لعدد المخطوطات التي حملها الراهب موسى معه إلى مصر (منتخبات سريانيّة ١: ٩٥. ٩٦).

(٢) مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد المجلّد ١٩٨٤/٨ د. يوسف متّي إسحق، التاريخ الزوقنينيّ المنحول لديونيسيوس التلمحريّ، ص ٦٥.

ولعلّ تاريخ الانتهاء من كتابة المخطوطة واسم المؤلّف كانا مدوّنين في مقدّمة المخطوطة وخاتمتها، كما هي الحال في أكثر الكتب السريانيّة، إلاّ أنّهما سقطا، بسبب تلف أصاب المخطوطة في صفحاتها الأولى والأخيرة. وتتوقّف سلسلة الأحداث في المخطوطة عند سنة ١٠٨٦ يونانيّة، الموافقة سنة ١٥٨هـ (٧٧٥م)، ولعلّها سنة وفاة المؤلّف.

ويمكن أن يُستشفّ ممّا بقي من المقدّمة، ومن أسماء الأشخاص الذين أهدى إليهم هذا التاريخ(١)، أنّ المخطوطة نقلت حوالي سنة ١٠٨٧ي. إبّان حكم ليون الرابع الذي ابتدأ حكمه في أيلول عام (٧٧٥م). وذهب الأب شابو إلى أنّ المخطوطة ليست نسخة المؤلّف، بل نقلت عنها في مطلع القرن التاسع للميلاد.

وبالإمكان تقسيم محتويات هذا التاريخ على النحو التالي:

١ - (ص ١-٢) مقدّمة مخرومة، لا يُقرأ منها غير الإهداء.

٢ - (ص ٢-٤٣) يضمّ هذا القسم أحداث الخليقة إلى فترة حكم الأمبراطور قسطنطين. ويعتمد المؤلّف في نقل أخبار هذه الحقبة على مؤلّفات المؤرّخ أوسابيوس القيصريّ، ويوليوس الأفريقيّ، كما يدمج فيه جزءًا من تاريخ مدينة الرها. وكتاب «مغارة الكنوز» وسيرة الإسكندر المقدونيّ المنحولة لكاليسيثنيوس، وقصّة أهل الكهف ومؤلّفات يوسيفوس اليهوديّ.

٣ - (ص ٤٤-٦٤) يمتدّ هذا الجزء من حكم الأمبراطور قسطنطين إلى فترة رئاسة ثاودوسيوس الثاني. وقد اقتفى المؤلّف في ترتيب أحداث هذه الفترة خطى المؤلّف سقراط في تاريخه الكنسيّ، كما استعان بتاريخ مواطنه يوحنّا الأسيويّ.

٤ - (ص ٦٥-٨٦) تناول المؤلّف في هذا القسم الأحداث المريرة التي وقعت في منطقة الرها، وما والاها من الأصقاع، مقتبسًا أخباره من تاريخ يشوع العموديّ. وتضمّ هذه الحقبة أحداث اثنتي عشرة سنة من فترة حكم الأمبراطور أنسطاسيوس أي من سنة ٤٩٥-٥٠٧ م.

٥ - (ص ٦٦) جُدّدت هذه الصفحة في نهاية القرن التاسع على الأرجح، جدّدها راهب يدعى أليشع من دير زوقنين، ويرى الأب شابو أنّ هذا التجديد يعتوره

(١) أهدى المؤلّف تاريخه إلى الخوروفسقوفوس كوركيس الآمديّ ويوثاليوس رئيس دير زوقنين ولعازر البريودوط (الزائر)، والراهب أنسطاسيوس وبقيّة رهبان الدير.

شيء من الخلل والارتباك، ذلك لأنّ ما جاء في نهاية هذه الصفحة لا يتّفق مع بداية الصفحة ٦٧ ، لذا يعسر على الباحث التكهّن بما قد يكون حذفه مجدّد هذه الصفحة، أو أضافه على النصّ الأصليّ.

٦ - (ص ٨٦-١٢١) يتناول الكاتب في هذا الجزء أحداث الحقبة الممتدّة ما بين فترة حكم الأمبراطور زينون وجستنيان. وينقل مجمل أخباره من تاريخ يوحنّا الأسيويّ الجزء الثاني، والرسالة التي أرّخها شمعون الأرشميّ عن الشهداء الحميريّين.

٧ - (ص ١٢١-١٧٣) يضمّ هذا القسم أحداث السنين الممتدّة من حكم الأمبراطور جستنيان إلى نهاية عام ١٠٨٦ ي. الموافقة لسنة ١٥٨هـ (٧٧٥م).

يسوق المؤرّخ روايته من عام ٨٩٨-١٠٢٧ للإسكندر (٥٨٧-٧١٦م)، أي فترة ١٣٠ سنة باختصار شديد، يجعل القارئ يلهث من سرعة تتابع الأحداث، ثمّ لا يلبث أن يطنب في ذكر الشدائد والمحن التي اجتاحت بلاد ما بين النهرين، وقد اتّكأ في روايته لهذه الحقبة على ما وقع له من وثائق وأسانيد مدوّنة اطّلع عليها بنفسه في أمّهات خزائن الكتب المحفوظة في مدينة الرها وملاطية وآمد ودير زوقنين وغيرها. إضافة إلى الروايات التي التقطها من أفواه شيوخه وأحداث وقعت في أيّامه.

وكانت المخطوطة كما يرى الأب شابو حسنة الخطّ، مقروءة على العموم، ولكنّها مليئة بأغلاط لغويّة وتصحيفات في أعلام الرجال والأمكنة ولا سيّما في القسم الرابع منها. ذلك لافتقار الناسخ إلى معرفة دقيقة في علوم اللغة وجغرافيّة بلاد ما بين النهرين، وتاريخ شعوب المنطقة، وقد أحصى محقّق هذه المخطوطة طائفة كبيرة من هذه الأخطاء، وثبّتها في مقدّمة النسخة المحقّقة، ونشرها عام ١٩٢٧-١٩٣٣. وعن هذا التحقيق ترجمنا القسم الثاني من الكتاب، وهو القسم الذي يتناول أخبار الدولة العربيّة منذ مبعث الرسول الكريم وإلى وفاة الخليفة أبي جعفر المنصور.

وجد ناشرو المخطوطة الأوائل مشقّة كبرى في نشر كلّ أجزائها، وذلك لسقوط بعض الألفاظ، وصعوبة قراءة ما اختلط منها مع ألفاظ الكتابة الأولى الممسوحة من الرقّ لإعادة كتابة هذا التاريخ عليه. إضافة إلى تشقّق الرقّ وانكسار بعض أجزائه. وقد التجأ الأب شابو عند تحقيقه لهذه المخطوطة إلى تصويبات العلاّمة تولبرغ ومارتان. واتّكأ كذلك على تواريخ يوحنّا الأسيويّ ويشوع العموديّ، وغيرها من التواريخ السريانيّة المتقدّمة لملء بعض الفراغات الحاصلة في الكتاب.

نقل السمعانيّ جزءًا من المخطوطة إلى اللاتينيّة ونشرها مع الأصل السريانيّ، وأعاد كلازر ترجمتها إلى اللاتينيّة ونشرها عام ١٨٨٤. وفي عام ١٨٩٥ ترجم الأب شابو الجزء الأخير من المخطوطة إلى الفرنسيّة ونشره فور نقله.

المؤلّف

نسب السمعانيّ هذا التاريخ خطأً – وكان أوّل من عثر عليه، وقدّم وصفًا لمحتوياته في مكتبته الشرّقيّة – إلى البطريرك ديونيسيوس التلمحريّ (٨١٨–٨٤٥) المؤرّخ المشهور[١]. واقتفى المستشرق الإنكليزيّ وليم رايت أثر السمعانيّ في كتابه الموسوم «مختصر تاريخ الأدب السريانيّ». وتبنّى الأب شابو رأي السمعانيّ أيضًا، واعتمد تقسيم وليم رايت للكتاب. إلاّ أنّ هذا الرأي عورض بشدّة من قبل العلاّمة ثيودور نولدكه وفرنسوا نو لعدم وقوفهما على دليل ثابت يجيز نسبته إلى ديونيسيوس. ونقّبا عن البديل الأقرب في نظرهما إلى الصحّة، تسنده الأدلّة الداخليّة من نصوص التاريخ الموما إليها، فخرجا بفكرة مفادها أنّ المؤلّف لهذا التاريخ يكون على الأرجح، الراهب يشوع العموديّ، لورود اسمه في تضاعيف المخطوطة، إلاّ أنّ الأب بول مارتان كان قد سبقهما إلى هذا الاستنتاج ولم يفز في حينه بتأييد مطلق من مؤرّخي الأدب السريانيّ.

وكان علماء الاستشراق في هذا النقاش فريقين: فريقًا نحل التاريخ إلى ديونيسيوس التَلْمَحْريّ المؤرّخ، وفريقًا آخر نسبه إلى الراهب يشوع العموديّ. وكان لكلّ طائفة من هؤلاء، آراء وافتراضات مختلفة. فارتأى من نحله إلى التلمحريّ أنّ ديونيسيوس هذا كان من المؤرّخين البارزين في غضون القرن التاسع للميلاد، وأنّه ألّف تاريخًا مطوّلاً عن أحوال العالم باللغة السريانيّة، وعنه نقل الكثير من مؤرّخي السريان في القرون المتأخّرة، كميخائيل السريانيّ (+١١٩٩) وأبي الفرج الملطيّ

(١) ولد ديونيسيوس في بلدة تلّ محرى (بليدة بين الرقّة وحصن مَسْلَمَة على نهر البَليخ) وتتلمذ في دير قنّسرين. وما إن أتت النيران على هذا الدير وتفرّق من كان فيه من الرهبان وطلاّب العلم، حتّى رحل ديونيسيوس عنه، والتحق بدير مار يعقوب الكيسوميّ في مقاطعة سميساط، مكرّسًا حياته للدراسة التاريخيّة. وظلّ مواظبًا على ذلك بكلّ هدوء إلى عام ٨١٨ حيث تمّ انتخابه بطريركًا للكرسيّ الأنطاكيّ. ومات ديونيسيوس في اليوم الثاني والعشرين من شهر آب سنة ٨٤٥ ودفن في قنّسرين (أنظر: ابن العبريّ، التاريخ الكنسيّ ١ :٣٤٧–٣٤٩ ، ٣٥٥–٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ و٣٨١).

المعروف بابن العبريّ (١٢٢٦– ١٢٨٦)، وأنّه كان متداولاً بين المؤرّخين السريان على نطاقٍ واسع إلى أن اغتالته يد الدهر، وفُقد مع ما فُقد من كتب التراث في الفترة المظلمة. وما إن عثر السمعانيّ سنة ١٧١٧ في دير السيّدة العذراء في مصر على مخطوطة سريانيّة كبيرة تضمّ تاريخًا يتناول أحداث العالم منذ الخليقة وإلى أواخر القرن الثامن الميلاديّ، ومرتّبًا على النظام الحوليّ، حتّى أعلن للملأ أنّ هذا التاريخ، وكان خلوًا من اسم المؤرّخ، لِخرمٍ أصاب مقدّمته وخاتمته، هو تاريخ ديونيسيوس التلمحريّ المفقود. وقبل إجراء أيّة دراسة موضوعيّة دقيقة، وعقد مقارنة بين ما جاء في هذا التاريخ من أخبار، وبين ما نقله المؤرّخان ميخائيل السريانيّ، وابن العبريّ في تاريخيهما، أقدم السمعانيّ على نشر مقالة ضافية عن اكتشافه وطرفًا من محتويات هذا الكتاب في المكتبة الشرقيّة[1]. فشاع منذئذ رأي السمعانيّ بين المؤرّخين وعلماء الاستشراق، حتّى إنّ وليم رايت ذهب في كتابه «مختصر تاريخ الأدب السريانيّ» إلى أنّ ديونيسيوس التلمحريّ كان قد ترك وراءه كتابًا في التاريخ جليلَ القدر، في نسختين: الأولى مطوّلة والثاني موجزة، شديدة الإيجاز. أمّا النسخة المطوّلة، فهو التاريخ الذي كثر تداوله بين الكتّاب السريان، وكان قد صدّره بإهداء إلى يوحنّا مطران دارا الذي اقترح عليه تأليفه؛ فضمّ أحداث العالم من الخليقة إلى سنة ٨٣٧م ، مقتفيًا بذلك نهج يوحنّا الأسيويّ في توزيع مؤلّفه إلى أبواب، تشمل فصولاً عدّة. وقد ضاع هذا المؤلّف خلا شذرات عُثر عليها في المخطوطة السريانيّة الفاتيكانيّة تحت رقم ١٦٢ ونُشرت في المجلّد الثاني من المكتبة الشرقيّة. ويرى أنّ النسخة الموجزة أقلّ شيوعًا بين المؤرّخين السريان، من التاريخ المطوّل، وهي التي عثر عليها السمعانيّ. وقدّم من ثمّ وصفًا لمحتوياتها، مشيرًا إلى أنّ أحداث التاريخ الموجز تنتهي عام ٧٧٥ ، بينما تقف أحداث التاريخ المطوّل عند سنة ٨٣٨ م.

أمّا من نحل التاريخ إلى يشوع العموديّ، فقد بنى رأيه على رسالة ضافية جاءت في هذا التاريخ، تقع في سبع صفحات، يقول كاتبها، ويدعى الرَّبّان يشوع العموديّ، أنّه دوّن مذكّراته هذه بناء على اقتراح من رجل يدعى سرجيس كان رئيس دير (تاريخ يشوع العموديّ، المقدّمة) وارتأى هذا الفريق، أنّ خلوّ اسم المؤلّف – يشوع – من الصفحة الأولى هو بسبب تلف أصاب المخطوطة نتيجة تقادم العهد بها،

---

(١) (١: ٢٦٠–٢٨٣).

بينما ظلّ اسمه بذيل الرسالة التي بعث بها إلى سرجيس رئيس الدير. إلاّ أنّ نظرة متأنّية إلى محتوى هذه الرسالة تُثبت خطل ما ذهب إليه هذا الفريق. فيشوع العموديّ مؤرّخ مغمور، لا يُعرف عن مراحل حياته ونشاطاته الكتابيّة أكثر من أنّه كان نزيل دير زوقنين، و«أنّه أقام فترة في الرها في مطلع القرن السادس، وأنّه كان يدرِّس في مدرستها، ثمّ كان خازنًا للدير»[١]، وأنّ الرسالة المشار إليها ما هي إلاّ مقدّمة كتيّب، ألّفه «يشوع العموديّ» عن المحن التي أصابت الرها وآمد وبلاد ما بين النهرين. فجاء مؤلّف التاريخ المنحول ديونيسيوس التلمحريّ، وضمّ كتيّب العموديّ إلى تاريخه، ليغطّي به أخبار أحداث اثنتي عشرة سنة من حكم الأمبراطور أنسطاسيوس، تمامًا كما ضمّ طرفًا كبيرًا من تاريخ يوحنّا الأسيويّ، ورسالة شمعون الأرشميّ في الشهداء الحميريّين، ومنشور الأمبراطور زينون وقصّة أهل الكهف[٢]. ويتبيّن من مقابلة الإهداء الوارد في التاريخين أنّهما يختلفان في هذا أيضًا، اختلافًا واضحًا.

إنّ التاريخ المنحول لديونيسيوس، يضمّ أحداث العالم من بدء الخليقة إلى سنة ٧٧٥م. بينما يتناول تاريخ يشوع العموديّ، أخبار فترة وجيزة تمتدّ بين عام ٤٩٤–٥٠٦ م، كرّس معظمها للأحداث العصيبة التي مرّت بها مدينة الرها وآمد وغيرها من بلاد ما بين النهرين. وكما لا يمكن نحل هذا التاريخ إلى شمعون الأرشميّ أو يوحنّا الأسيويّ، لمجرّد ورود اسميهما في مقدّمة النصوص التي اقتبسها المؤلّف عنهما، كذلك لا يجوز نحل هذا التاريخ ليشوع العموديّ لمجيء اسمه في ذيل رسالة ألحقت بكتيّب كان ألّفه الراهب المومأ إليه، في فترة سبقت وضع هذا الكتاب، وبالتالي هي أحد مصادره.

أمّا الإهداء، فقد جاء في ما بقي من المقدّمة المخرومة للتاريخ المنحول لديونيسيوس، ويبدو أنّه أهدي إلى الخورفسقوفس كوركيس الآمديّ، ويوثاليوس رئيس دير زوقنين، ولعازر البريودوط، والراهب أنسطاسيوس وبقيّة رهبان الدير. بينما جاءت الرسالة التي هي جزء من تاريخ يشوع العموديّ، معنونة إلى سرجيس رئيس الدير. والفرق كما لا يخفى واضح بين رئيس الدير يوثاليوس، ورئيس الدير سرجيس.

بقي أن نقول بعد أن رأينا عدم صحّة نسب التاريخ إلى يشوع العموديّ، أنّه من الخطأ نحله لديونيسيوس التلمحريّ أيضًا لعدّة أسباب:

---

(١) كامل والبكريّ. تاريخ الأدب السريانيّ ص ١٧٦.

(٢) أنظر ص ٢٢٣–٢٣٠ وص ١٩٥–٢٠٦ من النصّ السريانيّ.

١ - لاختلاف التاريخين في المحتوى والترتيب: لقد بقي من تاريخ ديونيسيوس شذرات كما مرّ معنا، ونُشرت في المكتبة الشرقيّة (٢: ٧٢-٧٧). واقتبس المؤرّخ ميخائيل السريانيّ طرفًا كبيرًا منها، وأدمجه في تاريخه المطوّل، منوّهًا بهذا الاقتباس. كما نقل مقدّمة تاريخ ديونيسيوس برمّتها ليشير بها إلى المراجع التي اعتمدها في تاريخه. مقدّمًا وصفًا شاملاً لهذا التاريخ بقوله: ديونيسيوس البطريرك الملقّب بالتلمحريّ، ختم تاريخه هنا. ويريد بها سنة ٨٤٣ م. وإنّ تاريخه يقع في مجلّدين كبيرين، ألّفه تلبية لرغبة إيوانّيس مطران دارا. ويضمّ أحداث ٢٦٠ سنة أي من سنة ٨٩٤-١١٥٤ يونانيّة. وهي السنة التي توفّي فيها الأمبراطور ثاوفيلوس، وأبو إسحق العبّاسيّ ملك العرب، وهي السنة التي بويع فيها لهرون بن أبي إسحاق بالخلافة على المسلمين، واختير فيها أمبرطورًا للرومان، ميخائيل الفتى الذي ساست له أمّه شؤون مملكته[1].

إذن، يختلف تاريخ ديونيسيوس كما يصفه المؤرّخ السريانيّ ميخائيل (+١١٩٩ م) في فحواه، وترتيب موادّه عن التاريخ موضوع الدراسة، فيبتدئ تاريخ ديونيسيوس بسنة ٨٩٤ يونانيّة/٥٨٣ م وينتهي سنة ١١٥٤ ي/٨٤٣ م ، ويقع في مجلّدين، كلّ مجلّد موزّع على ثماني مقالات وكلّ مقالة مقسومة فصولاً. بينما يبتدئ الكتاب المنحول إلى ديونيسيوس بخبر الخليقة. وينتهي بأحداث عام ١٠٨٦ ي/٧٧٥ م. ومع أنّ الكتاب يقع في مجلّدين كمؤلّف ديونيسيوس، إلاّ أنّه ليس موزّعًا على أبواب وفصول بل يتّخذ الطريقة الحوليّة أساسًا لأخباره، فيفصّل في بعض العناوين، غير أنّه لا يتقيّد بأيّ نظام في ترتيب رواياته، فيشبه بذلك كتب المذكّرات.

٢ - لاختلاف في الأساليب الإنشائيّة والبيانيّة: يُعتبر ديونيسيوس التلمحريّ من بلغاء الكتّاب السريان في القرن التاسع (اللؤلؤ المنثور ص ٤٠٠). وتقوم الشذرات المتبقّية من تاريخه، والفصول المنقولة إلى تاريخ ميخائيل السريانيّ، وابن العبريّ، خير دليل على صحّة هذا الرأي. بينما يميل أسلوب مؤلّف التاريخ موضوع الدرس إلى البساطة والإطناب والبعد عن أنماط الكتّاب البلغاء في القرن الثامن للميلاد[2]. وفي الوقت الذي يخلو إنشاء التلمحريّ من الدخيل والأعجميّ، من الألفاظ، نرى أنّ

---

(١) ميخائيل السريانيّ، التاريخ العامّ، ص ٥٥٤.

(٢) اللؤلؤ المنثور، ص٣٢١.

مؤلّف التاريخ المنحول إلى ديونيسيوس لا يتورّع عن استعمال الدخيل والغريب مع وجود ألفاظ تقابلها في اللغة السريانيّة[١].

٣ - لعدم تخرّج التلمحريّ في دير زوقنين: من دراستنا لسيرة حياة البطريرك ديونيسيوس التلمحريّ، لاحظنا أنّه ولد في بلدة تلّ محرى، وترهّب في دير قنّسرين، وصرف طرفًا من حياته في دير مار يعقوب الكَيْشُوميّ في مقاطعة سميساط، إلى أن نُصّب بطريركًا في مدينة الرقّة عام ٨١٨. ويبدو من الدراسة الدقيقة للأحداث التي يشير إليها مؤلّف التاريخ المنحول إلى ديونيسيوس، أنّ مؤلّفه كان أحد رهبان دير زوقنين القريب من مدينة آمد (ديار بكر)[٢]. ويقول المؤلّف في مقدمته أنّه أقدم على تأليف تاريخه بطلب من كوركيس خورفسقوفس مدينة آمد، وأوثيليوس رئيس دير زوقنين إلخ... ويولي منطقة ديار بكر أهمّيّة خاصّة، فيعدّد المحن التي أصابتها، ويشير إلى الأمراء وعمّال الخراج والصيارفة والكتّاب اللذين أقاموا في المدينة أو في جوارها، منوّهًا بالعسف والظلم اللذين لحقا سكّان المنطقة من جرّاء جمع الخراج والجزية. كما يكثر من الحديث عن دير زوقنين، ذاكرًا ما كان له من فضل بين أديار السريان، مشيرًا إلى رؤسائه، وفواضل رهبانه، ومن نال منهم رتبة الأسقفيّة[٣]. وخلاصة القول: لا يمكن أن يكون هذا التاريخ، كما وهم السمعانيّ ووليم رايت ومن ذهب مذهبهما، من تأليف التلمحريّ. كما لا يجوز إسناده إلى يشوع العموديّ على حدّ زعم ثيودور نولدكه وفرنسوا نو والأب مارتان. فهو تاريخ مستقلّ في أحداثه وأساليبه وتركيبه ومنهجه. وهو على الأرجح من تأليف راهب من رهبان دير زوقنين، كان موجودًا في غضون سنة ٧٢٠-٧٧٦، وأمضى جلّ حياته في بلاد ما بين النهرين، وبخاصّة منطقة آمد وما والاها حيث قام الدير المذكور[٤]. ويبدو أنّه كان كثير التجوّل، شأنّه بذلك شأن قدماء الرهبان السريان. فطاف في أطراف الجزيرة الفراتيّة حيث انتشرت الأديرة، واتّصل بشيوخها ورؤسائها، وأفضل

(١) أنظر النصّ السريانيّ ص ١٥٠ ، ١٥٢ ،١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧).

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٦-٢٧٠ ، و ٢٨٦-٢٩٠.

(٤) اللؤلؤ المنثور، ص ٣٢١.

ورؤسائها، وأفاضل علمائها، وتزوّد بالكثير من أخبار المنطقة. كما جال في أرمينية الداخليّة، وأحاط بمعرفة أقسامها ومواردها، وتقسيماتها الإداريّة. ويبدو أنّ جلّ أخباره في القسم الرابع من هذا المؤلّف، استقاه من أفواه الشيوخ الذين صادفهم في تلك الأصقاع. فأفاد من علمهم، وأغنى بذلك تاريخه غاية الإغناء. فجاء فريدًا في الكثير من رواياته وأحداثه[١].

أسلوبه ومنهجه

تأثّر الزوقنينيّ كما يبدو من مراجعه المثبتة في مقدّمة تاريخه بأنماط الحوليّات البيزنطيّة. وبخاصّة تلك التي أولت النواحي الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة اهتمامًا كبيرًا. فاقتبس أجزاءً غير قليلة منها لتغطية أحداث تاريخيّة، فتراه يمزج بين التاريخ المدنيّ والدينيّ كما يرد في الكتاب المقدّس، وبين ما جاء في هذه الحوليّات. فتبتدئ أخباره بقصّة الخليقة مرورًا بالآباء الأوّلين وملوك بابل واليونان وأباطرة الروم إلى عصره[٢]، مقتفيًا أثر مدوّني الحوليّات؛ وبخاصّة أوسابيوس القيصريّ[٣] وسقراط[٤] في التواريخ الكنسيّة، والتواريخ العامّة، وليس هذا وحسب، بل تجده يتقيّد بالتقويم اليونانيّ تقييدًا لا يخرج عنه إلاّ نادرًا[٥].

وبتأثير النمط الحوليّ البيزنطيّ، يربط الزوقنينيّ أحداثه بسلاسل اعتباطيّة منذ الخليقة وإلى أيّامه دون الالتفات إلى نظام العلّة والمعلول. فينتقل من الأحداث الدينيّة إلى الأحداث المدنيّة، ومن فترة الآباء إلى فترة ملوك الكلدان واليونان وإلى الفتوحات العربيّة[٦].

ويغلب هذا النمط على تاريخ الزوقنينيّ أيضًا، في تسلّط الجوانب العاطفيّة وبروز الميول القوميّة والطائفيّة والتركيز على الخوارق والآيات وذكر الشخصيّات التي تمتاز

---

(١) النصّ المترجم، ص ٤.

(٢) النصّ السريانيّ، ص ٢، ٥٧-٩١، ٩٧، ٢٢٣-٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٥) أشار مرّة واحدة إلى التقويم الهجريّ - النصّ السريانيّ، ص ١٤٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤٦-١٤٨.

بمواهب وطاقات معجزيّة، واعتبار الحوليّات القديمة وثائق لا يرقى إليها الشكّ، فيعتمدها بثقة متناهية. فجاء هذا التسليم المسبّق بصحّة روايات مصادره سببًا في الجمع بين غثّ الأخبار وسمينها[١]. أمّا منهجه في انتقاء أحداث عصره، فقد بناه على المشاهدة الشخصيّة اليوميّة، وعلى ما أخذه من شيوخه ورهبان ديره والأديار الأخرى المنتشرة في بلاد ما بين النهرين، أو من عاصره من المؤرّخين السريان[٢]. أمّا في ما يختصّ بالأساليب الإنشائيّة وفنون الأدب، فالزوقنينيّ لا يخرج عن الأساليب والأشكال الجافّة المعقّدة، وعن الإسهاب الذي اتّسمت به معظم الحوليّات القديمة والمتأخّرة، إلاّ أنّ هناك ميزة خاصّة غلبت على أسلوب المؤرّخ، وطبعتْه بطابع فريد، ألا وهي محاولته تطبيق النبوّات الواردة في الكتاب المقدّس على الأحداث اليوميّة[٣]. ولعلّ عمله هذا نابع في الأساس من نظرته الشاملة إلى التاريخ. فالتاريخ عنده: «ميدان عمل الله ونشاطه، وإنّ كلّ ما يصيب الناس من خير وشرّ، من عسر ويسر، لا يخرج من دائرة معرفته وسماه. إن شاء أذوى الحقول بالبرد، وإن شاء أينع في حمّارة القيظ»[٤].

وللتاريخ عنده غرضان: أوّلهما التذكرة «رغبنا في الحديث عن هذه الأمور بالتفصيل، وترك وراءنا تذكرة لمنْ يخلفنا»[٥]. وهذا الغرض محدود إلى أقصى الحدود؛ وثانيهما، لاستخراج العبرة الصالحة والموعظة الحسنة – هو غرض أكثر شمولاً وأوسع تطبيقًا – فيعتبر الناس «الضربات التي نزلت بالأجيال الأولى، فيحيدوا عن الإثم لئلاّ يصيبهم ما أصاب القدماء من شديد العقاب»[٦]. ويرى المؤلّف بناء على ما مرّ «أنّ الضيقات والأوبئة والحروب، إن هي إلاّ عصًا بيد الله يرفعها على خلقه لردع الآثم عن إثمه، وإيقاف الشرّ عند أوّل حدوده»[٧]. و«الناس رهينة بيد السلطان، إن صلح صلحوا، وإن ساء ساؤوا». وينطبق هذا عنده حتّى على أمور الكنيسة وأحوالها[٨].

---

(١) النصّ، ص ١٣٥–١٤٣، قصّة أهل الكهف.

(٢) النصّ، ص ٤٦–٤٧.

(٣) النصّ، ص ١٤٦، ١٤٧، ١٧٨–١٧٩، ....

(٤) النصّ، ص ٢٠٥.

(٥) النصّ، ص ٢٨٣.

(٦) النصّ، ص ١٤٧.

(٧) النصّ، ص ١٤٦، ١٤٧، ١٥٤، ١٥٥.

(٨) النصّ، ص ٢٢٣–٢٤٣.

ولا تخرج التواريخ السريانيّة عن مثل هذين الفرضين، ولاسيّما في العصور المتأخّرة. فقد ذهب ابن العبريّ هذا المذهب أيضًا في مقدّمة تاريخه الموسوم «مختصر تاريخ الدول» حيث قال: «قصدت في اختصاره على ما أوتي في ذكره اقتصاص إحدى فائدتي الترغيب والترهيب من أمور الحكّام والحكماء، خيرها وشرّها»(١). كما لا يبتعد عن الأغراض التي سعى إليها المؤرّخون العرب ولاسيّما الطبريّ، الذي يتحدّث في مقدّمة تاريخه عن الغرض الذي دعاه لتأليف تاريخه بقوله: «هو الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته، العبرة بتلك الأحوال والتنصّح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلّبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضارّ، ويستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم، كما قيل، عمر آخر للناظرين، والانتفاع في مصدره بمنافع تحصل للمسافرين»(٢).

مصادره التاريخيّة

اعتمد المؤرّخ الزوقنينيّ، مؤلّف «التاريخ المنحول لديونيسيوس التلمحريّ» طائفة من المصادر السريانيّة واليونانيّة إلى جانب الروايات الشفويّة التي أخذها من أفواه شيوخه في شتّى الأديرة والمناسك في بلاد ما بين النهرين، كما نوّهنا سابقًا. وفي ما يشبه التوطئة للقسم الرابع من مؤلّفه الكبير، نوّه الزوقنينيّ ببعض مصادره، وأغفل بعضها الآخر. وليس غريبًا على مؤرّخي السريان إغفال الإشارة إلى بعض مصادر مؤلّفاتهم. فقد طالما نقل الكثيرون منهم مؤلّفات تاريخيّة برمّتها، دون إيماء إلى كافّة المصادر التي نقلوا عنها(٣). وسأتولّى في معرض حديثي هذا دراسة مصادر الزوقنينيّ، دراسةً كرونولوجيّة لتقدير قيمتها التاريخيّة والحضاريّة.

وزّع المؤرّخ تاريخه على أربع حقب زمنيّة، وأتى في مصدر كلّ حقبة من تلك الحقب الأربع على ذكر بعض المؤلّفات والوثائق التي استقى منها بعض معلوماته، مشيدًا بفضل مؤلّفيها. ولن أحاول في هذه الدراسة ترتيب مصادر الكتاب بطريقة تختلف عن الطريقة التي وردت بها في صدر القسم الرابع من الكتاب، إلاّ أنّني أضيف إلى قائمة تلك المصادر ما فات المؤلّف أو أغفله عمدًا.

---

(١) النصّ، ص ٢ ؛ مختصر الدول.

(٢) الطبريّ. المقدّمة.

(٣) ابن العبريّ، تاريخ الأزمنة. ص ١٦ ؛ ميخائيل السريانيّ. التاريخ العامّ، ص ٣٨٧.

مصادر الحقبة الأولى

تضمّ الحقبة الأولى من تاريخ الزوقنينيّ أخبار الخليقة، وتمتدّ إلى مولد إبراهيم الخليل، وتاريخ بني إسرائيل، حتّى في فترة حكم الأمبراطور قسطنطين الكبير (+٣٣٧). ولم يذكر المؤرّخ من مصادر هذه الحقبة الطويلة إلاّ مؤلّفات المؤرّخ اليونانيّ المشهور أوسابيوس القيصريّ. غير أنّ الدراسة المتأنّية للأخبار الواردة في هذه الحقبة الزمنيّة تحتّم على الكاتب اعتماد طائفة كبيرة من الكتب التاريخيّة، والوثائق الرسميّة، والمؤلّفات الدينيّة التي تناولت تلك الأحداث. فأرجّح، والحالة هذه، أنّ المؤلّف اقتبس الكثير ممّا ورد في تاريخ يوليوس الأفريقيّ، ومؤلّفات يوسيفوس اليهوديّ، وتاريخ مدينة الرها، وكتاب مغارة الكنوز، وطرفًا من قصّة أهل الكهف. وسيرة الإسكندر المقدونيّ، إضافة إلى الترجمة السريانيّة للكتاب المقدّس المعروفة «بالترجمة البسيطة»[١].

مصادر الحقبة الثانية

تضمّ هذه الحقبة أخبار الأحداث الممتدّة ما بين فترة حكم الأمبراطور قسطنطين الأوّل، وثيودوسيوس الثاني (٤٠٨–٤٥٠)[٢].

مصادر الحقبة الثالثة

تشتمل الحقبة الثالثة على أخبار الفترة الواقعة بين حكم الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني، ويوسطنيان الثاني (٦٦٩–٧١١ م)[٣].

مصادر الحقبة الرابعة

تتّسع هذه الحقبة لأحداث قرن من الزمان، أي من عام ٦٧٤–٧٧٥ م. ويقول المؤرّخ في معرض حديثه عن هذا القسم من تاريخه إنّه لم يقف على مصادر مكتوبة، ووثائق تتحدّث بالتفصيل عن هذه الفترة، فاعتمد روايات شيوخ أجلاّء من مختلف الأديرة التي أمّها لجمع موادّ تاريخه[٤]. ولعلّ وقوعه في بعض الأخطاء الزمنيّة وبخاصّة في الفترة العربيّة، متأتٍّ من اختلاف هذه الروايات. ولكن مع كلّ هذا يبقى تاريخ الزوقنينيّ من أهمّ المصادر لدراسة تاريخ بلاد الرافدين، وبخاصّة صدر

---

(١) للتفصيل في تحليل المصادر. أنظر مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، مج ١٩٨٤/٨ . ص ٨٠–٩٧.

(٢) للتفصيل، راجع المصدر السابق ص ٩٨–١٠١.

(٣) للتفصيل، راجع المصدر السابق ص ١٠٢–١١٣.

(٤) أنظر النصّ المترجم، ص ٤.

الدولة العبّاسيّة، إذ يقدّم الكثير من المعلومات عن الحالة الاقتصاديّة والفوضى وعدم الاستقرار في مناطق الحدود العربيّة البيزنطيّة، كما يقدّم عرضًا لنظام الخراج والجزية، وما رافق هذا النظام من اختلاط وتعسّف في بعض المناطق النائية.

أهمّيّة هذا التاريخ

يعدّ هذا التاريخ من أهمّ التواريخ المحلّيّة التي تناولت تاريخ الجزيرة وبلاد ما بين النهرين العليا، في فترة كانت «من أشدّ فترات التاريخ الإسلاميّ فعّاليّة سياسيًّا ونشاطًا فكريًّا»[1]. فقد أفرد المؤلّف طرفًا كبيرًا من تاريخه لتسجيل ردود الفعل السياسيّة لسكّان البلاد ضدّ السلطة العبّاسيّة، التي أخذت تمدّ نفوذها إلى أطراف البلاد، كما أشار إلى إنكارهم الشديد للمركزيّة الإداريّة والضغط الذي كان يمارسه الوالي العبّاسيّ.

ويفصّل كذلك في شرح الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي أدّت في النهاية إلى ظهور الكثير من مدّعي النبوّة وقطّاع الطرق والخوارج، إضافة إلى تقديمه معلومات اقتصاديّة واجتماعيّة وماليّة، تتضمّن إشارات وفيرة إلى نوعيّة الأراضي والممتلكات في المدن والقرى، وتوضح العلاقة بين سكّان المدينة والقرية والريف، والتصادم الشديد الذي كان ينشب بين طبقات المجتمع ذات المستويات الاقتصاديّة والاجتماعيّة المختلفة. ويتحدّث بشكل خاصّ عن الطبقة دون المتوسّطة وعن الفلاّحين والزرّاع، بحيث لا يضاهيه في هذه الأخبار أحد من مؤرّخي عصره، وذلك لارتباطه المذهبيّ والقوميّ بجماعة «ذوي الطبيعة الواحدة» (السريان). وكانت هذه الفئة تؤلّف أكبر شريحة من مجتمع بلاد ما بين النهرين في القرنين السابع والثامن، ولا ترتبط بأيّ طبقة أرستقراطيّة أو سلطة حكوميّة.

ولا يقلّ تاريخ الزوقنينيّ أهمّيّة عن تاريخ الموصل لأبي زكريّا الأزديّ، من حيث كونه تاريخًا محلّيًّا، لأنّ كليهما «يشملان بحثًا للحالة السياسيّة لمنطقة الجزيرة، وكذلك الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة. ويتّفق كلاهما في موقفه العدائيّ تجاه السلطة العبّاسيّة المركزيّة». ومع أنّ الزوقنينيّ يفصّل في معلوماته الاقتصاديّة، والأزديّ بمعلوماته السياسيّة، إلاّ أنّهما يتّفقان في أنّ كثرة الضرائب وعنف أسلوب الجباية هي التي

---

(١) فوزي، طبيعة الدعوة العبّاسيّة، ص ٤٢.

أجبرت الفلاّحين على الهجرة، وبالتالي أدّت إلى تدهور الحالة الاقتصاديّة في بلاد ما بين النهرين[١].

وتنحصر أهمّيّة كتاب الزوقنينيّ إضافة إلى ما مرّ، في تفرّده بمجموعة من أخبار لا ترد في المطوّلات التاريخيّة، لعدم تنبّه المؤرّخين الرسميّين إليها من جهة، ولوقوعها في منطقة الثغور الداخليّة، حيث عاش المؤرّخ، من الجهة الأخرى. كما جمع طائفة من أخبار متفرّقة، ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالكنيسة المسيحيّة الشرّقيّة، وبخاصّة السريانيّة، ومدى علاقة هذه الكنيسة بالدولة العبّاسيّة. الأمر الذي يهيّئ فرشًا تاريخيًّا للمؤرّخ المعاصر الذي لا يستطيع أن يقف على ما يضارعها من التواريخ المماثلة. وفيما يلي تفصيل هذه الأهمّيّة:

١) ردود الفعل السياسيّة ضد المركزيّة العبّاسيّة، والضغط الذي كان يمارسه الوالي:

بدأ ردّ الفعل السياسيّ عندما أخذت طلائع الجيوش العبّاسيّة تغزو سورية. «ففي سنة ٧٤٩ دخل الفرس[٢] أرض سورية، وأخضعوا العرب[٣]، وحكموا البلاد عوضًا عنهم». وتطوّر ردّ الفعل عند السكّان إلى حمل السلاح: «فنازلهم العرب لصدّهم[٤]». ويذهب المؤرّخ إلى أنّ حركة المقاومة في بلاد ما بين النهرين أثمرت بعد سنة من اقتحام القوّات الفارسيّة لبلادهم، إذ ثاروا على شكل جماعات كبيرة، واقتحموا معاقل العبّاسيّين، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وطردوهم من بلادهم[٥]. ويربط المؤلّف ردّ الفعل هذا بما ارتكبته القوّات الفارسيّة من الظلم والتعسّف، وما فرضته من مركزيّة متصلّبة، ويقول: «كان أوّل عامل للفرس على الجزيرة عليّ... ففرض على الناس ارتداء السواد[٦]». ويضيف إلى هذه الأسباب سببًا آخر هو: «إنّ الفرس أنزلوا بهم (سكّان الجزيرة) مساوئ شتّى دون رحمة إذ كانوا يذبحونهم كالخراف، وينهبون أموالهم[٧]».

(١) فوزي، طبيعة الدعوة العبّاسيّة، ص ٤٤ ؛ والجزيرة الفراتيّة، ص ٢٠.
(٢) يريد بالفرس القوّات العبّاسيّة. أنظر النصّ السريانيّ ص ٢٠٧ .
(٣) يريد بالعرب أعوان بني أميّة. أنظر النصّ السريانيّ ص ٣٨٢ ،
(٤) النصّ، ص ١٩٣.
(٥) النصّ، ص ١٩٦.
(٦) النصّ، ص ١٩٥.
(٧) النصّ، ص ١٩٦.

وأخذت عمليّة النقض هذه شكل ثورات وفتن متفرّقة، انتشرت في طول البلاد وعرضها. ففي هذه الفترة المبكّرة، نقض بريكة، وخرج بالحروريّة مع رهط من أعوانه، فأرهق بذلك السلطة وأربك أعمالها إرباكًا شديدًا، كما فتن عرب مدينة ميافارقين في حوالي سنة ٧٥١ م، وأودوا بحياة الكثيرين من السكّان جيرانهم، الأمر الذي دعا السلطة العبّاسيّة للنظر في أمر تبديل واليها وعمّالها، وعقد تسوية عاجلة مع سكان جبل عطشان، ومنحهم نوعًا من الحكم الذاتيّ. وفي إقليم سيس «أجمعت آراء العرب والسريان على محاربة الوالي – الذي عسف الناس واستباح دماءهم، ونهب أموالهم – وإقصائه عن حصن قولب الذي كان جعله مركزًا لغزواته وطغيانه في تلك النواحي[١]». وبلغ ردّ الفعل أشدّه عندما هاجم الوالي طائفة من قرى المنطقة وسبى الكثير من أبنائها. فثار في وجهه رجل من طورعبدين يدعى يوحنّا، نظّم جيشًا وهاجمه وقضى عليه وعلى أعوانه. ولم تقف المعارضة عند هذه الحدود، بل تطوّرت إلى حدّ إيقاف العمليّات العسكريّة، وإغلاق المنافذ الجبليّة في وجه القوّات العبّاسيّة المتقدّمة في تلك الأقاليم. والقضاء على بعض أمراء الحملات[٢]. وثار في الوقت نفسه خارجيّ آخر يدعى عبيد الله البختريّ في منطقة الرها، وأخذ يضرب مصالح السلطة العبّاسيّة، ويرهق جيوشها في مناطق وعرة، إلى أن قضي عليه[٣].

٢) الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في بلاد ما بين النهرين.

كانت بلاد ما بين النهرين كما يُفهم من تاريخ الزوقنينيّ بلادًا زراعيّة بالدرجة الأولى. ويقول في وصفها: «كانت هذه البلاد بهيّة المنظر بكثرة سكّانها، كثيفة بالكروم والزروع وبشتّى أنواع الشجر...[٤]». وكانت إلى جانب الزراعة، تضيق – على رحبها – بالماشية. وكان الفقراء وحتّى المعدمون منهم، يملكون أفدنةً وحميرًا وماعزًا، ولم تكن ترى أرضًا غير مزروعة البتّة، لأنّ الفلاّحين لم يدعوا بقعة استطاعوا بلوغها، إلاّ ونقبوا فيها كرمًا، أو نصبوا بستانًا. ويذهب المؤرّخ إلى أنّ وفرة

(١) النصّ، ص ١٩٧.
(٢) النصّ، ص ١٩٨.
(٣) النصّ، ص ٢٠٠.
(٤) النصّ، ص ١٥٧، ٢٣٠.

الزراعة وتقارب تخوم البساتين والحقول الواسعة، صارت سببًا في احتدام المنازعات الكثيرة بين الفلاّحين، وأدّت في أغلب الأحيان إلى المقاضاة، وربّما إلى سفك الكثير من الدماء. كما قادت المهاترات والفتن بين العمّال والمسؤولين عن جباية الخراج والعشور والصدقات، وبالتالي أدّت إلى اعتزال طائفة منهم لمناصبهم[١].

ويتطرّق المؤرّخ في معرض حديثه عن طبقات المجتمع في بلاد ما بين النهرين، ويقول: كان هناك أربع طبقات: المعدمون، ويشكّلون شريحة كبيرة من المجتمع، ويمكن أن يطلق عليهم «طبقة العمّال المزارعين»؛ الفلاّحون، وهم الطبقة التي تأتي فوق الطبقة الأولى؛ ثمّ الطبقة المتوسّطة، وهي الطبقة التي أولاها المؤرّخ اهتمامًا كبيرًا لأنّه ينتمي إليها[٢]؛ وطبقة الأثرياء، أو ما يمكن تسميتها «بالطبقة الأرستقراطيّة»، وكانت تمثّل رؤساء البلاد والموسرين وبقيّة موظفي الدولة[٣].

وكانت طبقة عمّال الزراعة تقوم بخدمة الفلاّحين الكبار ممّن يمتلكون الحقول الواسعة والكروم والبساتين. فيحرثون حقولهم، ويعزقون بساتينهم، وينقبون كرومهم. ثمّ يقومون بجمع المحاصيل الزراعيّة في شتّى فصول السنة. ولا يجنون من تعبهم هذا أكثر من سدّ رمقهم[٤]. وكانوا يقومون كذلك بزراعة حقول الصيارفة والقضاة وأصحاب الحوانيت، ممّن كانوا يمتلكون أراضيَ زراعيّة في الريف[٥].

ولمّا كان المجتمع يتألّف من هذه الفئات المختلفة، كان لا بدّ من قيام صراع طبقيّ بين هذه الشرائح المتناقضة المصالح. ويذهب المؤرّخ إلى أنّ الصراع كان على صعيدين: الأوّل، بين الفلاّحين ممّن يمتلك أرضًا؛ وبين العمّال المزارعين، الذين انتشروا في الريف انتشارًا واسعًا، وقاموا بمختلف أنواع الزراعة إن كان للمالكين الكبار (الإقطاعيّين) أو للفلاّحين الصغار عندما تشتدّ بهم الحاجة لطلب المزيد من الأيدي العاملة في الحراثة وفي جني المحاصيل الوفيرة[٦]. أمّا الثاني فقد احتدم بين

---

(١) النصّ، ص ٢٤٣.

(٢) فوزي، طبيعة الدعوة العبّاسيّة، ص ٤٢.

(٣) النصّ، ص ٣٣٠.

(٤) النصّ، ص ٣١٧.

(٥) النصّ، ص ٣١٣، ٣٣٠، ٣٣١.

(٦) النصّ، ص ٢١٧.

الفلاّحين ككلّ، وبين الإقطاعيّين والمرابين والصيارفة من سكّان المدن المجاورة للريف. وبلغت حدّة هذا الصراع عندما شدّدت الدولة في تحصيل ضرائب الخراج والجزية والأعشار بشكل عشوائيّ. فهرع الفلاّحون إلى المرابين والصيارفة والإقطاعيّين للحصول على المال اللازم لذلك، عن طريق الربا أو رهن أجزاء من حقولهم أو كرومهم. وفي فترة قصيرة استطاع المرابون والإقطاعيّون والصيارفة إخراج الفلاّحين من مزارعهم وممتلكاتهم، التي كانت المورد الوحيد الذي يعتاشون عليه[1]. وفي غمرة اليأس، ثار الفلاّحون من الفئتين على إقطاعيّي المدن وأصحاب الأموال، واستولوا على كلّ ما اختلسوه من حقول وكروم وبيوت وموارد. ولم يستطع أحد أن يقف في وجه هذه القوّة الساحقة، لأنّها كانت تؤلّف أكبر طبقة في مجتمع بلاد ما بين النهرين من جهة، ولكونها كانت تموّل الدولة عن طريق دفع الخراج والجزية بصورة مستمرّة من الجهة الأخرى[2].

٣) الإجراءات التي اتّخذتها الدولة في البلاد:

يتحدّث المؤرّخ عن تولّي موسى بن مصعب قضاء الموصل عام ٧٦٩ م، ويصفه بقوله: إنّه كان شرّيرًا باغيًا، لم يقم والٍ آخر بمثل قسوته... فضايق الناس ضيقًا شديدًا، لم يُرَ مثله منذ خلق العالم[3]. ويطلِق على موسى لقب «أنتي خريستوس» أي ضدّ المسيح، ويعني به إبليس. ويسمّي بطانة الوالي من عمّال وقضاة وصيارفة «رسل الشيطان». ويقول إنّ الوالي العاتي لا يجمع حوله إلاّ بطانة باغية. وكان موسى يبعث ببطانته إلى المدن والقرى والأرياف لجمع الخراج والجزية وأموال العشور والصدقات والصَوافي. فيدخل القرية الواحدة بضعة من هؤلاء، ولغايات مختلفة، فيعسفون الناس ويجبرونهم على دفع الضرائب مقدّمًا[4]. وكانوا يحصون عدد الأسواق في المدن، وأماكن البيع والشراء في الساحات، ويستصفون الحوانيت والأرحية غير المسجّلة في قوائم الخراج والصوافي القديمة، ويضمّونها إلى أملاك

(١) النصّ، ص ٣٢٥.

(٢) النصّ، ص ٣١٣، ٣٣٠، ٣٣١.

(٣) النصّ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

(٤) النصّ، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

الدولة[١]. وقاسوا الأسواق بالحبال وابتدأوا من أسوار المدينة وبوّاباتها. وحصروها شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، مسافة أربعين ذراعًا. وأحصى عمّال موسى الحوانيت، وسجّلوا ما وجدوا فيها من بضائع وحاجيّات، وأخذوا على كلّ ما قيمته مئة دينار، خمسة دنانير، وفي بعض الحالات عشرة[٢]. وبلغ العسف بهؤلاء الجباة أن جبوا الناس على نبات كان يسمّى الفوّة، يخرج الناس لالتقاطه من البرّيّة، ويستخدمونه في صبغ ملابسهم أو يبيعونه لقاء بعض المال[٣].

ويرى المؤرّخ أنّ عمليّة الوشم كانت أقسى الإجراءات التي اتّخذها الوالي في بلاد ما بين النهرين، إذ بعث عمّالاً يشرفون على وشم سكّان القرى، مخافة أن يتركوها إلى أقاليم أخرى، فيقول: كان هذا الوشم لا يمحى أثره مدى الحياة، فيختمون الرجل في جبهته وعلى يديه وصدره وظهره[٤]. وذهب إلى أنّه بسبب هذا الإجراء القاسي خوَت المدن من السكّان، وأقفرت الطرق من المسافرين، وأقفلت الحوانيت، وشلّت حركة الناس. وكان العمّال بعد الوشم إن قبضوا على آبق ترك قريته، يذيقونه مرّ العذاب، ويغرّمونه مالاً كثيرًا، كما يغرّمون من آواه في داره أو في قريته[٥].

ولم يقتصر هذا الظلم على الفلاّحين والطبقة المتوسّطة من سكّان البلاد، بل تعدّاها إلى العرب والمسلمين. ويذهب المؤرّخ إلى أنّهم أجبروا على دفع الصدقات التي كانت بمثابة الخراج المفروض على السريان، وذاقوا ألوانًا من العنت والضيق، إذ طاف العمّال حقولهم، وأحصوا مواشيهم وغلالهم، ولم يتركوا شيئًا إلاّ دوّنوه في قوائم الصدقات. وأساء إليهم الجباة في تحويل حصّة الصدقة التي تصيبهم إلى أموال، واستوفوها نقدًا، خلافًا لما درج عليه الملوك الأقدمون[٦]. ويقول في وصف عمّال الصدقات: حقودون، أثمة، لا يوجد للرحمة مكان في قلوبهم، لا يتّقون الله، لا يخجلون من شيخ طاعن، ولا يرحمون يتيمًا بائسًا، ولا يشفقون على أرملة.

---

(١) النصّ، ص ٢٦٦، ٣٨٢.

(٢) النصّ، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٣) النصّ، ص ٢٦٨.

(٤) النصّ، ص ٢٦٩.

(٥) النصّ، ص ٢٥٦.

(٦) النص، ص ٢٩٩.

ويذكر أنّه عندما كان يعسر على الناس دفع جزيتهم، يجرّ الجباة وجوه القوم والشيوخ الأفاضل ويشبعونهم جلدًا ولطمًا وضربًا، ويعلّقونهم من أذرعهم والأغلال في أرجلهم حتّى يشرفوا على الموت. وكان المسلمون - كالسريان - يبيعون معظم ما ملكت أيمانهم لدفع ضريبة الصدقات[١]. ويرى أنّ المسلمين اعترضوا مرارًا على هذا العسف، وطالبوا المسؤولين العودة إلى الشريعة الإسلاميّة، التي كان يطبّقها الملوك السابقون (يريد خلفاء بني أميّة) واستيفاء القمح بدل القمح، والماشية بدل الماشية، فيكفّونهم شرّ هذا التقدير المجحف[٢].

ومن غريب ما يقول المؤرّخ هو أنّ الجباة في بعض حالات عدم استطاعة دفع الصدقات، كانوا يأخذون أطفال العائلة أرقّاء بدل ما يترتّب عليهم من مال، الأمر الذي أهاج السكّان، وأوغر صدورهم حقدًا على العمّال والقضاة الموكلة إليهم عمليّة جمع الضرائب، وصمّموا على رفع شكاية إلى أمير الجزيرة موسى بن مصعب. إلاّ أنّهم خابوا إذ أبى قبول شكوتهم[٣]، ففكّروا في التوجّه إلى بغداد العاصمة لبسط الأمر أمام الخليفة بالذات، ولكن بدل أن يسمع الخليفة إليهم وينصفهم، امتنع عن مقابلتهم، فمكثوا في بغداد قرابة ستّة أشهر دون أن يفوزوا بشيء، فعاد من بقي على قيد الحياة خائبًا مقهورًا، ومات الآخرون بأوبئة شتّى في بغداد[٤].

٤) أحداث فريدة لم تتناولها المطوّلات التاريخيّة:

١ - من الأحداث الفريدة التي يتناولها المؤرّخ الزوقنينيّ، ويسكت عنها أصحاب المطوّلات: خبر هبوط القائد الروميّ فرقوفي بعد اندحار جيوش الروم في سورية[٥]، وتقدّم الجيوش العربيّة بقيادة حبيب بن مسلمة الفهريّ في بلاد ما بين النهرين في الفترة الواقعة ما بين سنة ٦٥٢ وسنة **٦٥٣** م[٦]. ويبدو من الأحداث المتلاحقة في

---

(١) النصّ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.
(٢) النصّ، ص ٣٠٠.
(٣) النصّ، ص ٣٠١.
(٤) النصّ، ص ٣١٤.
(٥) النصّ، ص ١٥٠ - ١٥٢.
(٦) النصّ، ص ١٥٢.

هذه الحقبة، أنّ فرقوفي فشل في مهمّته، واستمرّ زحف الجيوش العربيّة في بلاد ما بين النهرين حتّى تمّ لها فتح معظم أجزائها.

٢ - ومن طريف أخباره عن عام ٧٢٣ م أنّ يزيد الثاني الذي تولّى الحكم أربع سنوات، قام بأمور مخالفة لما عُرف عن الخلفاء الأمويّين، الذين يصف بعضهم بالحكمة والدراية[١]. فأزعج بذلك رعاياه من الطوائف المختلفة: ففي سنة ٧٢٣ م بعث بعض عمّاله يحطّمون الصور والتماثيل أينما وُجدت: في البيوت أو القصور أو الهياكل[٢]. ولم يكتف بهذا، بل أمر بقتل الكلاب والقضاء على الحمام والديكة البيضاء، وإعدام من ثبتت زرقة عينيه. كما أمر بتعديل عقوبة قطع يد السارق، بعقوبة قطع كمّ ثوبه. ويقول: ولولا تدخّل بعض الفقهاء وأهل المروءة من رجال الدين، طوال مدّة خلافته لأفنى بفعله هذا العباد، وخرّب أجزاء وافرة من البلاد[٣].

٣ - ويفرد المؤرّخ طرفًا كبيرًا من تاريخه لتعداد الأضرار التي ألحقتها جيوش الفتح ببلاد ما بين النهرين العليا، وبخاصّة ما تاخم حدود الروم والأرمن. ففي حملة قام بها الجرّاح بن عبد الله الحكميّ بُعيد سنة ٧٣١ م لتأديب الترك، «أتلف المنطقة بكاملها... وألحق بالفقراء والمساكين من جرّاء اجتياز قوّاته خسارة كبيرة[٤]». ويذهب المؤرّخ إلى أنّ وفود سكّان المنطقة وتوسّلات الفقراء عجزت عن إيقاف الخراب والدمار الذي ألحقته تلك الجيوش بالبلاد[٥].

٤ - ويتطرّق في رواياته عن الخوارج إلى اثنين منهم كانا دوّخا الثغور وأتلفا الكثير من المدن والقرى والمزارع. أوّلهما عتيق الذي ثار بالحروريّة عام ٧٣٦ م أيّام الخليفة هشام بن عبد الملك، وخرج بنواحي سنجار الداخليّة ومعه كوكبة من أعوانه. ويرى أن عتيقًا وهو في نفر من أصحابه استطاع أن يهزم جيشًا بقيادة أحد مشاهير قادة الأمويّين في تلك المنطقة، ويقضي على جانب من جيشه. ويقول عن عتيق: إنّه

---

(١) النصّ، ص ١٩٥.

(٢) النصّ، ص ١٥٤، ١٦٤، ١٩٥.

(٣) النصّ، ص ١٦٥.

(٤) النصّ، ص ١٧٠.

(٥) النصّ، ص ١٧٠ - ١٧١.

هجر زوجته وتخلّى عن أمواله لدى خروجه في الحروريّة كما للعرب عادة. ويصفه بالبسالة والقوّة والبطش[١]. وكان الثاني يدعى البختريّ قد خرج في منطقة الرها، وعسف الناس وأذاقهم مرّ العذاب، «وأساء إلى الكثيرين وبخاصّة سكّان قرية بيت معدا التي قبض على رؤسائها وشواهم على النار كما يشوى السمك بغية الحصول على أموالهم. فقتل فريقًا وسبى آخر، وهدم جميع الأديرة الواقعة في نواحي الرها وحرّان وتلاّ». ويعدّد المؤلّف أسماء القرى التي محقها عبيد الله البختريّ، وهو يعيث فسادًا في بلاد ما بين النهرين العليا، وأشهر تلك القرى والأديار: دير قوبى، ريش مات، دير قتارا، دير حسمي الكبير، دير لعازر، قرية بيت معدا، دير ميجوس[٢].

٥ – وبين الفرايد من أحداث الزوقنينيّ، تواطؤ الأقليّة اليهوديّة في مدينة نيوقيساريّة مع مسلمة إبّان غزوته لهذه المدينة عام ٧٢٩ م ، فقال: إنّ فئة منهم انسلّت خلسة تحت جنح الظلام، وخرجت إلى معسكر العرب، وقطعت عهدًا مع قائد الحملة على إدخاله المدينة، من نفق سرّيّ كان يتّصل بسورها، شريطة أن يحافظ عليهم، ويحملهم برفقته إلى سورية[٣]. ولعلّ هذه الحادثة جاءت ردًّا على ما فعله الأمبراطور فوكاس عندما حاول إجبار يهود فلسطين على اعتناق النصرانيّة، وقبول المعموديّة قبل ذلك بفترة ليست بالقليلة[٤].

٦ – ويسجّل في أحداث عام ٧٣٣ م خبر غزوة سليمان بن عبد الملك لبلاد الروم، واجتياحه لمدينة بفلاغونية، وسبى من كان فيها من السكّان. ومن أطرف ما يقوله عن هذه الغزوة، هو أنّ الأمبراطور قسطنطين نفسه بعث من يقول لسليمان: اذهب إلى مدينة بفلاغونية، انهبها، وافعل ما تهواه نفسك، لأنّه ليس في المدينة من يقاومك، أو يرفع في وجهك سيفًا. ويذهب المؤرّخ إلى أنّ قسطنطين أتى عملاً كهذا انتقامًا لنفسه من سكّان المدينة الذين آزروا أرطباس صهره في تمرّده واستيائه على العاصمة[٥].

---

(١) النصّ، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٢) النصّ، ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٣) النصّ، ص ١٧١.

(٤) النصّ، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٥) النصّ، ص ١٧١، ١٧٢.

٧ – ومن بين أخباره الفريدة، خبر رجل من نصارى مدينة ماردين، ادّعى النبوّة، وتقمّص شخصيّة موسى كليم الله، وانحدر إلى السامرة في فلسطين، وأوهم فريقًا من اليهود بأنّه موسى أعاده الله إليهم، ليجدّد آمالهم ويقودهم ضدّ أعدائهم ويجعل منهم أمّة من أقوى الأمم[١]. ويقول إنّ الرجل فعل هذا لا حبًّا ببني إسرائيل، بل كرهًا لهم، وإمعانًا في إذلالهم والانتقام منهم. لأنّه ما إن صدّقوه، حتّى جعل يخرج ببعض فتيانهم ويجهز عليهم ويقتلهم ويسلب ما معهم حتّى أثرى، وصار صاحب عبيد وإماء وأملاك كثيرة. ويرى أنّ كره الرجل لليهود كان بسبب ما لحقه من أذًى يوم كان نزيلاً في ديارهم. فغاب فترة، ثمّ عاد وقد تعلّم فنون السحر من بلاد الآراميّين، فأغواهم، منتقمًا لنفسه المهانة. ولكن ما عتّم أن انكشف زيفه وبانت نواياه، فسيق إلى هشام بن عبد الملك، فأذاقه مرّ العذاب وصلَبَه على خشبة[٢].

٨ – ويتطرّق في أحداث عام ٧٥١ م إلى ذكر فتنة أثارها عرب ميافرقين ضدّ جبل العطشان، الأمر الذي أدّى في النهاية إلى قيام تمرّد في الجبل، قاده رجل من أبناء طورعبدين يدعى يوحنّا بن ددّي، يعاونه قائد آخر يسمّى إسطفنا بار فولوس[٣]. ويذهب المؤرّخ إلى أنّ هذا التمرّد جاء نتيجة فتك قرّة بن ثابت، والي الإقليم، بسبعة رؤساء من خيرة رجال المنطقة، نزولاً عند رغبة أهل ميافارقين. ويرى أنّ يوحنّا هذا استطاع رغم كلّ الدسائس التي حيكت ضدّه، من تحقيق ما يشبه الحكم الذاتيّ لفترة ليست يسيرة. ويذكر أنّ أبا جعفرالمنصور، وكان أمير الجزيرة يومذاك، استدعى يوحنّا بن ددّي إلى حرّان، وتفاوض معه وثبّته رئيسًا على المنطقة، وزوّده بكتاب إلى صالح بن صبيح والي أرمينية يوصيه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا في حوزته من سكّان جبل العطشان، موصيًا خيرًا بيوحنّا، مزوّدًا إيّاه بالتحف والهدايا[٤]. وعلى أثر هذا هدأ سكّان الجبل ، وأخلدوا إلى الطمأنينة والسلام.

٩ – وبين ما سكتت عنه التواريخ العامّة، خبر هجوم غريغوار الأرطيّ على مناطق الثغور الجزريّة، في النصف الثاني من القرن الثامن، بقوّة كبيرة، وإعماله في أهلها

---

(١) النصّ، ص ١٧٣.

(٢) النصّ، ص ١٧٤.

(٣) النصّ، ص ١٩٦ – ١٩٧.

(٤) النصّ، ص ٢٠٧.

السيف والسبي. ويقول الزوقنينيّ: إنّ غريغوار داهم أبناء نهر حاوي وقتل منهم جمهورًا غفيرًا، وساق من تبقّى منهم أسرى، ومثّل بهم شرّ تمثيل: فصلم آذانهم، وجدع أنوفهم، وفقأ عيونهم بالنار. ويذهب إلى أنّ ما فعله غريغوار صار سببًا في اجتماع الناس حول يوحنّا بصورة أقوى وأشدّ، لأنّهم وجدوا فيه المنقذ الوحيد من الأعداء في الوقت الذي كانت البلاد تعيش حالة من التسيّب وعدم الاستقرار، بسبب عدم بسط السيادة العبّاسيّة على كافّة أطرافها.

١٠ - وفي الفترة الواقعة بين عام ٧٦٤ - ٧٦٦ م. ينظم المؤرّخ في سلك أحداثه، خبر الزندقة المانويّة، معلّلاً سبب دعوة أتباعها «بِعَبَدَة الرؤوس»، فيرى أنّه كان للمانويّة، وبخاصّة في مدينة حرّان، أتباع وسَدَنة ورئيس عظيم الشأن، يقيم بدير في ظاهر المدينة. ويربط بين هذه التسمية وبين أحد أعيادهم السنويّة، حيث تقام خلاله الكثير من الاحتفالات، وتُمارس ألوان من السحر والشعوذة، وتُنحَر الأضاحي. وكان ابتداء العيد بأضحية بشريّة تُنحر في الدير المذكور سابقًا، ويوضع رأسها في هيكل يسجدون أمامه ويتفاءلون به، إلى أن انكشف أمرهم بهرب الأضحية، وإبلاغ أمير حرّان بالأمر. فنكّل بهم شرّ تنكيل، وصادر أموالهم، وأغرمهم أربعمائة ألف قطعة من الذهب[١].

١١ - وبين أحداث عام ٧٦٨ م خبر إعادة بناء حصن أرشمشاط الواقع على نهر أرسينوس. والإشارة إلى بعض تقاليد الجيوش الروميّة. قال: ابتدأ العرب بإقامة الحصن، «ولمّا رفع البنّاؤون البناء قرابة قامة واحدة، أقبلت قوّة كبيرة من الروم، وخيّمت على الضفّة المقابلة للحصن». ولم يتلقَّ الروم أمرًا بعبور النهر، والقيام بهجوم مباغت على الحصن، لأنّهم بلغوا الحصن يوم الأحد، فانصرفوا إلى الصلاة، ومن ثمّ أقاموا وليمة، وشرعوا يأكلون ويشربون ويمرحون. فلمّا عاين العرب ما كان من أمرهم، أخذهم الخوف، ولاذوا بالفرار مخلّفين وراءهم جميع عُددِهم ومؤنهم. فعبر الروم النهر في اليوم التالي، واحتووا ما خلّفه العرب وراءهم، وأحرقوا ما تبقّى، وحملوا أسلابهم وعادوا، دون أن يكلّفوا أنفسهم مؤنة الحرب والجلاد. غير أنّ العرب عادوا مرّة أخرى، ومعهم الصنّاع والعملة، وباشروا بناء الحصن من جديد[٢].

---

(١) النصّ. ص ٢٦٤ - ٢٦٦.

(٢) النصّ. ص ٢٥١.

١٢ – وفي فترة إمارة العبّاس أخي أبي جعفر المنصور على الجزيرة، يسجّل المؤرّخ خبر فتنة تزعّمها العبيد في مدينة حرّان. ويرى أنّ ابتداءها كان عندما اجتمع ما يقرب الخمسمائة منهم، وهم مدجّجون بالسلاح، فأحاطوا ببيت مال المسلمين بغية احتوائه أوّلاً. وقطعوا الطرق المؤدّية إلى المدينة، وأجهزوا على المارّة مخافة أن يفتضح أمرهم. إلاّ أنّ العبّاس استطاع بعد أن جمع رجاله، هزمهم وتشتيت شملهم، وقتل فريق منهم. ولم يكتفِ بهذا الإجراء، بل جمع أسيادهم وكبّدهم عقابًا شديدًا. فجلد بعضهم، وقتل البعض الآخر، ليصيروا عبرة لمن اعتبر[١].

١٣ – ويتحدّث الزوقنينيّ عن سبب عزل العبّاس عن إمارة الجزيرة حديثًا طويلاً، أغفلته الكتب التاريخيّة. ويقول عن العبّاس إنّه «كان رجلاً مشهودًا له بالرحمة وحبّ السلام والطمأنينة». ولمّا قدم المنصور لزيارة الرقّة، أمر العبّاس السكّان بإخلاء قراهم والاختفاء عن أنظاره، مخافة أن يزيد عليهم الخراج، لأنّه كان عنيفًا عاتيًا. إلاّ أنّ السكّان لم يتقيّدوا بالنصيحة، بل أقاموا في قراهم. وكان الوقت بداية الحصاد، وبلاد ما بين النهرين وفيرة الحقول، نزهة، عميمة الخيرات. فلمّا رأى أبو جعفر ما كانت عليه من غنًى، غضب على أخيه لأنه لم يستوفِ من سكّانها الكثير من الخراج، وأمر بطرده من الإمارة واستصفاء جميع أمواله. ويرى أنّ المنصور كان قاسيًا شديد القسوة مع أقرب الناس إليه[٢].

١٤ – ومع كثرة انتشار الخوارج من ديار مضر منذ الفترة الأمويّة وإلى صدر الدولة العبّاسيّة، يلمح الزوقنينيّ إلى ظهور تجمّع دينيّ بين النصارى – يسمّيه فتنة، ويسمّي قائده مضلاًّ – حوالي عام ٧٧٠ م. ويتحدّث بالتفصيل عن الجذور الأولى لهذا التجمّع وعن قائده، ويذهب إلى أنّ الرجل كان يدعى ماروثا، من مدينة قريبة من تكريت «تدعى بيت راما»، تيتّم وهو في ميعة الصبا، فرحل إلى دير بجوار الموصل يدعى «دير مار متّي» لينقطع هناك إلى العبادة والتهجّد. وبعد أن صرف نحوًا من ثلاث سنين، ترك الدير وعاد إلى بيته، ليشرف على ما تركه له أبواه من ثروة، فيصرف طرفًا منها على الفقراء وأهل الفاقة من سكّان مدينته. إلاّ أنّه انصاع إلى

---

(١) النصّ. ص ٢٦٢.

(٢) النصّ، ص ٢٦٣.

رفاق السوء، وصرف أمواله في اللهو والبطر[١]. وفيما كان يفكّر بوضع حدٍّ لحياته المسرفة، خطر له أن ينقطع إلى البرّيّة، ويمارس أقسى أنواع الزهد والفضيلة. فذهب إلى البرّيّة الممتدّة بين تكريت وسنجار، وتفرّغ كلّيًّا لأعمال التقشّف حتّى استحال جلده إلى لون التراب. وهناك ابتدأ يتنبّأ، ويتحدّث عن الأمور الغيبيّة، فاجتمعت إليه الناس من كلّ فجٍّ عميق تطلب العون والأبد، الأمر الذي ساق رئيس النسّاك في البرّيّة – وكان يدعى زعورا – إلى إنذار ماروثا، وأمره بالإقلاع عن تلك الأعمال، خشية أن يقوده إبليس إلى الهلاك، لأنّ أمورًا كهذه لا يستطيع القيام بها إلاّ من تملّكه الشيطان[٢]. ولمّا لم يرعوِ، طرده من المنطقة وحرّم عليه ممارسة النسك بين زهّاده. فتحوّل ماروثا إلى بلاد ما بين النهرين، ودخل قرية كبيرة تدعى «حاح»، وابتدأ يعظ الناس في الشوارع، ويهدّدهم بالخراب والدمار على غرار ما فعل الله بأهل نينوى[٣]. فخاف السكّان، والتصقوا به، وطلبوا إليه أن يصلّي عليهم ويغفر لهم لئلاّ يدركهم العقاب، ويفنوا مع ذراريهم[٤]. فطبّقت منذئذٍ شهرته الخافقين، وزحفت إليه الجماهير المسحوقة من كلّ جانب لتجد عنده حاجتها. ولمّا أخذت الكنيسة تشعر بالخطر على مؤسّساتها، ابتدأت تضايق الرجل، وتحاول أن تمنع الناس من الذهاب إليه. إلاّ أنّ الجماهير أبت أن تصغي إلى رجال الكنيسة، وذهبت وراءه، وكانت مستعدّة للموت في سبيله. ولمّا بلغ الأمر قصاراه، تعاونت الكنيسة مع الدولة، وحكمت عليه بالسجن، فألقي في حبس مدينة حرّان، وضُيّق عليه حتّى مات[٥]. ومع أنّ المؤرّخ يسند إلى ماروثا الكثير من الخوارق، إلاّ أنّه ينسبها إلى الشيطان، مستندًا بذلك على أقوال الإنجيل المشيرة إلى ظهور أنبياء كذبة يضِلّون الكثيرين[٦].

١٥ – وبين الأحداث الواقعة ما بين سنة ٧٦٨ – ٧٧٤ م، خبر انفجار عامّ، شمل إقليم سيس، بسبب ما أصاب الناس من عنت وإرهاق، جرّاء جمع أموال

---

(١) النصّ. ص ٢٨٣.
(٢) النصّ. ص ٢٨٤.
(٣) سفر يونان ٣: ١ – ٥.
(٤) النصّ. ص ٢٨٤.
(٥) النصّ. ص ٢٨٩.
(٦) إنجيل متّى ٢٤: ٥.

الخراج والجزية والعشور: «لمّا عاينوا أنّ هذه السرقات المكشوفة لا تقف عند حدّ، وأنّ وجوه الجباة لا تخجل من طلب المزيد، ولا يتّقون الله في ما يفعلون... تمرّدوا قائلين: وَفيْنا ما علينا، وسدّدنا العجز الذي أصاب أصحابنا، ودفعنا الكمّيّات المترتّبة علينا وعلى غيرنا، حسب ما نصّت عليه «وثيقة الصلح» فإلى متى لا يشبع هؤلاء من تقطيع لحومنا؟ لن ندفع ضريبة بعد اليوم»[١]. إلاّ أن إصرار السكّان على الامتناع عن دفع الضرائب لم يفد شيئًا، لأنّه ما إن بلغ عمّال الخراج خبر هذا التمنّع، حتّى جمعوا حولهم جيشًا كبيرًا من المتنفعين والغوغاء، وداهموا سكّان ذلك الإقليم، وكان إقليمًا مشهورًا بالتعدين، فقتلوا قومًا، وأسروا آخرين، ودمّروا منجم الرصاص، وحطّموا بهراواتهم جميع أدواتهم الصناعيّة، كما خرّبوا المكان وتركوه قاعًا صفصفًا[٢]. ولم يعمَّر ذلك المكان فيما بعد، فخسر الناس أعمالهم، وخسرت البلاد أفضل مناجم الرصاص في ذلك الإقليم.

١٦ – ومن الأحداث المثيرة في تاريخ الزوقنينيّ خبر ظهور حيوان غريب الأطوار في إقليم طورعبدين، عقب مجاعة شديدة ضربت البلاد شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا[٣]. يذهب المؤرّخ إلى أنّ هذه الوحوش كانت رهيبة مذهلة، لا تخشى إنسانًا أو حيوانًا. فأودت بحياة الكثيرين من أبناء تلك الأقاليم. وكانت هذه الوحوش تشبه الذئاب في هيأتها، ولكنّها تختلف عنها بجملة أمور: بخطومها الأكثر دقّة والأكثر طولاً، وبآذانها الكبيرة الشبيهة بآذان الخيل، وبشعرها الطويل القاسي، الشبيه بشعر الخنازير[٤]. وكانت تهاجم القرى، فتقتل دفعة واحدة ما بين عشرين ومئة رجل، دون أن يقوى الأهلون على إيقاع الأذى بها[٥]. وكانت من القوّة بمكان، إذ تستطيع أن تتسلّق القصور العالية، وتدخل الدور، وتخطف الأطفال من أسرّتها، وتعود أدراجها دون أن تقدر الكلاب النباح في وجهها أو مداهمتها. فأقفرت نتيجة ذلك القرى من سكّانها، وخوَت الطرقات من السابلة، وعاش الخلق في خوف ورعبٍ متواصلين من هجماتها[٦].

---

(١) النصّ، ص ٣٥١.
(٢) النصّ، ص ٣٥٢ – ٣٥٥.
(٣) النصّ، ص ٣٦٧.
(٤) النصّ، ص ٣٦٨.
(٥) النصّ، ص٣٦٨.
(٦) النصّ، ص ٣٦٩.

أحوال الكنيسة في بلاد ما بين النهرين.

وتقوم أهمّيّة هذا الكتاب على ما جمعه المؤلّف من أخبار الكنيسة في الفترات المتعاقبة من تاريخها. فيؤرّخ للبطاركة ويذكر طرفًا من حياتهم والأديرة التي نشأوا فيها، وسنوات جلوسهم في كراسيّهم، وموتهم وأماكن دفنهم. ويشيد بمن اتّصف بالسيرة الحميدة، ويذمّ من ساءت سيرته[١]. ويتطرّق إلى ذكر الكثير من الأبرشيّات السريانيّة المنتشرة في بلاد ما بين النهرين، ويذكر من اتّصف منهم بالزهد والتقشّف وممارسة الفضائل الروحيّة، كالأسقف حبيب مطران الرها[٢]. وثاودوطا أسقف آمد، الذي تخلّى عن أبرشيّته، وتنسّك فوق عمود بالقرب من قرية قلوق[٣]. وشمعون القيدونيّ أسقف الرها الذي أحبّته كافّة الطوائف في المدينة، وأكرمته شديد الإكرام[٤].

ويذكر طائفة من الأديرة التي انتشرت في البلاد، وكانت مراكز للدراسات اللاهوتيّة واللغويّة، حيث تخرّج منها رهط من العلماء، كيعقوب الرهاويّ[٥]، وأثناسيوس البلديّ، وكوركي البطريرك وغيرهم كثير. وأشهر هذه الأديرة: دير زوقنين قرب آمد(٦)؛ ودير قنّسرين(٧)؛ وقرقفتا[٨]؛ ومارشيلا[٩]؛ ودير يوحنّا الأرطيّ. وأشار إلى بعض الكنائس المشهورة في البلاد ككنيسة آمد التي بناها هرقل، وكنيسة الرها الكبرى، وكنيسة مار زعورا، التي دفن فيها البطريرك يوحنّا، وكنيسة مار يوحنّا المعمدان[١٠].

ولا يقف المؤرّخ عند ذكر الأحداث العظيمة في الكنيسة، بل يتطرّق إلى

---

(١) النصّ، ص ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٥.
(٢) النصّ، ص ١٦١.
(٣) النصّ، ص ١٦٥.
(٤) النصّ، ص ٢١٨ – ٢٢١.
(٥) النصّ، ص ١٤٨.
(٦) النصّ، ص ١٥١.
(٧) النصّ، ص ٢١١.
(٨) النصّ، ص ٢١٢.
(٩) النصّ، ص ١٥٥.
(١٠) النصّ، ص ١٥٢.

الانشقاقات والفتن التي شَجَرت فيها. فيلمح إلى النزاع الذي حدث بين الأساقفة في حياة البطريرك سويرا بن مشقا حوالي عام ٦٨٣ م. ثمّ الاضطرابات التي وقعت في الكنيسة إثر انتخاب إسحق بطريركًا غير شرعيّ على الكرسيّ الرسوليّ، إثر تدخّل أبي جعفر المنصور بسبب الصداقة الحميمة بينه وبين إسحق. ويقول المؤرّخ إنّ الفتنة يومئذٍ لم تدم طويلاً، لأنّ أبا جعفر عاد بعد سنة وقتل إسحق[١]. ثمّ يعود للحديث عن النزاع الذي انفجر إثر انتخاب البطريرك كوركي، وكيف أنّ الخليفة أبا جعفر المنصور أمر باعتقاله في مدينة بغداد تسع سنين، وأمر برسامة داود خلفًا له[٢]. ويعود للحديث عن كوركي الذي خرج من السجن بعد وفاة الخليفة، وعاد إلى كرسيّه، وحلِّهِ بعض المشاكل المستعصية في الكنيسة، إثر رسامة داود، وغيابه هو عن كرسيّ الرئاسة[٣]. ومن طريف أخباره عن الكنيسة، حديثه عن اعتناق الكثير من أبنائها للدين الإسلاميّ، في النصف الثاني من القرن الثامن. ويقول إنّ عدد الداخلين في الإسلام كان كبيرًا، وكان سببه الرئيسيّ ثقل الجزية المفروضة عليهم[٤]. ويذهب إلى أنّ الذين دخلوا الإسلام كانوا يتّهمون من بقي على نصرانيّته بالكفر[٥]. ويسجّل أوّل نقاش بين الفريقين بصورة كاملة، ويبدو من أحاديثه أنّه كان على اطّلاع تامّ على الديانة الإسلاميّة والقرآن الكريم[٦]. ثمّ ينقل الطريقة التي كانت تُتَّبع في عمليّة الدخول في الإسلام، فيقول: فيُسأل الرجل: أتهْجرُ المسيح؟ فيجيب: أجل أهجره. وهل تجحد المعموديّة؟ فيقول: نعم، فقد جحدتها. أتكفر بالصليب والقربان وبكلّ العقائد التي يؤمن بها النصارى؟ -أجل، أكفر. ثمّ يُسأل: هل تؤمن أنّ محمّدًا رسول الله، وأنّ القرآن قد أُنزل عليه من السماء؟ - أؤمن. وهل تعترف أنّ عيسى المسيح كلمة الله وروح منه، وهو نبيّ كسائر الأنبياء، وأنّه ليس الله؟ فيجيب الرجل: نعم. ثمّ يحلّ حزامه، ويجلس للصلاة باتّجاه الجنوب[٧]. ويقول عن الذين

(١) النصّ، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(٢) النصّ، ص ٢١٢ - ٢١٤.

(٣) النصّ، ص ٢٢٦ - ٢٤٩.

(٤) النصّ، ص ٣٨٢ - ٣٨٥.

(٥) النصّ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٦) النصّ، ص ٣٨٩.

(٧) النصّ، ص ٣٩١.

اعتنقوا الإسلام: بأنّهم خسروا سماءهم، وفقدوا وسامتهم واسمهم، لأنّه لم يطلق عليهم لقب مسلمين أو محمّديّين، بل سمّوا «موالي». وهل المولى غير العبد؟[١] ويختم حديثه بقصّتين طريفتين عن شمّاس وقسّيس، كانا اعتنقا الإسلام، وعادا إلى النصرانيّة مرّة أخرى، وهما في حالة يرثى لها[٢]. ثمّ ينهي المؤرّخ كتابه بموعظة طريفة عن عمل المسيح، ويتطرّق فيها إلى الكثير من المبادئ والتعاليم والممارسات المسيحيّة[٣].

(١) النصّ، ص ٣٨٧.
(٢) النصّ، ص ٣٨٧.
(٣) النصّ، ص ٣٩٣.

نصّ الكتاب المترجَم

وقائع تاريخيّة

من سنة ٨٩٨ إلى سنة ١٠٨٥ يونانيّة[*]
الموافقة
سنة ٥٨٧ إلى سنة ٧٧٤ ميلاديّة

سنة ٥٨٧ م – ٧٢١ م

(سنة ٨٩٨ ي/٥٨٧ م) مات الملك يوسطنينا[١]، وحكم يوسطنينا الرابع[٢]، وطيبريوس قيصر[٣].

(*) يذكر مؤلّف الزوقنينيّ التاريخ بالسنة اليونانيّة، ونحن ندوّن بين ( ) السنة الميلاديّة الموافقة، والسنة الهجريّة أيضًا.

(١) جاء في المسعوديّ ذكر «يوسطانوس» وفي بعض النسخ يوسطيانوس، أنّه ملكَ تسع سنين (مروج الذهب، ج١، ص٣٦٠) كما وذكر أنّه ملك بعده يوسطانياس، وفي بعض النسخ سطاباس الذي دام ملكه تسعًا وثلاثين سنة، وقيل أربعين، وبنى كنائس كثيرة، وشيّد دين النصرانيّة. وظهر مذهب الملكيّة. وبنى كنيسة الرها وهي إحدى عجائب العالم والهياكل، وقد كان في هذه الكنيسة منديل يعظّمه النصارى. وذلك أنّ يسوع الناصريّ لمّا أُخرج من ماء المعموديّة تنشّف به، فلم يزل هذا المنديل يُتداول إلى أن قرّ بكنيسة الرها، فلمّا اشتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها في هذه السنة وهي سنة ٣٣٢ أعطي هذا المنديل للروم فجنحوا إلى الهدنة، وكان للروم عند تسلّمهم هذا المنديل فرح عظيم (مروج الذهب، ج١، ص ٣٦١).

(٢) لدى المسعوديّ ملك نوسطيس أو (فرسطيس) على ما ورد في بعض النسخ (مروج الذهب، ج١، ص٣٦١).

(٣) لدى المسعوديّ أنّه طيباريوس الذي ملك أربع سنين. وأظهر في ملكه أنواعًا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضّة وغير ذلك من آلات الملوك (مروج الذهب، ج١، ص٣٦١).

(سنة ٩٠١ ي/٥٩٠ م) مات يوسطنينا، واستلم المُلْك طيبريوس[١].

(سنة ٩٠٢ ي/٥٩١ م) مات القدّيس بطرس بطريرك أنطاكية[٢].

(سنة ٩٠٥ ي/٥٩٤ م) مات طيبريوس، وقام بعده موريقس[٣]، ثماني سنوات.

(سنة ٩١٢ ي/٦٠١ م) حدث ظلام قاتم وسط النهار، وظهرت النجوم كما في الليل، دام نحو ثلاث ساعات ثمّ تلاشى الظلام وظهر النهار كالعادة. في هذه السنة مات موريقس[٤]، وحكم بعده موريقس آخر وساس البلاد اثنتي عشرة سنة.

(سنة ٩١٤ ي/٦٠٣ م) استولى على مدينة الرها[٥] نرساي القائد الفارسيّ، ودخلها وقبض على ساويرا أسقفها ورجمه بالحجارة فمات[٦].

---

(١) راجع الحواشي الثلاث السابقات.

(٢) هو بطرس الثالث القلينيقيّ (قلينقس وهي الرقّة) كان خبيرًا بأصناف العلوم الدينيّة والمدنيّة. وله رسائل مبتدعة تشهد بجدارته وكفاءته. ولمّا كانت الفتن تنمو وتزداد بين السريان. اجتمع أساقفة سوريا في دير مار حنانيّا بين بالس والرقّة وأتوا ببطرس هذا سنة ٥٧١ م على الأصحّ. ورسموه بطريركًا بوضع يد يوسف الآمديّ. مع أنّ سالفه ظلّ مختفيًا أربع سنوات أي حتّى وفاته سنة ٥٧٥ م . وكان بطرس هذا خليل مار يعقوب البرادعيّ الذي عرض عليه البطريركيّة فرفضها حتّى هذه السنة. وكانت رئاسته عشرين عامًا. ودفن في دير الجبّ الخارجيّ. واشتهر في عهده أحودامه (أخو أمّه) المفريان الأوّل (٥٥٩ - ٥٧٥). انظر (الزهرة الذكيّة. ص٣٣. رقم ٥٨؛ وتاريخ ابن العبريّ. ج١. ص٤٢ - ٤٣؛ ساكا. كنيستي السريانيّة ص١٤٥. رقم ٣٩ بحسب المخطوطة في خزانتنا).

(٣) جاء في «مروج الذهب»: أنّه ملك عشرين سنة. وتعاون مع كسرى أبرويز على بهرام جوبين. فقتل غيلة، وبعث أبرويز غضبًا له بجيوش إلى الروم. وكانت لهم حروب (ج١. ص٣٦١). والحقيقة هو موريس وسبب قتله هو تخفيض رواتب الجند بمقدار الربع، وقتل سنة ٥٨٨ م.

(٤) هو موريس آخر. يقول صاحب كتاب الرها سيغال: اتّخذ الملك خسرو حادث اغتيال الأمبراطور موريس في سنة ٦٠٢ م ذريعة لبدء أعمال عدائيّة جديدة. فقام في ربيع سنة ٦٠٣ م يريد الانتقام لموت المحسن إليه الذي قتله فوقس (ص١٣٧ - ١٣٨).

(٥) الرها: بضمّ أوّله والمدّ والقصر. مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، بينهما ستّة فراسخ. سمّيت باسم الذي استحدثها، وهو الرهاء بن البلنديّ بن مالك بن دعر... وقال يحيى بن جرير النصرانيّ (التكريتيّ) الرها اسمها بالروميّة أذاسا (أوديسّه)، بنيت في السنة السادسة من موت الإسكندر بناها الملك سلوقس... (معجم البلدان، ج٢، ص٣٤١).

(٦) كان قائد الجيوش البيزنطيّة في ما بين النهرين نارسي هو أيضًا خصمًا لفوقس. احتلّ الرها، ويقال إنّه أمر بقتل مطران الملكيّين في المدينة سفيروس رجمًا بالحجارة (الرها ص١٣٨).

(سنة ٩١٥ ي/٦٠٤م) أقيم القدّيس أثناسيوس[١] بطريركًا على أنطاكية[٢].

(سنة ٩١٦ ي/٦٠٥ م) فتحت الرها[٣].

(سنة ٩٢٠ ي/٦٠٩ م) أو **(سنة ٩٢٣ ي/٦١٢ م)** قتل موريقس وابنه تودسيس. وحكم فوقاس ثماني سنوات[٤].

(سنة ٩٢٨ ي/٦١٧ م) أمر الملك فوقا[٥]، أن يعتمد جميع اليهود الذين تحت حكمه، فأرسل كيوركي النائب إلى أورشليم وجميع أرض فلسطين، لكي يُلزموا اليهود بالعماد. فلمّا وصل النائب إلى أورشليم، جمع اليهود الذين فيها، ودخل

---

(١) هو البطريرك أثناسيوس الأوّل. ولد في شميشاط. ولبس الإسكيم الرهبانيّ في دير قنّسرين. ولمّا توفّي يوليان سالفه اجتمع الأساقفة سنة ٥٩٥ م في أحد أديرة المغرب (غرب الفرات) واعتكفوا ثلاثة أيّام. وفي الصباح فتحوا باب الدير، فألفوا أثناسيوس يقود جملاً محمّلاً ملحًا إلى ديره في شميشاط. فأتوا به ورسموه بطريركًا، ولم يبرح يشتغل أشغالاً يدويّة متعبة في عهد بطريركيّته التي طالت خمسًا وأربعين سنة. وتوفّي سنة ٦٣١ م. ودفن في دير كرومايا. وهو الذي وثّق عرى الاتّحاد بين الكرسيّ الأنطاكيّ والإسكندريّ (الزهرة الذكيّة، ص٣٤ – ٣٥، رقم ٦٠؛ وابن العبريّ، التاريخ الكنسيّ، ١:٤٣ – ٤٥). وللتفصيل في سيرته، راجع الكتاب الذي وضعه عنه البطريرك يعقوب الثالث (ساكا، ص١٤٦، رقم ٤١).

(٢) أنطاكية، بالفتح ثمّ السكون والياء المخفّفة... قال الهيثم بن عديّ: أوّل من بنى أنطاكية أنطيخس وهو الملك الثالث بعد الإسكندر. وذكر يحيى بن جرير المتطبّب التكريتيّ أنّ أوّل من بنى أنطاكية أنطيغنوس في السنة السادسة من موت الإسكندر، ولم يتمّها (معجم البلدان ١:٣٥٤).

(٣) طرد خسرو جيش فوقس خارج الرها في سنة ٦٠٤ م. ويبدو أنّه شغل المدينة لوقت وجيز. ربّما ليقابل نارسي. ثمّ انسحب وترك نارسي الرها ليذهب إلى منبج. حيث أرغم بعدئذٍ على الاستسلام لفوقس وليحرق حيًّا في العاصمة. وعندما هزم خسرو قوّات فوقس هزيمة حاسمة، وقعت مدن ما بين النهرين تحت رحمته. ولكنّ السيطرة التامّة على المنطقة تأكّدت له عندما احتلّ الرها فقط. على الأرجح في سنة ٦٠٩ م. واستطاع بعد ذلك أن يمدّ سلطانه على سوريا وفلسطين وحتّى على آسيا الصغرى. ونعلم أنّ الفرس فرضوا على أهل الرها عبئًا من الضرائب، ونهبوا الرخام والذهب والفضّة من الكنائس. ويوضح المؤرّخ أنّ خسرو عيّن رهاويًّا يدعى قورش حاكمًا على المدينة. والتمس قورش تخفيض الضرائب. ولكن حدث بعدئذٍ أنّ قورش لمّا أغضبته افتراءات حاسديه من بني جلدته، نصح الملك بأن يجرّد المدينة من ثرواتها. ونتيجة لهذا أمر بتخلية المدينة تخلية جماعيّة من أهاليها ونفيهم إلى فارس. وذلك ربّما خوفًا من الخطر المنتظر من هجوم البيزنطيّين. ومهما يكن من أمر، فإنّ الحاكم الفارسيّ كان رجلاً رحيمًا. فأجلى الرهاويّين في أعداد صغيرة. وكان ربع المواطنين قد ترك المدينة. عندما وصل جيش بيزنطيّ وهيّأ للنازحين الرجوع بتعليمات من الأمبراطور. (سيغال، الرها، ص١٣٨).

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٥) ذكره المسعوديّ باسم فوقاس الذي ملك ثماني سنين إلى أن قتل. وجاء في بعض النسخ فوقاس (مروج الذهب ١:٣٦١، تدقيق يوسف أسعد داغر، بيروت، ١٩٦٥، طبعة أولى).

أمامه رؤساؤهم، وقال لهم: هل أنتم عبيد الملك؟ قالوا نعم. قال: إنّ صاحب الأرض يأمركم بأن تقبلوا المعموديّة. فسكتوا ولم يردّوا بجواب. فسألهم لماذا أنتم صامتون لا تردّون الجواب؟ أجاب أحدهم وكان من رؤسائهم واسمه يونا قائلاً: كلّ ما يأمر به صاحب الأرض نصنعه وبفرح، أمّا العماد فلا يمكننا الرضوخ له، إذ إنّه لم يأت بعد يوم العماد المقدّس. فلمّا سمع النائب هذا، غضب غضبًا شديدًا، وضرب يونا على خدّه، وقال: إن كنتم عبيدًا فيجب أن تطيعوا أوامره، فأمر فعمّدوهم جميعًا شاؤوا أم أبوا.

واشتهر في هذا الزمن يعقوب اليهوديّ، وأثناسيوس بطريرك أنطاكية، ويوحنّا أسقف العرب، وشمعون في حرّان، وموريقا الآمديّ.

(سنة ٩٣٢ ي/٦٢١ م) استولى المسلمون[١] على أرض فلسطين وحتّى نهر الفرات الكبير، (أي حرّروها من سيطرة الرومان البيزنطيّين) وهرب الرومان، وعبروا نحو المشرق عبر الفرات. وحكم هذه البلاد المسلمون، وكان أوّل ملك لهم محمّد[١٦]، الذي ادّعى النبوّة فيهم، فدبّر شؤونهم، وأنقذهم من الجاهليّة وجعل الإسلام لهم دينًا، يعبدون الإله الخالق الواحد الأحد، وسنّ لهم شريعة بعد أن كانوا يعبدون الأصنام ويسجدون لها وخاصّة الأشجار.

(سنة ٩٣٣ ي/٦٢٢ م) مات فيها فيقوس ملك الروم[٢]، وحكم بعده هرقل[٣] إحدى وثلاثين سنة.

(سنة ٩٣٤ ي/٦٢٣ م) مات مار قوريقا أسقف آمد[٤]. وقام بعده مار توما.

---

(١) أنظر أخبار فتح فلسطين لدى البلاذريّ في كتابه فتوح البلدان ١ : ١٦٤ - ١٧١ .

(٢) استعمل المؤلّف كلمة «ملك» متجاهلا أو جهلاً منه أنّ محمّدًا لم يكن ملكًا، إنّما مصلحٌ دعا الناس إلى عبادة اللّه الواحد. وأنشأ أسس الدولة العربيّة الإسلاميّة الأولى في يثرب (المدينة) والذين تولّوا الأمر بعده سُمّوا «خليفة» وجمعها «خلفاء». وولد محمّد في العام ٥٧٠ / ٥٧١ م.

(٣) راجع الحاشية رقم ١٤ هنا أعلاه.

(٤) الصحيح هرقل هذا حكم (٦١٠ - ٦٤١ م) وليس كما أشار المؤلّف.

(٥) آمد: (ديار بكر) مدينة في تركيا على شاطئ دجلة الأيسر. فتحها عياض بن غَنْم عام ٦٤٠، والعثمانيّون عام ١٥١٥. كانت تشتهر بتجارة الحرير والقطن والجلود. وكانت قاعدة لأبرشيّة سريانيّة كبيرة. لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الكنيسة السريانيّة الأنطاكيّة.

(سنة ٩٣٧ ي/٦٢٦ م) سقطت نجوم من السماء باتّجاه الشمال كالنبال، وهذه كانت علامة لهزيمة الروم واستيلاء المسلمين على ديارهم.

(سنة ٩٣٨ ي/٦٢٧ م) توفّي محمّد ملك المسلمين[١]، وخلفه أبو بكر خمس سنوات[٢].

(سنة ٦٤٠ ي/٦٢٩ م) باشر هرقل ملك الروم في بناء الكنيسة الكبرى ببلدة آمد.

(سنة ٩٤٣ ي/٦٣٢ م) مات أبو بكر خليفة المسلمين[٣]، وخلفه عمر اثنتي عشرة سنة[٤].

(سنة ٩٤٤ ي/٦٣٣ م) نزل هرقل ملك الروم إلى الرها، وحدث بينه وبين الفرس معركة، هرب على إثرها الفرس، وخرجوا من بين النهرين[٥].

(سنة ٩٤٨ ي/٦٣٧ م) استولى العرب المسلمون على الجزيرة[٦]، وهرب الروم، ودخل عيص[٧] إلى الرها[٨].

---

(١) الصحيح أنّ محمّدًا توفّي عام ٦٣٢ م يوم ٨ حزيران.

(٢) الصحيح أنّ أبا بكر حكم من ١١هـ - ١٣هـ، الموافق (٦٣٢ - ٦٣٤ م) أي أنّه حكم ثلاث سنين تقريبًا.

(٣) أبو بكر الصدّيق: أوّل الخلفاء الراشدين، قضى على المرتدّين. وأرسل الجيوش الإسلاميّة لفتح العراق وبلاد الشام.

(٤) عمر بن الخطّاب (٦٣٤ - ٦٤٤ م) تابع وعزّز الحملات العسكريّة الأولى التي شنّها خارج الجزيرة العربيّة أبو بكر الصدّيق. لقّب بالعادل والفاروق. إذ يشغل أهمّيّة خاصّة في ميدان التشريع الإسلاميّ. فهو الذي استند على أحكام القرآن والسنّة النبويّة.

(٥) في هذه المعركة استرجع الروم خشبة الصليب المقدّس من الفرس إلى القدس بعد أن كان قد نهبه الفرس ومكث عندهم فترة من الزمن.

(٦) الصحيح أنّ المسلمين استولوا على الرها وإقليم الجزيرة عام ٦٣٩ م. فقد كان أبو عبيدة الجرّاح قد وجّه عياض بن غنم الفهريّ إلى الجزيرة، ولم يزل يحاصرها حتّى استسلمت المدن الرئيسيّة حرّان والرها وراشعينا وماردين وآمد وسروج ونصيبين بشروط متّفق عليها. ووضع عليها الخراج على الأرضين ورقاب الرجال، على كلّ إنسان أربعة وخمسة دنانير وستّة في سنة ١٨هـ (اليعقوبيّ ٢: ١٥٠؛ وانظر أيضًا عن فتوح الجزيرة للبلاذريّ ١: ٢٠٤ - ٢١٥).

(٧) عيص هذا، ليس إلاّ عياض بن غنم الآنف الذكر.

(٨) وكتب عياض كتابًا لأهل الرها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عياض بن غُنْم ومن معه من المسلمين لأهل الرها: إنّي أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم إذا أدّوا الحقّ الذي عليهم، ولنا عليهم أن يحصلوا جوارنا ويهدوا ضالّنا. شهد الله وملائكته والمسلمون» (البلاذريّ. فتوح البلدان ١: ٢٠٧).

(سنة ٩٥٢ ي/٦٤١ م) وصل العرب إلى دارا[١] وحاربوها، ووقع بين الطرفين قتلى كثيرون، وخاصّة من العرب، ومن ثمّ أعطوها العهد، وفتحوا المدينة صلحًا[٢].

وفي هذه السنة هجموا على أربين[٣]، ووقع فيها قتلى ما يقارب اثني عشر ألفًا من الأرمن[٤].

(سنة ٩٥٣ ي/٦٤٢ م) استولى العرب على مدينة قيساريّة[٥] بفلسطين[٦].

(سنة ٩٥٥ ي/٦٤٤ م) قدم قائد جيش الروم البطريق ولنطينا وأعلن الحرب مع العرب، إلاّ أنّه خاف، فهرب من أمامهم تاركًا لهم الغنائم التي استولى عليها العرب.

وفي هذه السنة دخل على قطر سَروج[٧]، وبغضب عظيم فرّ قوبي وثاودورا ونهبا وسلبا وخرّبا الديار ورجعا من ثمّ إلى موطنهما.

---

(١) في سنة ٦٣٧ م حاول الحاكم البيزنطيّ لإقليم الرها يوحنّا كاثياس رشوة المسلمين المتقدّمين بعرض الجزية عليهم، ولكنّ الأمبراطور هرقل نقض عمله ونحّاه من منصبه. ولم يستطع خلفه بطليموس أن يفعل شيئًا لاسترداد ثروات بيزنطية في هذا الإقليم. إذ إنّ جيوش المسلمين اجتاحت سوريا والعراق بسرعة، وكان احتلالهم لشمال ما بين النهرين مسألة وقت فقط. ولم يبق أمام القائد البيزنطيّ طريق سوى الانسحاب عبر الفرات. ودارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين وإنّها من بلاد الجزيرة، ذات بساتين ومياه جارية. ومن أعمالها يُجلب المحلّب الذي تتطيّب به الأعراب. وعندها كان معسكر دارا الملك لمّا لقي الإسكندر (معجم البلدان، ٤:٥ - ٦).

(٢) البلاذريّ، فتوح البلدان، ١:٢٠٨ .

(٣) الراجح أنّها مدينة أرجيش الأرمنيّة، وتقع قرب مدينة خلاط.

(٤) وجّه عثمان بن عفّان حبيب بن مسلمة الفهريّ على رأس جيش إلى أرمينيا وفتحها (اليعقوبيّ ٢:١٦٨).

(٥) قيساريّة: بلدة على ساحل بحر الشام، تعدّ في أعمال فلسطين بينها وبين طبريّة ثلاثة أيّام. وكانت قديمًا من أعيان أمّهات المدن، واسعة الرقعة طيّبة البقعة، كثيرة الخير والأهل (معجم البلدان ٧:٦٩٥). وأمّا الآن فليست كذلك.

(٦) فتح قيساريّة معاوية بن أبي سفيان وقد نصّبه الخليفة عمر بن الخطّاب واليًا عليها سنة ١٥هـ / ٦٣٧ م (البلاذريّ، فتوح البلدان، ج١، ص١٦٦ - ١٧٠؛ وتاريخ الأمم والملوك ج٤، ص ١٥٦).

(٧) سَروج: بلدة قريبة من حرّان من ديار بكر... غلب عياض بن غنم على أرضها ثمّ فتحها صلحًا على مثل صلح الرها في سنة ١٧هـ، في أيّام الخليفة عمر بن الخطّاب (معجم البلدان ٥:٧٧).

بعد أثناسيوس البطريرك (الأنطاكيّ) نُصّب تلميذه يوحنّا[١]. واشتهر القدّيس يوحنّا الأنطاكيّ[٢]، ويوحنّا أسقف العرب[٣]، وشمعون الرهاويّ، ومتّى الحلبيّ من الدير المقدّس دير زوقنين، ومار توما الآمديّ من نفس الدير[٤].

(سنة ٩٥٦ ي/٦٤٥ م) مات عمر خليفة العرب[٥]، وخلفه عثمان[٦]، مدّة اثنتي عشرة سنة.

(سنة ٩٦٠ ي/٦٤٩ م) دخل معاوية إلى قبرص[٧]، وفي نفس السنة استولى على مدينة إيرواد[٨].

---

(١) هو البطريرك مار يوحنّا الثالث أبو السَدْرات والحِسّايات البديعة التي في فرضنا الكنسيّ، وهي أنيقة شائعة المعاني. كانت بطريركيّته عام ٦٣١ م بوضع يد إبراهيم النصيبينيّ. وبعد ثماني عشرة سنة توفّي في دير زعورا بديار بكر في ١٤ كانون الأوّل ٦٤٩ م، وكان منذ نعومة أظفاره ميّالاً إلى مطالعة الكتب كمعلّمه وسلفه أثناسيوس البطريرك، وإليه طلب عمرو بن سعد بن العاص ترجمة الإنجيل إلى العربيّة، وشرط عليه أن لا يرقّم اسم المسيح ابن الله والعماد والصليب. فقال له يوحنّا ببسالة: معاذ الله ألاّ أنقض حرفًا واحدًا من الإنجيل، إنجيل ربّي، ولو كلّفني ذلك أمرّ العذاب، ولو اخترقت جسمي كلّ رماح وسيوف جيشك. فانذهل عمرو من شجاعته، وأمره بالترجمة كيفما يشاء (الزهرة الذكيّة، ص٣٦، رقم ٦١؛ ساكا ص١٤٦، رقم ٤٢ ويدعوه يوحنّا الثاني؛ ابن العبريّ، الكنسيّ ص ٤٥ - ٤٦ حسب مخطوطتنا).

(٢) اشتهر بوضعه السَدْرات والحِسّايات والطلبات البيعيّة والطقسيّة.

(٣) يوحنّا أسقف العرب: سُمّي هكذا لأنّه كان يرافق أبناء أبرشيّته، وأغلبهم من أبناء قبيلة تغلب الرحّل المتنقّلين بين بادية الشام وبادية العراق غرب الفرات، ولاسيّما في منطقة الأنبار.

(٤) دير زوقنين بظاهر ديار بكر، دير عظيم مشهور، نشأ منه إيوانيس الأوّل (+ ٧٥٥ م) وأربعة عشر أسقفًا (اللؤلؤ المنثور، ص٥١١).

(٥) قتله بضربة خنجر أبو لؤلؤة الفيروز الفارسيّ وهو في الصلاة. إذ طعنه بستّ ضربات إحداهنّ تحت سرّته وهي التي قتلته... وتوفّي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة ٢٣هـ، ودفن في بيت عائشة مع محمّد (تاريخ الأمم والملوك ٥: ١٢ - ١٣).

(٦) بويع لعثمان بن عفّان (٦٤٤ - ٦٥٦ م) يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجّة سنة ٢٣هـ. وقال آخرون غير ذلك: تاريخ الأمم والملوك ٥: ٤٣؛ كذلك اليعقوبيّ ٢: ١٦٢ في تشرين الثاني. اهتمّ خصوصًا بجمع النصّ الرسميّ للقرآن وتدوينه. وفي عهده تمّ فتح بلاد فارس.

(٧) أوّل من غزا في البحر معاوية بن أبي سفيان زمن الخليفة عثمان بن عفّان. وقد كان استأذن الخليفة عمر بن الخطّاب فلم يأذن له... وصالح أهلها... على جزية سبعة آلاف دينار يؤدّونها للمسلمين... وقال الواقديّ إنّه غزاها سنة ٢٨هـ (تاريخ الأمم والملوك ج ٥. ص ٥٢ - ٥٣).

(٨) أرواد: بالفتح والسكون وواو وألف ودال مهملة. اسم جزيرة في البحر قرب القسطنطينيّة، غزاها المسلمون وفتحوها سنة ٥٤هـ مع جنادة بن أبي أميّة في أيّام الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وأسكنها معاوية بالمسلمين... (معجم البلدان ١: ٢٠٧).

(سنة ٩٦١ ي/٦٥٠ م) مات القدّيس مار يوحنّا بطريرك أنطاكية في ١٤ كانون الأوّل ٦٤٩ م ودفن في مدينة آمد، ووضع في هيكل القدّيس مار زعورا[١].

وفي نفس السنة مات القدّيس مار يوحنّا أسقف العرب، ووضع في هيكل مار يوحنّا المعمدان في آمد.

وفي نفس السنة مات القدّيس شمعون الرهاويّ في آمد ووضع في هيكل مار زعورا.

(سنة ٩٦٢ ي/٦٥١ م) أقيم مار ثاودورا بطريركًا على أنطاكية[٢]، وفي إثرها أقيم قوريقا.

(سنة ٩٦٣ ي/٦٥٢ م) حدث حرب بين الروم والمسلمين في مدينة طرفوليس[٣].

(سنة ٩٦٤ ي/٦٥٣ م) دخل حبيب[٤] إلى الجزيرة[٥]. وجاء فروقوفي ليقيم السلام مع المسلمين.

(سنة ٩٦٥ ي/٦٥٤ م) مات هرقل ملك الروم[٦] بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة، وحكم بعده قسطنطين الصغير[٧] سنة واحدة.

(سنة ٩٦٦ ي/٦٥٥ م) مات قسطنطين. وقام قسطنطينوس آخر سبعٍ وعشرين سنة[٨].

---

(١) (ابن العبريّ، التاريخ الكنسيّ ١:٤٦).

(٢) ثاودورا. كانت ولادته في بريّة الصعيد ودرس في دير قنّسرين. وفي سنة ٦٤٩ م رقّي إلى كرسيّ أنطاكية بواسطة إبراهيم أسقف حمص في كنيسة أنطاكية. ودبّر الكرسيّ ثماني عشرة سنة كسالفه. وتوفّي سنة ٦٦٧ م ودفن في دير قنّسرين حيث تربّى (الزهرة الذكيّة ص٣٦، رقم ٦٢؛ وابن العبريّ. التاريخ الكنسيّ ١:٤٦).

(٣) قد يقصد بها مدينة طرابلس شمال لبنان حاليًّا.

(٤) هو حبيب بن مسلمة الفهريّ فاتح أرمينية والجزيرة.

(٥) وجّه عياض بن غنم، صفوان بن المعطّل وحبيب بن مَسْلَمة الفهريّ إلى شميشاط. وانتصرا على قراها وحصونها، فصالحا أهلها على مثل صلح أهل الرها (البلاذريّ. فتوح البلدان ١:٢٠٧).

(٦) الصحيح أنّ هرقل قد مات سنة ٦٤١ م.

(٧) الصحيح نُصّب قسطنطين الثاني عام ٦٤١ م.

(٨) الصحيح هو قنسطانز الثاني (٦٤٢ – ٦٦٨ م).

(**سنة ٩٦٧ ي/٦٥٦ م**) مات عثمان خليفة المسلمين[١]، وحدث فتنة بين المسلمين، وكثرت الشرور في الأرض وسُفكت دماء كثيرة من بعض المسلمين لأنّهم لم يتّفقوا على أحد أن يكون خليفة، وكثيرون كانوا المطالبين بها. وإنّ رئيس الجيش الذي بأرض المغرب[٢]، واسمه معاوية[٣]، أراد أن يَمْلُك. وكان أبناء المغرب[٤] يحبّونه، فبايعوه وقدّموا له الطاعة. وفي أرض المشرق[٥] والجزيرة سعى الناس لغيره، وقدّموا الطاعة لقائد الجيش هناك واسمه عيسى[٦] فبايعوه، ولهذا السبب وقع بين الاثنين حربٌ وسفكُ دماء استمرّا خمس سنوات[٧].

(**سنة ٩٦٨ ي/٦٥٧ م**) حدث حرب بين أتباع معاوية وعيسى[٨]، وسُفكت دماء كثيرة من الطرفين.

(**سنة ٩٧٣ ي/٦٦٢ م**) قتل عيسى[٩] بجبلة[١٠] يوم الجمعة[١١] وقت الصلاة وهو

(١) جاء في كتاب مروج الذهب للمسعوديّ: «وقتل في ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجّة. وذكر أنّ أحد الرجلين ويدعى كنانة بن بشر التجيبيّ ضربه بعمود على جبهته والآخر منهما سعد بن حمران المراديّ ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحلّه. وقد قيل إنّ عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات وكان فيمن مال عليه عمير بن ضابى البرجميّ التميميّ، وخضخض سيفه في بطنه» (٢:٢٤٦). ولدى اليعقوبيّ: لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجّة (٢:١٧٦). وقال الطبريّ: إنّه قتل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة سنة ٣٥هـ (٥:١٢٢).

(٢) المقصود بأرض المغرب بلاد الشام الكبرى ومصر.

(٣) كان معاوية بن أبي سفيان واليًا على بلاد الشام.

(٤) المقصود بهم الشاميّون.

(٥) المقصود بأرض المشرق العراق وبلاد فارس.

(٦) ليس عيسى إنّما هو عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ محمّد وزوج ابنته فاطمة. (٦٥٦ - ٦٦١ م).

(٧) من أهمّ المعارك بين الطرفين معركة صفّين التي انتصر فيها معاوية بخدعة رفع المصاحف على الرماح للتفاوض. وكانت الفاصلة، وأدّت إلى تأسيس الدولة الأمويّة في الشام.

(٨) الصحيح الإمام عليّ بن أبي طالب.

(٩) الصحيح الإمام عليّ بن أبي طالب.

(١٠) قتل في الكوفة عاصمته في العراق. وما زال مرقده فيها ماثلا للعيان.

(١١) يقول الطبريّ: يوم الجمعة قتل عليّ سنة ٤٠هـ. وقتله ابن ملجم. وكان من أهل مصر (تاريخ الأمم والملوك ٦:٨٣ - ٨٥).

راكع يصلّي. واستلم معاوية زمام الحكم وحده[١]، ودام حكمه إحدى وعشرين سنة، من ضمنها خمس سنوات الفتنة، التي حدثت بينه وبين عيسى[٢].

(سنة ٩٧٦ ي/٦٦٥ م) مات القدّيس مار ثاودورا بطريرك أنطاكية، وقام بعده القدّيس مار ساويرا بن مشقا[٣]. وفي الرها نُصّب القدّيس يعقوب خلفًا لقوريقا.

وفي هذا الزمن اشتهر هارون الفارسيّ المترجم.

(سنة ٩٨٨ ي/٦٧٧ م) مات معاوية خليفة المسلمين[٤]، وخلفه يزيد[٥] ثلاث سنوات ونصف السنة.

(سنة ٩٩٠ ي/٦٧٩ م) في اليوم الثالث من شهر نيسان. وصادف نهار الأحد، حدث خوف عظيم، أجهضت فيه الحوامل في مدينة سَروج، وتهدّمت كنيسة الرها الكبرى. ومات فيها خلق كثير[٦].

(سنة ٩٩٢ ي/٦٨١ م) مات يزيد خليفة العرب[٧]، وحكم بعده مروان لسنة

---

(١) جاء لدى الطبريّ أنّه بويع لمعاوية سنة ٤١هـ لخمس بقينَ من شهر ربيع الأوّل. بعد أن بايعه الحسن بن عليّ بن أبي طالب (تاريخ الأمم والملوك ٦:١٨١).

(٢) الصحيح الإمام عليّ بن أبي طالب.

(٣) هو ساويرا الثاني. تربّى في دير أسفولس برأس العين. وسُقّف على آمد سنة ٦٦٨ م. ورسم بطريركًا بوضع يد يوحنّا الطرسوسيّ ضدّ القوانين البيعيّة، ولم يكن محمود السيرة من حيث أوقد نار الشحناء والفتنة في الشعب. محاولاً قضاء وطره بواسطة الجنود. وثارت خصومة بينه وبين المطارنة سركيس الزاخونيّ وجبرائيل الراسعينيّ وحنانيّا القرتمينيّ. لأنّه أنكر عليهم أن يرسموا أساقفة لأبرشيّاتهم حسب القوانين القديمة. وادّعى بأنّ بطاركة السريان اليعاقبة أبطلوها منذ انفصالهم في المجمع الخلقيدونيّ. ورام عقد مجمع فيه حرمه أساقفته. وأسقطوا اسمه من الدبتيخا. فقطعهم هو أيضًا. ولبثوا هكذا أربع سنوات. ولمّا احتضر كتب إلى يوحنّا المفريان أن «حلّهم متى ارعووا» فصحّ ذلك بعد وفاته سنة ٦٨٠ م، وقبلوا الرسامات التي جرت بواسطته (الزهرة الذكيّة ص٣٧. رقم ٦٣؛ وأيضًا ابن العبريّ. التاريخ الكنسيّ ١: ٤٦ - ٤٧ حسب مخطوطتنا؛ ساكا. كنيستي ص١٤٧. رقم ٤٤).

(٤) يذكر الطبريّ أنّ معاوية مات ليلة الخميس للنصف من رجب سنة ٦٠هـ. وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا... (الأمم والملوك ٦: ١٨٠ - ١٨١).

(٥) بويع ليزيد بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه للنصف من رجب. وقيل ولّي في هلال رجب سنة ٦٠هـ (اليعقوبيّ ٢: ٢٤١؛ والأمم والملوك ٦: ١٨٨).

(٦) على أثر هزّة أرضيّة عنيفة.

(٧) مات يزيد في قرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من أرض الشام، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة ٦٤هـ. وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة (الأمم والملوك ٧: ١٥).

واحدة[١]. وفي نفس السنة مات الملك قوسطنطينوس ملك الروم[٢]. وقام بعده قوسطنطينوس آخر[٣]، وحكم عشر سنوات.

(سنة ٩٩٣ ي/٦٨٢ م) مات مروان خليفة العرب[٤] وخلفه عبد الملك[٥]، وحكم إحدى وعشرين سنة. وفي أيّامه حدثت فتنة دامت تسع سنين لسبب عدم اتّفاق المسلمين على خليفة واحد، وخلال التسع سنوات هذه حدثت الحرب الضروس وكثر الشغب[٦].

(سنة ٩٩٤ ي/٦٨٣ م) مات القدّيس مار سويرا بن مشقا وبقي كرسيّ البطريركيّة شاغرًا مدّة خمس سنين دون أسقف[٧] (بطريرك).

(سنة ٩٩٩ ي/٦٨٨ م) نصّب القدّيس أثناسيوس بطريركًا[٨].

(سنة ١٠٠٢ ي/٦٩١ م) حدث سلام تامّ، وقدّم الجميع الطاعة لعبد الملك واستتبّ له الحكم[٩].

---

(١) في الحقيقة بعد يزيد بن معاوية، ولي الخلافة معاوية بن يزيد الذي بويع له بالخلافة... ولم يمكث إلاّ أربعين يومًا ومات، وقيل ثلاثة أشهر... (الأمم والملوك ٧: ١٦ – ١٧).

(٢) الصحيح هو قسطنديوس الثاني من سلالة هيراكليوس أيضًا، وحكم (٦٤٢ – ٦٦٨ م).

(٣) الصحيح هو قسطنطين الرابع من سلالة هيراكليوس أيضًا. وحكم (٦٦٨ – ٦٨٥).

(٤) كانت أيّام حكمه تسعة أشهر وأيّامًا قلائل، وقيل ثمانية أشهر... ومات وهو ابن ثلاث وستّين سنة (مروج الذهب ٣: ٨٩).

(٥) بويع لعبد الملك بن مروان ليلة الأحد غرّة شهر رمضان من سنة ٦٥هـ (مروج الذهب ٣: ٩١).

(٦) حدثت فتن كثيرة منها فتنة مصعب بن الزبير في العراق، وحركة عبد الرحمن الأشعث في العراق أيضًا، وفتنة عبد الله بن الزبير في الحجاز وغيرها...

(٧) ابن العبريّ، التاريخ الكنسيّ ١: ٤٦ – ٤٧ من مخطوطتنا.

(٨) هو أثناسيوس الثاني. ولد في بلد (تسمّى شهراباذ على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ، وتبعد عن نصيبين ثلاثًا وعشرين فرسخًا. وتسمّى أيضًا «أسكي موصل»). وقرأ العلوم في دير قنّسرين مع زميله يعقوب الرهاويّ على ساويرا سابوخت. وسنة ٦٨٤ م وهي الرابعة لفراغ الكرسيّ، سمّي بطريركًا في دير أسفولس برأس العين بوضع يد حنانيّا مطران ماردين وكفرتوت. وكانت مدّة رئاسته ثلاث سنوات. وتوفّي عام ٦٨٨ م. واشتهر باضطلاعه بأصناف العلوم، وفسّر غريغوريوس النزينزيّ وساويرا الأنطاكيّ وكتابًا في الفلسفة ورسائل وصلوات (الزهرة الذكيّة ص٣٨، رقم ٦٤؛ ابن العبريّ، التاريخ الكنسيّ ١: ٤٧ – ٤٨).

(٩) يقول المسعوديّ: وسار عبد الملك من دير الجاثليق حتّى نزل النخيلة بظهر الكوفة. فخرج إليه أهل الكوفة، فبايعوه ووفى الناس بما كان وعدهم به في مكاتبته إيّاهم سرًّا. وخلع وأحاز وأقطع ورتّب الناس على قدر مراتبهم، وعمّهم ترغيبه وترهيبه، وولّى على البصرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسد، وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام، منهم رَوْح بن زنباع الجذاميّ. وبعث الحجّاج بن يوسف لحرب ابن الزبير في مكّة. وسار في بقيّة أهل الشام إلى دار ملكه بدمشق (مروج الذهب ٣: ١١).

(سنة ١٠٠٣ ي/٦٩٢ م) عدّل عبد الملك نظام الجزية[(١)]، على السريان، وأصدر أمرًا قطعيًّا أن يذهب كلّ شخص إلى قريته أو مدينته ومسقط رأسه عند والديه ويكتب كلّ واحد باسمه وابن من هو، وما لديه من الأملاك، من أبناء، وكروم، وأموال. ومنذئذٍ بدأوا باستيفاء الجزية على رؤوس الرجال بعد أن كانت تستوفى من المملوك أو العبيد[(٢)].

(سنة ١٠١٤ ي/٧٠٣ م) مات عبد الملك خليفة المسلمين[(٣)]. بعد أن حكم إحدى وعشرين سنة من ضمنها التسع سنوات التي قامت فيها الفتنة.

(سنة ١٠١٥ ي/٧٠٤ م) مات القدّيس أثناسيوس بطريرك أنطاكية، وخلفه القدّيس مار يولينا[(٤)].

(سنة ١٠١٦ ي/٧٠٥ م) حدث وباء شديد في الأرض، حتّى إنّ الناس لم يكونوا يُخرجون موتاهم لدفنهم، واشتدّ خصوصًا في منطقة سَروج. ومات بهذا الوباء في دير مار شيلا[(٥)]، اثنان وسبعون شخصًا.

(سنة ١٠٠٨ ي/٦٩٧ م) مات الملك قوسطنطينوس، وخلفه يوسطانينا عشر سنوات[(٦)].

---

(١) يذكر الطبريّ أنّه في سنة ٧٦هـ أمر عبد الملك بنقش الدنانير والدراهم.. كما ذكر الواقديّ أنّ عبد الملك هو أوّل من أحدث ضربها (الأمم والملوك ٧: ٢٤٢).

(٢) جاء في النصّ (بعد أن كانت تستوفى من الملوك). فنعتقد أنّه خطأ. فقلنا «تستوفى من المملوك أي العبيد؟».

(٣) ويقول الطبريّ: إنّ عبد الملك بن مروان مات بدمشق الخميس للنصف من شوّال سنة ٨٦هـ. فكانت ولايته منذ يوم بويع إلى يوم توفّي ٢١ سنة وشهرا ونصفا. كان ٩ سنين منها يقاتل عبد الله بن الزبير... (الأمم والملوك ٧: ٥٦). ويقول المسعوديّ: توفّي عبد الملك بن مروان بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوّال سنة ٨٦هـ. وكانت ولايته منذ أن بويع إلى أن توفّى ٢١ سنة وشهرًا ونصفًا (مروج الذهب ٣: ٩١).

(٤) وعام ٦٨٨ م نُصّب يوليان الثالث وكان عسكريًّا روميًّا. ولذا يدعى يوليان الروميّ. ترهّب في دير قنّسرين. ورسم بطريركا في ديار بكر بواسطة أثناسيوس السروجيّ. وأصابه دِنْحا المفريان وبعض المطارنة بعظيم أذًى فتغلّب عليهم ودحض المفريان. وسمّى باخوس بدله. ودبّر الطائفة ٢١ سنة. وتوفّي سنة ٧٠٩ (الزهرة الذكيّة ص٣٩. رقم ٦٥؛ ساكا. كنيستي ص١٤٨ رقم ٤٦؛ ابن العبريّ. التاريخ الكنسيّ ص٤٨ - ٤٩ بحسب مخطوطتنا).

(٥) دير مار شيلا. القدّيس المتوفى سنة ٥٠٦ م في مدينة سروج. فيه عُقِد مجمعان سنة ٧٠٦ و ٨٤٦، ونَجدَ الكنيسة بتسعة أساقفة من سنة ٦٩٨ إلى سنة ٩٣٠ .

(٦) الصحيح هو قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥ م) وخلفه يوستينيانوس الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥ م) وكلاهما من سلالة هيركليوس.

(سنة ١٠١٧ ي/٧٠٦ م) اجتمع المجمع في دير مار شيلا. وترأّسه يولينا البطريرك، وحضره توما الآمديّ ويعقوب الرهاويّ مفسّر الكتب. واشتهر بهذا الزمن مار يعقوب أسقف الرها.

(سنة ١٠١٩ ي/٧٠٨ م) مات القدّيس مار يولينا بطريرك أنطاكية. وخلفه مار إيليّا[١].

(سنة ١٠٢٠ ي/٧٠٩ م) حدث تعديل آخر أضيف على الأوّل. وازداد فيه الشرّ والشغب[٢].

(سنة ١٠٢١ ي/٧١٠ م) مات القدّيس مار يعقوب أسقف الرها[٣]. وقام بعده مار حبيب.

وفي هذا الزمان اشتهر مار توما الأسطوانيّ في تِللاّ.

(سنة ١٠٢٢ ي/ ٧١١ م) مات لونطينس ملك الروم[٤]، وخلفه طيبريوس أفسيمروس سبع سنوات[٥].

---

(١) هو إيليّا الذي تربّى في الجبّ الخارجيّ، ثمّ تسقّف ١٨ سنة على فامية (أو أفامية، مدينة في ما بين النهرين وهي غير أفامية التي أطلقت على حماة) ثمّ ندب إلى البطريركيّة سنة ٧٠٩ م. وواجه الخليفة الوليد بن عبد الملك وحظي لديه. وتوجّه إلى أنطاكية بمعيّة بعض الإكليروس والرهبان. ودشّن كنيسة كان شيّدها بسعيه سنة ٧٢٢ م. كرّس كنيسة أخرى في سرمدا بأنطاكية. وطالت مدّة رئاسته ١٤ سنة. وتوفّي بديره يوم ٣ تشرين الأوّل سنة ٧٢٣ وعمره اثنتان وثمانون سنة (الزهرة الذكيّة ص٣٩، رقم ٦٦؛ ساكا. ص١٤٨، رقم ٤٧؛ ابن العبريّ، التاريخ الكنسيّ ص٤٩ حسب مخطوطتنا).

(٢) ربّما يقصد تعديلاً في نظام الجزية والخراج على أيّام الوليد بن عبد الملك.

(٣) ولد يعقوب الرهاويّ قرب أنطاكية وعيّن مطرانا على الرها نحو سنة ٦٨٤م. إلاّ أنّه غضب سنة ٦٨٧ م على الرخاوة التي فسّرت بها قوانين الكنيسة. فاستقال من منصبه بعد أن أحرق علانية نسخة من الأنظمة الإكليريكيّة. وانعزل إلى حياة الرهبنة. واستدعي ثانية إلى كرسيّ أبرشيّة الرها سنة ٧٠٨. ولكنّه توفّي بعد أربعة أشهر فقط من رجوعه (سيغال، الرها، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا. ص٢٦٠).

(٤) الصحيح هو لاونديوس المغتصب (٦٩٥ – ٦٩٨) من سلالة هيراكليوس.

(٥) الصحيح هو طيباريوس الثالث المغتصب (٦٩٥ – ٧٠٥) من سلالة هيراكليوس.

(سنة ١٠٢٣ ي/ ٧١٢ م) مات وليد خليفة العرب[١]. وخلفه سليمان، وحكم سنتين ونصف السنة[٢].

(سنة ١٠٢٤ ي/ ٧١٣ م) مات القدّيس مار توما أسقف آمد وخلفه مار ثاودوطا.

بعد أفسيمروس ملك الروم حكم يوسطنينا ستّ سنوات[٣]. وبعده حكم ثاودسيس قوسطنطينوس سنة واحدة[٤]، هذا الذي كان يحكم لدى دخول مسلمة لبيت روميا. هذه السنين من سني ملوك الروم التي بقيت اثنتي عشرة سنة. هذه هي التي سمعت عنها بأنّ واحدًا كان يزيد والآخر ينقّص. كما وأنّ المسلمين أيضًا لم يكونوا يؤرّخون إلاّ بالأشهر القمريّة، وليس كالسريان الذين كانوا يؤرّخون بالأشهر الشمسيّة. كما أنّ البعض من المؤرّخين كانوا يسجّلون خطأً الأيّام التي كان الملوك يجلسون فيها على العرش إذ كانوا يعتبرونها أوّل التقويم لتلك السنين. ولهذا حدثت اضطرابات عديدة في التاريخ ليس عندي فقط إنّما عند الآخرين، ولهذا لا أريد أن أُقلق فكر القارئ بهذه السنين في هذا الفصل[٥].

---

(١) بويع الوليد بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي توفّي فيه عبد الملك. وتوفّي بدمشق للنصف من جمادى الآخرة من سنة ٩٦هـ. فكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين. وهلك وهو ابن ٤٣ سنة (مروج الذهب ٣:١٥٦). وذكر الطبريّ أنّ وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ... وقيل غير ذلك. وقال إنّ ولاية الوليد استمرّت تسع سنين وسبعة أشهر... وغير ذلك من الآراء (الأمم والملوك ٧:٩٧).

(٢) وبويع سليمان بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي كانت فيه وفاة الوليد، وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ. وتوفّي سليمان بمرج دابق من أعمال جند قنّسرين يوم الجمعة لعشرٍ بقينَ من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليالٍ. وهلك ابن تسع وثلاثين سنة (مروج الذهب ٣:١٧٣). ويقول الطبريّ: توفّي سليمان بدابق من أرض قنّسرين يوم الجمعة لعشر ليالٍ بقينَ من صَفَر، وقيل كانت خلافته سنتين وتسعة أشهر، وقيل سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيّام... (الأمم والملوك ٧:١٢٦).

(٣) الصحيح يوستينيانوس الثاني (٧٠٥ – ٧١١) من سلالة هيراكليوس.

(٤) الصحيح فيليبيكوس (٧١١ – ٧١٣) من سلالة هيراكليوس أيضًا.

(٥) يقرّ المؤلّف هنا بتقصيره في ضبط تواريخ السنين، إضافة إلى عدم ضبطه لأسماء الأباطرة بصورة صحيحة، حيث اعتمد على السماع وليس على الوثائق أو التواريخ المكتوبة، لذا نحاول تصحيح ذلك على قدر الإمكان والمستطاع.

(**سنة ١٠٢٨ي / ٧١٧م**) دخل مسيلمة[١] إلى بيت رومايا[٢]، وكانت عندئذ جيوش كثيرة من المسلمين قد تجمّعت فيها، واستعدّوا لدخول أرض الروم. فهرب جميع سكّان بلاد آسيا، وقفادوقية(٣) من أمامهم نحو البحر الأسود ولبنان، وحتّى مَلَطية[٤]. وعلى نهر أرسينس[٥]، حتّى أرمينية الداخليّة[٦]؛ وكانت هذه البلاد آهلة بالسكّان، وكثيفة بالزروع والكروم والأشجار المثمرة، كلّ تلك خرِّبت ولم يعد يسكنها أحد.

أمّا الملك، فعندما شاهد كلّ هذا الخراب، وأنّ قائد جيوشه قد استسلم للأعداء، خاف قلبه وارتجفت مفاصله، فتنازل عن العرش وألقى تاج المملكة عن رأسه، وحلقه، إذ كانت العادة عند ملوك الروم إذا تنازلوا عن الملوكيّة، حلقوا رؤوسهم

---

(١) مسيلمة هذا، هو ابن الخليفة عبد الملك بن مروان (البلاذريّ، فتوح البلدان ١:١٧٨).

(٢) بيت رومايا (بيت رومايي) مصطلح سريانيّ يعني بيت الرومان أو الروم. كما نقول بيت آرامايي (بيت الآراميّين)، وبيت عربايي أي بيت العرب. وبيت رومايا بلاد واسعة في شمال الشام وهي تركيا الحاليّة (أنظر عن فتوحها البلاذريّ ١:٢٧، ١٢٧ - ٢٨٤). ويذكر أنّه لمّا كان مسلمة غازيًا للروم من نحو الثغور الجزريّة، عسكر ببالس. فأتاه أهلها وأهل بدليس وقاصرين وعابدين وصفّين وهي قرى منسوبة إليها (البلاذريّ ١:١٧٨).

(٣) قبّدوقية (كبّادوكية) اسم أطلق قديمًا على البلاد الواقعة غربيّ تركيا الآسيويّة (الأناضول) قاعدتها قيصريّة.

(٤) ملطية (ملاطية) بفتح أوّله وثانيه وسكون الطاء وتخفيف الياء. والعامّة تقول بتشديد الياء وكسر الطاء. هي بناء الإسكندر وجامعها من بناء الصحابة. بلدة من بلاد الروم، مشهورة، تتاخم الشام وهي للمسلمين. قال الخليفة بن خيّاط: في سنة ١٤٠ هـ. وجّه أبو جعفر المنصور عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام لبناء مَلَطية، فأقام عليها سنة حتّى بناها وأسكنها الناس. ثمّ غزا الصائفة... وذكرها المتنبّي وأبو فراس الحمدانيّ في قصائدهما (انظر معجم البلدان ٨:١٥).

(٥) في المعجم أرسناس، بالفتح ثمّ السكون وفتح السين المهملة ونون وألف وسين أخرى. اسم نهر في بلاد الروم، يوصف ببرودة مائه. عبره سيف الدولة الحمدانيّ ليغزو. فقال المتنبّي يمدح سيف الدولة ويصف خيله:

حتّى عبرن بأرسناس سوانحا ... ينثرن فيه عمائم الفرسان

(انظر معجم البلدان ١:١٩٢)

(٦) وجّه عياض بن غنم حبيب بن مسلمة الفهريّ من شميشاط إلى ملطية ففتحها ثمّ أغلقت. فلمّا ولي معاوية الشام والجزيرة وجّه إليها حبيب بن مسلمة أيضًا ففتحها عنوة، ورتّب فيها من المسلمين مع عاملها. وقدّمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما. فكانت طريق الصوائف. ثمّ إنّ أهلها انتقلوا عنها في أيّام عبدالله بن الزبير. وخرجت الروم فشعثتها ثمّ تركتها، فنزل قوم من النصارى من الأرمن والنبط (البلاذري ١:٢٢١).

وجلسوا في بيوتهم، وهكذا أصبح وحيدًا لا أحد معه، رغم أنّ لاون قائد الجيش، شجّع نفس الملك قائلاً له: لاتخف. إلاّ أنّه لم يسمعه، بل أصرّ وتنازل عن المملكة.

وأمّا عن لاون فإنّه كان رجلاً شجاعًا ومقاتلاً بطلاً، ومن أصلٍ سريانيّ من هذه الديار، ولأجل شجاعته أقيم قائدًا لجيوش الروم، ومن فرط حكمته لم يرضَ أن تشرب الأرض دماء الناس الأبرياء، إذ اتّفق مع مسلمة، وأخذ منه عهدًا بأن يتركه يدخل القسطنطينيّة من دون قتال. ولمّا كان واثقًا من العهد لم يقاتل ولم ينهب أحدًا، إلاّ أنّه سار بقوّة واستقامة، نحو القسطنطينيّة وضرب خيامه حولها.

إلاّ أنّ لاون لمّا دخل القسطنطينيّة، ورأى خوف الروم والملك قد تنازل عن العرش، شجّعهم وقال لهم: لا تخافوا ولا تيأسوا. ولمّا رأى الشعب شجاعته أقاموه ملكًا. فلمّا لبس التاج، لبس معه ثوب القوّة والشجاعة، فجدّد بناء سور المدينة، وأرسل العساكر، وقطع الطريق المؤدّية إلى العساكر القادمة من سورية وكذلك قطع معابر السفن وكسرها، فأصبح المسلمون وجيوشهم بشبه سجن مطوّقين من كلّ جانب.

فأمر مسلمة بغرس الكروم إذ وقع فيهم جوع عظيم من جرّاء قطع الميرة عنهم، فأكلوا حيواناتهم ومواشيهم، وكان مسلمة يسأل دائمًا لاون قائلاً: كيف شاءت العناية الإلهيّة أن تدخل القسطنطينيّة وتصبح ملكًا دون قتال؟ فيجيبه لاون وبكلّ لطافة: انتظر بضعة أيّام حتّى يقدّم لي الطاعة جميع أكابر المملكة وعظمائها.

وكان مسلمة يطالب لاون يوميًّا أن أعطني ما وعدتني به، أو القتال بيننا. وكان لاون يحاول إقناعه من أجل المماطلة.

في هذه الأثناء ورد الخبر بموت سليمان بن عبد الملك، خليفة المسلمين، وحكم بعده عمر[1] الذي أرسل رسالة مفادها، أن فكّوا الحصار وارجعوا من هناك لئلاّ يفنيكم الجوع.

حينئذٍ طلب مسلمة من لاون أن يسمح له بدخول القسطنطينيّة ويرى معالمها، فدخلها ومعه ثلاثون فارسًا، ومكثوا فيها ثلاثة أيّام يتجوّلون في شوارعها وأسواقها، وبعد هذا تركوها آمنين.

(١) يقصد به الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦٨٢-٧٢٠) وُلد بالمدينة، عُيّن أميرًا للحجاز عام ٧٠٦ م، وخليفة عام ٧١٧. اشتهر بتقواه وتمسّكه بالسنّة. انصرف إلى الإصلاح الداخليّ والماليّ. وأظهر تسامحًا مع العلويّين والمسيحيّين والموالي. توفّي عام ٧٢٠ م.

وإذ اقتربوا من إحدى المدن المسمّاة طُوانا[١]، ورآهم واليها أنّهم منهوكون من الجوع والتعب، شرع يهزأ بهم وأرسل إلى لاون الملك، أن أرسل لي عساكر لأقاتلهم خفية؛ غير أنّ هذا التدبير لم يخفَ على المسلمين الذين شعروا بالجيش الذي يسير وراءهم، فطلب واحد من قادة الجيش أمرًا من رئيسه مسلمة واسمه عيسى، وكان من مشاهير الفرسان قائلاً: أعطني جيشًا لأقاتلهم قبل أن يلحقوا بنا ويقضوا علينا، فتكون آخرتنا أسوأ ممّا حدث لنا في هذه الطريق.

فأخذ جيشًا وخرج للقائهم، وإذ هم سائرون وهم بدون استعداد للقتال، فاجأهم عيسى بجيشه إذ نزل على مرج واسع، ووضع جيشه في كمائن حول المرج. فلمّا قدم جيش الروم، وجلس بالمرج للراحة من عناء الطريق، وأطلقوا مواشيهم للرعي كما هي العادة، خرج المسلمون من كمائنهم وأحاطوا بالمرج وهجموا عليهم هجمة رجل واحد، بحسب الاتّفاق الذي كان كلمة السرّ بينهم، وقتلوهم على بكرة أبيهم بحدّ السيف، وكان عددهم ما يقارب الستّين ألفًا. ومن ثمّ سلبوا غنائم المقتولين، ورجعوا إلى رفاقهم منتصرين.

كما وأنّ جيشًا آخر للروم كان قد توجّه هو الآخر وراء الجيش الأوّل، فلمّا سمع القائد بما حلّ في السابق له، رجع وعاد أدراجه خائفًا خائبًا.

أمّا المسلمون فكانوا يسلبون كلّ ما رأوه في طريقهم من غنائم وميرة إلى حين وصولهم إلى سورية حيث مقرّهم.

---

(١) في معجم البلدان طُوانه، بضمّ أوّله، وبعد الألف نون. بلد بثغور المصيصة. قال يزيد بن معاوية:

وما أبالي بما لاقت جموعهم ... يوم الطوانة من حمّى ومن مومِ
إذ اتّكأت على الأنماط مرتفعًا ... بدير مران عندي أم كلثومِ

وكان المأمون لمّا قدم الثغر غازيًا أمر أن يسوّر على طوانة قدر ميل في ميل، وهيّأ له الرجال والمال بعد شروعه بقليل فبطّله المعتصم.

قال الزبير: كتب مسلمة بن عبد الملك وهو غازٍ بقسطنطينيّة إلى أخيه الوليد:

أرقت وصحراء الطوانة بيننا ... لبرق تلألأ نحو غمرة يلمحُ
أزاول أمرًا لم يكن ليطيقه ... من القوم إلاّ اللوذعيّ الصححْ

(معجم البلدان ٦ : ٦٥ – ٦٦).

ولقد غزا الطوانة مسلمة بن عبد الملك ومعه ميمون الجرجمانيّ. وهو على ألف من أهل أنطاكية فاستشهد بعد بلاء حسن وموقف مشهود (البلاذريّ ١ : ١٩).

(**سنة ١٠٣٢ ي/٧٢١ م**) وكانت السنة الأولى لخلافة عمر خليفة للمسلمين[١]، والسنة الرابعة للاون ملك الروم. خرج مسلمة[٢] من بيت روماياً، وكان قد خرّب الأرض التي بين الحدود بكاملها، حتّى إنّه أرغم سكّانها بالهجرة منها، وجعلها كبرّية جرداء. ولئلاّ نطيل الكلام، تركت الكثير من الحوادث التي جرت في طريق الحملة[٣].

وفي هذا الزمن اشتهر إيليّا البطريرك[٤]، ومار حبيب الرهاوي، وشمون الحرّانيّ.

(١) استخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩هـ. وهو اليوم الذي مات فيه سليمان. وتوفّي بدير سمعان من أعمال حمص ممّا يلي بلاد قنّسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١هـ. فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيّام. وقبض وهو ابن ٣٩ سنة وقبره مشهور في هذا الموضع... ولم يتعرّض لنبشه فيما خلف من الأيّام. كما تعرّض لقبور غيره من بني أميّة (مروج الذهب ٣:١٨٢؛ الأزديّ، تاريخ الموصل ص ٥٤). ويقول الطبريّ: «استخلف عمر بن عبد العزيز بدابق يوم الجمعة لعشر مضين من صَفَر سنة ٩٩هـ» (الأمم والملوك ٨:١٢٨؛ اليعقوبيّ ٢ : ١ – ٣).

(٢) يقصد به مسلمة بن عبد الملك الآنف الذكر.

(٣) بلغ عمر ما فيه من الضيق في بلاد الروم مع مسلمة من الفاقة والضرر؛ فوجّه إليه عمرو بن قيس على الصائفة، ووجّه معه الكساء والطعام والأعطية لمن كان مع مسلمة من المسلمين. فوجّه عمر بن عبد العزيز ابن حاتم بن النعمان الباهليّ، فأوقع بالترك، فلم يفلت منهم إلاّ الشريد. وقدم على عمر منهم بخمسين أسيرًا، فقال رجل من المسلمين لعمر في أسير منهم: لو رأيت هذا يا أمير المؤمنين يقتل المسلمين، لرأيت قتالاً ذريعًا. فقال: قم فاضرب عنقه (اليعقوبيّ ٢ : ٣٠٢).

(٤) راجع الحاشية رقم ٨٤ من هذا الكتاب.

تعقيب وتعليق

للأب سهيل قاشا

أرى من الفائدة أن أضع كلمة قصيرة حول أوضاع المنطقة (الجزيرة) زيادة في الإيضاح لما يريد المؤلّف أن يقوله، إذ وقع مغالطات والتباسات كثيرة في النصّ الذي أورده، فأقول:

عشيّة الفتح الإسلاميّ للجزيرة، كانت هذه تخضع للسيادتين الفارسيّة والروميّة البيزنطيّة. والأطراف الشرقيّة كانت قد خضعت للسيادة الفارسيّة. ولمّا امتدّت الفتوحات الإسلاميّة، كانت بيزنطية تمتلك الإقليم الممتدّ من راس العين إلى الفرات، والسهل الممتدّ إلى الجنوب من طور عبدين. وكان الحدّ يقوم بين نصيبين ودارا عند قلعة سرجة. وإنّ المؤرّخين الذين تحدّثوا عن الفتوح الإسلاميّة في شمال العراق والجزيرة، لحظوا في كتاباتهم اسم بَازِبْدي وبَاقَرْدي، إلى جانب غيرهما من مدن الرافدين، التي أسهبوا في التحدّث عن تاريخ وكيفيّة فتحها، فذكروها بلدًا بلدًا، وحصنًا حصنًا.

فاليعقوبيّ، والطبريّ، وابن خيّاط، وابن الأثير، وابن شدّاد وغيرهم[١]، ذكروا واتّفقوا على أنّ فتح سائر مدن الجزيرة، تمّ على عياض بن غنم وقوّاده، وذكر معظم هؤلاء هذه المدن بأسمائها بما فيها بازبدي وباقردي. وإنّ مدينة جزيرة ابن عمر عُمرت فيما بعد، على أنقاض قرية «الدجلة» في باقردي (كاردو)، ثمّ أصبحت بسبب تحوّل نهر دجلة في كورة بازبدي.

وقال ابن سعد: «إنّ الجزيرة فُتحت على يد عياض بن غنم بن زهير بن أبي شدّاد[٢]».

وذكر الطبريّ عن ابن إسحق قال: «كتب عمر بن الخطّاب، إلى سعد بن أبي

---

(١) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، توطئة ص٤١ .

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج٧؛ ص١٢١ .

وقّاص، أنّ الله تبارك وتعالى، فتح على المسلمين الشام والعراق، فابعث من قبلك جندًا من العراق إلى الجزيرة، وأمِّر عليهم خالد بن عرفطة، أو هاشم بن عتبة، أو عياض بن غنم»[١].

وقد ولّي عياض بن غنم، إذ بعثه سعد بن أبي وقّاص، ومعه جيش انضمّ إليه أبو موسى الأشعريّ وابنه عمر بن سعد وهو غلام حدث السنّ، وعثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفيّ، وكان ذلك في سنة ١٩هـ / ٦٤٠م»[٢].

أمّا ابن الأثير فيقول في أحداث سنة ١٧هـ (٦٣٨م): «وكان فتح الجزيرة في سنة ١٧ على يد عياض بن غنم»[٣].

والبلاذريّ، وأبو يوسف، وابن الفقيه، ذكروا أنّ الجزيرة ومدنها فُتحت على يد عياض بن غنم، في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب. غير أنّ ما أورده ابن خلدون يشير إلى أنّ فتحها كان في عهد عثمان بن عفّان[٤].

ويقول ابن الفقيه الهمذانيّ: «قال الزهريّ لم يبق في الجزيرة موضع قدم، إلاّ فُتح على عهد عمر بن الخطّاب، على يدي عياض بن غنم. فتح حرّان، والرقّة، وقرقيساء، ونصيبين، وسنجار وآمد، وطور عبدين، وحصن ماردين، ودارا، وقردى، وبزبدى وآرزن»[٥].

وهكذا لم يأتِ عام ٢٠هـ / ٦٤١م، حتّى دخلت مدن الجزيرة تحت حكم المسلمين، بما فيها من سكّان يدينون بالمسيحيّة، من العرب وغير العرب، إذ إنّ المسلمين سمحوا لكلّ من لم يعلن إسلامه البقاء على ديانته شرط أن يكون صاحب كتاب. وفرض المسلمون الجزية على غير المسلمين[٦].

* * * * * * * * * * *

---

(١) الطبريّ: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٥٣.

(٢) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، ج٣. ق١، ص٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٣٧٢.

(٤) ابن خلدون: تاريخه، مجلّد٢، ق٥، ١٠١٦.

(٥) ابن الفقيه الهمذانيّ: مختصر كتاب البلدان، ص١٢٣.

(٦) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص٤٠ – ٤١. والجدير بالذكر أنّ وجود القبائل العراقيّة في العراق شجّع المسلمين وسهّل لهم الفتح. وأنّ غالبيّة العرب في الجزيرة الفراتيّة، اعتبروا أنّ الفاتحين من بني جنسهم، ويرتبطون بإخوانهم عرب الحجاز، ولهذا رحّبوا بالجيوش العربيّة الإسلاميّة، وساعدوهم بالفتح، واعتبروهم المنقذين لهم من حالة الظلم البيزنطيّ والفارسيّ.

الجزيرة في العهدين الراشديّ والأمويّ

إنّ المصادر التاريخيّة التي تحدّثت عن أحداث الجزيرة الفراتيّة، وذكرت بعض مدنها كالموصل ونصيبين، وبلد، ورأس العين، وسائر ديار ربيعة خلال العهدين الراشديّ والأمويّ، تذكر، وبإسهاب، الأمراء الذين تولّوا حكم الجزيرة، وتباينت الآراء والأقوال في هذا الخصوص:

فالبلاذريّ يذكر أنّ أوّل من تولّى الجزيرة بعد عياض بن غنم، كان سعيد بن عامر بن حذيم، ولّي بعده، معاوية بن أبي سفيان، إضافة إلى الشام، وكان ذلك من قبل الخليفة عثمان[1].

ويذكر ابن شدّاد أنّ الجزيرة قد ولّيت بعد عياض إلى حبيب بن مَسْلَمَة على عجمها وعربها، والوليد بن عقبة على عربها. وقد بقي الوليد عليها إلى أن عزله عمر بن الخطّاب، وولّي فرات بن حيّان وهند بن عمر. ولم يزل حبيب بن مسلمة أميرًا، إلى أن عزله عمر، وولّى عليها وعلى قنّسرين، وحمص، عمير بن سعد. وبعدما توفّي الخليفة عمر، وولّي عثمان الخلافة، أقرّ عميرعلى أَمْرَته. ولمّا مرض الأخير استأذن الخليفة بالرجوع إلى أهله، فأذِن له.

ثمّ جمع عثمان لمعاوية بين الشام والجزيرة[2].

وتوضح المصادر أنّ معاوية أرسل عامله الضحّاك بن قيس الفهريّ لينوب عنه في حكم بعض المناطق[3].

أمّا ابن شدّاد فيذكر بأنّ معاوية قد أناب عنه في الجزيرة حبيب بن مسلمة بن مالك، وأضاف إليه حمص وقنّسرين، وبعد عزل حبيب عن الجزيرة ولّى معاوية الضحّاك[4].

---

(١) البلاذريّ: فتوح البلدان، ص٢٤٥.

(٢) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ص١٠ – ١١ .

(٣) الدينوريّ: الأخبار الطوال، ص١٥٤ . ويضيف أنّ معاوية كلّف عامله الضحّاك بإدارة شؤون الموصل ونصيبين ودارا وآمد وميافرقين وهيت وعانات، غير أنّه لم يذكر بازبدي وباقردي، ومن المرجّح أن تكون البلدتان تحت إشراف الضحّاك تبعًا لإدارة شؤون الموصل ونصيبين (المصدر نفسه).

(٤) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ص١١ .

وبعد مقتل عثمان سنة ٣٥هـ / ٦٥٥م، ولي الخلافة عليّ بن أبي طالب، فولّى على الجزيرة الأشتر النخعيّ، واسمه مالك، فسار إليها فلقيه الضحّاك بن قيس، فاقتتلا بين حرّان والرقّة، وأسباب ذلك الصراع معروفة، إذ كانت تبعًا للخلافات الحادّة التي استعرت بين الخليفة عليّ ووالي الشام معاوية[١].

وكانت المعارك بين الأشتر ومعاوية لصالح الأوّل، وخاصّة بعد موقعة الخازِر، التي كانت الغلبة فيها للأشتر، فتسلّم الأخير البلاد وسيّر أمورها، وأنفذ نوّابه وعمّاله إلى سائر مدنها.

فاستعمل السفّاح بن كردوس على سنجار، وإسماعيل بن زفر على قرقيساء، وحاتم الباهليّ على حرّان والرها وسميساط، وعُمير بن الحباب السلميّ على كفرتوثا، واتّخذ الأشتر من نصيبين مكانًا لأقامته[٢].

وفي قول آخر: إنّ إبراهيم بن الأشتر بعث أخاه عبد الرحمن بن عبد الله على نصيبين، وإنّ عبد الرحمن غلب على بعض مناطق الجزيرة[٣]. وأقام إبراهيم في الموصل، ووجّه عمّاله إلى مدن الجزيرة[٤]. وتتابع المصادر ذكر أسماء الأمراء الذين استعملوا على الجزيرة في ظلّ الدولة الأمويّة.

وحصلت تطوّرات على مسرح الدولة الإسلاميّة العربيّة أدّت إلى استيلاء مصعب بن الزبير على الجزيرة وقتله المختار الثقفيّ سنة ٧١هـ / ٦٩٠م.

ثمّ تفرّد عبد الملك بن مروان بحكم الجزيرة، فولّى أخاه محمّدًا قنّسرين والجزيرة، وبقي عليها إلى أن مات عبد الملك، وولي الأمر بعده ولده الوليد بن عبد الملك، فأقرّ محمّدًا على ولايته، ثمّ عزله سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م، وولى أخاه مسلمة فأقام بحرّان، وأقام بها قصرًا، وبقي واليًا إلى أن مات الوليد[٥].

---

(١) الدِّيْنُوريّ. الأخبار الطوال، ص١٥٤؛ ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة. ج٣، ق١، ص١١ .

(٢) الدِّيْنُوريّ. الأخبار الطوال. ص٢٩٦ - ٢٩٧، ويضيف بأنّ معركة الخازر جرت بين الأمويّين وأتباع عليّ (العلويّين) الذين كانوا بقيادة ابن الأشتر من قبل المختار الثقفيّ الذي حمل لواء المعارضة للأمويّين، ورفع شعار الثأر منهم لقتلهم الحسين بن عليّ في كربلاء. وكان أتباع الأمويّين بقيادة عبيد الله بن زياد (المصدر نفسه).

(٣) الطبريّ: تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٦٢ .

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٦٢ .

(٥) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة؛ ج٣؛ ق٦، ص١٥. (المقصود بذكر الجزيرة، إقليم الجزيرة الفراتيّة).

وقد ألمّت بالجزيرة أحداث متلاحقة، وأحدثت فيها نكبات وآلامًا كان مصدرها الخوارج من جهة، وحروب القبائل القاطنة في أرض الجزيرة فيما بينها من جهة أخرى[١]. وقد قاست مدن الجزيرة الأمرّين من هذه الأحداث، ومنها:

منذ نهاية القرن الخامس الميلاديّ كان المونوفيسيّون أكبر طائفة في مدن الجزيرة، بينما كان أغلب الحكّام مَلَكيّين، وكان العداء بين الطائفتين قد غدا مريرًا جدًّا، كما أنّ سجلّ الاضطهاد الفعّال أصبح عنيفًا، بحيث إنّ أهل الجزيرة رحّبوا بدخول المسلمين في مناطقهم كمنقذين.

إنّ الشروط التي منحها عياض بن غنم لمطران الرها أمّنت حياة وممتلكات المواطنين المسيحيّين بصفتهم أهل الذمّة. وكان عليهم لقاء ذلك أن يدفعوا دينارًا واحدًا ومكيالين من الدقيق عن كلّ مواطن ذكر، وأن يحافظوا على الطرق والجسور بحالة جيّدة، وأن يقدّموا المساعدة للمسلمين المشتّتين، وأن يدعموا القضيّة الإسلاميّة بصدق وإخلاص[٢]. وغدت هذه الصيغة نموذجًا للمعاهدات بين المسلمين والمدن الأخرى في ما بين النهرين، بما فيها إقليم الجزيرة.

شاهدت السنوات الباكرة من العصر الإسلاميّ محاولة متعمّدة لتغيير بنية منطقة الجزيرة وإقليم الرها، فأرسل الخليفة عمر بن الخطّاب التعليمات إلى معاوية بأن يُسكن أعدادًا من القبائل المضريّة في المنطقة الواقعة بين الخابور وحوض الفرات الكبير، وهي المنطقة التي عُرفت فيما بعد بديار مضر. أمّا القبيلة الرئيسيّة في المجموعة المضريّة، فكانت قيسًا. وأعطي للقادمين الجدد أراضٍ لا يملكها أحد، وبعيدة عن المدن والقرى الكبيرة. ووضع معاوية جيوشًا في المدن ليضمن سلامة المستوطنين المضريّين الجدد. واستمرّت هجرة هذه القبائل في القرون التي تلت، وبقي أكثر البدو في المنطقة من قبيلة قيس، التي لعبت بعض بطونها المعروفة، مثل نمير وعُقيل وسُليم، دورًا كبيرًا في تاريخ المنطقة. ولم يبق جميعهم بدوًا رحّلاً، إذ اتّبع بعضهم الاتّجاه التاريخيّ للاستقرار. ولكنّ العداء بين البدو من جهة، والمزارعين وسكّان المدن من جهة أخرى، بقي مستقرًّا رغم أنّ جميعهم كانوا أصلاً من القبيلة الواحدة نفسها.

---

(١) شميسانيّ: مدينة سنجار، ص٣٤.

(٢) نسخة أخرى من المعاهدة تدخل الشرط العاديّ وهو أنّه بإمكان المسيحيّين الاحتفاظ بمعابدهم الموجودة لديهم، ولكنّهم يُمنعون من بناء كنائس جديدة!

استعمل المسلمون الرها كقاعدة حربيّة لاحتواء هجوم بيزنطيّ على بطناي سنة ٦٤٤م، ولكنّ حرّان هي التي اكتسبت فيما بعد الأهمّيّة العظمى في هذه المنطقة، وبعض السبب هويّتها ذات الصبغة المسيحيّة القليلة. كانت مركزًا لبني قيس، وعندما نستذكر عبادة الكواكب في حرّان، لا ندهش عندما نعلم أنّ بعض أفراد بني قيس اشتهروا بعبادتهم للنجوم. وفي القتال بين عليّ ومعاوية ساند شعب حرّان معاوية. فأتى عليّ إلى حرّان وقتل سكّانها حتّى «سال الدم خارج باب المدينة»[١].

ولكن عندما مال الأمويّون إلى جانب قبيلة كَلْب، الأعداء الوراثيّين لبني قيس، انحاز بنو قيس بعنف ضدّهم. ويجب أن يلاحظ أنّ الأكثريّة العظمى من قبيلة كلب اعتنقت المسيحيّة، والعقيدة المذهبيّة لليعاقبة بصورة رئيسيّة. ولدينا هنا امتداد غريب للعداء القديم بين الرها المونوفيسيّة وحرّان الوثنيّة.

وفي سنة ٦٨٦/٦٨٧م قام إبراهيم الأشتر، قائد الموالين لآل عليّ، وخصوم الخليفة عبد الملك بن مروان، ومنح حكم الرها وحرّان وشميشاط لحاتم بن النعمان، غير أنّ محمّدًا أخا الخليفة نجح في احتلال الرها «دون قتال» واسترجع منها السيطرة على جميع أنحاء ما بين النهرين.

* * * * * * * * * *

(١) سجلّ الأحداث لمؤلّف مجهول لحوالي سنة ١٢٣٤ م.

المسيحيّون في الجزيرة

في أثناء القرون الأولى من الإسلام، كان مسيحيّو الجزيرة، الذين يؤلّفون الغالبيّة العظمى من سكّان المنطقة، يشاركون الفوائد والمضارّ الشائعة في أنحاء الأمبراطوريّة الإسلاميّة. وكانت حياتهم مأمونة بدفع الجزية. كما أنّ أصحاب الأراضي المسيحيّين كانوا يدفعون الخراج، وعلى الإجمال كان مسموحًا لهم القيام بممارساتهم الدينيّة شريطة ألاّ يحاولوا كسب الأشياع بغلبهم من الإسلام إلى دينهم.

كانت كنائسهم والأرض المحيطة بها محميّة، ولكنهم مُنعوا من بناء أماكن جديدة للعبادة، ضمن مسافات معيّنة من المدينة أو هذه القرية الكبيرة أو تلك.

كانوا أحيانًا يتعرّضون لحوادث قمع ثانويّة بعضها مهين ومحقّر، يعدّ لها الخليفة أو يتلافاها بين وقت وآخر بعد استشارته مجلس الشورى، وهذه كانت تتضمّن أنظمة بخصوص اللباس والسكن والممتلكات.

وكان المسيحيّون يُمنَعون من عرض الصليب علانيّة، ومن دقّ النواقيس في كنائسهم في أوقات الصلاة في الجوامع. وأعلن الخليفة عبد الملك (٦٨٥–٧٠٥م) عن تعديلٍ ماليٍّ عرف «بالتعديل»، تضمّن بعض التغيير في أسلوب دفع الضريبة، رغم أن التأثير بالنسبة للمواطنين السابقين في الأمبراطوريّة البيزنطيّة كان يختلف قليلاً عن النظام السابق. ويعلن كاتب أحداث سريانيّ بمرارة، وإن لم يكن بدقّة تامّة:

«أصدر الخليفة أمرًا صارمًا بأنّ على كلّ إنسان إن يذهب إلى بلده وقريته وبيت والده، وأنّ على كلّ فرد أن يدوّن اسمه واسم أبيه وكرمه وزيتونه وممتلكاته وأولاده وكلّ ما في حوزته. من هنا ابتُدِئ بأخذ الجزية بموجب رؤوس الأشخاص. ومن هنا نشأت جميع مصائب الشعب المسيحيّ. كان الملوك حتّى الآن يأخذون الضريبة على الأرض وليس على الأشخاص... ثمّة عبيد يحكموننا. كان ذلك «التعديل الأوّل الذي حقّقه المسلمون»[١].

---

(١) سيغال، الرها، ص٢٤١ – ٢٤٢.

في زمن حكم الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م) زيدت الضرائب والأعباء على المسيحيّين. ويعزو الكتّاب السريان إلى الوليد وعمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠م) ويزيد الثاني بن عبد الملك (٧٢٠- ٧٢٤م) الأحكام التي تنصّ على أنّ ديّة المسيحيّ هي نصف ديّة المسلم. وأنّ شهادة المسيحيّ ضدّ المسلم باطلة في المحكمة. وأنّه لا يجوز لمسيحيّ أن يكون قاضيًا أو أن يرفع صوته في الصلاة، أو أن يلبس قباء، أو أن يمتطي سرجًا[١].

إنّ إصلاحات الضرائب التي فرضها عمر بن عبد العزيز أتت بالفائدة المادّيّة على المسيحيّين الذين اعتنقوا الإسلام، وقادت إلى خروج واسع الانتشار عن المسيحيّة. ومن ناحية أخرى استفادت الكنائس والأديرة بإعفائها من ضرائب السكن والتركات ومحاصيل الأرض المخصّصة لإعالة الفقراء.

كانت هذه الشرائع تُطبّق في جميع أنحاء الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وكان تفسير القانون الإسلاميّ يتأرجح بين الصرامة واللين، بموجب تقلّب وخيلاء الخليفة أو الحاكم. وكان التأثير على المسيحيّين خطيرًا أكثر منه على المسلمين الذين تمتّعوا بحقوق الاستئناف المحدّدة تحديدًا جيّدًا، وكان تعسّف النظام يظهر على أبشع صورة في مناطق نائية عن مركز السلطة. فقد علمنا مثلاً أنّ محمّد بن مروان الذي عيّنه أخوه الخليفة عبد الملك حاكمًا على ما بين النهرين، أظهر حماسًا لدينه بقتل كلّ إنسان رفض اعتناق الإسلام، وفي أثناء إقامته في الرها جمع عددًا من الأرمن في كنيسة وأشعل فيها النار. ولقد قتل هذا الحاكم أيضًا أنستاسيوس بن أندريا حاكم المدينة الإداريّ، ونهب بيته[٢].

* * * * * * * * *

(١) أمر الخليفة أبو جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) بوسم جميع المسيحيّين على العنق أو الجبين أو اليدين أو الصدر أو الكتفين (راجع سيغال، الرها، ص٢٤٢).

(٢) ويشير كاتب سفر أخبار تاريخيّ إلى أنّه في هذا الوقت كان لا يزال المسيحيّون يعيّنون لمنصب الحاكم (المرجع السابق ص٢٤٢).

خبر المعجزة التي حدثت
بواسطة القدّيس حبيب أسقف الرها

في هذا الزمن الذي يقتضي فيه كتمان أسرار الملوك، ينبغي أن يُنادى بمعجزات الله والإعلان عنها في كلّ ساعة، ولجميع الناس. وهذا ليس بغريب لدى القارئ، ولا بثقيل لدى السامع. والمعجزة التي صنعها الله في أيّامنا هذه، هي:

إنّ رجلاً من المسلمين أراد الدخول إلى أرض الروم، فنزل بدير مار هابيل[1] في الرها؛ ولمّا رأى بوّاب الدير متواضعًا، حليمًا، يتّقي الله، ومزيَّنًا بالفضائل، سلّم له ذهبًا كثيرًا قائلاً له: احفظ لي هذا، فإن رجعتُ حيًّا أخذته، وإن علمتَ أنني متّ ففرّقه على المحتاجين والفقراء. وسافر الرجل المسلم من هناك.

أمّا الراهب العفيف فلمّا استلم الذهب قام لوقته وحفر في الأرض، وطمره ولم يشعر بذلك أحد.

وبعد ثلاث سنوات، شرع المسلمون بالخروج من بيت روميا (الأنضول)، والراهب البوّاب خرج من الدنيا الفانية إلى الباقية، ولم يخبر أحدًا بالسرّ الذي بينه وبين المسلم المؤمن.

وتكاملت الأيّام، فقدم ذلك الإنسان إلى الدير، وسأل عن الراهب، فقالوا له، إنّه قد مات. أمّا هو فطالب الرهبان بالمال الذي تركه عنده. فأجابوه: إنّنا لا نعلم بهذا الأمر، ولا ندري أين وضعه، إذ لم يخبرنا به وبسرّه.

أمّا الرجل المسلم، وكان من سراة القوم، فهدّد الرهبان بتخريب الدير وتدميره إن لم يعطوه المال، ورفع الأمر إلى الحاكم.

---

(١) دير مار هابيل: قرية في كورة سعرت. لا أظنّها عامرة اليوم.

فدعا الحاكم الرهبان وقضى عليهم بأن يبيعوا كلّ شيء في الدير، ويدفعوا ما بذمّة الراهب المتوفّى، حتّى إن اقتضى الأمر ببيع عدد من الرهبان بسوق النخاسة.

فلمّا استمع الشعب هذا الحكم القاسي الذي صدر على الرهبان الأتقياء استحوذ عليهم حزن شديد، لأنّ إخوتهم أو بنيهم سيباعون للعبوديّة لدى الغرباء.

إلاّ أنّ الأسقف الوقور مار حبيب (أسقف الرها) لمّا رأى إخوته سيباعون، حزن حُزْنًا شديدًا، وقصد الدير متضرّعًا لدى الرجل المسلم أن يمهله بعض الوقت، ريثما يجمع المال من الكورة كلّها. وكان بمعيّته خلق كثير من سكّان المدينة ورؤسائها. غير أنّ الرجل المسلم رفض، وأبى إلاّ أن يأخذ ماله فورًا، وأن يسلّمهم للعبوديّة غير ملتفت لتضرّعاتهم وتذلّلهم.

ولّما ضاقت السبل بالقدّيس حبيب، لبس سلاح الإيمان الحقيقيّ الذي قال عنه سيّده، وسار على خطواته. ومثلما سأل في بيت عنيا أين هو لعازر؟ وأين هو موضوع؟ أخذ المبخرة والبخور، وذهب إلى قبر ذلك الراهب، ولم يدع أحدًا يرافقه. ولّما وقف إزاء القبر ركع وصلّى وقدّم البخور، ومن ثمّ بكى بكاء مرًّا أمام مخلّصه، ووقف على باب القبر، وبإيمان ثابت صرخ قائلاً: فلان قم باسم الربّ! ومع لفظته هذه وقف الراهب أمامه وكأنّه لم يدخل القبر لحظة واحدة. ثمّ قال له: يا بنيّ قل لي هل السيّد فلان ترك أمانة عندك، عندما كان ذاهبًا إلى بيت رومايا؟ أجاب الراهب: نعم يا سيّدي. قال: كم مقداره؟ قال: كذا ألف من الأمنان. قال: وأين هو؟ أجابه إنّه مطمور عند باب الدير تحت المصطبة الفلانيّة، فإذا أمرت أذهب وأعطيه له. وسأله أيضًا: هل أنت في الدير هذا حتّى تعرف ما به؟ وإلاّ أين أنت؟ قال: لا يا سيّدي الطاهر. قال له: لم تصل بعد قيامة الموتى فاسترح الآن حتّى يرمز إليك سيّدك فتقوم مع الطاهرين. ومن ساعته رجع إلى قبره.

أمّا الأسقف مار حبيب، فلمّا عرف كلّ شيء من الراهب المائت، رجع وأمر أن يأتوا بفأس، وحفر في المكان الذي أشار إليه الراهب بعد أن هدم المصطبة. وما هي إلاّ برهة حتّى عثروا على الذهب بأكمله، كما سلّمه صاحبه أوّلاً، فأعطوه لصاحبه. وصار فرح عظيم بالكورة كلّها، ومجّدوا اسم الربّ إذ خلّص الدير من الهلاك.

* * * * * * * * * * *

(سنة ١٠٣٤ ي/٧٢٣ م) مات عمر خليفة المسلمين بعد أن حكم سنتين وأربعة أشهر. وخلفه يزيد، أربع سنوات[١].

(سنة ١٠٣٥ ي/٧٢٤ م) أمر يزيد أن تمزّق جميع الصور أينما وجدت. في الكنائس والأديرة والمعابد وحتّى في البيوت الخاصّة[٢]. وهكذا خرج الناس وعمّال من عنده، وكسروا جميع الصور أينما وجدوها دون تمييز[٣].

(سنة ١٠٣٦ ي/٧٢٥ م) أمر يزيد بقتل الكلاب البيضاء، والحمام، وديوك الدجاج البيضاء أيضًا. ثمّ أصدر أمرًا شديدًا على الحيوانات الصامتة وهو القتل، حتّى جافت الشوارع والأسواق في المدن والقرى من الجثث ذات الرائحة الكريهة. وكانت هذه الشريعة على عكس شريعة الخالق الذي قال: انموا واكثروا واملأوا الأرض بركة[٤]... أمّا هم فبجسارة أرادوا القضاء قاصدين مقاومة الخالق الذي صوّرها في البطن كإرادته... وإنّ العلم يسير بحسب مشيئته...

ثمّ أمر يزيد هذا، بقتل جميع الناس الإسمانجونيّين[٥]، السمر وعوج العيون، غير أنّ هذا الأمر لم ينفّذ، إذ تدخّل أناس أتقياء بالقضيّة، وحسموها بالتي هي أحسن... ثمّ أصدر أمرًا بأن لا تُسمع شهادة النصرانيّ على المسلم، ثمّ جعل فدية الرجل المسلم (ديّته) اثني عشر ألفًا، وديّة الرجل النصرانيّ ستّة آلاف. ومنذئذٍ

---

(١) وملك يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي توفّي عمر بن عبد العزيز. وهو يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ ويكنّى أبا خالد. وأمّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. وتوفّي يزيد بن عبد الملك بإربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق. يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وهو ابن سبع وثلاثين سنة. فكانت ولايته أربع سنين وشهرًا ويومين (مروج الذهب ٣: ١٩٥). وكان يلقّب بيزيد الفتى (الأزديّ. تاريخ الموصل، ص٥).

(٢) وكان يزيد مولعًا بالنساء والغناء واللهو والشرب. فقال يوما وقد طرب. وعنده حبّابة وسلّامة المغنّيتان: دعوني أطير. فقالت حبّابة: إلى من تدعُ الأمّة (الأزديّ. تاريخ الموصل، ص١٨ - ٢٠).

(٣) تذكّرنا هذه الأحداث بحرب الأيقونات التي جرت في القرن الثامن. راجع التفاصيل لدى المطران يوحنّا إبراهيم في كتابه «حرب الإيقونات».

(٤) سفر التكوين (١-٢٨).

(٥) الأسماخونيّ: لون ما بين الأحمر والأرجوانيّ.

أخذت تلك الأوامر تسري في الشعب، بعد أن عوض أن تقطع يد السارق تقطع فديته، وهذه ذمّها المسلمون كثيرًا، وذمّوا واضعيها[(١)].

(سنة ١٠٣٨ ي/٧٢٧ م) مات يزيد[(٢)]، وكان له أمراء في الجزيرة، الأوّل أبو زين، وأقصي هذا فجاء مرداس، ثمّ أقصي مرداس وأعيد أبو زين.

(سنة ١٠٣٩ ي/٧٢٨ م) حكّم المسلمون خليفة عليهم هشام بن عبد الملك. وحكم تسع عشرة سنة وأربعة أشهر[(٣)].

(سنة ١٠٤٠ ي/٧٢٩ م) مات القدّيس مار حبيب أسقف الرها، وخلفه قوسطنطينا.

وفي هذا الزمن اشتهر القدّيس مار إيليّا البطريرك، وشمعون الحرّانيّ، وقوسطنطينا الرهاويّ، وثاودوطا الآمديّ. وإنّ القدّيس ثاودوطا أسقف آمد هذا كان قد نشأ في مسكن الفضائل الرهبانيّة. فاشتاقت نفسه إليها خاصّة. ولكونه رجلاً لطيفًا وهادئًا ذا أخلاق وطباع مستقيمة، تنازل عن الأسقفيّة وترك كرسيّه، وخرج من آمد قاصدًا إقليم دارا. فأقام بينها وبين آمد على الحدود. وبنى له عمودًا، وصعد فوقه شبه توما الذي في تِللاّ. كما بنى هناك ديرًا، وهو قائم هناك حتّى الآن، بجانب قرية تدعى قلّوق. وهناك أكمل حياته. وخلفه الأسقف مار قوسما.

إنّ القدّيس مار قوسما هذا، كان راهبًا غيورًا، ممتلئًا من جميع الفضائل، وصانع المعجزات كإيليّا الذي من تشبي (السبا) وكالرسل الأوائل، يوبّخ الكبير كالصغير،

---

(١) كتب يزيد إلى عمر بن هبيرة، وهو عامل على العراق، يأمره أن يمسح السوادَ، فمسحه سنة ١٠٥هـ، ولم يمسح السوادّ منذ مسحه عثمان بن حنيف في زمن الخليفة عمر بن الخطّاب، حتّى مسحه عمر بن هبيرة، فوضع على النخل والشجر، وأضرّ بأهل الخراج، ووضع على التانئة، وأعاد السخر والهدايا وما كان يؤخذ في النيروز والمهرجان والمساحة التي تؤخذ بها مساحة ابن هبيرة (راجع اليعقوبيّ، ٢: ٣١٣).

(٢) توفّي يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان وكانت وفاته بإربد من الأردنّ، وكان منزله بالبلقاء من دمشق. وكان تأميره أربع سنين ويومًا. وكان عمره ثمانيًا وثلاثين (الأزديّ، تاريخ الموصل، ص١٨).

(٣) بويع هشام بن عبد الملك في اليوم الذي توفّي فيه أخوه يزيد بن عبد الملك، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من شوّال سنة خمس ومائة. وقبض يزيد وله يومئذٍ ثمان وثلاثون سنة، وقيل أربعون سنة. وتوفّي هشام بن عبد الملك بالرصافة من أرض قنّسرين يوم الأربعاء لستٍّ خلونَ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة (مروج الذهب ٣: ٢٠٥). ويقول الطبريّ: «استخلف هشام بن عبد الملك لليالٍ بقين من شعبان منها وهو يوم استخلف وهو ابن أربع وثلاثين سنة وأشهر» (تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص١٨٠).

لذا لم يكن محبوبًا لدى رؤساء المدينة. إذ كان يوبّخهم جهرًا دون مراعاة للأعمال التي كانوا يقترفونها، وكانوا يخافونه لئلاّ يلعنهم، إذ كان قاسيًا عليهم، ولم يتجاسروا بالوقوف أمامه، فافتعلوا اضطرابًا بينهم وبين القرويّين بأن لا يقبلوه، ولّما كان قد خرج للزيارة الراعويّة شرعوا يشتمونه ويسبّونه. ولّما وصل القرية - وهو لا يدري بالمكيدة التي نُصبت للإيقاع به - واسم القرية تلّ أسود (تللاّ كوما)، قُرع الناقوس كالعادة، فاجتمع الناس. إلاّ أنّه هذه المرّة ليس لاستقباله بل لطرده. وقبل أن يدركهم، أرسلوا عجوزا لتقول له: حافظ على كرامتك، واعبر الطريق إلى إقليم آخر. لئلاّ تهان وتحتقر. - (إنّ هؤلاء الأشقياء، لا يعلمون أنّهم بالظلام كانوا يسيرون. ولكي تتحقّق كلمة المخلّص لتلاميذه «من قبلكم قبلني، ومن رفضكم رفضني، ومن لا يقبلكم، فانفضوا الغبار الذي بأرجلكم ليكون شاهدًا عليهم. وفي يوم الدين يكون راحة لسادوم وعامورة أكثر من تلك المدينة»[١].

ولّما علم الموقّر بجسارتهم من تلك المرأة العجوز، أمر تلميذه أن يغيّر اتّجاه العجلة التي هو راكب فيها ويعبر الطريق نحو جنوب القرية. أمّا الأشقياء الذين صحّت فيهم كلمة النبيّ القائل: «إنّ السفيه لا يعقل، والجاهل لا يفهم»، فلم يكتفوا بخطيئة طرد الأسقف من قريتهم، بل أقاموا على باب كنيستهم التي كانت مبنيّة على علوٍّ واضح، وشرعوا يستهزئون بالأسقف، وينظرون إليه بسخريّة بالغة. غير أنّ الأسقف المؤمن عندما رأى وقاحتهم، عبر قريتهم واتّجه نو الجهة الشرقيّة وأوقف العجلة هناك، ونزع حذاءه وتقدّم نحو القرية، ونفضه عليهم قائلاً: «يا أيّها الصنم، سيحلّ عليك غضب الربّ، إذ لم تقبل أسقفك». ثمّ مشى وبسرعة بالغة عبر القرية التي من الشرق، والمسمّاة طرمل الكبير، إذ كان قادمًا إليها من الجهة الغربيّة، وكان أوان موسم حصاد الشعير، والسماء صافية خالية من أيّة قطعة غيم. إلاّ أنّ القرية المنكودة الحظّ، والتي صارت بساط الإثمّ لأكابر تلك المدينة، أدركها غضب الله لكي تبقى عبرة لجميع الكورة، يتذكّرها الأجيال. إذ ما إن دخل الأسقف قرية طرمل، حتّى تكاثفت الغيوم فوقها، وعقدت السحب القاسية حولها بزلازل من الرياح العاتية تشقّق الجبال، فنزل البَرَد عليها كالحجارة الصمّاء، تقصف الأشجار والكروم، وتكسّرت حتّى الأشجار التي على حدودها، وأبيد كلّ نبات أخضر من أراضيها،

---

(١) إنجيل لوقا ١٠: ١٠-١٢.

وأصبحت زروعهم كالغبار يتطاير بالعواصف التي هبّت من حولها، حتّى ما كدّسوه من البذور والأثمار التي جمعوها نالتها الرياح، وفقدوا رجاءهم بالحياة.

فلمّا أبصر أولئك المستهزئون ما حدث من جرّاء فعلتهم الذميمة انتبهوا إلى نفوسهم، كمن ينتبه من سبات عميق، وكالسكران الذي يصحو من سكرته، وتذكّروا ما ارتكبوه بحقّ أسقفهم البارّ، وتحقّق لديهم أنّ غضب الله عاجلهم، خرجوا كبارًا وصغارًا وذهبوا حفاة عراة، بالبكاء والنحيب المرير إلى القرية التي نزل فيها الأسقف. فلمّا رآهم (شبه أليشباع أي إليصابات، مع الطفل) زحف إلى أطفال الفرات، متأثّرًا من منظرهم الأليم، خاصّة وقد فقدوا جميع مقتناهم، وتحنّن عليهم وصلّى لأجلهم طالبًا لهم المغفرة والرحمة.

ومنذئذٍ ألقى الله الخوف والفزع في كلّ الإقليم وخاصّة على أكابر المدينة البائسة، كما أنّه منذ ذلك اليوم شرع الناس يخرجون لاستقبال الأسقف بالدعاء والنشيد والفرح والغبطة.

وبعد القدّيس مار إيليّا البطريرك الأنطاكيّ، خلفه على الكرسيّ القدّيس أثناسيوس[١].

(سنة ١٠٤٢ ي/٧٣١ م) دخل مسلمة على باب بيت تركيا، وخرج أيضًا الهونيّون مع الأتراك، وصنعوا شرورًا كثيرة في أرمينيا وأراضي الشمال. فدخل عليهم مسلمة بقوّات عظيمة لا تحصى، فلمّا التقى الجمعان حدث بينهما قتال عنيف، سقط من الهون والأتراك على إثره خلق كثير ففزعوا، ووقعوا عند قدمي مسلمة وطلبوا منه السلام، فأعطاهم وهو لا يدري مراوغتهم بذلك.

---

(١) هو أثناسيوس الثالث، تربّى في دير الجبّ الخارجيّ عام ٧٢٤. خلف إيليّا في دير قرتمين بوضع يد ثاودوسيوس الراسعينيّ. وقيل تربّى في دير مار باز وارشم في الرها بوضع يد جبرائيل مطرانها. وهو الذي هادن يوحنّا جاثليق الأرمن الغريغوريّين بعدما حصلت بينهما في ميافرقين وغيرها مجادلات سريانيّة، وكان الفوز للسريان. فذهب ستّة أساقفة سريان عند يوحنّا الجاثليق، فقدّسوا وقرّبوا الأرمن القربان، وهكذا فعل الأرمن وقرّبوا السريان. وكتب كلا الفريقين صكًّا بلغته، وأودع الصكّ السريانيّ عند الأرمن والصكّ الأرمنيّ عند السريان عربونًا للاتّحاد. وتمّ ذلك عام ٧٢٦ م. وهي سنة ١٣٥ للأرمن. وخدم أثناسيوس خمس عشرة سنة، وتوفّي عام ٧٤٠ م (الزهرة الذكيّة، ص٤٠، رقم ٦٧).

وفي هذه السنة أيضًا، هدم مسلمة الباب الذي بين تركيا[١] وبين بلده، فدخل أراضيها التي جرى عليها القتال مع الهون والأتراك، وداخل هذا الباب كان الأسرى مسجونين، ولئلاّ يهربوا في الأرض، التزم بهدم الباب الذي ببيت تركيا والذي كان قد بناه الإسكندر المقدونيّ[٢]. فأطلق أوّلاً أصحاب الجِمال، ثمّ أصحاب الحمير، وبعدهم الراجلين، وكانوا يلقون وراءهم على طول الطريق الحسك والأشواك.

(سنة ١٠٤٣ ي/٧٣٢ م) جمع مسلمة خلقًا كثيرًا من الحدّادين والنجّارين وأصحاب المهن وكلّ ما يحتاج إليه للبناء، وبنى ذلك الباب الذي هدمه في بيت تركيا[٣]. ولمّا أكمله وضع عهدًا مع الأتراك أن لا يعبر منه أحد إلى حدود الآخر، وتركه ورجع. أمّا الأتراك، فمن حيث هم مجوس لايعرفون الله ولا يؤمنون بشرائعه، أهانوا الله، واحتقروا كلمته وداسوا على العهد الموضوع معهم وخرجوا إلى خارج حدودهم، وصنعوا الشرور الكثيرة مع المجاورين لهم من المسلمين وكان موسم الحصاد، فأرسل الخليفة هشام جيشًا بقيادة الجرّاح[٤] في مقدّمته الفرسان الشجعان ودخل بيت تركيا فقتل منهم العدد الكثير، وأباد زرعهم، فكان الفلاّحون يولولون عند قدميه وهو لا يصغي إليهم، بل يشدّ على الخناق، ممّا أثار غضب الشعب بأسره

---

(١) سنة ١٠٩هـ غزا مسلمة بلاد الترك، فأخذ عليهم باب اللان ولقي الخاقان. (اليعقوبيّ ٢: ٣٢٩). ويقول البلاذريّ إنّ مسلمة صالح أهل جيزان وأمر بحصنها فهدم... وصمد للمدينة الباب ففتحها. وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزر، فحاصرهم ورماهم بالحجارة ثمّ بحديد اتّخذه على هيئة الحجارة، فلم ينتفع بذلك... ثمّ فتحها بحيلة دبّرها، فهرب سكّان القلعة. وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفًا من أهل الشام على العطاء... (١: ٢٤٤).

(٢) الإسكندر الكبير (٣٥٦ – ٣٢٤ ق.م) الملقّب بذي القرنين. ولد في مقدونية وتوفّي في بابل. تعلّم على أرسطو. خلف أباه فيليبّس وعزم على فتح إمبراطوريّة الفرس فانتصر عليهم في إيسوس (٣٣٣ ق.م)، ثمّ في سواحل فينيقية (بعد أن حاصر صور سبعة أشهر)، ثمّ في مصر وأسّس الإسكندريّة. وأخيرًا تتبّع داريوس في العراق، وانتصر عليه في كوكاميلا بالقرب من أربيل (٣٣١ ق.م)، وتابع زحفه إلى أطراف فارس وتجاوزها إلى ضفاف نهر السند. وذو القرنين من أعظم الغزاة وأشجعهم.

(٣) يقول الطبريّ، في سنة ١١٤هـ قفل مسلمة بن عبد الملك على الباب، بعدما هزم خاقان، وبنى الباب فأحكم ما هنالك (٨: ٢١٧). ويقول الأزديّ: في سنة ١٠٧هـ عزله هشام عن أذربيجان وأرمينية وولاّها أخاه مسلمة (ص٢٥).

(٤) هو الجرّاح بن عبدالله الحكميّ الذي غزا اللان سنة ١٠٦ هـ. في بلاد الترك (راجع اليعقوبيّ ٢: ٣٢٨). وفي سنة ١١٢هـ صار الترك إلى أرض أردبيل، فغزاهم الجرّاح بن عبدالله الحكميّ، فلقي ملك الروم فقتله (اليعقوبيّ ٢: ٣٢٩). وغزا سنة ١٠٧هـ مادور من ملطية على قيسريّة فافتتحها عنوة (الأزديّ، تاريخ الموصل، ص٢٦).

عليه وعلى عساكره، فهجموا هجمة واحدة، وقتلوا من جنده عددًا لا يحصى[١]. فأرسل هشام مسلمة لنجدته، وما إن دخل مسلمة الأرض، إلاّ وانسحب الأتراك خوفًا من اسمه، وهربوا إلى الجبال فلحقهم وقتلهم بحدّ السيف انتقامًا لوقعة الجرّاح الذي قتلوه ولم ينج منهم أحد. فجعل دماءهم كالمياه تجري على الأرض حتّى إنّ طيور السماء ووحوش البرّيّة شبعت من لحوم جثثهم المرميّة في البراري[٢].

ولّما انتهت الحرب نُصِّب مروان بن محمّد[٣] واليًا على المنطقة (منطقة أرمينيا وما حولها)[٤]، وترك مسلمة عنده قوّة كبيرة. ومروان هذا شدّد عليهم الخناق أكثر من الذين سبقوه[٥].

---

(١) وولّى الجرّاح بن عبدالله الحكميّ من مذحج أرمينية... وصار إلى الخزر، فقتل منهم مقتلة عظيمة... إلاّ أنّ الخَزَر جاشت وعبرت الرُسّ فحاربهم في صحراء ورثان، ثمّ انحازوا إلى ناحية أردبيل، فواقعهم على أربعة فراسخ ممّا يلي أرمينية فاقتتلوا ثلاثة أيّام، فاستشهد ومن معه. فسمّي ذلك النهر نهر الجرّاح. ونسب جسرٌ عليه إلى الجرّاح أيضًا. ثمّ إنّ هشام بن عبد الملك ولّى مسلمة أخاه أرمينية (البلاذريّ، ج١، ص٢٤٣).

(٢) يسرد لنا اليعقوبيّ هذه الأمور بما نوجزه هنا: وولّى هشام مسلمة بن عبد الملك أرمينيا وأذربيجان سنة ١٠٧هـ. فوجّه سعيد بن عمرو الحرشيّ على مقدّمته فلقي عسكرًا للخزر، ومعه عشرة آلاف من أسرى المسلمين، فحاربهم فهزمهم وقتل عامّتهم. واستنقذ الأسرى منهم. وفعل ذلك مرّة بعد أخرى. وقتل ابن خاقان وفتح عدّة مدائن. ووجّه برأس ابن خاقان إلى هشام من غير أن يوافق مسلمة، فأغضبه ذلك، وكتب إليه يلومه. وصيّر مكانه عبد الملك بن مسلم العقيليّ. وأمره أن يقيّد سعيد بن عمرو الحرشيّ ويحبسه بمدينة يقال لها قَبَلَة. وقدِمَ مسلم البلد وأحضر الحرشيّ، فأغلظ له ودقّ لواءه، وبعث به إلى السجن ببرذعة. فكتب إليه هشام يلومه على ذلك. ووجّه برسل من قبله حتّى أخرجوا الحرشيّ من السجن وحملوه إليه. وسار مسلمة في البلاد التي للخزر حتّى صار إلى جرزان، فافتتحها وقتل أهلها ثمّ صار إلى شردان فسالمه أهلها. ثمّ إلى مَسْقَط فصالحه أهلها. ووجّه خيله إلى أرض اللُكُز فصالحه أهلها. وبعث إلى طبرسان فصالحه أهلها. فسار في البلاد لا يلقاه أحد حتّى بلغ أرض ورثان، فلقيه خاقان ملك الخزر، وكان مع مسلمة جماعة من ملوك البلدان التي فتحها. فجعل مروان بن محمّد على مقدّمته، فلقي القوم فأقام يقاتلهم أيّامًا. وربّما فُقِد فيقال لمسلمة قتل مروان، فيقول أمّا واللّه دون أن يسلّم عليه بالخلافة (اليعقوبيّ ٢:٣١٧ – ٣١٨).

(٣) هو الذي ولي الخلافة بعد ذلك. وقتل في الفسطاط بمصر سنة ١٣٢هـ، وبمقتله انتهت الدولة الأمويّة في الشام.

(٤) عزل هشام مسلمة وولّى مروان بن محمّد (اليعقوبيّ ٢:٣١٨).

(٥) يقول الطبريّ: في سنة ١١٧هـ بعث مروان بن محمّد وهو على أرمينيا بعثتين، فافتتح بإحديهما ثلاثة حصون من اللان، وبالأخرى تومنشاه، فنزل أهلها على الصلح (٨:٢٢٢)، ويقول أيضًا إنّه في سنة ١٢١هـ غزا مروان بن محمّد بلاد صاحب سرير الذهب، فافتتح قلاعه وخرّب أرضه وأذعن له بالجزية في كلّ سنة ألف رأس يؤدّيه إليه وأخذ منه بذلك الرهن وملّكه على أرضه (٨:٢٦٠).

(سنة ١٠٢٩ ي/٧١٨ م) حدثت هزّة عظيمة ومخيفة، وأماكن كثيرة تهدّمت، ومن بينها الهياكل والكنائس، منها الكنيسة القديمة في الرها، وأيضًا عمارات كبيرة وأبنية شاهقة سقطت على سكّانها، والتي لم تسقط صارت فيها علامة تصدّع أو تهدّم جزئيّ، كلّما نظر المرء تذكّر هول الهزّة وعنفها، كذلك بساتين كثيرة خربت، وأشجار الفاكهة يبست أو فسدت.

وفي هذا الزمن فتح هشام نهر زيتون، وبنى عليه المدن والحصون مع قرًى عديدة. وغرس على شاطئيه أشجارًا كثيرة متنوّعة. كما فتح بيت باش، وبنى عليه حصنًا، وغرس حوله حدائق من كلّ جنس، ثمّ فتح نهر هاني وأقام عليه حصونًا كثيرة، وبساتين من كلّ نوع.

وكذلك مسلمة آخر[1]، فتح بيت بليش، وهذا أيضًا بنى على النهر حصونًا وقرًى، وغرس على ضفّتيه أنواع الشجر المثمرة.

(سنة ١٠٤٠ ي/٧٢٩ م) استولى مسلمة[2] على مدينة نقسريا وسبى جميع سكّانها، وباعهم كالعبيد، عدا اليهود الذين هم سلّموا المدينة له، إذ إنّهم فتحوا أبوابها خفية، وأخذوا منه عهدًا بالسلام، إلاّ أنّه سباهم ولم يبعهم وأخرجهم معه.

(سنة ١٠٤٥ ي/٧٣٤ م) دخل سليمان[3] على بيت رومايا واستولى على مدينة فلوزينا، وسبى جميع سكّانها، لأنّ أرطبوس صهر قوسطنطينوس[4]، ملك الروم كان قاسيًا. وضبط مدينة قوسطنطينة، وأخذ تاج الملوكيّة بقوّته، إذ إنّ الملك قوسطنطينوس وجيشه كان مشتبكًا بالحرب مع المسلمين، وقد ترك في المدينة[5] أرطبوس الطاغية بمثابة محافظ لها مع جيش كثير من فلوزينا. فلمّا استولى على زمام أمور المدينة، دبّر مكيدة للاستيلاء على الحكم، ناسيًا العهد الذي قطعه مع لاون أمام الله. ولمّا كان الملك (لاون) مع الجيش خارج المدينة، يقاتل مع قوّات فلوزينا الذين بالداخل، قدم

---

(١) هو مسلمة بن هشام بن عبد الملك، جاء في الطبريّ: إنّه غزا بلاد الروم فافتتح بها مطامير (٨: ٢٦٠). وسنة ١٢١هـ بلغ مسلمة بن هشام إلى ملطية (اليعقوبيّ ٢: ٣٢٩).

(٢) جاء في الطبريّ أنّه في سنة ١٠٨هـ كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك حتّى بلغ قيسارية مدينة الروم ممّا يلي الجزيرة ففتحها على يديه (٨: ١٩٠).

(٣) هو سليمان بن هشام الذي في سنة ١٢٤ لقي ليون طاغية الروم وأرطباس، إلاّ أنّه لم يكن بينهما حرب... (اليعقوبيّ ٢: ٣٢٩).

(٤) الصحيح هو الأمبراطور ليون (٧١٧ - ٧٤٠) من السلالة الإيصوريّة.

(٥) يقصد بها القسطنطينيّة العاصمة.

سليمان وحاصر قوّات لاون من الخارج أيضًا. فأرسل الملك إليه رسالة أن اذهب إلى داخل المدينة، وأحرز نصرًا على المتمرّد أرطبوس، وانهب واسلب المدينة كما تشاء، فتجعل لنفسك هيبة، وليس من أحد يقف ضدّك بهذا الخصوص. وهكذا قصد مسلمة المدينة، وفتحها وسلب سكّانها ونهب ميرتها، واستولى على أموالٍ لم يرها أحد قبله. وأمّا لاون الملك، فألقى القبض على المتمرّد، وقلع عينيه، والقوّات التي معه جعلهم في الأسر يدفعون الجزية له.

(سنة ١٠٤٦ ي/٧٣٥ م) دخل مليك بن شبيب أمير ملاطية، وعبدالله البطل، وضربا سوندا. وإذ كانا في مرج المدينة، اجتمع عليهما عساكر كثيرون وانتقموا منهما عوض التي فعلها المسلمون قبل سنة في فلوزينا. ولّما كان المسلمون بدون سلاح، وعددهم لا يتجاوز الخمسين ألفًا، أحاط بهم الروم فجأة وقتلوا كلّ من وقع بيدهم، بحدّ السيف، ولم ينج منهم إلاّ القليل. إذ كان النهار قد مال للغروب، وادلهمّ على الأرض الظلام، حتّى إنّ الذين بقوا أحياء كانوا مصابين بطعنات السيوف أو الرماح أو السهام، فهربوا والليل دامس. وكان عددهم حوالي الخمسة آلاف رجل. وهؤلاء الجرحى التفتوا إلى رؤسائهم وقتلوهم ثأرًا لأصدقائهم الصرعى بيد الروم[١].

في هذا الزمان، ظهر واحد من المضلّلين في أرض الغرب[٢]، فأضلّ كثيرًا من اليهود، كما أهلك الكثير منهم. وقصّته كانت كما يلي:

إنّ رجلاً اسمه مَرْدا من قرية فَلْحت، عبر إلى أرض الغرب في منطقة السامريّين، وجرى له معهم صداقات ومعاملات، وخاصّة مع شخص من اليهود الوجهاء. فكان يتردّد إلى داره كثيرًا، وذات يوم فعل المنكر مع ابنته (ابنة اليهوديّ). فلمّا شعر سكّان المدينة اليهود بالأمر، ضربوه وعذّبوه بشتّى العذابات، وخاصّة لأنّه كان مسيحيًّا. ولّما سنحت له الفرصة للهرب، هرب من أيديهم، مصمّمًا على الرجوع إليهم ليثأر لنفسه منهم، بزرع سائر الشرور والمصائب بينهم. فقصد أرض الآراميّين[٣]، وكانوا يومئذٍ يعملون بالسحر، فتعلّم منهم أصوله وأسراره، وأنواع حيل الشيطان ومخادعاته أتقنها بالفعل. ومن ثمّ رجع إلى تلك الأرض، مدّعيًا أنّه موسى الذي أخرج إسرائيل من مصر في القديم، وقال لهم: جئت لأخرج إسرائيل إلى البرّيّة، وأخلّصهم من أيدي أعدائهم، وأدخلهم من جديد أرض الميعاد ليرثوها...

---

(١) هذه النكبة لم يحدّثنا التاريخ الإسلاميّ عنها أبدًا. ولم يذكرها أيّ مصدر من مصادر المسلمين.

(٢) يقصد بها أرض فلسطين.

(٣) ربّما يقصد بها المندائيّين (الصابئة) بأرض حرّان.

وبهذه العبارات المغرية، وبأعماله السحريّة التي كان يقوم بها أمامهم، جعلهم يتعجّبون من قوّته وقدرته، فالتفّوا حوله. فكان تارة يتركهم يمشون فوق الجبال على قممها العالية، وأخرى يأمرهم فيطيرون كالطيور ويسقطون من عليائهم ويموتون. وأحيانًا كان يسجنهم في شقوق الأرض ومغائرها حتّى يهلكوا جوعًا. وهكذا صبّ جام غضبه عليهم بالبلايا والرزايا. فقتل منهم خلقًا كثيرًا بواسطة سحره وضلالته.

ولّما شبع من تعذيبهم، استحوذ على كلّ الذهب والأموال والعبيد التي بين أيديهم، وهرب منهم وجاء إلى داره.

أمّا هم فلمّا رأوا شروره وما حلّ بهم من الهوان، رجعوا إلى أنفسهم، وخرجوا يبحثون عنه في أربعة أقطار الدنيا، ولّما وجدوه، قبضوا عليه وسلّموه إلى الخليفة هشام. فسلّمه إيّاهم، وسمح لهم بأن يعذّبوه كيفما يشاءون. فأنزلوا فيه صنوف العذابات، وأخيرًا صلبوه على الصليب، فاستحقّ جزاء شرّه ميتته الشنيعة هذه.

(سنة ١٠٤٧ ي/٧٣٦ م) تمرّدَ عتيق[١]، وخرج بشيعته التي تدعى الحروريّة[٢] بالقرب من سنجار، ومعه عشرون تابعًا. ولّما أعلن وأتباعه خروجهم على الإسلام طلّقوا نساءهم، وتخلّوا عن كلّ ما يملكونه. وإذ علم الخليفة هشام بأمره، أرسل قَلبو وزهيرًا[٣] اللذين كانا رئيسين على عساكر سنجار ليحارباه. ولّما استلما الأمر جمعا لهما جيشًا عظيمًا، وخرجا يطلبانه فأدركاه في البرّيّة قرب سنجار. فطلب عتيق مهلة حتّى الفجر، وعندئذٍ يحاربانه، وهذان القائدان إذ كانا مغرورين بنفسيهما بكثرة عدد جنودهما، صدّقاه. وإذ كان النهار مائلاً للغروب والمياه قليلة في تلك الأرض، أمرا العساكر بالراحة هناك. إلاّ أنّ عتيقًا كان رجلاً قويًّا وذكيًّا، والذين معه أكثر منه حماسة لدعوته، فما إن أظلمت. بعد أن أكلوا وشربوا، ونام أولئك الجهّال الذين لا تدبير لهم، فقام عتيق ورفاقه إلى السلاح في الهجعة الأولى من الليل، وقتلوا جميع أتباع زهير وقلبو. وكان أصحاب عتيق يمرّون بينهم بزيّ النقّارين والفلاّحين، وهم يقتلون بحدّ السيف كلّ من مرّوا عليه، حتّى القائدين زهير وقلبو، ولم ينج منهم إلاّ القليل.

* * * * * * * * * *

(١) لا ندريّ عتيق هذا ابن من ومن أيّ قبيلة هو؟

(٢) جاء في اليعقوبيّ: إنّ الخوارج بعد حرب صِفّين جاؤوا إلى قرية يقال لها حرورة بينها وبين الكوفة نصف فرسخ. وبها سمّوا الحروريّة ورئيسهم عبدالله بن وهب الراسبيّ وابن الكوّا وشبّث بن ربعي. فجعلوا يقولون لا حَكَم إلاّ الله (٢: ١٩١).

(٣) لا تذكرهما المصادر العربيّة الإسلاميّة التي بين أيدينا.

تعقيب وتعليق

الأب سهيل قاشا

أرى من المفيد، الإشارة إلى أثر الخوارج في الجزيرة بذات الفترة التي يؤرّخ لها راهبنا الزوقنينيّ؛ فأقول:

لقد أدّى وجود الخوارج كقوّة سياسيّة وعسكريّة ذات فعّاليّة في إقليم الجزيرة، إلى حروب كثيرة بينهم وبين السلطة المركزيّة والمحلّيّة والأمويّة، ويُستدلّ على ذلك من كثرة الخوارج وسيطرتهم في مناطق الجزيرة وأطرافها، وذلك من خلال النصوص التالية:

قال ابن عبد ربّه في حديثه عن مذاهب أهل الأمصار: «قال الأصمعيّ: البصرة كلّها عثمانيّة، والكوفة كلّها علويّة، والشام كلّها أمويّة، والجزيرة كلّها خارجيّة، والحجاز كلّها سنّيّة»[١].

وفي قول آخر: «والجزيرة كلّها خارجيّة لأنّها مسكن ربيعة، وهي رأس كلّ فتنة، وأكثرها نصارى وخوارج»[٢].

وأفاد المسعوديّ: «والصفريّة وغيرهم من فرق الخوارج وبلدانهم من الأرض مثل سنجار وتلّ أعفر (تلعفر) من بلاد ربيعة، والسنّ والبوازيج ممّا يلي بلاد الموصل»[٣].

وفي معرض كلامه عن الكُوَر التي غُلِبت فيها الخوارج، ذَكَرَ الحميريّ الجزيرة والموصل وعُمان وسجستان[٤].

وإنّ ما قام به الخوارج في منطقتي بازبدي وباقردي بصورة خاصّة والجزيرة الفراتيّة بصورة عامّة أقلق حكم الأمويّين من جهة، وعرّض العديد من مدن الجزيرة للأذى

(١) ابن عبد ربّه، العقد الفريد: ٦:٢٤٨؛ البلاذريّ، أنساب الأشراف ٣:٨١

(٢) ابن عبد ربّه، العقد الفريد: ٦:٢٥٢.

(٣) المسعوديّ، مروج الذهب، ج٣، ص١٠٠.

(٤) الحميريّ، الحور العين، ص٢٠٢.

من جهة ثانية. وإلى ذلك نشير إلى الثورة التي قام بها الخوارج بقيادة مُسَرَّح بن صالح، وشبيب بن يزيد، ضدّ عامل الجزيرة محمّد بن مروان الأمويّ. وكان مُسَرَّح أحد بني امرئ القيس بن زيد من تميم، أمير الفرقة الصفريّة في أرض الجزيرة، وُصف بأنّه كان رجلاً ناسكًا صاحب عبادة، له أصحاب في بعض نواحي الجزيرة. عمل على إرشادهم وبثّ روح الانتقام فيهم ضدّ الأمويّين. وطرد عمّالهم من الجزيرة، لأنّهم كانوا في نظره، ونظر غيره من الخوارج، مغتصبين للحقوق وخارجين عن طاعة الله، ومنتهكين لحرمته، وعصاة في الأرض، وسافكين لدماء الأبرياء. وقد استجاب لُمسَرَّح جمع غفير، وساروا معه، واستولوا على ما كان للأمير الأمويّ من دوابّ ومتاع، وتقوّوا بها، ثمّ انتشروا في بعض المدن والقرى، يدمّرون وينهبون ويسلبون ويتلفون المزروعات، ويَجْبون الأموال بالقوّة، وأقاموا بأرض دارا مدّة، ومنها أخذوا يغيرون على نصيبين وسواها، وبازبدي وغيرها. فألحقوا الأذى بأهلها، والخراب بعمرانها، ممّا اضطرّ معه الناس إلى ترك منازلهم وهجرة مدنهم وقراهم. كما اضطرّ الباقون الذين لم يتيسّر لهم الخروج إلى إقامة التحصينات لصدّ هجماتهم، ومنع اعتداءات الخوارج، أو الحدّ من أخطارهم، التي تعاظمت وبخاصّة بعد مطاردتهم عدّة سرايا من قوّات الأمير محمّد بن مروان إلى ما بعد الموصل. ولكنّ هذه الأخطار خفّت وتلاشت بعد مقتل مُسَرّح، على يد القائد الأمويّ الحجّاج بن يوسف الثقفيّ[1]. ويمكننا استخلاص ما تركته أحداث تلك الفترة من إضعاف الحكم الأمويّ في منطقة الجزيرة، ومن خلال العنف الذي عُرف عن الخوارج، وردّة الفعل كانت الدماء تُراق من كافّة الأطراف.

* * * * * * * * * *

(١) الطبريّ. تاريخ الأمم والملوك ٦:٢١٦ – ٢٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٤:٣٩١؛ اليعقوبيّ، تاريخه، ٢:٢٧٤؛ ابن خلدون، تاريخه، مج٢، ق٣، ص٦٢١ – ٦٢٣.

(سنة ١٠٥٢ ي/٧٤١ م) مات لاون ملك الروم، وحكم خمسًا وعشرين سنة، وخلفه في الحكم ابنه قوسطنطينوس خمسًا وثلاثين سنة[1].

وفي هذا الزمان أقام الخليفة هشام جسرًا مقابل قلنيقوس على نهر الفرات.

(سنة ١٠٥٣ ي/٧٤٢ م) حدثت هزّة أرضيّة قويّة جدًّا، واستمرّت طوال الليل، والأرض كأنّها تتنهّد وتخور مثل الثور، وقد سمع ذلك الصوت كثيرون. وفي الصباح عندما حان وقت إقامة القدّاس، دخل الشعب كلّه الكنيسة، إلاّ أنّ الكنيسة سقطت على من فيها وقضت على الجميع، ولم ينجُ من الموت المحتّم إلاّ الكاهن الذي كان يقيم الذبيحة. كما أنّ التلّ الذي كانت الكنيسة مبنيّة عليه، كان يهدر هديرًا قويًّا، استمرّ حوالي ثلاثين يومًا.

(سنة ١٠٥٤ ي/٧٤٣ م) انكسر الجسر الذي على دجلة عند مدينة آمد، لقساوة فصل الشتاء هذه السنة، ولكثرة الثلوج التي سقطت فيه ولأيّام كثيرة، ممّا أدّى إلى هلاك أغلب الحيوانات والطيور لشدّة الجوع، وحدوث البرد القارس والرياح الشديدة العاتية وغزارة الأمطار التي أذابت أغلب الثلوج، فازدادت مناسيب الأنهار كلّها وخاصّة نهر دجلة الذي حدث فيه فيضان عظيم، خرّب كثيرًا من القرى والمدن، وجرفت المياه أمامها أخشابًا كثيرة وكبيرة الحجم، ولشدّة قوّة الفيضان انكسر الجسر الكبير عند مدينة آمد، وتعلّقت به الأخشاب الكبيرة التي تراكمت بعضها فوق بعض مسافة خمسة أو ستّة أميال. ولم يُبْنَ الجسر بعدئذٍ لأسباب منها أنّ الخليفة هشام الذي كان قد جمع الكثير من المهنيّين لإعادة بناء الجسر، كان قد عاجله الأجل المحتوم، فترك أمر تعمير الجسر.

وفي هذا الزمن نُهبت مدينة الرها. وإنّ النهر العظيم الذي كان يُسمّى ديصان، والذي كان يمرّ في وسط الرها، حصل فيه سيل كبير حتّى إنّ المياه الفائضة سدّت منافذ المياه الموجودة في السور من الجهة الشرقيّة حيث خرّبته المياه، ممّا أدّى إلى ارتفاع مناسيب المياه، فبلغت أسواق المدينة واجتاحتها، وإذ حدث ذلك نهارًا لم يَهلك أحد، إنّما المدينة خربت حوانيتها، ووقع الكثير من دورها، وهرب أغلب سكّانها تاركين بيوتهم. وبالتالي فتحت المياه لها منفذًا نحو برّيّة الرها وحرّان، وأجرت خرابًا عظيمًا فيها.

---

(١) الصحيح أنّه توفّي سنة ٧٤٠، وتولّى الحكم بعده ولده قسطنطين الخامس (٧٤٠ – ٧٧٥)، وهو من الأسرة الإيصوريّة.

(سنة ١٠٥٥ ي/٧٤٤ م) مات الخليفة هشام بن عبد الملك[١]، وحكم بعده الخليفة وليد ثمانية أشهر[٢]، ولأجل هذا القاسي، قام يزيد وعيسى وإبراهيم الإخوة مع عبد العزيز أخيهم أولاد حَشَش بجانب مدينة قُوري وقتلوه بحربة. وحكم بعده يزيد[٣] ستّة اشهر[٤]، حيث مات ولم يمهله الأجل أن يقوم بالأعمال واستلم مكانه إبراهيم أخوه[٥].

وفي هذه السنة أيضًا حدثت فتنة كبيرة في جميع الأرض من جرّاء الفِعْلة التي فعلها عيسى وأخوه على الوليد الذي قتلاه بحربة، وحكما البلاد، إلاّ أنّهما لم يمكثا بالحكم كثيرًا، ولم يطعْهما المسلمون وخاصّة أبناء الجزيرة. واهتمّ كلّ بنفسه ينهب

(١) يقول اليعقوبيّ إنّه توفّي يوم الأربعاء لتسعٍ خلون من ربيع الأوّل سنة ١٢٥هـ. وكانت ولايته ٢٠ سنة إلاّ خمسة أشهر (٢:٣٢٨). ويقول الطبريّ إنّه مات سنة ١٢٥هـ لستّ ليالٍ خلون من ربيع الآخر يوم الأربعاء، وكانت خلافته ١٩ سنة وسبعة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا (٨:٢٨٣). ويقول الأزديّ «مات هشام بن عبد الملك بالرصافة من حدّ قنّسرين» (ص٥٠). ويقول ياقوت الحمويّ في (معجم البلدان ٢:٧٨٤) «إنّ رصافة هشام في غربيّ الرقّة على طريق البسريّة»، ويقول الأزديّ: مات يوم الأربعاء لستّ ليالٍ خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ، وكانت خلافته ١٩ سنة وسبعة أشهر ونصف. وكان عمره أربعًا وخمسين سنة، وكان مولودًا بالمدينة (ص٥٠-٥١).

(٢) بويع الوليد بن يزيد في اليوم الذي توفّي فيه هشام في يوم الأربعاء لستٍّ خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ. ثمّ قتل بالبجزاء يوم الخميس لليلتين من جمادى الآخر سنة ١٢٦، فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يومًا. وقتل وهو ابن أربعين سنة. والموضع الذي قتل فيه قرية من قرى دمشق تعرف بالبجزاء (مروج الذهب ٣:٢١٢؛ الأزديّ، ص٥١ وما بعدها).

(٣) ولّي يزيد بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة، فبايعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد، وتوفّي يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجّة سنة ١٢٦هـ، فكانت ولايته خمسة أشهر وليلتين. وقد كان إبراهيم بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر، وقيل شهرين، ثمّ خُلِع. وكانت أيّامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة وسقوط الهيبة. وفيه يقول بعض أهل ذلك العصر:

نبايع إبراهيم في كلّ جمعة ... إلاّ أنّ أمرًا أنت إليه ضائع

ودفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، ويقال ابن ستّ وأربعين سنة (مروج الذهب، ٣:٢٢٠).

(٤) يقول الطبريّ: مات يزيد في سلخ ذي الحجّة من سنة ١٢٦هـ، بعد الأضحى. وكانت خلافته في قول جميع من ذكرنا ستّة أشهر (الأمم والملوك، ٦:٤٥).

(٥) يقول الطبريّ: استخلف يزيد بن الوليد أبا اسحق إبراهيم بن الوليد، فمكث أربعة أشهر، ثمّ خلع في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦هـ، ثمّ لم يزل حيًّا حتّى أصيب سنة١٣٢هـ (الأمم والملوك، ٩:٤٦).

ويسلب بالنواحي التي يريدها، ولم يعد المرء يستطيع الاطمئنان على نفسه خارج داره[١].

في هذا الزمن أيضًا، حدث جوع وعطش عظيمان في الأرض كلّها، إذ إنّ الله أرسل علينا البلايا والكآبة من جرّاء خطايانا وما اقترفنا من آثام[٢]...

وفي هذه الأثناء حدثت حرب بين المسلمين بعضهم ببعض[٣]، ارتوت الأرض من دمائهم، وشبعت طيور السماوات والحيوانات البرّيّة من لحومهم. ونهب الناس بعضهم بعضًا. وحلّ فيهم الوباء، حيث إنّ المرء الذي لم يأخذه السيف جرفه الجوع[٤]. إذ حلّ بالأرض قحط وبيل، فالمطر لم يسقط في أوانه، والزروع كلّها يبست، حتّى إنّ البذور لم تنبت، وارتفعت الأسعار، فبلغ سعر كلّ ثمانية أو سبعة أقفاز[٥] من الحنطة دينارًا ولم يكن يوجد. وأرسل الحكّام عمّالاً لحجز الحنطة أينما وجدوها، فضاقت الأرض بالناس، وصار الأغنياء كحظّ الفقراء، فشملهم الجوع جميعًا. حتّى إنّ الحيوانات وآكلات العشب هلكت لعدم وجوده. وكان الضيق شديدًا على جميع الخلائق، لم يحدث قبله من أيّامنا وأيّام آبائنا نظيره، حتّى إنّ العيون وينابيع المياه قلّ ماؤها وبعضها جفّ، كذلك الأنهار يبست مجاريها. ثمّ إنّ موت الخليفة هشام سبّب ضيقًا على الأرض. وهذه من أجل خطايانا وآثامنا[٦]...

(سنة ١٠٥٧ ي/٧٤٦ م) خرج مروان[٧] من أرض الأتراك[٨]... فلمّا خرج من

(١) تفاصيل هذه الحوادث والاضطرابات يسردها لنا الطبريّ في تاريخه. راجع الجزء التاسع ص٤٦-٥٢.

(٢) وهنا يسرد فصلاً كاملاً من النبوّات وأقوال الكتاب المقدّس، أهملنا ذكرها هنا لأنّ لا مجال لسردها.

(٣) ربّما يقصد بها الحروب التي دارت بين الأمويّين والعبّاسيّين، والتي انتهت بسقوط الدولة الأمويّة سنة ١٣٢هـ ونشوء الدولة العبّاسيّة في العراق.

(٤) راجع التفاصيل في تاريخ الطبريّ، الجزء التاسع، ص٤٨-٥١.

(٥) أقفاز: ج قفيز، والقفيز هو كيل للحبوب، لا يتجاوز وزنه الرطل.

(٦) وهنا يسرد فصلاً آخر من النبوّات وأقوال الكتاب المقدّس، أهملنا ذكرها لتكرارها.

(٧) المقصود به هنا هو مروان الثاني بن محمّد بن مروان بن الحكم، وهو الجعديّ. بويع بدمشق يوم الإثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ١٢٧هـ. وقيل: إنّما دعا إلى نفسه بمدينة حرّان من ديار مضر، وبويع له بها. وأمّه أمّ ولد يقال لها ريّا، وقيل طرونة. فكانت أيّامه منذ بويع بدمشق إلى مقتله خمس سنين وعشرة أيّام... وكان مقتله في أوّل سنة ١٣٢هـ. وقتل في بوصير، قرية من قرى الفيّوم بصعيد مصر (مروج الذهب، ٣: ٢٣٢-٢٣٣).

(٨) هنا يسرد المؤلّف نبوّات عديدة من سفر إرميا النبيّ، أهملنا ذكرها هنا لتكرارها في المتن...

الجزيرة استسلمت له، ونصّب عليها عمّالاً أشدّاء، وكذلك في جميع المدن[١]. وفي الموصل جمع عساكر كثيرة وفرّقهم في الجهات[٢]. كما جمع أصحاب المهن والحرف من حدّادين ونجّارين وغيرهم، لكي يذهبوا ويعبروا إلى جهة الغرب عند أصحاب عيسى[٣].

قلنا إنّ الذي قتل الوليد، حكم بعده ستّة أشهر ومات، واستلم الحكم خلفًا له إبراهيم أخوه[٤]. وهذا لمّا علم أنّ مروان عبر نهر الفرات ومعه جيش عظيم، والجزيرة فتحت له أقاليمها، خاف وهرب من أمامه، وأرسل إليه أوّلاً نعيم بن ثابت[٥]، ومعه عساكر كثيرون. وكان يقال إنّ لنعيم هذا سبعين ولدًا، فلمّا التقى الجيشان، وقامت الحرب بينهما، انتصر مروان وسحق جيش ابن ثابت الذي انهزم أمام مروان. فلمّا رأى أعوان نعيم أنّهم قد غُلبوا في الحرب الأولى خافوا جدًّا وجمعوا عساكر كثيرين لا يحصون، حتّى أبناء القرى والفلاّحين، ليضربوا بالمقاليع، ولمّا التقى الجمعان وتناوشوا بالنبال، ونشب القتال، سقط عدد لا يحصى من القتلى من الطرفين، وانتصر مروان أيضًا، وانهزم إبراهيم أخوه وكذلك سليمان بن هشام[٦]، ولم يحدث في العالم مثل هذا القتال، ولم يُسمع قطّ بما سُفك من الدماء، حتّى إنّه قُتل من القرويّين أكثر من خمسة آلاف فلاّح.

---

(١) انظر تفاصيل هذه الأحداث في تاريخ الموصل للأزديّ ص٦١، ٦٨-٧٠.

(٢) يقول الأزديّ ص٧٥: «... فعبّأ مروان خيله كما كان يعبّئها لقتال شيبان وأهل الموصل، وبكّروا على الحرب فلم يجدوا أحدًا يخرج إليهم، فوافوا عسكر شيبان فوجدوه خاليًا من الرجال ليس فيه أحد فأتوا مروان بخبره، وقطع أهل الموصل الجسر لئلاّ يعبر ويدخل المدينة. فرحل مروان حتّى أتى موضعًا من دجلة أسفل الموصل، فعبر فيه إلى ناحية، وأحاط بالمدينة، فصبّح أهلها، ونزل مروان وأمّن أهل الموصل، ودخل حمّامًا يعرف بالجدّالين وبأمير المؤمنين، وذكروا أنّه تغدّى عند جدّ أبان بن سفين، المحدّث التغلبيّ بالموصل، وقال: مدينة بناها أبي، ما كنت لأؤذي أهلها. ففتحوا له أبواب المدينة فدخلها مروان وأصحابه، والألفاظ مختلفة بالخبر والمعنى واحد» (الأزديّ ٧٥-٧٦).

(٣) التفاصيل لدى ابن الأثير في كتابه «الكامل» ج٤، ص٣١٢-٣١٣.

(٤) انظر الحاشية رقم ٢، صفحة ٩١ من هذا الكتاب.

(٥) ورد في تاريخ الطبري: إنّه ثابت بن نعيم الجذاميّ (٩: ٥٤) الذي كان قد أخرجه من السجن، سجن هشام، وغدر به بأرمينية. وكذلك عند اليعقوبيّ: إنّه ثابت بن نعيم الجذاميّ الذي خرج على مروان بناحية الأردنّ، فوجّه إليه مروان بالرماحس بن عبد العزيز (راجع اليعقوبيّ في تاريخه ٢: ٣٣٩).

(٦) وصار سليمان بن هشام بن عبد الملك ومَن هرب من اليمانية من أصحاب يزيد بن خالد بن عبدالله معهم، وسار سليمان بن هشام يريد الشام فلقيه مروان بخساف فهزمه... (اليعقوبيّ ٢: ٣٣٩).

ولمّا انتصر مروان، مرّ على حمص[١] واستولى عليها وهدم سورها، وأخرج يزيد من قبره وعلّقه على خشبة إلى أسفل. (وكانت الجثّة بدون رأس) وأخذ من أحد اليهود فيها أربعمائة ألف من الذهب.

* * * * * * * * * *

(١) لم يمضِ على انتصاره ثلاثة أشهر حتّى خالفه أهل الشام وانتفضوا عليه، وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم... فسار إليهم بنفسه، وأرسل أهل حمص إلى تدمر وغيرهم كثيرين، ودخلوا مدينة حمص ليلة الفطر سنة ١٢٧هـ... وحاصر مروان حمص ثمّ فتحها. وقتل من سكّانها أكثر من ثلاثة آلاف... ثمّ أمر مروان بجمع قتلى المتآمرين، وهم خمسمائة أو ستّمائة، فصلبوا حول المدينة. وهدم من سورها نحو غلوة (الطبريّ، تاريخ الأمم والملوك. ٩:٥٥؛ وأيضًا تاريخ اليعقوبيّ ٢:٣٤٠).

فصل في رؤساء الكنائس الذين عرفوا بهذا الزمن

بعد القدّيس أثناسيوس بطريرك أنطاكية. جلس على الكرسيّ القدّيس مار يهونّيس[١]. وفي الرها عُرف القدّيس قوسطنطينا الأسقف.

وفي حرّان برز القدّيس مار شمعون من دير قرتمين[٢]. وفي شِميشاط[٣] قوسطنطينا أيضًا. وفي مَيّافرقط[٤] القدّيس أثناسيوس المكنّى باللقب صندليا. وبعدئذ ارتقى إلى البطريركيّة (وهو نفسه مار إيونّيس يوحنّا الآنف الذكر). وفي آمد بعد القدّيس مار قوزما قام فيها مار سابا من دير زوقنين من الكورة نفسها. ولمّا تمّ له «عشرون سنة مات» وبعده قام ساويرا من نفس الدير. وهذا توفّي بعد سنة من رسامته في زمن الوباء المارّ ذكره. وقام من نفس الدير ساويرا آخر.

وفي هذا الزمن حصل اضطراب قليل في الكنيسة بسبب القدّيس مار يهونّيس (الآنف الذكر) ولم يوافِق على رسامته الجميع.

* * * * * * * * * *

(١) هو إيونّيس أو يوحنّا الرابع، انتخب بقرعة جرت بخديعة أثناسيوس الصندليّ، مطران ميافرقين، وكانت تربيته في دير زوقنين بآمد، وتسقّف على حرّان. وبعد أن أقيم بطريركًا، قدم مروان الخليفة إلى حرّان، فحمل إليه الهدايا، فأنعم عليه بفرمان مشهور. وبما أنّه فصل مرعيث ديار بكر خبثت عليه نيّة أثناسيوس الصندليّ، فوشى به لدى مروان، فحبسه في حرّان، وغرّمه أربعة عشر ألف دينار. وبعد انكسار مروان في الحرب، خرج البطريرك وانزوى في ديره. وكان الصندليّ متفرّدًا برأيه، مستبدًّا بفعله، وكان يرسم أساقفة دون رضى البطريرك. ولمّا حُرِم إيليّا أسقف سنجار الملفان الخبير، ومفسّر الجزء الأوّل من النازينزيّ، قام داود مطران دارا وحرم الصندليّ. واغتالت المنيّة إيونّيس البطريرك في تشرين الأوّل سنة ٧٥٥ م. وخدم ١٦ سنة. ودفن في البادية على ضفّة الفرات. وسنة ٧٤٢ م أباح مروان للملكيّين فنصّبوا ثاوفيليط ابن قنزبرى بطريركًا، وكان ذلك بعد أربعين سنة لفراغ الكرسيّ (الزهرة الذكيّة ص٤٠-٤١).

(٢) دير قرتمين: شرقيّ مديات مسيرة أربع ساعات عنها. أشهر أديار طور عبدين. بناه الناسكان مار صموئيل وما شمعون عام ٣٩٧ م، ثمّ أُطلِقَ عليه اسم رئيسه وأسقفه مار جبرائيل (+٦٦٧) وصار كرسيًّا لمطارنة طور عبدين سنة ٦١٥م حتّى سنة ١٠٤٩م. ثمّ انفرد مطرانه برئاسة قسم واسع من الجبل، ثمّ انحصر بأبرشيّة خاصّة به حتّى عام ١٩١٥م. تخرّج فيه أربعة بطاركة ومفريان وتسعة وسبعون أسقفًا. لايزال عامرًا آهلاً (اللؤلؤ المنثور ص٥١٢، ط٣).

(٣) شميشاط، مدينة على شاطئ الفرات. شرقيّها بالوية، وغربيّها خرتبرت، وهي محسوبة من أعمال خرتبرت (معجم البلدان ٥: ٢٩١-٢٩٢).

(٤) ميفرقط (ميافرقين) بفتح أوله وتشديد ثانيه ثمّ فاء وبعد الألف راء مكسورة وياء ونون. أشهر مدينة بديار بكر (معجم البلدان ٨: ٢١٤-٢١٨).

فصل في نقل خزينة الملوك من المغرب[١] إلى الجزيرة

لمّا علم مروان بخبث جميع المغربيّين[٢] الذين يخدمون في جيشه أراد أن ينقل خزينة الملوك إلى الجزيرة[٣]. فقام ضدّه كلّ المغربيّين وشرعوا يطعنون بسمعته، فلمّا أحسّ بذلك احتال عليهم قائلاً لهم: إنّي أرغب أن أذهب بها إلى مدينة دمسقس[٤] وليس إلى الجزيرة، لسبب أنّ هناك هو مقام الخلفاء. فلمّا سمعوا هذا وافقوا بنقلها إلى دمسقس. وجاؤوا معه وأدخلوها هناك، ثمّ قصد كلّ داره. وبعد أيّام قلائل، أي بعد مدّة شهرين أو ثلاثة، ودون علم المغربيّين، نقلها إلى حرّان، وأقام فيها سكناه، ومع ذلك لم يطمئنّ من جهة المغربيّين جميع أيّام حكمه.

(سنة ١٠٥٨ي / ٧٤٧م) خرج دحق[٥] بشيعة من الحروريّة[٦] من مدينة الجزيرة. ولّما أتى مروان إلى الجزيرة، لم يرتح فيها من البلايا والرزايا، إذ خرج عليه شوك حادّ من أرض الجزيرة[٧]. وفي نفس الوقت ظهر من جبل إيزلا دحق ويعقوب خيبريّ[٨] وسفسيّ أيضًا. هؤلاء خرجوا وأقاموا قتالاً مع مروان، فقُتل من جماعته

(١) يقصد بهم خلفاء بلاد الشام.

(٢) في سنة ١٢٨هـ نقل مروان بن محمّد خزائن الملك وبيت المال إلى الجزيرة. ونزل جرارة (موضع من نواحي قنّسرين) (تاريخ الأزديّ ص٦٨).

(٣) يقصد بالمغربيّين أي الشاميّين.

(٤) يقصد بها مدينة دمشق عاصمة الدولة الأمويّة بالشام.

(٥) دحق هو الضحّاك. ورد في تاريخ اليعقوبيّ: وافت الحروريّة ومعهم أبو حمزة المختار بن عوف الحروريّ الأزديّ. وكان أبو حمزة من قبل عبدالله بن يحي الكنديّ الذي يسمّى طالب الحقّ... وخرجوا من المدينة وساروا يريدون الشام، ولقيهم خيل لمروان عليهم عبد الملك بن محمّد بن عطيّة السعديّ، فأوقعوا بها بوادي القرى، فزحف الحروريّة منهزمين إلى المدينة، فخرج إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة... (اليعقوبيّ، ج٢، ص٣٣٩-٣٤٠). وورد عند الأزديّ: لعلّه الضحّاك بن قيس الذيّ خلع مروان وبايع سليمان بن هشام (الأزديّ ص٦٨). وكذلك طالع أخبار الحروريّة في الأزديّ أيضًا ص٧٤.

(٦) يقصد بالحروريّة، الخوارج.

(٧) لّما ورد مروان الرقّة يريد الضحّاك، التقيا بموضع يقال له العدّ من أرض كفرتوثا فقاتله يومه... وفيها قُتل الضحّاك، وبعث برأسه إلى مدن الجزيرة يطاف به فيها (تاريخ الأزديّ ص٧٠-٧١).

(٨) لّما قُتل الضحّاك، بايع عسكره الخيبريّ الذي شرع بقتال مروان، ولكن عليه دارت الدوائر فقُتل هو الآخر (انظر أخباره في تاريخ الموصل للأزديّ ص٧١-٧٦).

خلق كثير. وقد أعلنوا هذه الحرب في أقاليم متفرّقة. وأخيرًا نشب بينهم قتال ضارٍ في تلّ مشريثا (تلّ العسكر)، فقتل دحق وجميع أتباعه، وفرّ الباقون.

(سنة ١٠٥٩ي / ٧٤٨م) حدثت هزّة عنيفة وقويّة في أرض المغرب. وكما قيل خوفًا تخاف الأرض، وتتحرّك كما تتحرّك العزالة. وهذه، هي من جرّاء الآثام والشرور والخطايا التي يصنعها العالم يوميًّا. أمّا عن أسباب الهزّة الأرضيّة، فمن آتى لك عنها شرحًا، إلاّ أنّ أسبابها خطايانا، أو أنّ الأرض تضعف، ولهذا تتحرّك أو تهتزّ، فتصرخ إلى باريها ليأتي ويجدّد قواها، لا أظنّ ذلك. ولكنّها تشتكي إذ تخاف من الأثمة الذين فوق سطحها، كما فعلت جهرًا منذ القدم، إذ حدث صوت مرعب ليلاً كصوت الثور حينما يصرخ ويُسمع خواره من بعيد. ولمّا كان الفجر، أمر الأسقف بأن يجتمع الناس جميعهم ويخرجوا للدعاء. فخرجوا جميعهم إلى خارج المدينة، إلى الهيكل الموجود هناك، والمعروف باسم والدة الله، في مدينة مبوغ بأرض الغرب، وكانوا خلقيدونيّين أيضًا، لأنّ الأسقف كان يقول إنّ السبب هو من جرّاء الخطايا، وكان قد خرج معهم ماشيًا أمامهم. فلمّا وصلوا إلى الهيكل، دخلوا جميعهم إلى داخله كالماعز في الحظيرة، يصرخون سويّة ويصلّون. وفجأة حدث اهتزاز عظيم، وسقط ذلك الهيكل عليهم، وعصرهم جميعًا في معصرة واحدة. وهكذا هلك الصالح مع الخاطئ.

(سنة ١٠٦٠ي / ٧٤٩م) صعدت شعوب فارس[١] إلى أرض سوريا، واصطدموا مع جيش المسلمين[٢] عند عاقولا[٣]، ولم يصمدوا أمامهم من حيث إنّهم أقوى

(١) يقصد بهذه الشعوب جموع العبّاسيّين لا سيّما الخراسانيّين الفرس الذين أعلنوا الثورة على الأمويّين في بلاد فارس، إذ كان الفرس الساعد الأيمن بهذه الثورة بقيادة أبو مُسْلِم الخرسانيّ، نكاية بالعرب وقضاء على الأمويّين.

(٢) يقصد بهم جيش الدولة الأمويّة. وهنا يذكر نبوّات عديدة من سفر أشعيا النبيّ، أهملنا ذكرها لعدم تطابقها والأحداث.

(٣) عاقولا (الكوفة) مدينة في العراق على ساعد الفرات غربًا. كانت مركز أبرشيّة واسعة. اتّخذها الإمام عليّ ابن أبي طالب مقرًّا له وفيها قُتل. جعلها العبّاسيّون عاصمة لهم عام ٧٤٩م، وتقلّص ظلّها بعد تأسيس بغداد. بالقرب منها النجف ومشهد عليّ. أنجبت علماء ومحدثين ونحويّين. كانت مع البصرة مركزًا للثقافة العربيّة.

منهم. فقتل الكثيرون منهم، والبقيّة هربوا وتفرّقوا في الأرض، وسلبوا منها الأسلحة والأموال والخيول، إذ كانوا راجلين، ولم يكن بأيديهم أموالٌ إلاّ العصيّ التي حاربوا فيها(١).

ولّما استولوا على الأرض الداخليّة(٢)، أرسل مروان عليهم ابن هبيرة(٣) إلى نصيبين، وهذا أيضًا لم يكن له قدرة على مجابهتهم، وهزموه شرّ هزيمة. ثمّ أرسل إليهم عبد الله بن مروان فقهروه أيضًا، فأدركهم مروان ونشب بين الطرفين قتال مروّع، وقع على أثره قتلى كثيرون، فارتوت الأرض من الدماء الغزيرة بين الزابين. فهرب مروان وتبدّدت عساكره، وفرّ هو عبر الفرات. فأغلقت جميع المدن أبوابها بوجهه، حتّى إنّ المغربيّين(٤) أرادوا محاربته. وبهذا فقد كلّ أعوانه حتّى أقاربه الذين لم يُقتلوا وُضعوا في السجون(٥).

إنّ الفرس لّما هزموا مروان، تفرّقوا في الأرض كذئاب المساء والبواشق الجائعة، التي تنبّأ عنها حبقوق، وقال: ها إنّي أحرّك الكلدانيّين الشعب الجسور القاسي(٦)... إلخ.

---

(١) وهنا يستشهد بنصّ كامل من نبوّات يوئيل النبيّ وناحوم وغيرهما. قاصدًا القول إنّ تلك النبوّات هي رمز لتلك الأحداث، ممّا لا يتطابق والتاريخ. إلاّ أنّه أوردها هنا لمجرّد الحشو.

(٢) يقصد بها بلاد الشام.

(٣) وجّه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لمحاربة الخوارج (اليعقوبيّ ٢: ٣٤١؛ الطبريّ ٩: ٧٨).

(٤) يقصد بالمغربيّين سكّان بلاد الشام ولا سيّما الأمويّين.

(٥) يورد المسعوديّ وصفًا لهذه الحرب بقوله: «وسار مروان حتّى نزل على الزاب الصغير. وعقد عليه الجسر، وأتاه عبد الله بن عليّ في عساكر أهل خراسان وقوّادهم، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة ١٣٢هـ. فالتقى مروان وعبد الله بن عليّ. وقد كردس مروان خيله كراديس ألفًا وألفين، فكانت على مروان، فانهزم وقُتل وغرق من أصحابه خلق عظيم. فكان فيمن غرق في الزاب من بني أميّة في ذلك اليوم، ثلثمائة رجل دون من غرق من سائر الناس، وكان فيمن غرق في الزاب في ذلك اليوم من بني أميّة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، وهو أخو يزيد الناقص، وقد قيل في رواية أخرى إنّ مروان كان قد قتل إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه، وكانت هزيمة مروان من الزاب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة ١٣٢هـ(مروج الذهب ٣: ٢٤٥).

(٦) حبقوق ١: ٦ «فها أنذا مقيم الكلدانيّين الأمّة المرّة القاحمة السالكة في رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها.

وأوّل عامل على الجزيرة عكيّ[١]. وأصدروا قانونًا بأن يلبس جميع المسلمين الثياب السوداء[٢].

(سنة ١٠٥٤ي / ٧٤١م) يوم الجمعة، أوّل كانون الثاني تساقطت النجوم من السماء شبه كرات من النار، وإلى جميع الجهات، وكانت علامة للخوف والضيق الذي سيحلّ بالأرض بعد الحرب الضروس والأوبئة التي وقعت.

(سنة ١٠٦٠ي / ٧٥٠م) لبس المسلمون الثياب البيضاء[٣]، عندما رأوا البلايا تحلّ بهم من قبل الفرس، الذين شرعوا يعاملونهم بالقسوة ويقتلونهم كالغنم، وينهبون كلّ ما بأيديهم من أموال. فلم يتحمّلوا كلّ هذا الهوان، فبدّلوا لباسهم إلى الأبيض. وقيل إنّهم كانوا يستهزئون بالخلفاء والحكّام، والعبد يحكم السيّد، ويذلّ الأعزّاء، وراحوا يحتلّون أراضي المسلمين[٤] ويطردونهم منها ويحلّون فيها، وإذ لم يحكم سنة كاملة، حصلت فتنة عظيمة، تمرّد على أثرها بوريكا[٥] في شيعة الحروريّة[٦].

(سنة ١٠٦٢ي / ٧٥١م) وسّع المسلمون الذين في مَيّافرقط (ميّافرقين) رقعة ديارهم، وباشروا يسلبون وينهبون أهالي ذلك الإقليم وخاصّة سكّان الجبل. وصعد على إقليم قولب قورا بن ثابت وقبض على رؤساء الإقليم وقتل منهم سبعة. فلمّا سمع السكّان ذلك ضبطوا أنفسهم، وكانوا من مدينة فيس، لئلاّ تأتيهم بلايا أكبر، فنسوا قتلاهم لئلا هم يُقتلوا... وإنّ شخصًا عاقلاً لبيبًا مؤمنًا بالله اسمه يوحنّان بن ددّي (؛؛ ـ) من أهالي فيس، جمع جميع سكّان الإقليم المسمّى (إقليم فيس) وخاطبهم: إنّكم تعلمون أنّه لا يوجد لنا ملك ليأخذ بثأر دمائنا، وإذا ما تركنا الجبل

(١) عكيّ، يقصد به عليّ أوّل عامل على الجزيرة في العهد العبّاسيّ.

(٢) جعل العبّاسيّون شعارهم السواد حينما رفعوا الرايات السود ضدّ الأمويّين. ولقد أسهب المسعوديّ في سرد هذه الحوادث (انظر مروج الذهب ٣: ٢٤٥-٢٥٠).

(٣) كانت هذه الثياب دلالة على الحزن العميق. انظر خبر هذا التبييض في تاريخ الطبريّ ٩: ١٣٧-١٤٠.

(٤) يقصد بها أراضي الأمويّين في بلاد الشام وما يحيط بها.

(٥) ويدعوه أحيانًا «نوريكا» والنصّ في حالته هذه مبهم وغير مترابط، ثمّ إنّنا لم نعثر على أثر لهذا التمرّد بقيادة نوريكا، إذ لم نجد بين زعماء الخوارج واحدًا بهذا الاسم بهذا الزمن.

(٦) شيعة الحروريّة أو حروريوثا هم الخوارج في الجزيرة. وأوّل من تمرّد لهم في العصر العبّاسيّ هو الذي أعلنه الملبّد بن حرملة الشيبانيّ، وذلك في سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م.

على الغارب ستسوء حالتنا، وبالأخير يطردوننا ويحتلّون أرضنا وأموالنا. فما علينا إلاّ الاتّحاد... فلم يسمع له من الأهالي إلاّ النفر القليل، وتبعوه بعد أن أقاموه رئيسًا وقائدًا لهم. فدخل بهم الهيكل وأقسموا بالأسرار الإلهيّة أن يطيعوه بكلّ ما يأمرهم به، ولا يعصون له أمرًا وأن لا يتآمروا عليه أو يخونوه. فتشجّع يوحنّان وجعل المدبّر له الله عزّ وجلّ، وأخذ جماعته بعد أن جعل منهم رؤساء عساكر، رؤساء الألف والمئة والخمسين والعشرة، وأقام منهم حرّاسًا على الأبواب التي هي مدخل الجبال[١].

وفي هذه الأثناء برز رجل اسمه سودا، قطع على نفسه عهدًا مع رعاياه المسلمين الذين في ميّافرقط، أن يقضي على كلّ العصاة ويقطع رؤوس رؤسائهم، والآخرين يرميهم في قعر السجن المظلم. فلمّا تعاهد بهذا الوعد، أخذ معه جيشًا جرّارًا، وصعد إلى الجبل، كمن يطلب معاهدة الصلح والسلام. إلاّ أنّ يوحنّان وجماعته كشفوا حيلته، وهجموا عليه فجأة وقتلوا من عساكره الكثيرين، والباقين هربوا حفاة عراة، إذ كانوا راكبين على الخيول، ودخلوا مدينتهم بخجل عظيم، ومنذئذٍ صارت بين الطرفين فتنة كبرى[٢].

أمّا العامل الذي كان مقيمًا – ومنذ سنتين في حصن قولب – فاتّفق مع المسيحيّين والمسلمين أن يترك يوحنّان الجبل، غير أنّ هذا لم يأتمر بأوامره، فحدثت بينهما فتنة عظيمة، والمسلمون كانوا يريدون أن يترك الجبل، لئلاّ يتمرّد معه الجبليّون وتزداد قوّته. والمسيحيّون كانوا يرغبون بنزوله، لئلاّ يحتال عليهم وتنزل فيهم الكوارث. إلاّ أنّه عصى أمر الطرفين، وأظهر تمرّده في الحصن، وجمع له كثيرًا من الأشقياء، وشرع يسلب القرى وينهبها ويصعد بالغنائم إلى حصنه. ولقد هجم ذات مرّة – وعلى غفلة من سكّانها – على آلول وفشفشط، وفعل بسكّانها سائر الشرور، وأسر جميع السكّان، بعد أن نهب كلّ مقتنياتهم. وإذ كان الأتباع يسلبون ويقتلون، أرسلوا خبرًا بالخفية إلى يوحنّان، أن أدرِكنا لئلاّ نُقهر ونُسبى. فلمّا سمع يوحنّان بالضيق الذي على إخوته، خاف وجهّز جيشًا كبيرًا، وبالسرعة الممكنة قصد ساحة القتال. وإذ كان الليل قد أرخى سدوله، حاصر القرية ولم يدخلها. وأرسل جندًا يأمرون السكّان

---

(١) لم نجد أيّ ذكر له في كلّ المصادر التي بين أيدينا.

(٢) لم نجد أيّة معلومات عن (سودا) هذا، ولا عن أخباره.

بالهرب من القرية قبل تدميرها. فلم يطع السكّان الأوامر، فهجم يوحنّان بجنده، وكانت في ذلك الهجوم نهايته، إذ قتل أثناء القتال ونال جزاء أفعاله الشرّيرة[١].

وبعد هذه الواقعة، برز رجل آخر من أتباع يوحنّان الآنف الذكر اسمه سطفنا بن فولوس. وكان رجلاً شرّيرًا، قاسي القلب، غليظ الرقبة. هذا الذي كان قد أقسم بالأسرار الإلهيّة بطاعة يوحنّان، إلاّ أنّ قلبه كان يميل دومًا نحو المسلمين ويتعاطف معهم ضدّ المسيحيّين. فكان ذات مرّة – قبل مقتل سيّده يوحنّان – قد أرسل بطلب جيش من المسلمين ليغزو به بعض القرى المسيحيّة، ولمّا وصل عند إحدى القرى واسمها (حزرو) أعطى لهم كلمة السرّ، وعلامته بأنّه لمّا ينزل يوحنّان من الجبل يسلمه بأيديهم. إلاّ أنّ تدبيره هذا كان نقمة له، إذ هو الذي وقع في الحفرة التي حفرها لسيّده، والخطّة كانت كما يلي:

دخل القائد عوف (المسلم) واثنين من أعوانه إلى الدار، واختبأوا فيها، وأعطاهم سطفنا علامة، أنّه لمّا يدخل يوحنّان إلى ذات الدار يصفّق بكفّيه فينهضون من مخبإهم ويقتلونه. وكان قد أقام جنودًا في كمين آخر على قرية حزرو. وأرسل مسرعًا إلى سيّده يوحنّان رسولاً ليقول له: هيّا أسرع بلا تهاون لنرى ماذا نفعل، لأنّ العساكر أحاطت بنا من كلّ جانب.

ولمّا كان يوحنّان سليم القلب، أسرع إلى المجزرة كالخروف وهو لا يدري من الأمر شيئًا. وإذ كان بالقرب من الدار الموجود فيه الكمين، حضر إليه حسب إرادة الله رجل مؤمن يخاف الله، وأطلعه على السرّ وأخبره بالحيلة والكمين. فرجع إلى الوراء قليلاً، وإذ كان أولئك ينتظرون فريستهم، أرسل يوحنّان عسكرًا وهم لا يدرون أنّه على الباغي تدور الدوائر، وأحاطوا بالدار من كلّ جانب وهجموا عليه، فلم ينج أحد من الذين بالداخل، وأتوا بالخوازيق ووضعوهم عليها أمام الجميع.

ولمّا شعر سطفنا بالأمر، ركب هو وأتباعه على الخيول مسرعين إلى خارج المكان، إلاّ أنّ الجند تبعوهم وأدركوهم ظاهر القرية وقتلوهم. غير أنّ سطفنا نجا بنفسه، وقصد المدينة ولم يعد يتجاسر بالظهور خارجها أو أن يقصد الجبل[٢].

---

(١) لا نعرف عن هذه الحادثة شيئًا آخر، إذ لم ترد في كلّ مصادرنا.

(٢) أيضًا نجهل كلّ شيء عن هذه الحادثة، إذ لم تذكر في أيّ مصدر آخر.

وازدادت المصائب والنكبات بين سكّان الجبل والمسلمين، فلم يكن يمرّ يوم واحد دون فتنة وقتال. لا بل إنّ الجبليّين ضبطوا الأبواب وأوصدوها بوجه المسلمين، حتّى إنّه لم يعد في الجبال مسلم واحد، إلى أن ظهر لهم ممهِّد آخر (خائن) وهو أورطيّ الأصل اسمه غريغور، خرج على قومه في أتباع كثيرين، وقاتل مع أبناء نهر حرّا (ابن حرّا)[١] وقتل منهم خلقًا كثيرًا، والباقون قطع أيديهم وأوصالهم وعذّب أجسامهم (شوّهها)، فمنهم من قطع آذانهم، ومنهم من جدع أنوفهم، وغيرهم من كوى عيونهم بالنار أو سملها، أمّا الأسرى والغنائم فلمّها ليوحنّان[٢].

وفي بلاد الشرق خرج يوركا بأتباعه الحروريّة (الخوارج)[٣].

وفي بلاد الرها خرج عبيد الله بن بوختريّ[٤] فارتكب بلايا كبيرة، وخاصّة في بيت معدا، إذ قبض على وجهائها وشواهم كالسمك على النار، وغيرهم قتلهم بحدّ السيف، ونهب أموالهم وذهبهم، والديورة التي في أرض الرها وحرّان وتلّلاّ، فجميعها خرّبها مع قرًى كثيرة، أمثال دير قوبا[٥] ودير ريشمات الذي في طيشفا، ودير قترا، ودير حسمي الكبير، ودير مار لعازر، وبيت معدا، ودير مار هابيل[٦]، ودير مار ميكس، ودير سنين[٧]، وقرى أخرى.

وهكذا هذا المنافق صبَّ جام غضبه على الديورة والكنائس. وكان دائمًا يهدّد الديورة الشرقيّة والشماليّة بالخراب، ليصنع فيها نقمة أبيه الشيطان.

* * * * * * * * * *

(١) لا نعرف شيئًا من أخباره.

(٢) لم ترد هذه الحوادث إلاّ لدى الزوقنينيّ هنا فقط.

(٣) لم تذكر المصادر العربيّة والإسلاميّة والسريانيّة خبر يوركا هذا.

(٤) نجهل الكثير عن بوخَتْريّ هذا، إذ لم يرد ذكره في المصادر التي أمامنا.

(٥) دير قوبا أو دير القبب في لحف جبل الرها في جنوب بيعة مار توما. أنشئ في أوائل القرن الخامس، ودمّره ابن البوخَتْريّ عام ٧٥١م وأعيد بناؤه. فخرج منه ثلاثة أساقفة حتّى سنة ٨٧٣ (اللؤلؤ المنثور ص٥١٣).

(٦) لم نجد ديرًا بهذا الاسم. إنّما هناك دير باسم مار إبراهيم وهابيل بالقرب من بلدة مذيات، وهو دير قديم عامر. بُني هيكله حوالي سنة ٧٦١، ونشأ منه ثلاثة أساقفة (اللؤلؤ المنثور ص٥٠٨)، وقربه بهذا الاسم «دير هابيل» في كورة سِعِرْد (اللؤلؤ المنثور ص٥١٦).

(٧) دير سنين وقيل سنون، بالقرب من الرها، ذكر سنة ٥١٢ وسنة ٥٦٥، وخرّبه الغاشم عبد الله بن البختريّ سنة ٧٥١م (اللؤلؤ المنثور ص٥١١).

فصل عن الشتاء القارس

حلّ بالأرض شتاء قارس[١]، وتلاه اثنان آخران[٢]، إذ تساقط الثلج في ثلاثتهم. فهلكت المواشي والحيوانات والطيور من شدّة البرد وتراكم الثلوج فوق الأرض خمسة أشبار[٣]. ودام على وجه التراب تسعين يومًا، وفي السهول سبعين يومًا، حتّى كاد كلّ ذي جسد أن يفنى. والذين كانوا يقتنون المواشي والحنطة، عندما انتهى العلف لدوابّهم أخرجوا الحنطة التي بحوزتهم، وقدّموها علفًا للدوابّ لئلاّ تموت من الجوع. ولّما انتهت الحنطة، هلكت الحيوانات هي الأخرى كالجراد، حتّى إنّ لحومها لن تكن تؤكل.

كان البرد شديدًا والجليد قاسيًا، إذ وقع على الأرض بَرَد كبير الحجم جدًّا. وحدثت ظلمة أيّامًا عديدة، حتّى إنّ المرء بصعوبة كبيرة كان يبصر مكان أقدامه.

كما أنّ الثلج تراكم على أشجار الزيتون والكروم فيبست، ولم يبق شيء إلاّ هلك. ومن شدّة البرودة وقوّة الجماد، تجمّدت الأنهار حتّى راح الدوابّ والبشر يعبرون فوق مياهها المتجمّدة، ولا يخشون السقوط فيها. كما أنّ دجلة جمدت مياهه، حتّى إنّه قيل إنّ قافلة من الجمال عبرت فوقه ولم يتأثّر تحت أرجلها[٤].

ودام الأمر هكذا شديدًا، إضافة إلى الفتن والاضطرابات والأوبئة والأمراض الفتّاكة ثلاث سنوات متتالية، حتّى كادت الحياة أن تفنى في أراضي الشمال[٥].

* * * * * * * * * * *

(١) للأسف لا يذكر المؤلّف رقم السنة التي جرى فيها هذا الشتاء.

(٢) نفهم من النصّ أنّ ثلاثة فصول شتائيّة متتالية كانت شديدة البرد قارسة، غير أنّه لا يؤرّخ بالسنين.

(٣) أي ما يقارب المتر ونصف المتر ويساوي ١٥٠ سنتيمترًا.

(٤) حدث أن تجمّد نهر دجلة عدّة مرّات من جملتها عام ١٧٠٨ م وعام ١٧٥٣ م، ١٧٥٦ وفي هذه السنة مشى الناس على دجلة بالدوابّ مدّة عشرين يومًا.

(٥) يقصد منطقة الجبال في بيت نهرين وبلاد الأناضول.

فصل عن الجوع الذي حصل بهذه السنين[١]

و

نزوح الشعب الأرمنيّ والأُرطناويّ إلى سوريا

لـمّا كان الثلج قد تراكم فوق الأرض واستمرّ أيّامًا كثيرة، فإنّ الزروع التي نبتت تحت الثلج، تعفّنت ويبست. وعندما ذاب الثلج، نبتت الأشواك والأدغال. فتمّت فينا كلمة النبيّ القائل: ملعونة الأرض بسببك، فإنّها تُنبت لك الشوك والحسك. وإن حرثتها لا تعطي لك ثمرًا. وقال آخر: ازرع حنطة واحصد شوكًا. عوض الحنطة نبت القرطمان، وعوض الشعير نبت الحسك، وعوض العدس والباقلاّء والحمص نبت لنا الأدغال. فالزرع الذي نبت وارتفع قليلاً. سقط عليه آفة اليرقان والهواء السامّ فأهلكه. وعندما ذاب الجليد أصابه المنّ والدودة فأماتته. فكنّا نأخذ عشر سنابل ونفركها بأيدينا فلا نجد فيها حبّة واحدة سليمة، بسبب السموم. وهكذا الحقول كلّها يبست وصار لونها أحمر قانيًا، إذ كان الداء الذي أصابها أحمر اللون[٢].

بيعت الحنطة في هذه السنة، المكيال الواحد بدينار. ثمّ ارتفع حتّى أصبح كلّ سبع حفنات بدينار واحد[٣].

* * * * * * * * * * *

(١) لمن يرغب التفاصيل بأخبار هذه السنين، يراجع كتاب «غرائب الأثر في حوادث القرن الثالث عشر، لمؤلّفه ياسين العمريّ. حقّقه ونشره الدكتور محمّد صديق بك الجليليّ، الموصل ١٩٤٠ .

(٢) ولأجل هذا يستشهد المؤلّف بقول عاموس النبيّ: إنّي ضربتكم بهواء السموم واليرقان والبَرَد. وأكثر جنائنكم وكرومكم وزيتونكم أكلته آفة الماشوط ولم ترجعوا عليّ، يقول الربّ. وأرسلت إليكم الموت وقتلت بالسيف شبابكم وشيوخكم، أصعدت رائحة جيفتكم في وجوهكم (عاموس ٤: ٩-١١).

(٣) للأسف لم يؤرّخ هذه المجاعة بسنة معيّنة.

فصل عن المنّ والدودة
التي صارت بالأرض في هذه السنوات

عندما حلّ أوان الحصاد، والناس ينتظرون شمالات الزرع[١]، ظهر في الأرض دود كثير، صعد إلى سنابل الحنطة والشعير وكلّ نبات أخضر، وكان يمصّها. فذبلت الزروع ويبست، حتّى إنّ الحنطة التي كانت سنابلها سمينة، كانت فجأة تيبس، وخاصّة التي لم يكن فيها قشرة، ويتبدّل لونها، فدعاها الناس المنّ والدودة حيث لم تكن نوعًا واحدًا ولا شكلاً واحدًا، بل كانت منها الطويلة ومنها القصيرة، منها الخفيّة ومنها الظاهرة، منها بيضاء ومنها ملوّنة بألوان كثيرة. وكان الحكماء من شيوخنا يقولون: هذا هو غضب الربّ الذي أرسله إلى المصريّين على يد موسى النبيّ[٢].

كما أنّه كثر الماشوط، فأمات الكروم وكلّ الأشجار المثمرة، حتّى إنّها أصابت النباتات الميّتة، كأنّها البساط المفروش على الأرض.

أمّا الجراد فحدّث عنه ولا حرج، إذ أتى على كلّ الحقول، فأبادها أكداسًا أكداسًا. وكان بلاؤه أكثر من بلاء المنّ والدودة. فكان إذا دخل الحقل الجيّد والسمين السنبل أذابه وأذبله وكأنّه لم يكن. ولو كان المرء يأخذ سنبلة ويظنّها سنبلة سمينة جيّدة، عندما يفركها إذا بها كالطحين متفحّمة. وإن زُرعت لا تنبت لفسادها. حتّى إنّ الآفة هذه دخلت باطن الأرض وعاشت فيها. وهكذا صحّت كلمة النبيّ يوئيل: أنصتوا يا سكّان الأرض... ازداد الجوع ولا توجد حنطة[٣].

* * * * * * * * * *

(١) شمالة (باقة من الزرع، أو كومة من القشّ اليابس للحنطة والشعير ولكلّ نبات يحصد).

(٢) غير أنّه كعادة المؤلّف هنا لا يذكر السنة التي حلّ بها هذا الحدث.

(٣) سفر يوئيل ١: ١-٤.

فصل عن الشعب الأرمنيّ والأورطيّ
الذي خرج إلى سوريا بسبب الجوع من البلاد

لمّا أرسل الله تجارب كثيرة في نذير الحنطة والشعير والكروم لسبب خطايانا وآثامنا التي نرتكبها كلّ يوم، اشتدّ الجوع في بلاد أرمينيا وبلاد الأورطيّين[١] بسبب هلاك مزروعاتهم، لم يبق لديهم شيء لمعيشتهم. والذي لا يرضى بالبَرَد فيأتيه السموم. وإذا شُتِل المرج في الحرّ فإنّه في البرد ييبس.

هاجر جميع سكّان أرمينيا إلى سوريا خوف المجاعة، وإن كانوا قد نجوا من غضب الربّ الذي سقاهم المياه المرّة، وأطعمهم الخبز بمذلّة وعرق الجبين. وفرّقهم بين الشعوب التي لا تعرفهم. فأرسل السيف وراءهم والسموم والجوع والموت، حتّى كملت فيهم كلمة الربّ: حلّ بنا كلّ هذه الهموم... فخرجوا وملأوا الأرض منهم: المدن والقرى والأديرة، وباعوا كلّ ما يملكونه ليشتروا لهم خبزًا. وتسلّط عليهم وباء داء الطلوع[٢]، ومرض البطن. حتّى إنّه لم يكن يتمكّن المرء أن يدفن الموتى. فكانوا أينما حلّوا وارتحلوا يد الربّ عليهم بالسوء، إذ سلّط عليهم كلّ الضيقات والنكبات، حتّى كاد أن يبيدهم من وجه الأرض.

ومات في هذه السنة نفسها من ديرنا المسمّى دير زوقنين اثنان وأربعون شخصًا، عدا الغرباء، نتيجة الوباء الذي حلّ في كورتنا[٣].

* * * * * * * * * *

(١) قد يقصد بها بلاد التتر أو أذربيجان. فاسم الأرطة الذهبيّة أُطلق على المملكة التي أنشأها التتر في القرون الوسطى على نهر الفولغا، وكانت تشمل سبيريا الجنوبيّة وجنوبيّ روسيًا. عاصمتها صاراي. اشتهرت بفظائعها في الحروب، وانقرضت في القرن الخامس عشر. وسمّيت بالذهبيّة نسبة إلى سرادق ملوكها الذهبيّة.

(٢) يقصد به داء الدمامل المتقيّحة.

(٣) للأسف على عادة المؤلّف لا يذكر السنة برقمها.

(سنة ١٠٦٣ي / ٧٥٢م) عاد الفرس[١] في عساكر كثيرة إلى الأرمن. وقاتلوهم وانتصروا عليهم. كما أقاموا الحرب الشديد على مسلمي الموصل[٢] وعاقولا[٣]، وقتلوا الكبار والصغار. وصعد عبد الله بن محمّد[٤] أخو ملك الفرس[٥]، وقاتل بوريكا عند مدينة دار وهزمه، ففرّ بوريكا من أمامه. ولمّا سمع عبد الله بكلّ ما فعله مسلمو ميّافرقط في مسيحيّي بلادهم، وما فعله المسيحيّون بالمسلمين، أرسل رسلاً إلى يوحنّا، فنزل إليه إلى حرّان. فاستقبله بكلّ فرح وتعظيم، وأكرمه بهدايا جزيلة، وأقامه على إقليمه، وأرسله إلى هناك[٦].

وكان صالح بن صبيح[٧] قد صعد أيضًا ودخل أرمينيا، وأخذ رهائن من سكّان الجبل وجعلهم في ميّافرقط، وحدث هذا قبل أن يصعد يوحنّا من حرّان[٨]، من عند عبد الله، وأخذ منه كتابًا لكي يعطوا له كلّ رهائنه. فلمّا صعد بيّن كلّ المشاحنات التي كانت بينهما، إذ إنّ مسلمي ميّافرقط كانوا قد أعطوا الرهائن لصالح بن صبيح بمثابة رشوة، حتّى تندلع الحرب بين صالح ويوحنّا. ولمّا طالب يوحنّا برهائنه، كان صالح يماطل ويؤجّل كلّ يوم إلى الغد، وهكذا بقي زمنًا طويلاً. فانتشرت فيهم

(١) استعماله لمصطلح الفرس هنا خطأ، إذ دولة الفرس كانت قد دالت وسقطت وقامت الدولة العبّاسيّة بعد سقوط الدولة الأمويّة، فالمقصود هنا هم «العبّاسيّون».

(٢) يقول الأزديّ: «إنّ سبب قتل أهل الموصل، أنّ أبا العبّاس عبد الله بن محمّد بن عليّ قلّد الموصل رجلاً يقال له محمّد بن صول (مولى لخثعم) فلم يقبل أهل الموصل بولايته وقالوا: ما نرضى أن يكون أميرنا مولى لخثعم ومنعوه من الدخول إلى الموصل (ص١٤٥-١٤٦). فأقام شهرًا لا يُظهر لأهل الموصل شيئًا ينكرونه، ولا يعتب عليهم فيما فعلوه، ثمّ دعاهم دعوة فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل الموصل وخرجوا بالسلاح فأعطاهم الأمان، ونادى مناديه: من دَخَل المسجد الجامع فهو آمِن، فأتى الناس يهرعون، فأقام الرجال على أبواب المسجد، فقتل الناس قتلاً ذريعًا أسرف فيه. وهناك رواية أخرى يرويها الأزديّ أيضًا، وعن هذه المذبحة (طالع عنها بالتفصيل تاريخ الموصل للأزديّ ص١٤٥-١٥٤).

(٣) عاقولا هي الكوفة التي كانت عاصمة عليّ بن أبي طالب وأبو العبّاس السفّاح العبّاسيّ.

(٤) كان الوالي على الموصل وأعمالها يحي بن محمّد أخا الخليفة أبي العبّاس السفاح (تاريخ الموصل للأزديّ ص١٥٤).

(٥) يقصد بملك الفرس الخليفة العبّاسيّ، باعتبار أنّ أغلب الجيش وتنظيمات الدولة الأولى كانت بيد الفرس أيّام الدولة العبّاسيّة.

(٦) راجع التواريخ السريانيّة لميخائيل السريانيّ والرهاويّ المجهول.

(٧) راجع المصادر السابقة ذاتها.

(٨) حرّان مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة آقور، وهي قصبة ديار مضر. بينها وبين الرها يوم، وبين الرقّة يومان. وهي على طريق الموصل والشام والروم... وفتحت في أيّام الخليفة عمر بن الخطّاب على يد عياض بن غنم. نزل عليها قبل الرها (معجم البلدان ٣: ٢٤١-٢٤٣).

الأمراض المختلفة. ومات كثيرون في السجون. وسبب المماطلة أنّ صالحًا كان يبتغي أن يحصل على حجّة أو سبب ليعلنٍ مع يوحنّا الحرب، فيتخلّص مسلمو ميّافرقط من سيطرته. إلاّ أنّ يوحنّا أرسل رسلاً إلى عبد الله إذ كان أمير الجزيرة. وفي اليوم الذي كان صالح يستعدّ لأن يشنق يوحنّا على المشنقة - إذ كان قد قبض عليه - دخل إليه رسول وأخرجه من السجن. وقصد حرّان هو وسطفنا بن فولوس إذ كان مقيمًا فيها. وسطفنا هذا ضربه الله بنقمته ومات. أمّا يوحنّا فأرسل كتابًا، وأطلق سراح جميع الرهائن من سجون صالح[١].

(سنة ١٠٦٤ي / ٧٥٣م) خرّب الفرس[٢] المدن. ولمّا عادوا ثانية كانوا قد استولوا على كلّ الحصون. فأمر الملك بنقض أسوار جميع المدن في سورية. وجمع لهذه الغاية كلّ الحدّادين والمهنيّين، ونقضوا جميع الأسوار وأحرقوا كلّ أبوابها. ثمّ أخذوا النحاس والحديد التي فيها، تلك التي صرف عليها الملوك القدماء المبالغ الطائلة لبنائها، من أجل المحافظة على السكّان أيّام الحصار. أمّا الآن فقد نُقِضت من أساساتها... إلخ. وكذلك عزرا القارئ أشار إلى هدم الأسوار وعن الحيّة المعوجّة التي نقضتهم.

(سنة ١٠٦٥ي / ٧٥٤م) نهب كوشن الأراضي الشماليّة. وكوشن هذا كان رجلاً أرمنيًّا من أرمينية الرابعة[٣]. ولمّا انهزم مروان وفرّ هاربًا، أخذ جميع أهل بيته وما يملكه ودخل بيت رومايا[٤]. ولمّا كان كوشن رجلاً عاقلاً أقامه قوسطنطينوس قائدًا للجيش. وفي هذه السنة خرج كوشن أيضًا بقوّة كبيرة وغزا طورا صهيا[٥]، ونهب وسبى جميع القرى في واديه ولم يترك شيئًا إلاّ أخذه، سوى أنفس الناس التي بقيت لدى أصحابها. ومضى بالغنائم كلّها إلى بيت رومايا[٦].

---

(١) لم أجد أيّ ذكر لهذه الحادثة في المصادر العربيّة.

(٢) المقصود بالفرس هنا: العبّاسيّون كما أشرنا سابقًا.

(٣) يقول البلاذريّ: عن قوم من أهل العلم بأمور أرمينية، وردت من بعضه على بعض قالوا: كانت شميشاط وقاليقلا وأرجنيس تدعى أرمينية الرابعة (فتوح البلدان ١ : ٢٣١).

(٤) أظنّ أنّه يقصد «ببيت رومايا» أرض الروم (أرضروم) أو الأناضول.

(٥) طورا صهيا بالسريانيّة معناه الجبل العطشان.

(٦) ورد عن مشايخ أهل قاليقلا قولهم: لم تزل مدينة قاليقلا منذ فتحت ممتنعة بمن فيها من أهلها حتّى خرج الطاغية في سنة ١٣٣هـ فحاصر أهل ملطية وهدم حائطها وأجلى من بها من المسلمين إلى الجزيرة. ثمّ نزل مرج الحصى فوجّه كوسان (كوشن) الأرمنيّ، حتّى أناخ على قاليقلا، فحاصرها وأهلها يومئذٍ قليل وعاملها أبو كريمة. فنقب أخوان من الأرمن من أهل المدينة، أي مدينة قاليقلا، ردمًا كان في سورها، وخرجا إلى كوسان (كوشن) فأدخلاه المدينة فغلب عليها فقتل وسبى، وهدمها وساق ما حوى إلى الطاغية وفرّق السبي على أصحابه (البلاذريّ، فتوح البلدان ١ : ٢٣٦). وأظنّ أنّه يقصد بلفظة قاليقلا اسم مدينة قيليقية أو كيليكية القائمة حتّى الآن.

(سنة ١٠٦٦ي / ٧٥٥م) خرج أيضًا كوشن الأرمنيّ على أرض هنزيط[١] بعساكر كثيرين أغلبهم رومانيّون وأورطيّون، فلمّا سمع عكيّ[٢] الذي كان أميرًا على الجزيرة في هذه الفترة، جمع للقائه عساكر كثيرين من الفرس والمسلمين، وأقام قائدًا عليها ابنه وأرسله لمحاربة كوشن. وإذ كان هذا الصبيّ يفتخر متكبّرًا بقوّة جيشه، التقى الجمعان ودارت دوائر الحرب. فكان الصبيّ يذمّ مقاتليه، لأنّ الطفولة قريبة من عدم تطبيق الأصول أي عدم خبرة إذ لم يكن يميّز بين الخير والشرّ. إلاّ أنّ الشيوخ الذين كانوا معه قد اعتركتهم الحياة واختبروا الحرب ويعلمون فنونها، أشاروا على القائد الصبيّ أن لا تغرّنَك العجلة، ولا تستبِق الأمور، لأنّ عدوّنا رجل مرّنته الحروب، وهو بطل لا يعرف الارتداد إلى الوراء. حتّى إنّ حركات الأرض ومخابئها يعرفها بكلّ أسرارها إذ ولد فيها ونشأ بين ظهرانيها.

أمّا القائد الصبيّ فرفض مشورة الشيوخ – كرحبعام الولد الجاهل – وأخذ برأي الجهّال الذين تربّوا معه. ولّما كان يرغب في أن يجعل له اسمًا وشهرة بالانتصار، راح يسرع بإعلان الحرب والاصطدام. غير أنّه عوض أن يجعل له مجدًا وافتخارًا، جعل له اسمًا مذمومًا مغلّفًا بالخجل والعار على مرّ الأجيال. حيث إنّه لّما اصطدم بجيش كوشن، والقتلى يتساقطون من الطرفين هجم كوشن على الفرس (العبّاسيّين) الذين شرعوا بالهزيمة، فهربوا أمامه عدا الذين قتلوا بحدّ السيف. وهرب ابن عكيّ (عليّ) القائد الصبيّ عاريًا على ظهر فرس عارٍ، اندفع كالريح لشدّة خوفه. هرب تاركًا وراءه الغنائم لقمة سائغة بأيدي الروم. وهكذا حلّ بالذي أراد الشرف والانتصار، فلبس ثوب الخزي والعار له ولآل بيته. وعوض أن ينهب ويسلب ويأسر، نُهب هو وسُبي وأُسر كثيرون من أتباعه.

وقد اشتهر في هذا الزمن من الآباء والرعاة الأرثوذكس القدّيس مار يهونّيس بطريرك أنطاكية[٣]، والقدّيس مار ميخائيل بطريرك الإسكندريّة الكبرى، والقدّيس مار طيمثاوس أسقف الرها وقوسطنطينا أسقف ماردين، وداويذ أسقف دارا الذي

(١) لا نعرف ماذا تسمّى اليوم.

(٢) هو عليّ أمير الجزيرة.

(٣) انظر الحاشية رقم ١ صفحة ٩٤ من هذا الكتاب.

ارتقى أخيرًا إلى البطريركيّة(١). كما اشتهر في ميّافرقط أثناسيوس الملقّب صندليا(٢). وهذا بنى ديرًا معروفًا في جبل تلبشمى ويعرف أيضًا بدير أثناسي، وأخيرًا نُصّب بطريركًا. واشتهر في آمد مار آبي من دير مار حبيب الأرزونيّ والقدّيس ساويرا الذي ذكرناه سابقًا من دير زوقنين، وكان قد عُزل عن إدارة المدينة بسبب ثقل أو ضعف بصره، إذ لم يعد يتمكّن من الرؤية، وأُقيم مكانه مار آبي. واشتهر مار يوحنّا أسقف قلنقوس وهذا أقام في الكنيسة اضطرابات كانوا يتكلّمون عنها في زمنهم أيضًا.

وبعد القدّيس مار إيوانّيس بطريرك أنطاكية(٣)، قام واحد من الرهبان اسمه إسحق(٤) من دير قرتمين. هذا جعل مقرّ إقامته في الرها. لأنّه كان يشتغل بعلم الكيمياء،

---

(١) لا وجود ذكر في قوائم البطاركة التي بين أيدينا.

(٢) هو أثناسيوس الرابع السندليّ الذي أوردنا ذكره في ترجمة إيوانّيس الرابع. وكان هو مطران ميّافرقين. وتهذّب في دير قرتمين، وتقلّد زمام البطريركيّة بأمر أبي جعفر كسالفه إسحق. ولمّا حظي بالفرمان ورجع إلى حرّان، همّ أن يرسم عبدي تلميذ إسحق سالفه مطرانًا للحرّانيّين، فأبوا ودخلوا عليه ليلاً وخنقوه سنة ٧٥٨م. فأتى رهبان دير قرتمين وأخذوه ودفنوه لديهم. وقال ابن العبريّ: «لا يجمل أن نذكر هذين البطريركين إسحق وأثناسيوس الرابع في السلسلة لاختراقها حرمة النواميس البيعيّة وارتسامهما غير الشرعيّ» وإنّما أدرجناهما نحن لأنّه لم يكن بطريرك غيرهما في عهدهما (الزهرة الذكيّة ص٤١، رقم ٧٠). ويقول المطران إسحق ساكا في كتابه «كنيستي السريانيّة» ص٥٠: خلفه في الكرسيّ أثناسيوس السندليّ أسقف ميّافرقين صاحب الفتن والقلاقل، المارّ ذكره في ترجمة إيوانّيس الأوّل. وهذا أيضًا نصّب بأمر الخليفة وبطريقة غير شرعيّة. وما لبث أن مات شرّ ميتة.

(٣) انظر الحاشية رقم ١ صفحة ٩٤ من هذا الكتاب.

(٤) هو إسحق الذي لم يدرجه ميخائيل الكبير في السلسلة كونه تقلّد البطريركيّة في رأس العين بأمر أبي جعفر المنصور، ووضع عليه السيّد يعقوب الضرير أسقف راس كيفا. وكان إسحق من دير قرتمين وسُقّف على حرّان بيد إيوانّيس سالفه. وسكن زمانا في دير البروج بالرها. ويروى أنّه فتك غيلة براهب غريب، وزجّه في بئر عميقة. ولم تمرّ سنة على بطريركيّته حتّى أمر به أبو جعفر فخُنِق وأُلقيَ في الفرات، فصحّ فيه المثل القائل: «ردّ كيده في نحره» (الزهرة الذكيّة ص٤١، رقم ٦٩). ويقول المطران إسحق ساكا في كتابه (كنيستي السريانيّة ص١٤٩–١٥٠. ما يلي: «وبعد وفاة إيوانّيس الأوّل اجتمع الآباء في رأس العين نزولاً عند رغبة الملك، ورسموا أسقف حرّان بطريركًا. لأنّ إسحق هذا كان يشتغل في كيمياء الفضّة والذهب. ونشأت بينه وبين عبد الله أمير الجزيرة صداقة متينة، وعمِل معه جميلاً. ولمّا صار الأمير عبدالله ملكًا رأى أن يكافئ صديقه الراهب. فأمر بتنصيبه بطريركًا. وهكذا رُسم بطريقة غير قانونيّة. ولم يلبث أن تغيّر الخليفة على إسحق ذلك أنّه أنفذه إلى بعض البلدان لجمع عقاقير كيماويّة، وقبل نهاية السنة استدعاه الخليفة وفحصه، ووجد أنّه لا يدري شيئًا، فأمر أن يُخنق ويُلْقى جسده في الفرات».

في الذهب والفضّة، فأحبّه الأمير عبد الله[١] والي الجزيرة الذي أصبح فيما بعد خليفة. ومن فرط محبّته ساعده أن يعتلي كرسيّ بطريركيّة أنطاكية بعد مار إيوانّيس[٢].

وخلفه الطاهر مار أثناسيوس السندليّ[٣]، أسقف مَيّافرقط، الذي لم تطل أيّامه، فعاجلته المنيّة، وآخرون غير ذلك[٤]. ونحن لا نتمكّن أن نقول ما هو خفيّ عنّا، إلاّ أنّ ذلك سنتركه لله، لأنّه هو الذي يعلم الخفايا. فأخذوا جثّته ونقلوها من حرّان إلى ديره، ودفن هناك. وخلفه القدّيس مار كيوركي من دير قِنّشرا[٥].

* * * * * * * * * *

---

(١) ولّى أبو العبّاس السفّاح أبا جعفر أخاه الجزيرة والموصل والثغور وأرمينية وأذربيجان (اليعقوبيّ ٢ : ٣٥٨).

(٢) يكتب المؤلّف الزوقنينيّ تعليقًا، هذا تعريبه: «إنّ الدرجات التي تؤخذ من غير استحقاق، تكون عاقبتها سيّئة، حيث سريعًا اعتلى خشبة المشنقة كيهوذا، إذ لم يكن مقبولاً لدى الناس. ولذا لم تطل مدّة رئاسته. والذي أكرمه هو الذي احتقره وأهلكه، حتّى إنّ واحدًا لم يعرف مصير جثّته، إذ لم يستحقّ أن يُدفن من قبل الشعب. وهذا جزاء المنافقين، إذ الشيطان مستعدّ أن يُعطي للّذين يتبعونه كلّ شيء، وبالأخير يستحقّون الاحتقار والهلاك».

(٣) راجع الحاشية ٢ صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب، وعجبًا يسمّيه المؤلّف هنا (الطاهر)، في حين جميع المؤرّخين السريان يذمّونه...

(٤) لست أدري ماذا يقصد بعبارة (وآخرون غير ذلك) النصّ غير واضح ومبهم...

(٥) دير قِنّشرا، أو دير قنّسري، أو دير قنّسرين: باسم توما الرسول، على شاطئ الفرات مقابل بلدة جرابلس. أنشئ سنة ٥٣٠م واستفاضت شهرته، وكان له أيّام غرّ زُهر إلى القرن التاسع، وحوى أيّام عمارته ثلاثمائة وسبعين راهبًا، أحرقه بعض الخوارج فرمّمه ديونيسيوس الأوّل، وأعاده إلى سيرته الأولى سنة ٨٢٢م. عضد الكنيسة بسبعة بطاركة وخمسة عشر أسقفًا حتّى سنة ٩٣٠م. وألحِق بأبرشيّة شميشاط حول سنة ١٠٢٥م. والظاهر أنّه ظلّ عامرًا حتّى صدر المئة الثالثة عشرة. ثمّ عصف الدهر بأهله. وتنكّرت معارف أطلاله (اللؤلؤ المنثور ص١٥٣). وورد عنه في معجم البلدان للحمويّ: «دير قنّسرى على شاطئ الفرات من الجانب الشرقيّ في نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل جرابلس. وجرابلس شاميّة. وبين هذا الدير ومنبج أربعة فراسخ، وبينه وبين سروج سبعة فراسخ. فهو دير كبير كان في أيّام عمارته فيه ثلاثمائة وسبعون راهبًا. ووجد في هيكله مكتوبًا:

أيا دير قنّسرى كفى بك نزهة ... لمن كان بالدنيا يلذّ ويطرب
فلا زلت معمورًا ولا زلت آهلاً ... ولا زلت مخضرًّا تزار تعجب

(معجم البلدان ٤ : ١٦٥).

فصل عن المجمع الذي عقد يوم

ارتقاء كيوركي بطريرك أنطاكية في مدينة مبوغ على الفرات

حدث يوم ارتقاء إسحق[١] البطريركيّة، شغب وقلق كثيران، وكذلك أيضًا يوم اعتلى الكرسيّ أثناس سندليا[٢]، وراح الناس يطعنون فيهما وبالكنيسة؛ وخاصّة أنّ ارتقاءهما كان بأمر الحاكم القاسي، مع أسباب أخرى لا تسمح لنا العدالة أن نسردها في هذا الكتاب ولا في غيره.

فبعد وفاة أثناس الطاهر، رغب جميع رعاة الكنيسة أن يقيموا لهم رئيسًا، قبل أن يبذر الشيطان بذور الانشقاق والأنانيّة. أو يقعوا بيد حاكم ظالم. فتكون العاقبة أسوأ من البداية، فيكثر الاضطراب والاضطهاد في الكنيسة كتلك التي حصلت فيها. وقد قيل عن بعض الصدّيقين أنّ الفخّ الذي كانوا يخافون الوقوع فيه، وقعوا فيه شرّ وقعة، ولم يرتاحوا ويهدأوا حتّى اضطربت أحوال الكنيسة، إذ أراد جميع الرعاة أن يجتمعوا من الموصليّين والمغرب والجزيرة. فاجتمعوا برأي واحد ونفس واحدة وباتّفاق كلّيّ. كما رغب الرعاة أن يجتمع الناس المؤمنون والفاضلون بمدينة مبوغ في هيكل مار توما.

وبعد مباشرة الاجتماع بيوم واحد أو يومين، الذي فيه ناقشوا كثيرًا من القضايا الراهنة، شرع كلّ واحد يشيد بفضل رفيقه. وقرّوا على رجل من دير قنّشرا، مزيّنٍ بالحياة والأخلاق الكريمة، تقيٍّ، مؤمنٍ، عالمٍ، فاضلٍ، اسمه كيوركي[٣] برتبة

---

(١) أنظر الحاشية ٤ صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب.

(٢) أنظر الحاشية ٢ صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب.

(٣) هو جورجي أو جرجس الأوّل. ولد في بعلتان بحمص. وقرأ العلوم في دير قنّشرين وارتسم شمّاسًا في كانون سنة ٧٥٨م . اجتمع الأساقفة في منبج ورسموه بطريركًا. فضغن عليه الأسقفان داود الداريّ ويوحنّا الرغيّ لخبث طويّتهما، وأغويا بعض أساقفة ما بين النهرين. فرسموا أحدهما أي يوحنّا بطريركًا وأقام أربع سنوات ومات. فخلفه زميله داود الداريّ بطريركًا، وتوجّه إلى الخليفة أبي جعفر، وشنّع على جورجي البطريرك الشرعيّ. ودبّر على هلاكه. فأمر أبو جعفر بضربه فضرب ثلاثًا. وكان يستمنح القوّة من العذراء. وعلى إثر ذلك أقام ثلاثة أيّام صائمًا في دار الخليفة. ثمّ سرّحه. وأمر بالمناداة باسم داود بطريركًا. أمّا اليعاقبة فدحضوه ورفضوه خفية. وجورجي هذا حُبِس تسع سنوات مع يعقوب جاثليق النساطرة وثاودريط بطريرك أنطاكية الملكيّ. وبواسطة مطران نصيبين النسطوريّ فكّ المنصور الخليفة أسرهم. وكتب جورجي في حبسه ميامر ومداريش بديعة. ولمّا أطلق توجّه إلى تكريت وجال في ما بين النهرين، ووصل إلى أنطاكية، ورسم فيها عشرة أساقفة. ثمّ رحل إلى دير برصوما بملطية، وفيه زايل الدنيا سنة ٧٩٠م ، وله تفسير متّى الرسول (أنظر الزهرة الذكيّة ص ٤٢، رقم٧١ ؛ وكنيستي السريانيّة ص ١٤٩–١٥٠).

الشمّاسيّة يقيم في الدير، وعليه تمّ رأيهم. واتّفقوا بنفس واحدة وقلب واحد – وكان بعيدًا عنهم – على انتخابه. فأرسلوا في طلبه أناسًا فاضلين. فأحضروه إلى المجمع. وأكّدوا اتّفاقهم عليه برقعة مختومة بأختامهم وخطّ يدهم. وهؤلاء الأساقفة المجتمعون في مجمع الانتخاب هذا، هم:

يوحنّا أسقف قلينقوس، طيمثاوس الرهاويّ، داويذ أسقف دارا، آبي أسقف آمد، سركونا أسقف ماردين، سطفنا أسقف حبورا، قوسطنطينا أسقف شميشاط، قوريقا من طور عبدين، ديونسي من حرّان، إيليّا أسقف سنجار، بولس التكريتيّ من الموصل، زكّى من كرمى، يونان من نوهدرا، مع آخرين كثيرين من أساقفة المغرب.

ولّما كمل ختم الكتاب، واستعدّوا لوضع اليد عليه كما هي العادة في الكنيسة، لم يهدأ الشيطان بأن يتمّ السلام في الكنيسة، إنّما زرع بذرة الشرّ في قلب أحد الرهبان وحلّ فيه. وراح هذا بدوره يلقي الشغب والانشقاق بين الرعاة والشعب. وكان اسم هذا الراهب يوحنّا، الذي أصبح كحيّة حوّاء، يفعل إبليسُ من خلاله كلّ مقاصده. إذ جعل نفسه شحّاذًا يدور على الدور طالبًا الصدقة والمساعدة. حتّى استطاع أن يتعرّف على كيوركي المنتخب معرفة تامّة. فزامله وصادقه، ومن ثمّ تقرّب وتودّد إلى الأساقفة الذين من الجزيرة، وخاصّة الذين هم من دير قرتمين، قائلاً لهم: كيف تنتخبون وتقيمون عليكم بطريركًا من يحقد على ديركم، وقد سمعته مرارًا يقول: لو كنت مسؤولاً لكنت قد محوت اسم دير قرتمين ودير أثناس من وجه الأرض.

وهكذا كان هذا الراهب المشاغب، يثير القلق، ويحرّض الآباء الأساقفة على نبذ كيوركي المنتخب.

ولّما كان هؤلاء الأساقفة لا يعرفون كيوركي المعرفة الكاملة، صدّقوا أقوال الراهب، ولم يميّزوا بأنّ أعماله من أعمال الشيطان. وقاموا مسرعين وركبوا عجلاتهم، وبالخفية سحبوا أنفسهم من مكان الاجتماع عائدين كلّ إلى أبرشيّته.

أمّا الذين مكثوا، فلمّا علموا أنّ رفاقهم سافروا، خافوا جدًّا وفزعوا، خوف إثارة الفتنة والاضطراب في أحوال الكنيسة، إذا ما نصّبوا المنتخب دون حضور رفاقهم أجمعين. هذا أوّلاً، وثانيًا إنّهم قد دعوا الرجل وقرّبوه إليهم. فكيف يكون الموقف

إذا انقلبوا عليه؟ إلاّ أنّه لم يحدث أمر ذو أهمّيّة لأنّه لم يكن لدى المعارضة حجج كافية يستندون إليها إلاّ بعدهم عن مكان الانتخاب. أمّا الباقون، الصالحون والطالحون فتحت تأثير صوت الضمير، رسموا هذا الشمّاس المنتخب، وأقاموه بطريركًا. وكان في مقدّمتهم طيمثاوس الذي من الجزيرة أسقف الرها، وآبي أسقف آمد، وقوسطنطينا أسقف شميشاط ويوحنّا أسقف قيليقوس مع بقيّة الأساقفة الموصليّين وأساقفة الغرب جميعهم.

أمّا الذين سافروا منذ بدء الاضطراب، فكانوا كمن يحرّك الحجر، ولذا قصد كلٌّ بلده. غير أنّ الشيطان لم يكتفِ بهذا، إنّما راح يزرع الفساد بينهم. وهكذا انقسموا ثانية، فأقام أساقفة الجزيرة يوحنّا أسقف قيليقوس الذي هو من دير قرقفته[1]، ونصّبوه بطريركًا، وهذا بدوره نقض العهد ورفض الطاعة التي قدّمها للمنتخب البطريرك الشرعيّ إذ كان قد وقع في شباك حبّ الرئاسة. لهذا سعى لأن ينصَّب بطريركًا فأفلح في مسعاه. ومن هنا راح يسمع الشتْمَ والسبَّ والاحتقار من جميع أبناء الأديرة، وكثير منهم حرموه، وحرموا كلّ من يقدّم له الطاعة له، فصار عرضة للسخريّة والاستهزاء، إضافة إلى الاضطراب الذي أحدثه في الكنيسة إلى اليوم[2]، حتّى وصل بهم الأمر إلى المرافعات أمام الحكّام زمنًا ثمّ السجون...

فتصوّر أيها التلميذ أيّة بلايا حلّت بالكنيسة ورؤسائها من جرّاء ذلك الراهب الشرّير الذي كمّل عمل الحيّة الخبيثة، وأدخل القلق في الكنيسة بمشورته الملتوية.

* * * * * * * * * * *

(١) دير قرقفتا (الجمجمة) بين رأس العين والمجدل في الجزيرة العليا. بناه مار شمعون، واشتهر أمره في غرّة القرن الثامن، ودعم الكنيسة بستّة أساقفة حتّى منتصف القرن العاشر. وقد دثرت معالمه منذ عهد عهيد.

(٢) أي إلى أيّام المؤلّف العائدة إلى القرن التاسع الميلاديّ.

(سنة ١٠٦٥ ي/٧٥٤ م) مات عبد الله بن محمّد[١] ملك الفرس[٢]، وطلب الرئاسة عبدالله أخوه[٣]، وعبد آخر ابن عمّه عليّ[٤]، ولهذا السبب اصطدموا بحرب طاحنة سقط فيها الكثير من القتلى، لأنّ المسلمين وأهل الغرب (الجزيرة) كانوا كلّهم من أتباع ابن عليّ ويقدّمون له الطاعة، ويرغبون في مبايعته ملكًا (خليفة) عليهم. فلبس جميعهم الأبيض[٥] وخرجوا وراءه. لكنّ أهل فارس والخراسانيّين مالوا إلى عبد الله بن محمّد[٦]، فنشبت الحرب بين الطرفين، وسفكت دماء كثيرة من جرّاء ذلك. فدام القتال بينهم أيّامًا طويلة، وقع فيه قتلى كثيرون من الطرفين. وبالنهاية انتصر أبو مسلم الخراسانيّ[٧] على عبد الله بن عليّ الذي فرّ هاربًا، وأخيرًا هلك. واستولى على المملكة عبد الله بن محمّد ... سنة[٨]؟.

(سنة ١٠٦٦ي/٧٥٥م/١٣٨هـ) أعطت أشجار التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة

---

(١) هو أبو العبّاس السفّاح، بويع له بالخلافة ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من سنة ١٣٢هـ ... وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وتسعة وعشرين يومًا. ومات بالأنبار في مدينته التي بناها وذلك يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجّة سنة ١٣٦ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة... (مروج الذهب ٣: ٢٥١). وهنا يدعوه المؤلّف خطأ بلقب ملك الفرس، وذلك لأنّ الثورة العبّاسيّة انطلقت من خراسان ببلاد الفرس، واشترك الفرس فيها بدور متميّز بقيادة أبو مسلم الخراسانيّ، فظنّها أنّها دولة الفرس، وهذا ما شيّعه الفرس أنفسهم طمسًا لدور العرب المميّز بطابعهم العربيّ العبّاسيّ.

(٢) يقصد الفرس الدولة العبّاسيّة التي كان العنصر الفارسيّ مستحكمًا فيها ومنتشرًا.

(٣) هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمّد بن عليّ. بويع له بالخلافة يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجّة سنة ستّ وثلاثين ومائة هجريّة... وكانت وفاته يوم السبت لستٍّ خلونَ من ذي الحجّة سنة ثمان وخمسين ومائة هجريّة، فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلاّ تسعة أيّام... ومات وهو ابن ثلاث وستّين سنة، ودفن بمكّة... (مروج الذهب ٣: ٢٨١).

(٤) هو عبد الله بن عليّ، عمُّ السفّاح والمنصور الذي قام بثورة ضدّ المنصور في الجزيرة الفراتيّة، ثمّ ألقى القبض عليه المنصور وسجنه، وطال حبسه تسع سنين... ولمّا أراد المنصور الحجّ في سنة تسع وأربعين ومائة هجريّة. حوّله من عنده إلى عيسى بن موسى، وأمره بقتله وأن لا يعلم أحد بذلك... (مروج الذهب ٣: ٣٠٥).

(٥) الأبيض كان شعار الأمويّين، كما أنّه كان لباس الحِداد. أمّا العبّاسيّون فكان شعارهم السواد، لهذا هؤلاء عندما ثاروا ضدّهم جعلوا الأبيض شعارًا لهم تضاددًا.

(٦) المقصود به أبو جعفر المنصور الخليفة.

(٧) أبو مسلم الخراسانيّ، قائد وداعٍ فارسيّ. كان أحد أقطاب الحركة الدينيّة السياسيّة التي أدّت إلى انهيار الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسيّة. حارب تحت راية العبّاسيّين. فاحتلّ مرو سنة ٧٤٧. وكان تأثيره الروحيّ على أتباعه في خراسان كبيرًا. قتله أبو جعفر المنصور الخليفة العبّاسيّ الثاني (٧٥٤-٧٧٥).

(٨) هي السنة ٧٥٤م / ١٣٧هـ.

ثمارها في شهري تشرين، كما في نيسان وأيّار. وكانت زروع هذه السنة خصبة في كلّ الأرض.

(سنة ١٠٦٧ي/٧٥٦م/١٣٩هـ) يوم الثلاثاء، الثالث من آذار، حدثت هزّة أرضيّة عظيمة. وفي منتصف الليل بأرض الجزيرة غارت في باطن الأرض ثلاث قرًى. وحدث من جرّاء ذلك شبه عمود كثيف من الدخان، وجميع سكّان تلك الكورة عُصروا كالعنب في المعصرة. وذُكر أنّ أماكن أخرى خرّبتها الهزّة لكثرة الخطايا، فخرابًا تخرب الأرض، وذوبانًا تذوب، وترتجف كالعرزالة من جرّاء خطايانا...

(سنة ١٠٧٠ي/ ٧٥٩م/١٤٢هـ) اختلف الشرقيّون في ابتداء الصوم الكبير، فمنهم جعلوه في الثامن عشر من شهر شباط، وينتهي في اليوم السادس من شهر نيسان. وآخرون جعلوه في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط وينتهي في اليوم الثالث عشر من نيسان. وهكذا اختلف جميع المسيحيّين بزمن الصوم، علمًا أنّهم عيّدوا عيد القيامة في وقت واحد ومكان واحد. إذ كانوا يحتفلون بالشعانين سويّة وكذلك بالفصح الذي كانوا يقيمونه في هيكل واحد، رغم كلّ الاضطرابات التي كانت تجري بين الناس، لأنّ قسمًا منهم كانوا لا يصومون سوى ستّة أسابيع، وآخرون كانوا يصومون مع جماعة وينتهون مع جماعة أخرى، وغيرهم توسّطوا بين الطرفين فباشروا مع الأوّلين وانتهوا مع الآخرين[١]...

(سنة ١٠٧١ي/٧٦٠م/١٤٣هـ) في شهر آذار، في الثاني والعشرين منه، شوهدت في السماء قبل الفجر علامة بيضاء إلى جهة الشمال الشرقيّ من برج الحمل، وإلى الشمال من الكواكب الثلاثة التي هي رمز الأقوياء. وكانت العلامة تشبه بشكلها المكنسة. والحَمَل برأسه في الدرجة الأولى، ويليه النجوم السيّارة قرونس[٢]، وآريس[٣]، وقد أسرعا نحو الجنوب، واستمرّ ظهور العلامة هذه خمس عشرة ليلة، أي حتّى فجر يوم عيد العنصرة. وكان رأسها الكبير كثير الضوء، ويرى في رأسها

(١) لا زالت مسألة الاختلاف بالصوم وعيد القيامة قائمة حتّى اليوم.

(٢) قرونس هو أحد نجوم «الدبّ الكبير».

(٣) آريس هو أحد نجوم «الدبّ الصغير».

كوكبٌ مائلٌ طرف الشمال. أمّا الطرف الثاني فكان عريضًا ومظلمًا نوعاً ما ويميل نحو الجنوب. وكانت تسير رويدًا رويدًا نحو جهة الشرق الشماليّ، وهذا هو شكلها:

وصباح اليوم الثالث بعد العنصرة، ظهرت في المساء من جهة الشمال الغربيّ، واستمرّت مدّة خمسة وعشرين مساء. وكانت تسير ببطء نحو الجنوب، ثمّ غابت. ثمّ شوهدت في الجهة الجنوبيّة الغربيّة، وهكذا دامت أيّامًا كثيرة.

في هذا الزمن حدث انشقاق كبير في الكنيسة من جرّاء الرئاسة. إذ إنّ الديورة الشرقيّة أقاموا لهم بطريركًا اسمه يوحنّا[١]. إلاّ أنّ مدن الجزيرة لم توافق عليه، ولم يقدّم أهلها الطاعة له مع جميع الأديرة الأخرى.

أمّا الأساقفة الغربيّون والموصليّون فاتّفقوا على تنصيب كيوركي بطريركًا عليهم، ولهذا السبب اضطربت أحوال الكنيسة كلّها[٢].

(سنة ١٠٧٢ي/٧٦١م/١٤٤هـ) مات القدّيس مار طيمثاوس أسقف الرها، وخلفه أحد الرهبان الحبساء الذي كان يسكن في إحدى القرى بذات الإقليم، المعروفة باسم قرية بيت قدونا[٣]، واسمه شمعون. نُصّب أسقفًا لنقاوته وفضائله وخاصّة لمحبّته للفقراء والمساكين. فقدّم جميع أهالي الرها الطاعة له، وطلبوا أن يكون راعيًا لنفوسهم. ولمّا رفض، كسروا الباب عليه، إذ كان منزويًا في محبسه وهدموه. ثمّ أخذوه إلى كيوركي البطريرك ليرسمه لهم راعيًا.

ولمّا كان هذا الطاهر شمعون راغبًا في الأعمال الهادئة والنقيّة مثل رهبان الأديرة، وليس كأسقف ورئيس لرعيّة لم يرغبوا به، ورغم إلحاح كيوركي وبكاء الرهاويّين أمامه، لم يرضَ بالأسقفيّة، وبالتالي قبضوا عليه بالقوّة ورسموه دون موافقته. وأشهد عليه كيوركي السماء والأرض مع الله والملائكة، أن لا يترك رعيّته ومدينته وينتقل إلى مكان آخر. وهكذا ألزمه بالقبول والمكوث تحت وطأة القسم الثقيل، بأن لا يفرّ

(١) هو يوحنّا أسقف الرقّة الذي عاث في الكنيسة فسادًا حتّى وفاته عام ٧٦٥ م.

(٢) راجع كتاب «دفقات الطيب» للبطريرك يعقوب الثالث.

(٣) بيت قدونا قد تكون مسقط رأس إبراهيم القيدونيّ.

ولا يختفي. ومن ثمّ جاؤوا به إلى الرها، وخرج الرهاويّون جميعهم لاستقباله باحتفال وفرح عظيمين. وإذ أقام في المدينة يومًا أو يومين، لم يأكل خبزًا ولم يشرب ماء، وكانت حياته مهدّدة بالموت، طلب منهم أن يسمحوا له بالمغادرة إلى أحد الأديرة في جبل الرها ويستقرّ فيه قائلاً: إنّ مناخ المدينة لا يوافقني. وهكذا استجابوا لطلبه، فقصد ديرًا في جنوب المدينة، بقرية تدعى بيت يلداث آلوهو (بيت والدة الله)، وكان الإكليروس والرؤساء الرهاويّون يقصدونه بقلاّيته في الدير المذكور طالبين منه بانسحاق قلب أن يرجع إلى المدينة ويستلم زمام الأمور فيها. أمّا هو فكان يرفض بشدّة قائلاً: إذا قُدّمتُ للموت أو شُنِقت، فهذا العمل لن أرتكبه إلى الأبد، فاتركوني وشأني لاسم الله تعالى، ونصّبوا لكم أسقفًا آخر ترغبون به ويرغب فيكم ويعيش في وسطكم. غير أنّ الرهاويّين لمحبّتهم له لم يرغبوا أن يزعجوه، وهكذا مضى فصل الشتاء وهو معتكف في قلاّيته، يأبى الدخول إلى المدينة. حتّى إنّه رفض أن يقوم برسامة شمّاس أو كاهن، أو أن يحتفل لديهم بأيّ عيد أو مناسبة، ومع ذلك فهم لم يتركوه يبتعد عنهم، لأنّهم كانوا يلتهبون بمحبّته ومودّته، حتّى إنّ المسلمين والهراطقة من سكّان الرها كانوا يحبّونه فائق المحبّة مع الإجلال الكبير. وأخيرًا أطاعوه واقتنعوا لرأيه وطلبوا منه أن يختار هو لهم إنسانًا تقيًّا مؤمنًا فيكون أسقفًا عليهم عوضًا منه. وعلى هذا أيضًا لم يطاوعهم إذ كان يقول لهم: أنتم شعب قاس، وعليه اختاروا أنتم لكم أسقفًا، وأمّا أنا فلا تأملوا منّي شيئًا. وأمّا هم فبسبب عدم رغبته بفراقه، ألقوا عليه هذا الأمر. أمّا هو فلم يوافق أبدًا، بل رفضه وبشدّة.

وحينما تيقّن أنّ لا مهرب من المهمّة الملقاة عليه، وأنّه لن يستطيع مغادرة الديار، قال لهم: أعطوني عهدًا بالله أن تقبلوا وتطيعوا كلّ من آتيكم به، كما أنّني لن أبتعد عنكم. فدخلوا جميعًا إلى الهيكل وأقسموا له اليمين.

وصادف أنّ رجلاً هادئ الطبع، متواضع الأخلاق، قد زيّنته الفضائل الإلهيّة بحسن الخصال، كان يقيم في عمر (دير) زوقنين بإقليم آمد اسمه أنسطوس الكوشيّ (الحبشيّ). هذا الراهب انتخبه الأسقف شمعون واختاره من بين كثيرين، ليستلم مكانه وأعطى عنه شهادة فاضلة رغم بعده عنه وعدم رؤيته له بالجسد، وكتب له رسالة وللشيوخ الكرام الذين في ديره، يدعوه فيها لمقابلته، وقد حمل إليه الرسالة رسلٌ أفاضل من جماعته.

لم يرضخ الراهب هذا لمشيئة الأسقف بعد قراءته الرسالة المملوءة كلامًا حسنًا ومغريًا، كذلك رفض رهبان الدير الذين معه، ولم يقبلوا بدعوتهم أو النزول معهم، رغم دعوته مرارًا من قبل رسل الأسقف الذين كادوا أن يرجعوا خائبين. وتحت وطأة الإلحاح رضخ للأمر الواقع هو وتلميذه، وقصد الرها عند المطران شمعون في قلاّيته على الجبل، واستقبله بفرح كبير. وحال وصوله، أرسل المطران في طلب أكابر المدينة وأعيانها سرًّا، والراهب أنسطاس لا يدري ماذا يجري من ورائه من الاتّصالات الشخصيّة المتعلّقة بشأنه.

وحينما اجتمع الأعيان مع المطران قال لهم: إنّ الرجل الذي قد وعدتكم به ها قد حضر. فهرع الكبار والصغار مسرعين نحو الجبل للقائه. وعندما شاهدوه فرحوا به جدًّا مهلّلين، ومن ثمّ كتّفوه بالحبال لئلاّ يذهب إلى مكان آخر. وعندما شاهد الراهب أنسطاس ما حدث له، خاف وارتعب جدًّا، وتغيّر لون وجهه وأصبح كأحد الأموات، وشرع يلقي باللائمة على رهبان ديره الذين أشاروا عليه بالنزول، وبالأخصّ على الأسقف شمعون الذي راح يحاول إقناعه باقتبال الرسامة الأسقفيّة، فلم يقتنع. فتآمروا عليه بأن يأخذوه بالقوّة، ويقصدوا به البطريرك فيرسمه أسقفًا. أمّا هو فلمّا اطّلع على هذا التدبير الذي يدبّره الرهاويّون، قام ليلاً يرافقه تلميذه وهرب عائدًا إلى ديره.

أمّا الأسقف البار شمعون فلمّا علم أنّ الراهب الفاضل أنسطاس قد هرب، طلب من الرهاويّين أن يطلقوا سبيله لأنّه قد أكمل ما وعدهم به؛ فسمحوا له بالمغادرة، وانتقل إلى دير شميشاط[1]. وأقام هناك حتّى كملت أيّامه، وهو يستقبل الفقراء والمساكين، إذ كان ملاذًا لكلّ المتضايقين... وخلفه في الأسقفيّة زكريّا من دير... وهذا أيضًا كانوا قد أنزلوه من العمود الذي كان يتعبّد عليه...

(سنة ١٠٧٢ي/٧٦١م/١٤٤هـ) أرسل عبد الله بن محمّد[2] ملك الفرس[3] جيشًا

(١) هي مدينة شميشاط أتت كتابتها خطأ.

(٢) يقصد به الخليفة أبو جعفر المنصور العبّاسيّ (٧٥٤–٧٧٥ م).

(٣) لقد أشرنا إلى خطأ المؤلّف في أماكن عديدة من كتابنا هذا. إنّ دولة الفرس قد سقطت منذ عام ٦٣٨، بعد معركة القادسيّة الشهيرة، إلاّ أنّ وجود العنصر الفارسيّ في الدولة العبّاسيّة بكثرة، أوهم بعض المؤرّخين أنّها دولة الفرس. وهذا خطأ فاضح.

بقيادة ابن وهب مع حدّادين وبنّائين من كلّ الجزيرة، وبنى مدينة ميلاطينا (ملاطية) في قفّادوقيا بعد أن بقيت خربة مدّة ثماني سنوات، وجاء إليها بالسكّان والعساكر وأسكنهم فيها فعادت أكثر عمارة وهدوءًا ممّا كانت عليه سابقًا[١].

(سنة ١٠٧٥ي/٧٦٤م/١٤٧هـ) حدث وباء عظيم في الخيل بكلّ الأرض حيث سرى من أقصاها إلى أقصاها، فعمّ جميع الممالك والأقطار، وانتشر فيها أسرع من لمح البصر، وأباد بمدّة قصيرة كلّ الحيوانات والبهائم. وبالنسبة للخيل مثلاً، كنت تجد قطعانًا كبيرة منها، يبلغ أحيانًا عددها أكثر من ثلاثمائة رأس. فإذ كانت ترعى سويّة في البراري، وتأتي لتستقي الماء من الوديان والسواقي أو البرك، كانت تسقط ميتة، عشرين عشرين في كلّ سقطة (دفعة) حتّى امتلأت الوديان والبرّيّة من جثثها، وجافت الأرض من رائحتها الكريهة. وكان نوع هذا المرض، كالمرض الذي انتشر بين البشر وأبادهم، وكان يسمّى بمرض الورم، وبالسريانيّة يدعى (شرعوطا)[٢]، إذ كان يظهر في الرقبة (الحلق). وقلّ من الحيوانات ما سلم إلاّ واحد بالمئة، فمات من الخيل والبغال والحمير عدد كبير، ولم يبق بحوزة الناس إلاّ النزر القليل، فكادت الأرض تخلو منها.

إنّ العلامة التي سبق ذكرها، وظهرت في السماء كشبه المكنسة هي التي سبّبت هذا الوباء. فقد أصبح أمرها واضحًا، إذ كنست البهائم والدوابّ من على وجه الأرض كما تكنس الدار. وقد فسّرالحكماء والمؤمنون تلك الظاهرة بأنّها غضب الربّ على البشر، إلاّ أنّ رحمته الواسعة ألقت الوباء على البهائم، إذ إنّها لا تغضب الله بأعمالها وأخطائها كما قال عاموص النبيّ: «بالقتال شبّانكم وفي الفقدان حيواناتكم، وأصعدت رائحة جيفتكم على وجوهكم ولم ترجعوا إليّ يقول

---

(١) تحرّكت الخزر بناحية أرمينية ووثبوا بيزيد بن أسيد السلميّ، فكتب إلى أبي جعفر يعلمه أنّ رأس طرخان ملك الخزر قد أقبل إليه في خلق عظيم، وأنّ خليفته قد انهزم. فوجّه إليه أبو جعفر جبريل بن يحيى البجليّ في عشرين ألفًا من أهل الشام وأهل الجزيرة وأهل الموصل، فواقع الخزر وقتل خلقًا كثيرًا من المسلمين... ثمّ أخرج سبعة آلف من الجون، وبعث فجمع من كلّ بلد خلقًا عظيمًا، ووجّه بهم وبفَعلة وبنّائين فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمّديّة ومدينة باب واق وعدّة مدن، جعلها ردًّا للمسلمين، وأنزلها المقاتلة فردّوا الحرب... (أنظر اليعقوبيّ ج٢، ص٣٧٢).

(٢) شرعوطا: مرض شبيه بالملاريا.

الربّ»[١]. وأيضًا ميخا النبيّ القائل: «في ذلك اليوم أهلك بهائمك على وجهك وأبيد جميع مركباتك»[٢].

(حقيقة، إنّ الخيول ماتت ومركباته فنيت من الأرض وإنّ خطايانا هي التي فعلت بنا ما هو فوق الحدّ بأطباع لا منطق لها).

(سنة ١٠٧٦ي/٧٦٥م/١٤٨هـ) في يوم الجمعة، الرابع من كانون الثاني، سقطت الكواكب من السماء وباشر النهار بالظلام، وشرعت النجوم تظهر في الجوّ، وخرج من وسط السماء كوكبان تراءيا للمشاهد كأنّهما يقتتلان، كما يتقاتل البشر ويقيمان الجهاد بينهما، ومن ثمّ سقطا وانحدرا باتّجاه المشرق. وبعد سقوطها تلاشيا، وبدأت النجوم الأخرى تتساقط، وكانت لدى سقوطها تشبه الأقراص الناريّة. واستمرّت هذه الحالة طوال تلك الليلة، فتمّت كلمة المخلّص القائل: ستظلم الشمس، ويتغيّر لون القمر كالدم، والنجوم تتساقط من السماء مع قوّات كثيرة أخرى. ولكن لن تكون الآخرة بعد[٣].

(كلّ من يقرأ هذه ليدرك ويستلهم العبرة ويتأمّل في الاضطرابات التي حلّت بالعالم من جرّاء الكنائس، وليتأمّل ما جرى بسبب كيوركي وداويد البطريرك اللذين أوقعا المسيحيّين جميعهم بعضهم بالبعض[٤]... ومن أجل ما احتمل الناس من الحكم القاسي والظالم، لجأوا إلى الهروب من مدينة إلى مدينة، ومن إقليم إلى إقليم ومن قرية إلى قرية... وقد قال (الربّ) أيضًا: ويكون ضيق شديد لم يحدث مثله منذ خليقة العالم حتّى اليوم، فصلّوا إذن لئلاّ يكون هروبكم في الشتاء. الويل إذن للحبالى والمرضعات في تلك الأيّام.

اقرأ إذن أيّها القارئ واعتبر. وانظر أيّ شرور حدثت في العالم، وها نحن سجّلناها في أزمانها... أيّة ضيقات، وعذابات، وضربات، وانشقاقات. أيّة اضطهادات، وأيّ سبي وسرقات، أيّ أنواع الكفر والتجديف يصدر عن البنين والبنات، أيّة

(١) لم نجد هذا القول في سفر عاموس.
(٢) ميخا. ٥: ١٠-١٥.
(٣) إنجيل متّى ٢٤: ٢٩
(٤) راجع الحاشية رقم ٣ صفحة ١١١ من هذا الكتاب.

انقسامات تحدث بين النساء وأزواجهنّ، وأيّ أشكال من الجوع وأيّة أوجاع من جرّائه. أيّة أوبئة، وأيّة زلازل. فهذه جميعها أيّها القارئ حدثت بعد سقوط تلك النجوم، مع العلم أنّ جميع الشعوب والأمم تظاهرت بالضعف ووقعت أمام الحاكم الذي لم يتمكّن أحد من الوقوف بوجهه...)

وفي هذا الزمن، حدث في حرّان المدينة في ما بين النهرين شعوذة دينيّة، فقد كان لهم دير شرقيّ المدينة، يبعد عنها نحو ميل واحد، وكانوا يقيمون فيه كلّ سنة مرّة واحدة، مجزرة عظيمة لدى تقديمهم الذبيحة. فقد كان أسقفهم المنافق يقيم به ويعيّدون فيه عيدهم الكبير، بألعابهم السحريّة. فعندما تقترب أيّام العيد بحسب شريعتهم، يلقون القبض على رجل ما ويسجنونه مدّة سنة، لحين حلول العيد. وفي يوم العيد يذبحونه ويأخذون رأسه ويجعلون فيه درهمًا ويضعونه في الطاقة الخاصّة ويسجدون له، ثمّ يشرعون بالألعاب السحريّة الخاصّة بالمناسبة.

في هذه السنة (١٠٧٦ي/٧٦٥م)، وقد حان يوم عيدهم الكفريّ هذا، وإذ أرادوا أن يأتوا برجل ويسجنوه، حسب عرفهم، ليكون ذبيحة العيد القادم بعد سنة، كتب رؤساء الميتانيّين (العدديّين) هؤلاء في إنجاز الطلب، فخرجوا إلى سوق حرّان، وإذ وجدوا رجلاً يليق بمرادهم، قبضوا عليه وقالوا له: خذ مقدار ما ترغب من الأجرة، فقط أوصل هذه الرسالة إلى الدير الفلانيّ وسلّمها بيد رئيس الدير، وكانت هذه حيلة شيطانيّة للإيقاع بالرجل الذي لم يكن يدري بالخديعة ونتائجها، فسار كالخروف إلى الذبح، وسعى بظلفه إلى حتفه. فأخذ الرسالة وأسرع نحو الدير. ولمّا اقترب من الباب طرقه وسأل عن رئيس الدير لمقابلته، فأدخلوه إلى الداخل قائلين: تفضّل لنخبر الرئيس. ولمّا علم الرئيس بمقدم الرجل، خرج إليه مسرعًا واستقبله بكلّ بشاشة وإكرام وفرح عظيم وقال له: هلمّ ادخل واسترح قليلاً، وبعد تناول الطعام، خذ أجرتك واذهب بسلام. وشرعوا بإدخال الرجل من غرفة إلى غرفة، من الأولى إلى الثانية والثالثة... حتّى السابعة، الواحدة ببطن الأخرى، حتّى وصلوا به إلى الرجل الذي كان سجينًا عندهم من قبل عام، ومعدّ لكي يكون ذبيحة لعيد تلك السنة وأمروه قائلين: اجلس هنا عند هذا الرجل، وتركوه وخرجوا. فقال السجين للرجل القادم إليه: الويل لك، ماذا دهاك؟ كيف وقعت بالفخّ واصطادوك؟ إنّهم هكذا فعلوا بي، وإذ جئت إلى هنا وجدت شخصًا جالسًا هنا كما تراني أنت الآن،

فذبحوه في عيدهم الماضي، وهوذا رأسه في الكوّة، وقد أشعلوا أمامه قنديلاً، ويسجدون له، وأمامه يصنعون سحرهم. وهكذا سيفعلون بي في عيدهم القادم، وهم الآن يستعدّون لذبحي، وتبقى أنت هنا محلّي إلى موعد العيد بعد عام كامل تنتظر الموت، إذ سيذبحونك مثلي بعد أن يأتوا بآخر محلّك، وهكذا هم يفعلون كلّ عام. ولكن إن أردت أن تنجو من الموت، اسمعني جيّدًا، قف جنبي عندما يستعدّون لذبحي، وحينما يقع رأسي على الأرض أسرع بالتقاطه، ودمي لا يزال يسيل منه واذهب مسرعًا إلى باب الدير الخارجيّ، فإذا نادوا عليك، وأجزلوا العطاء لقاء تركك رأسي ورميه لهم فلا تلتفت إلى نداءاتهم، ولا تلق الرأس أبدًا، وإذا ما أرادوا القبض عليك فرشّ الدم السائل من الرأس بوجوههم فيهربوا منك.

وحينما جاء وقت الاحتفال بالعيد، ودنا وقت قطع رأس الرجل، تقدّم هذا وبكلّ جرأة، التقط رأس صديقه وهرب مسرعًا نحو الباب الخارجيّ، وهم وراءه يتوسّلون ويتضرّعون إليه بترك الرأس جانبًا، وهو يرفض كلّ الهدايا والأمنيات التي طرحوها أمامه، إضافة إلى ذلك لم يخف تهديداتهم ولا الوعيد المخيف، فلم يتمكّنوا من القبض عليه ولا أن يتقدّموا نحوه. أمّا هو فبقدمين أسرع من الريح قصد أمير الجزيرة عيسى(١)، وقصّ له ما جرى، ورمى أمامه الرأس. فلمّا عرف عيسى بما حدث، أرسل من يقبض على أولئك الأشرار جميعًا، رجالاً ونساء وأطفالاً، وصادر كلّ ما كانوا يملكونه من أموال، وعذّبهم بعذابات مختلفة، وأخذ منهم أكثر من أربعمائة ألف حوايج(٢).

(سنة ١٠٧٦ي/٧٦٥م/١٤٨هـ) يوم الجمعة، الرابع عشر من آذار، فارق هذا العالم ساوِرا الطاهر أسقف آمد، ووُضع جثمانه في ديره.

وفي هذه السنة اجتمع المجمع العامّ لأساقفة الجزيرة والموصليّين والمغربيّين(٣) في قرية سروج، وأقاموا السلام والوفاق مع البطريرك مار كيوركي بعد وفاة يوحنّا أسقف قلنيقوس الذي أقامه أساقفة الجزيرة بطريركًا.

---

(١) هو عيسى بن موسى بن محمّد ابن أخي الخليفة أبي جعفر المنصور.

(٢) ربّما يقصد الحوايج، الحليّ الذهبيّة، أو الحاجات الحريريّة.

(٣) يقصد أساقفة سوريا غرب الفرات.

وفي هذا المجمع قترسوا (حرموا) جميع الأساقفة الذين نالوا درجة الأسقفيّة بوضع يد يوحنّا (البطريرك). حُرِموا ليس من جهة الإيمان، بل لكي ينصّبوا أساقفة شرعيّين بحسب الناموس الإلهيّ والرتب الكنسيّة الخاصّة، ويقدّم لهم الشعب الطاعة في الأبرشيّات التي سيموا لها. غير أنّهم بالحقيقة لم يكونوا يستحقّون هذه الدرجة الشريفة، لأنّهم كانوا قساة القلوب، وكالذئاب الخاطفة لا رحمة لهم على الرعيّة. وقد سبق بولس الرسول، وأخبرنا أنّ هؤلاء هم الأشجار الشرّيرة، الذين أثمروا ثمارًا شرّيرة وأطعموها للكنيسة وأبنائها. هؤلاء الذين تكلّمنا عنهم في زمنهم.

وفي هذا المجمع أيضًا، قدّم أساقفة الجزيرة والموصليّين والمغربيّين مع رؤساء أديرة مدنهم وبلدانهم الطاعة للبطريرك الأنطاكيّ كيوركي ومنهم: داويذ أسقف دار، آبي أسقف آمد، سركونا أسقف ماردين، قوسطنطينا أسقف شميشاط.

(سنة ١٠٧٧ي/ ٧٦٦م/ ١٤٩هـ) كان جمع غفير من النساطرة قد صعد إلى دير بيث كولا[١] الذي على جبل قردو ليقيموا فيه حفلة العيد كما هي العادة عندهم في ذلك الإقليم. المكان الذي رست فيه سفينة نوح[٢]. وفيما هم مجتمعون للاحتفال بالعيد في منتصف تشرين الثاني[٣]، حدث برق قويّ في السماء وسقطت شبه النار على معبدهم فأحرقته مع الشعب الذي بداخله، وصارت حجارته كلسًا من شدّة الاحتراق الذي شمل حتّى الشعب الذي خارج الهيكل، فهلك جميعهم ولم ينج أحدٌ منهم. وكان عدد الذين احترقوا بهذه النار أكثر من سبعمائة أو ثمانمائة نفس من البشر، عدا البهائم التي كانت بحوزتهم. وهكذا انتشرت رائحة جيفتهم في تلك الكورة مسافة ميلين، ولم يتمكّن الناس من الاقتراب من ذلك المكان مدّة سنتين.

---

(١) ربّما المقصود به دير كوكل. ويُظَنّ أنّه في طور عبدين. ويقال له دير بيت كوكي. كان عامرًا صدر المئة السادسة، وعلى رسومه بُنِيَ دير إبراهيم الكشكريّ النسطوريّ. ثمّ استولى عليه السريان صدر القرن التاسع عشر. كما استولوا على دير يوحنّا الطائيّ المجاور لدير مار أوجين بعد خلائهما وخرابهما، فعمّروها (اللؤلؤ المنثور. ص ٥٩٤)

(٢) جاء في التوراة أنّ سفينة نوح رست على جبل أراراط شمال تركيا، وهذا خطأ كبير فإنّها رست على جبل الجوديّ في كورة الحيرة.

(٣) هو عيد كوريا وشموني وحبيب الشهداء.

(في هذا الكتاب الذي صار فيه خلاص الجنس البشريّ، والحيوانات، والبهائم وكلّ دبيب من مياه الطوفان، هو ذاته صار فيه فناء الناس والبهائم التي معهم، بالنار التي نزلت من السماء بشكل الصندوق الذي فيه أواني الناموس الذي لم يخلّص حفني وفينحاس الكاهنان أبناء عالي التي هي نفسها لم تنج. وهكذا هنا أيضًا كولا لم تنجّ الهيكل الذي بُني على اسمها تذكارًا لها، ولم ينج حتّى الكهنة، ولا أواني الأسرار التي فيه. وهكذا جميعًا كالكرمة عصروا في معصرة الهلاك، فلم ينج أحد من الذين كانوا على الجبل، إذ كانت السماء كالسحابة تمطر نارًا وكبريتًا، كما أمطرت على سادوم فأصبح ذلك الجبل كعمود أتّون ودخان، وإذا نجا واحد، فنصفه محترق، وإنّ رائحة الكبريت تلك التي أمطرتها السحابة كانت رائحتها تُشمّ من مسافة ميلين أو ثلاثة. هذا صنعه الربّ بالشعب النسطوريّ في أيّامنا هذه[1]).

(سنة ١٠٧٤ي/٧٦٣م/١٤٦هـ) في شهر آذار، حدث في نهر دجلة فيضان عظيم، خرّب الحدود، وأوقع خسائر فادحة في مدينة الموصل إذ فاجأها في الهجعة الأولى من الليل، فارتفع منسوب المياه ودخلت إلى الأسواق الثلاثة وأهلكت أناسًا وبهائم كثيرة، وجرفت العديد من البيوت القديمة. وحدثت وسط المياه جزر يابسة كانوا يقصدونها بواسطة الأبلام (أي القوارب) التي تطوف على المياه. كذلك كانوا يعبرون بالزوارق بين البساتين والجنائن التي غطّتها المياه. ولقد حدث مثل هذا في كلّ الأراضي الواطئة المحاذية لمجرى دجلة.

(سنة ١٠٧٨ي/٧٦٧م/١٥٠هـ) في هذه السنة قصد جيش المسلمين والفرس[2] أرض الشمال[3]. وإنّ أمير الجزيرة عيسى[4] هو أخو الملك[5]، صعد إلى مدينة الرها وطور عابدين وعلى التلاّ كوما[6]. وإنّ حسن بن قعطبا[7] قائد الجيش مع القائد ابن

(١) نستشفّ من كلام المؤلّف التشفّي المجبول بالتعصّب المذهبيّ مع الحقد.

(٢) يقصد المؤلّف جيش الدولة العبّاسيّة المتكوّن من العرب والفرس.

(٣) يقصد بلاد أرضروم (تركيا الوسطى وأرمينيا).

(٤) هو عيسى بن موسى بن محمّد ابن خي الخليفة أبي جعفر المنصور.

(٥) يقصد بالملك، الخليفة أمير المؤمنين.

(٦) التلاّ كوما يعني التلّ الأسود.

(٧) هو الحسن بن قحطبة الطائيّ أحد عمّال أبي جعفر المنصور (اليعقوبيّ ٢ : ٣٨٤).

أسعد[١]، قصد أعالي دجلة ومدينة آمد بعساكر كثيرين لا يحصون. ولمّا مرّوا بطريقهم على مدينة آمد في ما بين النهرين مات القائد ابن أسعد[٢]. وكان هذا الجيش يضمّ أجناسًا مختلفة من الناس ديانة ومذاهب، فقد كان فيه من يسجد للنار، ومن يعبد الشمس إذ كانوا ينهضون منذ الفجر ويسجدون نحو جهة الشرق، وفي الظهر يسجدون لناحية الجنوب، وفي المساء يتّجهون نحو الغرب. وكان بينهم من يعبد القمر، وآخرون النجوم، وغيرهم الحيوانات كالخيل والبغال وآخرون أنواع الأصنام التي كانوا يحملونها معهم ويسجدون لها. ومنهم من كان يسجد للإنسان بذات الضلالة التي هم متمسّكون بها منذ القديم ولا زالوا متمسّكين بها حتّى هذا الوقت.

ولأنّ هذا الجيش كان يضمّ جميع الأجناس من جميع الشعوب كان يسمّى الجيش الكامل للملك. فكان يضمّ أقوامًا من السنديّين. والألانيّين، الخزريّين والماديّين والفرس والعاقوليّين والكوسيّين والأتراك والمسلمين. ولذا يمكننا أن نقول إنّه كالجراد الزحّاف بكلّ أنواعه. وهؤلاء بسبب نفاقهم ونجاستهم الفائقة الحدّ. ولئلاّ يتنجّس لسان القارئ وأذن السامع. فإنّنا نعدل عن ذكرها كي لا يتدنّس الفم بقراءتها والتلفّظ بها.

(إلاّ أنّني أظنّ أنّ الله تعالى أخرجهم من أرضهم لأنّهم تركوا عبادة الله الخالق وسجدوا للأوثان. ولهذا جعلهم بأشكال مختلفة. فاسم الله قبل اسم الشمس، هو النور قبل أن يكون النور، وهو الذي خلق النورين الكبيرين[٣]، الأوّل للنهار والثاني له سلطان على الليل. والنور هذا الذي خلقه الله لمنفعة البشر، هؤلاء جعلوا منه آلهة وسجدوا لها دون السجود لله خالقها. وضلّ الآخرون فأغضبوا الله بأصنامهم، وقدّموا الذبائح للشياطين الذين ليسوا آلهة مع آلهة الذين لا يعرفون الله. هؤلاء كلّهم

---

(١) هو محمّد بن الأشعث (البلاذريّ، فتوح البلدان ١ : ٢٢٠).

(٢) لمّا كانت سنة ١٤٩هـ شَخَصَ المنصور عن بغداد حتّى نزل حديثة الموصل. ثمّ أغزى منها الحسن بن قحطبة وبعده محمّد بن الأشعث بآمد، وسار العبّاس والحسن حتّى صارا إلى ملطية. فحملا منها الميرة، ثمّ أناخا على كمخ. وأمر العبّاس بنصب المنجنيق عليه. فجعلوا على حصنهم خشب العرعر لئلاّ يضربه حجارة المنجنيق. ورموا المسلمين فقتلوا منهم بالحجارة مئتي رجل. فاتّخذ المسلمون الدبّابات، وقاتلوا قتالاً شديداً حتّى فتحوه. وكان مع العبّاس بن محمّد بن عليّ في غزواته هذه مَطَر الورّاق. ثمّ إنّ الروم أغلقوا كمخ (البلاذريّ ١ : ٢٢٠).

(٣) يقصد بها الشمس والقمر.

جاءوا إلى هذه الأماكن كيما يلقيهم الربّ بين سكّان الجبال الشماليّة[١]، ويبتليهم بصنوف الأمراض، ويسقطها بحدّ السيف والوباء والجوع، ويقدّم أجسادهم طعامًا لحيوانات البرّيّة وطيور السماء).

ولّما دخلوا الأرض التي بين الحدود، وجدوا أنّها ذات خيرات وفيرة بالفواكه من كلّ جنس ولون إذ كان زمن نضوجها، إضافة إلى كونها غير مسكونة، فتجرّأ هؤلاء الأقوام واستولوا عليها، وإذ كانوا بلا ناموس راحوا يأكلون بنهم شديد فوقعوا جميعهم بالأمراض المختلفة وخاصّة مرض البطن والطحال. فشرعوا يهربون، وأينما سقطوا ماتوا دون أن تدفن جثثهم التي تراكمت في الطرقات والوديان وعلى الروابي طعامًا للحيوانات الوحشيّة إضافة إلى هلاك دوابّهم وخاصّة الجمال التي كانت معهم، ولقد كان الواحد يملك لدى دخوله الكورة خمسين أو ستّين جملاً. لم يبق لديه لدى خروجه منها إلاّ خمسة أو ستّة أو بلا شيء تمامًا.

ولّما دخل مروان[٢] والعساكر كلّهم إلى الحصن الذي هو على الحدود ويدعى قمح[٣]، فإنّ الحدّادين الذين دخلوا معهم وكانوا من الجزيرة، الذين بواسطتهم بنى عيسى الحصن المدعوّ زايد، أرسل عيسى وجلب له عجلات أرمنيّات (من أرمينيا) ونقل بها أخشابًا كثيرة من الصنوبر. فصنع النجّارون منها المنجنيقات، وأقاموا على الصخور المقابلة للحصن كي يهاجموه.

أمّا الروم فقد دخلوا الحصن وأقاموا المنجنيقات على السور قبالة المسلمين. وكانوا أيضًا يصنعون الأسلحة – غير الصالحة – علمًا أنّ السور الذي كانوا قد أقاموه كان ضعيفًا، وكانوا يقولون إنّه لا خلاص من دون الله، فالأفضل أن نتّكل عليه وليس على أيّ إنسان أو سلطان. ورغم أنّ الشعوب قد أحاطت بنا، إلاّ أنّنا سنبيدهم باسم الربّ[٤].

كان رئيس الحصن الروميّ يومئذ اسمه سركيس، وكان رجلاً طيّبًا وهادئًا يتّقي الله، رحومًا على المساكين، وهذه الشهادة أفاد بها جميع رؤساء القرى وأهاليها اللائذة بها.

---

(١) يقصد بها جبال الأناضول الشماليّة مع أرمينيا.

(٢) قد يكون أحد القادة المعاونين لقائد الجيش الأوّل.

(٣) هو حصن كمخ، وهي مدينة بأرض روم لها حصن شهير.

(٤) أنظر الحاشية رقم ٨ صفحة ١٢٤ من هذا الكتاب.

صادف مرّة أن أُدخل بعض الروم إلى الحصن كأسرى، ولمّا مثلوا بين يديه، عاينوا طيبة نفسه ونبله وكرمه، فشهدوا أمام كلّ إنسان بأخلاقه الكريمة ومُثُله العليا، رغم صعوبة الزمن وقساوة الناس، وخاصّة تجاه السوريّين[١]، إذ لم يعد لهم عملٌ فباعوا أراضيهم للمسلمين. كذلك المسلمون لم يعد لهم الجزية، فباعوا المزارع والجنائن، وراحوا يعملون كفلاّحين أجراء. ولانتشار البطالة، توقّفت تجارة القرى، وكانوا يجتمعون حشودًا كبيرة، ويدخلون إلى المخابز، ومرارًا كثيرة اجتازوا الحدود بسبب البطالة، ومن جرّاء عسر الحالة هذه، كانوا يقعون بأيدي الرومان، ويدخلون بهم إلى حصن قمح (كمخ) عند هذا الرجل سركيس الذي كان يعاملهم بالحسنى قائلاً لهم: إن رغبتم بالبقاء عندنا فمرحبًا بكم، وإن رغبتم بالرحيل عنّا فاذهبوا بسلام إلى دياركم، وإذ كانوا يغادرون الحصن كان يزوّدهم بالميرة والطعام.

(يقول المؤلّف معقّبًا حقيقة أيّها الإخوة إنّ هذا الرجل كافأه الربّ إذ نجّاه من يد الآثوريّين[٢] هو وكلّ الذين معه في الحصن. فإنّه لمّا رأى أنّ الجيش قد أحاطه من جميع الجهات وهم قليلو العَدَد والعُدَد، وكشبه رئيس السقاة[٣]، كانوا يهزأون بالذين يقفون على السور ويصرخون عليهم قائلين: أيّ شعب من الشعوب نجا من أيدينا، إنّ عبدالله بن محمّد[٤] الخليفة ألم تسمعوا به وما فعل جنوده بمروان[٥] وبيت هشام[٦] فقد أبادوهم من وجه الأرض. أين هو ملك مصر والفرفيّين (الفرثيّين) والموريّين؟ أين هم ملوك أرمينيا وبيسان وماري والفرس[٧]؟ ألم تسمعوا بما فعل بملوك الهند والسند؟ مَن مِن جميع ملوك الأرض تمكّن أن يخلّص أرضه من يديه، حتّى أنتم يمكنكم أن تنجوا من يديه).

أمّا سركيس رئيس الحصن فكالإنسان المؤمن، لابس خوذة الإيمان ومتمنطق بالرجاء

---

(١) ربّما يقصد بهم السريان، أو سكّان سوريا المسيحيّين.

(٢) يقصد بالآثوريّين هنا الجيش القادم من أرض الموصل (آثور) أو العراق.

(٣) إشارة إلى قصّة يوسف الصدّيق وأحلام رئيس السقاة ورئيس الخبّازين.

(٤) هو الخليفة العبّاسيّ أبو جعفر المنصور.

(٥) المقصود به الخليفة مروان الثاني الأمويّ الذي قضى عليه العبّاسيّون في معركة الزاب عام ٧٤٩م/ ١٣٢هـ.

(٦) المقصود بهم أحفاد الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان الأمويّون.

(٧) كلّ هؤلاء حاربهم العبّاسيّون وانتصروا عليهم.

العظيم بسيّده، أسرع ودخل إلى الملجأ الحقيقيّ بيت الصلاة، ورفع صوته متضرّعًا إلى الربّ بكلّ حرارة ومعه الذين بالخارج، فاستجاب الله تعالى لدعائهم. وسمع صلاتهم بقوّة إيمانهم أن لا يدخل الغزاة حصنهم، وعليه وضع الله في مناخير الآثوريّين الحلقة وردّهم بالخزي والعار، وإن كان الفرس يقاتلون بشتّى صنوف القتال، وباءت جميع حيلهم بالفشل الذريع، منها صُنعهم بيوتًا من الخشب كانوا يملأونها بالتراب والحجارة كي يدخلوا بواسطتها إلى الساقية التي كانت تجري إلى جانب السور.

أمّا الروم فكانوا يرمون عليهم بالحجارة من الداخل فيصيبونهم لدقّتهم بالإصابة ويقتلون بها الكثيرين، حتّى إنّ منجنيقات الفرس كانوا يكسرونها. وحدث أنّ إحدى جهات السور ضعفت وكان من الممكن أن يفتحوا ثغرة بها، أو أن يتسلّقوها ويقتحموها. إلاّ أنّ الروم أتوا بألواح خشبيّة ضخمة وطويلة ووضعوا في رأس كلّ لوح حجارة كبيرة معلّقة بسلسلة من حديد، ووضعوها على حافّة تلك الفجوة. وإذ كان الفرس يريدون الصعود إليها واختراقها، أطلق الروم لوحًا من تلك الألواح، فجرف المتسلّقين أمامه وقد تهشّموا لشدّة الانحدار.

وصادف في إحدى الليالي أنّه ساد الحصن هدوء عميق، فظنّ الفرس أنّ الروم ناموا في سبات عميق، فصعدوا السور بعدد لا يحصى من الجنود. وما إن تزاحموا وشرعوا بالنزول حتّى ظنّوا أنّهم استولوا على الحصن، إلاّ أنّ الحرّاس الشجعان باغتوهم ووضعوا السيف في رقابهم ومن ثمّ أطلقوا الحجارة التي في الألواح فجرفت الصاعدين إليهم وانحدروا مثل كومة من الهشيم.

وهكذا فشلت جميع محاولاتهم بالخديعة والحيلة، لأنّ الربّ كان نصيرهم.

بعد هذا انسحب قائدان من الجيش الإسلاميّ، وأخذا معهما عسكرًا كثيرًا يبلغ عددهم الخمسين ألف مقاتل ودخلا أراضي الروم بغية النهب والسلب، وإذ لم يكن لهما دليل يرشدهما في مجاهل الأرض التي لم يدخلاها من قبل، خافوا أن يتوغّلوا بعيدًا في الأعماق لئلاّ يشعر الروم بهم، فيجتمعوا عليهم ويهجموا فيهلكوهم، وبذا تكون نهايتهم أبشع من أوّلهم. وكما قال أيّوب البارّ: صار لهم، بسبب المخافة التي خفتُها أتيتَ إليّ، والشيء الذي أخاف منه أصابني[1].

---

(١) سفر أيّوب.

ولم يكادوا يرتاحون حتّى أدركهم غضب الله وجعلهم ككومة الكَدْس اليابس، وكالبلّوط الذي يسقط من قبّعته. فأحرق أوّلاً الفضاء، وأباد ما يعتاشون به، فأبادهم الجوع، ووقعوا بين الجبال الجرداء، لا ماء فيها ولا شجر، فهلكوا من العطش. وإذ كانوا على حافّة الموت رأوا مرجًا خصبًا، فحفروا برماحهم بحثًا عن الماء، فوجدوا وارتاحوا قليلاً من الموت بسبب العطش هم ودوابّهم، ولم يدخلوا المرج بغاية الإقامة فيه، بل للراحة من عناء السفر، لأنّ الكورة كانت خرِبة وفقيرة، وكانت بمثابة مناطق حدوديّة بينهم وبين الرومان والأرمن.

وإذ كانوا يتجوّلون بين الجبال أيّامًا عديدة، اتّجهوا نحو قيساريّة، وحطّوا رحالهم في أرض خصبة تنتشر فيها القرى العامرة بسكّانها الآمنين، يسودهم الهدوء والسكينة، فباغتوهم. وإذ لم يستطيعوا مقاومتهم، اقتحموا المدينة (قيساريّة) وصنعوا فيها وفي الكورة كلّها ما اشتهت نفوسهم من النهب والسلب والتخريب. وفي الأخير أسروا جميع السكّان وقادوهم معهم، مع كلّ ما كانوا يملكونه من البهائم والأموال، حتّى الأواني الفضّيّة والذهبيّة. غير أنّ فرحهم هذا لم يكمل، وبالكيل الذي كالوا كيلَ لهم. والحفرة التي حفروها ملأوها بقاماتهم، والشباك التي نصبوها، صيدوا بها. فعاملهم الله بحسب أعمالهم. سَبوا وسَبوهم، نهبوا ونهبوهم، وكانوا يريدون أن يقتنوا عبيدًا وجواري، فصاروا عبيدًا لدى الآخرين، خرّبوا الأرض فخربت بيوتهم، وأضحوا مأكلاً لحيوانات البرّيّة وجوارح السماء، وسقى تلك الأرض بدمائهم. كلّ هذا جرى لهم لأنّهم كانوا دون حنان ورحمة. وإذ كانوا يفكّرون أنّهم سيرجعون إلى ديارهم بسورية مغتنمين مكاسب عظيمة، ترفّ فوقهم راية الانتصار، لم يدركوا أنّهم بالظلمة يسيرون، على حدّ قول المُزَمِّر: إنّ الربّ خلّص المسكين والبائس من يد الغاصب له بالقوّة[1]. وكما قيل أيضًا: من بين الأسنان أخرجهم، ومن أعماق البحر أخرجهم، وهكذا جرت الأمور:

كان الفرس المسلمون يظنّون أنّهم قد تخلّصوا من الأرض المنكوبة المنكودة، ووصلوا إلى بلدهم سورية. فزال عنهم الخوف عندما وصلوا إلى المرج الكبير، ورغبوا بالمكوث فيه للراحة عدّة أيّام – بعد تركهم قيساريّة وكورتها أرضًا يبابًا – وكان المرج بين جبال وعرة له مدخل واحد ضيّق وحوله جدول ماء يصبّ فيه. ولمّا نزلوا وارتاحوا

---

(١) سفر المزامير.

قليلاً، أطلقوا مواشيهم للرعي، وإذ لم يكونوا يعرفون مجاهل الأرض ومواقعها... - وحقًّا، انّ اللّه تعالى لا ينسى عبده الذي يدعوه - صادف أنّ أحد قادة الرومان ومعه اثنا عشر ألف فارس كان قادمًا من حرب أخرى في مكان آخر من الإقليم، وكان مزهوًّا بالانتصار العظيم الذي حقّقه ضدّ أعدائه. فلمّا وصلوا إلى ذلك المرج حيث كان الفرس يهجعون، أرادوا هم أيضًا أن يحطّوا رحالهم فيه لأجل الراحة من عناء السفر. ولم يكن في نيّتهم أيّ شرٍّ كالذي في نيّة الآخرين. فلمّا صعد بعضهم إحدى الروابي المشرفة على المرج، وجدوا جيشًا جرّارًا ومعه سبايا وأموالاً منهوبة من ديارهم نازلين في المرج. ولم يكونوا يعلمون ما حلّ بشعبهم إذ كانوا قادمين من أماكن بعيدة.

خافوا أوّلاً واحتاروا، وكرّوا راجعين مسرعين وأخبروا رفاقهم بعد أن أخبروا قائدهم. فلم يتهاون الرؤساء بما سمعوا، بل أرسلوا عيونًا آخرين مع ما يقارب من ثلاثمائة جنديّ فارس بكامل السلاح كي يقفوا على الحقيقة فيما إذا كان رفاقهم قد شاهدوا العسكر حقيقة أم سرابًا.

لّما صعد هؤلاء الرابية المشرفة على أرض المرج، تيقّنوا أنّ الأمر حقيقة واضحة، فرجعوا وأخبروا رؤساءهم بما هو الواقع. فصعد القائد ومعه أربعة أو خمسة آلاف فارس، فلمّا أبصرهم الفرس (العبّاسيّون) متعسكرين على باب المرج، شعروا بأنفسهم كأنّهم مسجونين مقيّدين بسجن كبير بأرض المرج. فارتجفت أوصالهم خوفًا وارتخت أيديهم من شدّة الفزع، وفقدوا كلّ شجاعتهم، وأرسلوا رسلاً ليروا ماهي قوّتهم، وهل هم مستعدّون للقتال أم لا؟ وكانت بينهم وبين الباب (مدخل الوادي) الضيّق أرض مرتفعة قليلاً. فلمّا أبصر الرسول الرومان رجع إلى أصحابه وأخبرهم بالحقيقة أنّ هناك جيشًا عظيمًا ومستعدًّا للقتال.

حينئذٍ أراد الفرس (المسلمون) أن يخاطبوهم بالمودّة والكلام الطيّب، معلنين السلام معهم. فأطلقوا جميع ما بأيديهم من السبايا والعبيد والبهائم والأموال قائلين فيما بينهم: ربّما إنّهم يتركوننا أحياء ويكتفون بالغنائم التي أخذناها من إقليمهم. كما دخلنا إلى الأرض بدون شيء، نخرج منها أيضًا صفر اليدين.

ولكنّ الرومان لم يهتمّوا بذلك، بل إنّهم أرسلوا إلى جميع المدن ورؤساء الجيش أن يجتمعوا معهم للقتال. فاجتمع لديهم جيش عرمرم قسموه إلى أربع فرق وهجموا

هجمة رجل واحد من الأمام والوراء والشمال واليمين، وإذ كان الوقت ليلاً اتّفقوا على أنّ علامة الانطلاق والهجوم تكون بعد أن يصرخوا (يهتفوا) بالأبواق جميعًا صرخة رجل واحد «قورياليسون» (أي ياربّ ارحمنا) وكان صوتهم كالرعد يرتفع مدوِّيًا.

فلمّا سمع الفرس النداء خافوا وأضحوا كالموتى المدفونين بالقبور، وأظلمت عيونهم وقطعوا الرجاء بالحياة حتّى إنّ سيوفهم لم تخرج من أغمادها، وأحاط بهم الرومان كإحاطة الخاتم بالإصبع، وضربوهم الضربة القاضية، بعد أن دام القتال طول النهار.

وقد شهد الفرس أمامنا بالقسم العظيم من الذين نجوا من الموت فهربوا مطعونين بأنّهم لم يروا أبدًا ولم يسمعوا بأنّه سُفك دم في قتال آخر كما سُفك بهذا القتال. إنّ الجثث مع تراكم الدم ارتفعت حتّى بطون الخيل في ذلك المرج. ولمّا كان المرج رطبًا وفيه مياه كثيرة لم تمتصّ أرضه ذلك الدم الغزير. ولمّا مال النهار إلى الغروب لم يبق من جيش المسلمين إلاّ النزر القليل من الذين أصيبوا ولم يموتوا، فكنت ترى بينهم الذي يده مقطوعة وآخر رجله، وثالث سملت عيناه. وهكذا فرّوا هاربين على خيولهم، وقد سادهم الانحطاط، وفارقتهم كبرياؤهم، ولم يتعدّ عدد الذين نجوا من الموت الألف شخص.

هكذا نجت ملاطينا (ملطية) من هذه الحرب الضروس، كما نجت من الحرب السابقة، وكان ردد[1] قد طعن بثلاث طعنات من السيف لكنّه لم يفارق الحياة. وإنّ مالك بن طوف[2] رئيس العساكر فقد هرب باتّجاه قلينقه مع عسكر يبلغ تعداده خمسة آلاف جنديّ. وهكذا رجعوا على أعقابهم عند من أرسلهم بخيبة وخجل عظيمين حتّى إنّ كلّ الذي بأيديهم من المال فقدوه كمن عرّي من ثيابه.

(هنا يجب أن نفكّر أنّ الربّ صنع الخلاص الظاهر والمباشر فانكسر الفخّ الذي نُصب ووقع فيه ناصبوه واصطاد أصحابه. فهؤلاء قبل ساعة كانوا جعلوا من أنفسهم أسيادًا، فأمسوا عبيدًا، وكانت آخرتهم أسوأ من بدايتهم، ولم يفكّروا أن يصنعوا معروفًا ما، فطاردوا المسكين والفقير والمتوجّع قلبه، وجعلوهم طعمًا للموت. وقد قال النبيّ قبلاً: وقعت بابل وجميع آلهتها المنحوتة تكسّرت ولم يعاونهم من يسجدون

---

(١) اسم واحد من قادة الجيش العبّاسيّ.

(٢) ربّما يكون الاسم مالك بن عوف لخطأ الناسخ الذي دوّن طوف.

لها[١]. ونقول نحن: إنّ الخوف والحفرة والخراب أمامك أيّها الآثوريّ[٢]، فمن يهرب من صوت الخوف فإنّه يقع في الحفرة، ومن يخرج من الحفرة يمسك به الفخّ، ومن ينجو من الفخّ يصاب بالسيف).

وأمّا القرويّون الذين كانوا يجلبون الحنطة والطحين من سورية، فلمّا وجدوا أن الطرق ليست آمنة، تكثر فيها العقبات والأشواك والعراقيل، إضافة إلى أنّ أكثر الدوابّ هلكت، فامتنعوا عن جلب الحنطة والميرة للعساكر، فنتج عن ذلك جوع عظيم إذ لم يكن بأيدي الناس شيء، فارتفعت أسعار المؤونات، فأصبح القفيز من الحنطة بثلاث دراهم ونصف، ولا يوجد من يبيع. واستمرّت الحالة هكذا عشرين يومًا.

حينئذٍ أرسل أمير الجزيرة عيسى[٣] إلى سورية، إلى السوق الكبير، حتّى إنّ القرويّين أنفسهم انحدروا لجلب الميرة إذ لم يكن لديهم عمل آخر يشتغلون به. فلمّا سمع أبناء الشعب بحالة الجزيرة وكثرة ميرتها أسرعوا متّجهين نحو الغرب حتّى من أرمينية الداخليّة، ومن أرض الجزيرة، إذ شقّ عليهم أن يتضوّر إخوتهم جوعًا وهم في رخاء ورفاه، وأدخلوا ما تمكّنوا عليه من المؤونة فعمّ الرخاء والهدوء. فالتجّار وأصحاب الحوانيت من البزّازين وأمثالهم من أصحاب المهن تزوّدوا بالحنطة والشعير والطحين وجميع المؤن اللازمة للحفاظ على الحياة وخزنوها في دورهم، ومنها كوّموها كالتلال، وفي ظنّهم أنّهم يجمعون الغنى لهم. ولم يعلموا كالأغبياء إذ عميت أبصارهم وبصيرتهم، وضلّت أفكارهم بحبّ المال، وبالتالي لم يعرفوا أنّ الذي جمعوه واحتكروه سيزول بلمح البصر، وأنّ طرق الحياة محفوفة بالحسك ومملوءة بالمتاعب، وعليهم ستدور الدوائر، وأنّ التدابير الكثيرة التي استنبطوها لمواصلة القتال داخل الحصن ستؤول عليهم بالدمار والخسائر الفادحة بالأرواح والمقتنيات، لأنّ منجنيقات الروم كانت كثيرة وترمي الحجارة بغزارة المطر تصيب أهدافها بكلّ دقّة.

أمّا عيسى، فإذ كان رجلاً حنونًا رحومًا، فقد صنع مرحمة ونعمة للمساكين الذين

---

(١) سفر إرميا ٥١: ٦-٩.

(٢) يقصد به الفارسيّ المسلم القادم من جهة بلاد آثور.

(٣) هو عيسى بن موسى ابن أخي الخليفة أبي جعفر المنصور.

دخلوا الحصن من الحدّادين والبنّائين والمهنيّين، فلمّا رأى أنّ بعضهم يهلكون بالحرب مع الرومان من جرّاء الحجارة التي يرمونها على داخل الحصن، جمع رؤساء عساكره وأمرهم أن يختاروا كلّ يوم رجالاً من العسكر يلقون الحجارة من المنجنيقات، أمّا القرويّون فيعملون بأعمال أخرى بعيدًا عن خطر الموت. ولمّا طال مكوثهم على هذه الحال، قال عيسى: إنّي لن أغادر هذا المكان ولو طال مكوثي هنا عشر سنوات. فاجتمع خلق كثير من أطراف البلاد ودخلوا الحصن، وأقاموا متاريس القتال للدفاع ولكن دون جدوى، فراحوا يطلقون التهديد والوعيد قائلين لعلّهم يخافون منّا ويفتحون لنا الأبواب، وكانوا مثل النسور في الفضاء، يطيرون بأجنحة سريعة إذ لم يكونوا يهابون الموت مهما كان شكله وصمدوا للقتال وقتاً طويلاً.

وأخيرًا عمدوا على صنع التملّق والتخضّع والتخشّع كي يتركوا الحصن ويرحلوا عنه بسلام، ولكنّ حيلهم هذه باءت بالفشل الذريع. فشرعوا يستهزئون بهم ويسخرون انتقامًا وإثارة.

ولّما كان فصل الشتاء على الأبواب، وأوشك البرد والثلج أن يغزوا الأرض، خافوا من انقطاع الطرق فيهلكون هناك جوعًا، فازداد خوفهم حينما توقّعوا أنّ جموعًا أخر سيحيط بهم ويحاصرهم ويبيدوهم عن وجه الأرض، ويحلّ السوء بهم أكثر ممّا حلّ برفاقهم السابقين بذات المكان. فقد كانوا قد دخلوا إليه بخمسين ألفًا، ولم يخرج منهم حيًّا سوى خمسة أو ستّة آلاف، وهؤلاء كانوا مطعونين بالسيوف والرماح والنبال.

نادى المنادي على حين غرّة ليتركوا دوابّهم مع التجّار وأصحاب الحوانيت وكلّ الباعة، ويغادروا المكان بالسرعة الممكنة اتّقاء شرّ الفناء. غير أنّ التجّار والباعة، قساة القلوب وغلاظ الرقاب، فقد صرفوا أموالهم واشتروا كلّ الحنطة والشعير والطحين واحتكروها. ولّما لم يكن لهم دوابّ ليحملوا عليها بضاعتهم بسبب وعورة الطرق فيتعذّر فيها تنقّل الدوابّ، شرع الأهالي ينقلون أموالهم عبر النهر المدعوّ سلقط[1] على أكتافهم لأنّ الدوابّ لم تستطع العبور إلاّ واحدًا أو اثنين بالمائة، وعبروا نحو جهة الشمال وهناك استأجروا دوابّ مع دوابّهم، لأجل ذلك قلّت الميرة بقلّة

---

(١) قد يكون نهرًا صغيرًا أو جدولاً. لهذا لم يذكره صاحب معجم البلدان.

الدوابّ. وعليه لمّا نادى المنادي بالعساكر للرحيل وجد الفرس المسلمون أنّ جميع أموال التجّار باقية في أماكنها، فأسرعوا وأضرموا النار فيها لئلاّ يستفيد منها الرومانيّون كغنائم.

وكان قد خرج جيش آخر باتّجاه قلينقلة[1] الذي كان يجرّد كلّ من يصادفه من أمواله أو حمولته المتكوّنة عادة من الجبن والدهن والعسل وحاجات أخرى، وتجلب إلى المعسكرات، ومن ثمّ يسوقون الدوابّ والحمير والرجال أمامهم صفر اليدين، لذا هلك أولئك المساكين بفقدهم كلّ الميرة بساعة واحدة.

وهكذا لم يستفد كلّ المغادرين إلاّ التعب والمشقّات لاسيّما أصحاب المهن من الحدّادين والنجّارين. حتّى إنّ عيسى بعد خروجه، أمر جميع العمّال الذين تحت إمرته أن يعطوه الأجرة التي تقاضوها عند دخولهم معه إلى الحصن حتّى أجرة الحمير.

وبهذا الشكل انتهت هذه الحملة، فرجع عيسى بذات الطريق التي أتى بها خائبًا يجرّ جلباب الخزي والخجل للخسائر الفادحة التي حلّت بأتباعه. وكان قد قدم إلى مدينة آمد عبر نهر دجلة، جيش ثالث، راجعًا إلى أرض الفرس (بلاد فارس) والجنود قد أنهكهم التعب، عاجزين عن مواصلة السير لما حلّ بهم من الجوع. وقيل إنّ نصف حالتهم يخبر بأنّه لم ينج منهم من الموت إلاّ القلّة القليلة، وأكثر غنائمهم وأموالهم والميرة التي دخلوا بها أرض الرومان فقدوها، وصاروا بحالة يرثى لها يخيّم عليهم الخزي والعار.

ولكن حينما وطئوا أراضيهم شرعوا يفتخرون بأنفسهم ويتظاهرون بالكبرياء، تمامًا كما فعلوا لدى دخولهم أرض الرومان أوّلاً، إلاّ أنّه خاب فألهم وعادوا بثوب التعاسة، يسحبون وراءهم أذيال الفشل والخيبة، رؤوسهم منكّسة، صفر اليدين.

* * * *

كان رحيل الجيش إذن عن الكورة مكسبًا عظيمًا لأهالي الشمال، إذ أنفقوا في تلك الأديار مبالغ كبيرة وخاصّة من النقود الجديدة. ومن هذا نفهم أنّ صانعي

---

(١) نظنّ أنّها مدينة قاليقلا التي بنتها الملكة قالي زوجة الملك أرميناقس وسمّتها قاليقلا. ومعنى ذلك (إحسان قالي). فعرّبها العرب وسمّوها قاليقلا (أنظر البلاذريّ ١: ٢٣٤).

النقود، وضرّاب السكّة كانوا يرمونها بدون خوف للتداول بها أي النقود الجديدة المزيّفة، وبهذا فقد الكثير من الناس نقودهم.

أمّا أرض الجزيرة فكانت كثيرة الخيرات، والحقول غنيّة بالكروم والمزروعات الأخرى. أمّا من جهة الغنى بالأموال والميرة فلم يكن فيها فقير أو بائس واحد، فجميع أهل القرى مترفين، وكلّ فرد منهم يملك فدّانًا من الأرض مع الماعز والحمير. ولم تكن قطعة واحدة من الأرض خالية، بل جميعها مزروعة بالحبوب والكروم، حتّى إنّ جميع سطح الجبل كان مزروعًا بالكروم والأشجار الأخرى، خاصّة الأماكن التي لم يكن بالإمكان حراثتها وزرعها بالحبوب مثلاً.

لذا كثرت بينهم الجريمة وسادت القسوة، فشرعوا يخطفون كلّ شيء الواحد من الآخر، حتّى الأوقاف التي أوقفها الأوّلون للأديرة والكنائس، لاسيّما الحنطة والخمور لم تسلم من أطماعهم.

وحدثت خصومات عديدة بين السكّان حول الأراضي، حتّى بلغ الأمر بهم ارتكاب جرائم القتل؛ والعمّال الذين بالمدن تركوا أشغالهم بأمر من حكّامهم لأنّهم تخاصموا مع ذوي الأموال، فعمّت الفوضى وانتشرت البطالة.

(أقول أنا كاتب هذه السطور، إنّي ما كتبتها إلاّ لأنّنا أردنا أن نبيّن إلى أيّ مدًى بلغ الضيق بالأرض، أمّا الشعب الذي شبع وانتفخ من التخمة فنسي الله خالقه، حتّى إنّ الناس كفروا به وبخيراته التي زادها عليهم بالأموال والعقارات وأصبحوا سادة يملكون العبيد والجواري، فشرعوا يقترفون الأعمال الذميمة وأصابهم الطمع، فصار الواحد منهم يملك مثلاً ألف رأس من الماعز، وألف رأس من الغنم، إضافة إلى الخيل والجمال وأصبح المرء منهم يمتطي الفرس العربيّة، يسير بين يديه وأمامه العبيد راكبين البغال، يسجدون له كالمجوس الوثنيّين، في حين كانوا هم أنفسهم يحملون أولادهم على أكتافهم محدودبي الظهر، عراة، حفاة، أنهكهم الجوع والعطش، يستعطون من باب إلى باب، يستجدون كسرة خبز يابسة، يرحّلهم الأسياد من بلد إلى بلد، ومن مكان إلى مكان).

أمّا البنات والنساء ربّات القصور والخدور الآن، فقد كنّ قبل هزيلات عاريات،

يحملن أولادهنّ على رقابهن تعبات منهوكات القوى من الحقارة التي كنّ يعشن فيها، كالمستبعدات من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة.

وفي هذه السنة أيضًا (١٠٧٨ي / ٧٦٧م)، وبعد رحيل العساكر، رخصت الأسعار فصارت الحنطة يباع كلّ خمس وعشرين مكيالاً منها بدينار واحد[١]. ولذلك كانت أغلب الأشياء مهما كان نوعها تباع بخمسة وأربعين. والأرض صارت برخاء ورفاه كبيرين. ولذا اتّجه الناس إلى عمارة الهياكل وتجديد الكنائس.

* * * * * * * * * *

(١) المكيال يساوي أربعة أقفزة.

فصل في أسباب المخاصمات والاضطرابات
التي حدثت في الكنيسة بين رعاتها في هذه السنة ١٠٧٨ يونانيّة، وخاصّة مع كيوركي البطريرك

(سنة ١٠٧٨ي/٧٦٧م/١٥٠هـ) عندما توفّي يوحنّا العفيف[١]، الذي نصّبه أساقفة الجزيرة بطريركًا عليهم، وانسلخوا عن رئاسة كيوركي وأبناء الغرب كما ذكرنا سابقًا، أراد الأساقفة المؤمنون الأطهار أن يرفعوا الخصومات من بين الناس جميعًا، فيكونوا رعيّة واحدة وراعيًا واحدًا كمثل الشريعة التي رسمها المخلّص والآباء القدّيسون. ولئلاّ يحدث انقسام وشكّ بالإيمان المقدّس، وخاصّة أنّ أكثريّة المدن كانت تطيع كيوركي وتتبعه وينادون به وإيّاه يحبّون. وأيضًا جميع أبناء الجزيرة والغربيّون من منطقة سروج[٢].

(في سنة ١٠٧٦ي/٧٦٥م) كثر اللغط بين الطرفين حول العادات والتقاليد الموجودة بين الطرفين، فأراد كيوركي البطريرك الذي كان يحبّ السلام والوحدة بالإيمان، أن لا يحدث في أيّامه أيّ اضطراب أو اختلاف في الشريعة كالذي جرى من قِبَل الآباء الأبرار المائة والخمسين الذين اجتمعوا بالروح القدس في القسطنطينيّة والذين حدّدوا درجات البطاركة، نقطور بطريرك القسطنطينيّة بعد بطريرك روما، وطيمثاوس بطريرك الإسكندريّة مصر، وأغنطوس وكلّ أقطار الغرب، وميلطس بطريرك أنطاكية وكلّ المشرق. فخاف أن يحدث بأيّامه الانقسام وهو على كرسيّ أنطاكية، ولذا قبل ورضي بكلّ الحجج التي قدّمها أساقفة الجزيرة ورضخ لها، حتّى التي قدّمها الأساقفة الذين رسمهم يوحنّا الذي أقيم بطريركًا في دير قَرْقُفْتا[٣]. إلاّ أنّه لم يقبلها ولم يرضَ بها، إذ أراد أن يجعل ذلك خارج النطاق الكهنوتيّ، وعليه

---

(١) هو يوحنّا الرقّيّ، أقام أربع سنوات.

(٢) مسقط رأس الملفان يعقوب السروجيّ (+٥٢١) أسقف بطنان، صاحب القصائد الرائعة في الفكر اللاهوتيّ والوصف.

(٣) دير قَرْقُفْتا: بين راس عين والمجدل في الجزيرة العليا. بناه مار شمعون واشتهر أمره في غرّة القرن الثامن. ودعم الكنيسة بستّة أساقفة حتّى منتصف القرن العاشر. ودثرت معالمه منذ عهدٍ عهيد.

تذمّر أساقفة الجزيرة لأنّ أغلبهم كانوا من الأديرة المشهورة. غير أنّ الفاضل لم يصرّ على رفضه إذ قال إنّ الكهنوت أو الأسقفيّة تعطى للذي يذعن ويطيع بأن يذهب إلى بلاد بعيدة كسغسطن[١]، ولكنّه هرب. فاستحسن الأساقفة قوله هذا. وأضاف: قد أطردُ أسقفًا من مدينته وهو أفضل منّي، وأنا لم أرسمه. وقد دبّر رعيّته بأخلاق فاضلة، وساس رعيّته بأعمال مشكورة، وقد مضى عليه ثلاثون سنة في الأسقفيّة. ولم يكن هناك مدينة واحدة توافق على أحدهم أو تقبله راعيًا لها، إلاّ من كان تقيًّا مطيعًا، له الرغبة في الذهاب إلى البلدان البعيدة، والذين أطاعوا الأوامر أوصى الشعب بمساعدتهم كي يستطيعوا الخدمة الحقّة.

(بالحقيقة، أيّها الإخوة، إنّ كيوركي البطريرك وإن لم يقبل الأساقفة الآنفي الذكر، لأنّ بعضهم لم يكن يستحقّ الدرجة لكبريائهم، يحبّون الافتخار، سحرة مضلّلون، ماكرون، يتكلّمون بالحيلة والخداع، ولم تكن في أعينهم مخافة الله، وفيهم تكمل كلمة الرسول: إنّي أنا لا أعلم، ولكن بعد أن أذهب، سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا يرحمون الرعيّة، ومنكم يقوم رجال يتكلّمون بالغشّ لكي يردّوا إليهم تلاميذ لهم يسيرون وراءهم. وعنهم قال السيّد المسيح محذِّرًا تلاميذه من أمثال هؤلاء: احذروا الأنبياء الكذبة الذين يأتون إليكم بثياب الحملان، ومن الداخل ذئاب خاطفة[٢]. ومن ثمارهم تعرفونهم[٣]. وقال عنهم له المجد: هل يجنون من الشوك عنبًا، ومن العلّيق تينًا[٤]. وأيضًا: كلّ شجرة صالحة تصنع ثمارًا صالحة، وكلّ شجرة رديئة تخرج ثمارًا رديئة، ولا يمكن للشجرة الصالحة أن تعطي ثمارًا رديئة، ولا شجرة رديئة أن تعطي ثمارًا صالحة[٥]. فبالحقيقة، إنّ هؤلاء أشجار رديئة وثمار رديئة، أطعَموا الكنائس وشعب الله رداءتهم ورذائلهم.

من هذا الكلام كلّه، أريد أن أبيّن إلى أيّ درجة من الانحطاط وصل الشعب

(١) لم نستطع التعرّف على هذه البلاد من مصادرنا.

(٢) إنجيل متّى ٧: ١٥

(٣) إنجيل متّى ٧: ١٦

(٤) إنجيل متّى ٧: ١٦

(٥) إنجيل متّى ٧: ١٧-٢٠

والكنيسة، وأن لا يلوم أحد كيوركي البطريرك أو يعاتبه لإبعاده هؤلاء الأساقفة الرديئين عن جسم الكنيسة.

إخوتي، أنا بالذات كنت متعجّبًا بيوحنّا الفاضل، بأعماله الفاضلة، بأخلاقه الرهبانيّة النبيلة، كان زاهدًا ومحترمًا لدى جميع الناس، فكيف هوى وسقط، وكيف اقترب إلى مثل هؤلاء الأشخاص، ووضع اليد عليهم وسامهم كهنة، في حين ولا مدينة قبلت بهم. فآمد مثلاً كان فيها أسقفان أو ثلاثة، غير أنّه رسم ثلاثة آخرين أو أربع من هؤلاء الأردياء، فقد كان أساقفتها السابقون أفضل بكثير من هؤلاء. فقد كان من بينهم ساويرا الذي من دير زوقنين، كان رجلاً شيخًا وقورًا فيه مخافة الله، ولكن لضعف بصره أعفي عن إدارة المدينة وأقام في ديره بقيّة أيّامه. وقام خلفًا له مار آبي الذي من دير مار حبيب[١] في أرزون[٢]. وفي المدينة ذاتها أسقف آخر من بينهم، رجل طيّب ومتواضع. مزيّن بالفضائل ويلقّب باسم سركونا، رجل إلهيّ روحانيّ من دير أثناس[٣]، وجميع الأساقفة الموجودين في المدينة شيوخ أفاضل وقدّيسون. أمّا هو فقد أقام لها آخرين الذين تحدّثنا عنهم. ومنهم واحد من دير حريز[٤].

---

(١) دير حبيب. لا نعرف موضعه. إلاّ أنّ الشاعر ورد بن الورد الجعديّ ذكره:

ألا حبّذا الأصعاد لو تستطيعه	ولكن أجل لا ما أقام عسيب
وإن مرّ ركب مصعدين فقلبه	مع الرائحين المصعدين جنيب
سل الريح إن هبّت شمالاً ضعيفة	متى عهدها بالدير دير حبيب
متى عهدها بالنوفليّات حبّذا	شواكل ذاك العيش حين يطيب

(معجم البلدان ٢: ١٣٢).

(٢) أَرْزَن. بالفتح ثمّ السكون وفتح الزاي ونون. هي مدينة مشهورة قرب خلاط. لها قلعة حصينة. وكانت من أعمر نواحي أرمينية. وقد فُتحت على يد عياض بن غنم بعد فراغه من الجزيرة سنة ٢٠هـ صلحًا مثل صلح الرها. وأرزن الروم بلدة أخرى من بلاد أرمينية. أهلها أرمن وهي الآن أكبر وأعظم من الأولى ولها سلطان مستقلّ بها مقيم. وفيها ولاية ونواحٍ واسعة كثيرة الخيرات. وقد عدّ قوم الأرزن الأولى من أطراف ديار بكر ممّا يلي الروم، وقد يعدّونها من نواحي الجزيرة. والصحيح أنّها من أرمينية. (معجم البلدان١: ١٩٠–١٩١ ؛ اللؤلؤ المنثور ص٥٠٤: أرزون مدينة كبيرة شماليّ غرب سعرت، أطلالها ماثلة).

(٣) لم نجد أيّ معلومات عن هذا الدير في المصادر التي بين أيدينا، معجم البلدان واللؤلؤ المنثور.

(٤) ربّما هو دير حرباز المبني على اسم مار كيوركيس (جرجس) في ولاية سميساط. ورد ذكره لأول مرّة في أواخر القرن السابع، وآخر عهدنا به أواسط القرن العاشر. تخرّج فيه بطريرك وخمسة أساقفة (اللؤلؤ المنثور ص١٥٠).

كتبت هذا لكي أخبر عمّا جرى لنا من الشرور بعد هذه الأحداث. وأرجو أن لا يلومني أحد على ما كتبت، إلى أن يرى ثمار هذه الأشجار الرديئة. وإنّ منظر الرجل يدلّ على أعماله، من سلوكه وتصرّفاته تُعرف شخصيّته وماهيّته. وهؤلاء الرجال أعمالهم ماثلة أمامهم وأمامي).

وبعد انتهاء المجمع، عاد كلّ أسقف إلى بلده، وكيوركي البطريرك الفاضل عاد إلى ديره. كما رجع هؤلاء البائسون مخذولين يسودهم الخجل العظيم، غير أنّهم لم يقبعوا في بيوتهم كالذين يُخفون زلاّتهم حياء، بل عادوا إلى الشغب والفتنة يحرّكون الحجارة المتراصّة، ويلقون القلق والاضطراب في كثيرين إضرامًا لنار الفتنة وانتقامًا من كيوركي الطاهر والذين معه.

أمّا كيوركي المختبر الحياة وقد مرّت عليه أمثال تلك التجارب والأحداث فكان يخاف من انتشار الفوضى والاضطراب، لهذا عاد إلى ديره، قاطعًا عهدًا مع نفسه أن لا يدخل بيتًا ولا يزور مدينة أو قرية أو ديرًا، حتّى يأتي أهالي ذلك المكان ويدعوه لزيارتهم ويصحبوه معهم إليها.

وصادف في هذه السنة أن قصده أهالي حرّان بسبب حدوث بعض المشاحنات بينهم وبين أسقفهم، ومكثوا معه إلى حين زوال أسباب الخصام، فعادوا إلى ديارهم.

وكذلك قصد أهالي آمد ومعهم مار آبي أسقفهم في دير البطريرك كيوركي يدعونه لزيارتهم وتفقّد أحوالهم، فقبل دعوتهم كالراعي الصالح، وصعد معهم إلى مدينتهم، وكان في طريقه يمرّ بالمدن والقرى الواقعة عليه فيسرع سكّانها لاستقباله والاحتفاء به باحتفالات عظيمة تليق بدرجته. ولمّا طالت مدّة إقامته هناك، قصده رهبان دير زوقنين مع جميع شيوخ الدير الأفاضل ومعهم الفاضل مار آويل رئيس الدير وديونيسيوس مدير أعمال الرهبان (القيّم) الذي صار فيما بعد أسقفًا على حرّان وصحبوه إلى ديرهم، وقد كان الطوباويّ كيوركي مشتاقًا لهذه الزيارة منذ زمن بعيد لرؤية الدير والصلاة فيه، فلمّا كملت رغبته وقضى فترة فيه مع أبنائه بمحبّة أبويّة، قصد حانيا، ومرّ بتلّ كوم حيث أراد أن ينصح ويرشد أبناء الدير، إلاّ أنّ الشيطان عدوّ الخير منذ البدء حرّك تلاميذه، الأداة الطيّعة له، مستحقّين الهلاك معه. فما إن رأى عدوّ الإنسان أنّ السلام عمّا قريب سيسود الكنيسة وتنتهي الخصومات وتُنسى الأحقاد والضغائن التي قامت في وسطها كما سبق وذكرنا، فإنّ أولئك الذين تحدّثنا

عنهم وأشرنا إليهم سخّرهم الشيطان ثانية، وقصدوا الملك[١] وشرعوا يطعنون بالطاهر كيوركي وبجميع الأساقفة الذين معه ويتّهمونهم بتهم شتّى، وبأباطيل كثيرة بسيّئ الكلام. فزعموا أنّ كيوركي يدّعي بأنّه هو الملك وليس أنت. وحسنًا قال النبيّ في مثل هؤلاء: إنّ رؤساءك العصاة، شركاء اللصوص، جميعهم يحبّون الباطل ويسرعون باستيفاء الديون. وإنّ الظلم الذي نزلت جذوره في الأرض شرع يتفتّح ويخرج ثمارًا قاتلة. فهلمّوا وانظروا بأنّ الشجرة تعرفونها من ثمارها.

أمّا الملك فلمّا سمع صعد غضبه كالدخان، وأرسل سريعًا رسلاً لإشعال نار الفتنة واستدعى البطريرك وجميع أساقفة الجزيرة، وإذ كان البطريرك بعد في قرية تلّ كوما (التلّ الأسود) جلبوه من هناك إلى حرّان، ولم يسمحوا له بالدخول إلى ديره حيث قلاّيته، واجتمع هناك جميع الأساقفة ومن ثمّ انحدروا نحو بغداد قاصدين الملك، إذ كان مقرّه فيها. إلاّ أنّ الملك لم يستطع إيجاد حلٍّ للقضيّة، حتّى إنّه لم يسمع الدعوى التي رفعت إليه عليه، فقد كان شديدًا لا يسمح لأحد برفع يده أو رجله في جميع الأرض التي تحت يده إلاّ بالتدبير الدينيّ وإصدار الفتوى من قِبَل مسلم أو رجل روحانيّ مسيحيّ. ولم يكن يهدأ ويهجع في ركنه إلاّ عندما يهلك المدّعى عليه ومن معه. والذي كان يعرف به أنّه صاحب ثروة أو يملك بين يديه أموالاً أو شيئًا ما، فذاك كان يدعوه صديقًا مخلِصًا له.

لما سبق ذكره نقول:

عندما وصل البطريرك كيوركي والأساقفة الذين معه إلى بغداد، دخلوا على الملك، فلمّا رآهم غضب عليهم كالدبّ المتحفّز على فريسته، وكلّمهم بقسوة شديدة. ثمّ طردهم من أمامه بعد أن أصدر أمرًا بإلقاء كيوركي في السجن بعد أن قيّدوه بالسلاسل الحديديّة.

ولّما طالت مدّة مكوثهم هناك أيّامًا كثيرة، أمر الملك الأساقفة أن يقيموا لهم رئيسًا مَن هو العادل والمستحقّ فيهم، ثمّ ينطلقوا إلى بلدانهم، علمًا أنّه لم يكن يعاملهم بالحسنى والاحترام. فاتّفق جميعهم على نصب داويذ أسقف دارا بطريركًا عليهم[٢]،

(١) يقصد الخليفة أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور.

(٢) إسحق أرملة، الزهرة الذكيّة.

قائلين: إنّ كلّ ما حدث ليس إلاّ من صنيعته، وإذ كان شيخًا قد طعن في السنّ ولن يعيش طويلاً، وافقوا على نصبه بطريركًا، كما أنّهم أظهروا أنّه لو أقيم غيره فلن يقدّموا له الطاعة.

عاد المرشّح داويد إلى مقرّه وهو عالم وعارف بكلّ مُجْريات الأمور وأحداثها إذ لم تخفَ عليه، وأقيم رئيسًا رغمًا عن إرادته، شاء أم أبى، وأعطى له الملك (الخليفة) فرمانًا أو صكًّا خوّله فيه أن يعاقب بالضرب أو السجن وحتّى القتل كلّ من رأى فيه اعوجاجًا أو لم يقدّم له الطاعة.

أمّا كيوركي فقد بقي سجينًا بسجن الخليفة. وشرعت الفوضى والاضطراب يزدادان في الكنيسة يومًا بعد يوم، والفوضى تعمّ شعب اللّه. وشرع الناس يشتمون ويسبّون ويسخرون من الأساقفة والرهبان، حتّى إنّه لم يعد أحد منهم يتجرّأ للظهور في أسواق المدينة وشوارعها أو ساحاتها لكثرة الاستهزاء والسخريّة التي كانوا يلاقونها من أبناء الشعب خاصّتهم وعامّتهم، إذ كانوا ينعتونهم بالقتلة وسفّاكي الدماء. حتّى وصل الأمر بالناس أن لا يتناولوا القربان من أيديهم إذ كانوا يقولون إنّ اسم داويد يذكر عليه ويدعونه بالقاتل وسافك الدم. هذه كلّها كانت بذور الزؤان التي زرعها الشيطان بواسطة تلاميذه بين الناس والذين سبق وأشرنا إليهم أعلاه[1].

ولمّا صعد داويد والأساقفة معه إلى تكريت وإلى الموصل[2]، كان المؤمنون يستقبلونه بالاستهزاء والشتائم وكأنّه ليس بطريركًا بل رجلٌ منبوذٌ، ينعتونه بالقاتل وسافك الدم. أمّا هو فلم يكن يلتفت إلى النعوت والشتائم ولا يتأثّر بها ولا يتكدّر خاطره منها أو ينفعل بسببها. إنّما بالعكس كان يسمع ذلك بنفس رضيّة، وقلب ملؤه السماح طالبًا لهم من اللّه الغفران، مستشهدًا ذلك كلّه باللّه على كلّ ما يقولونه عنه وفيه ظلمًا وبهتانًا قائلاً: إن كنت مشتركًا في قضيّة كيوركي ولو من طرفٍ خفيّ، فليحلّ عليّ حكم اللّه القاسي. مؤكّدًا قوله بالحلفان والقسم الغليظ، أن ليس له إصبع في كلّ ما جرى...

وزاد في تبرير موقفه بإرساله الترجمات والمناشير والرسائل لتُقرأ على الناس في

(١) راجع الصفحات السابقة لهذا الكلام من الكتاب نفسه.

(٢) راجع كتابنا، تكريت حاضرة الكنيسة السريانيّة.

كلّ الكنائس. غير أنّ الناس لم يصدّقوه، إنّما كانوا يصرّون على أنّه هو السبب في كلّ ما وقع من اضطراب في سلام الكنيسة وما جرى لكيوركي الفاضل.

وداويذ هذا لم يكن يوبّخ أحدًا، ولا يهينه من أجل شتمه له، ولم يكن يرغم أحدًا على أن ينادي باسمه، بل كان يقول: كلٌّ يفعل كما يطيب له، إن أراد فلينادِ باسمنا، ومن لا يريد فشأنه هو، ما لي وله.

وهكذا بيّن للناس أنّه متهوم ظلمًا، رغم سماعه السبّ والشتم، بأُذنه، ورؤيته السخريّة والاستهزاء به بعينه. فلم يكن يبالي، علمًا أنّه بيده سلطان العقاب القاسي من اللّه والملك (الخليفة) غير أنّه لم يؤذ أحدًا.

ولقد وصل الأمر إلى أنّه إذا حدث وأرسل أسقفًا من قبله إلى إحدى المدن، كان المؤمنون هناك يطردونه شرّ طردة، إن لم يوقعوا به في التهلكة. أو إذا أقام هو أو أحد أساقفته قدّاسًا فلا يتناول المؤمنون القربان من يده، بل على العكس يحتقرونه مع القربان الذي كان يقرّبه.

وإذا صادف أنّ شخصًا علمانيًّا يوبّخ الناس على تصرّفاتهم ضدّ البطريرك أو أساقفته قائلاً: حرام هذا عليكم فإنّكم بهذه الأعمال تجلبون عليكم نقمة الربّ... كان الشعب يحتقره ويهينه إضافة إلى إهانة الرؤساء.

وهكذا ظلّ الناس ينتقلون من هيكل إلى هيكل قائلين: إنّنا لن نتناول من يد فلان وفلان، ولن نتناول قربان فلان وفلان، لأنّه ينادي برئاسة داويذ. كما راح الناس يحتقرون كلّ من عليه زيّ الأسقف أو الراهب. وإذا ما كان الراهب يدّعي بأنّه لم يرَ داويذ ولا كيوركي، كانوا يهزأون به، وكانوا يلعنون الاثنين سويّة ويحرمان باحتقار.

وفي الأخير اعتمد البعض أن لا ينادى في الكنائس لا باسم داويذ ولا باسم كيوركي تفاديًا للموقف.

وهكذا دام هذا الاضطراب حتّى وفاة الفاضل داويذ بعد مرضٍ عضال.

(فانظر إلى نفسك وتأمّل في الغضب الذي حلّ علينا. واعلموا يا إخوتي أنه كلّما اضطربت الكنيسة، كلّما اضطرب الرؤساء. وقد اضطربت الأحوال فيها سابقًا ولاحقًا).

(سنة ١٠٧٩ي/٧٦٨م/١٥١هـ) شُيّد حصن شميشاط على نهر أرسينْس. وإذ كان البنّاؤون والحدّادون يباشرون البناء، وارتفع البناء مقدار قامة إنسان، قدم عساكر الروم البيزنطيّين ومرّوا على رقبة (منبع) النهر بجانب الحصن. ولم يعبروا إذ كان يوم الأحد المقدّس، كما لم يكن لهم أمر بالقتال. فلمّا قرّبوا القربان، وأكلوا الخبز، كان الناس الذين داخل الحصن قد هربوا وتركوا كلّ شيء، ودخل الروم وسلبوا كلّ شيء وأحرقوا الباقي، وهدموا جميع البناء ورحلوا إلى بلادهم. وبعد هذا الذي حلّ، اجتمع المسلمون ثانية، وجلبوا البنّائين والحدّادين لبناء الحصن وتمكينه.

في هذه السنة أيضًا، أرسل عيسى حاكم الولاية رسائل إلى كلّ المدن الإسلاميّة في الجزيرة، يطلب فيها من جميع السكّان أن يقصدوا حرّان، كبارًا وصغارًا، فنزلوا إليها تاركين وراءهم زروعهم وقد آن وقت حصادها، بسبب عدم وجود النقود لديهم لدفع أجرة عمّال الحصاد، ولم يستفيدوا من خيرات الأرض شيئًا. ومكثوا هناك أيّامًا كثيرة، حتّى إنّ الزروع نكثت وسقطت بذورها جميعها. وبلغ عدد الذين مكثوا في الحصن أكثر من ستّمائة رجل، أمّا الباقون فرجعوا إلى بيوتهم حاملين معهم تجارة الخيبة والفشل.

وفي هذه السنة أيضًا، مات ديونيسيوس أسقف حرّان، وخلفه ديونيسيوس آخر من دير زوقنين.

وفي السنة ذاتها مات إسطفنا أسقف حابورا، وخلفه[1]...

(سنة ١٠٨٠ي/٧٦٩م/١٥٢هـ) خرج الأسقف زكريّا من الرها، ونصّب خلفًا له إيليّا من دير قرتمين، وكان رجلاً قاسي القلب، ولم يكن يستحقّ درجة الأسقفيّة. ولذا لم يقبله الرهاويّون.

وفي تِللاّ نصّب خلفًا للأسقف بنّي الذي خرج منها بذات السنة سبينا الذي قبله أهلوها.

وبقيت الرها دون أسقف، علمًا أنّ إيليّا كان قد تشبّث فيها وقد نشر بين أهلها حججًا كثيرة لا يجوز ذكرها.

(١) لا يذكر المؤلّف اسمه، ولا نحن عثرنا عليه بين قوائم الأساقفة.

(وفي هذا الزمن أيضًا اشتهر سركونا في ماردين. وداويد البطريرك، ومار آبي من آمد، وقسطنطينا في شميشاط، وبولس في تكريت[١]).

وكانت هذه السنة كثيرة الخيرات خصبة ورخصت الأسعار، فالحنطة مثلاً كلّ ثلاثين قفيزًا بدرهم واحد. ومن الخمر كلّ أربعين ليترًا (كيلة) بدرهم واحد... وأخصبت الكورة بالكروم والحقول والبهائم، فانتشر الرخاء وعمّ. وقسّم الدينار إلى دراهم، ولم تقلّ قيمته النقديّة في البيع والشراء.

وفي ذات السنة، سقط من السماء حجارة سوداء[٢] شاهدها الكثيرون ولمسوها بأيديهم، وهي موجودة إلى يومنا. ولم يكن سقوطها من السحاب، بل من السماء. وقد انتشرت في كلّ مكان. والأرض التي سقطت عليها لم يكن فيها حجارة سوداء أبدًا.

(إنّ الله يفعل ما يشاء على الأرض وفي السماء).

(سنة ١٠٨١ي/٧٧٠م/١٥٣هـ) حدث في الموصل ضيق شديد، ذلك أنّ رجلاً شرّيرًا وعاتيًا اسمه موسى بن مِصعب[٣] - تولّى حكم الموصل - وعنه تنبأ النبيّ القائل[٤]: إنّي أخرّب الأرض كلّها، وأجعل المسكونة فارغة كالبرّيّة، لا بملوك المجوس، ولا بملوك الكفّار. والعدّاد وجد له رفيقًا. وإنّي أوقع الأرض بشدّة عظيمة... إذ إنّه منذ خلقة العالم إلى يومنا هذا، لم يحدث ضيق كالذي جرى اليوم. وإن أراد أو أحبّ امرؤ أن يسمّي هذا المحتال وعمّاله، فليطلق عليه لقب ابن الهلاك.

وقد أصبح في هذه الفترة، الإسكيم الرهبانيّ المقدّس، محتقرًا ومهانًا. كما وأصبح الأساقفة والرهبان هزءًا وسخريّة. وتجاسر البعض على القربان المقدّس الذي يقرّبونه. وبلغ الأمر أَوْجَه، حين لم يعد الرهبان يستطيعون التجوّل في الأسواق لسيل الشتائم الذي كان ينهال عليهم من العامّة وخاصّةً من أفواه الشعب التكريتيّ

---

(١) هم أساقفة تلك المرحلة المشهورون.

(٢) ربّما هي النيازك التي تتساقط بين فترة وأخرى.

(٣) يقال إنّه كان مسيحيًا أو يهوديًا، تولّى أمر الموصل فترة.

(٤) بالتأكيد لم تكن النبوّة عنه. إلاّ أنّه هكذا ارتأى المؤلّف لقسوته.

والموصليّ والأرسيديّ[١] إذ بدأت الحملة هذه لديهم، ومن عندهم تسرّب إلى أطراف البلاد الأخرى.

وفي هذه الأثناء والزمن الصعب، لم يجد الخليفة (الملك) رجلاً لائقًا وقريبًا إليه ومنه، يرضى به وعنه إلاّ مصعب بن موسى، هذا الذي ألهب ظهور الناس بسياط الظلم والانتقام، كسيّده عبد الله بن محمّد (أبي جعفر المنصور) إذ وجده يماثل قلبه، يسير أمامه بالإثمّ كلّ الأيّام، فعيّنه واليًا على إمارة الموصل. فلمّا تولّى الحكم زأر كالأسد الجائع، يكشّر عن أنيابه ويسلخ بمخالبه -كما هو مكتوب- «إنّي رأيت إيشاي الصبيّ كقلبي». وقال: «سأطارد أعدائي فأدركهم ولن أعود حتّى أبيدهم، أضربهم ضربة لن يتمكّنوا القيام منها، وأطأهم تحت قدميّ، يصرخون ولا من مستجيب، يتضرّعون إلى الله تعالى ولا يستجيب دعاءهم، أسحقهم كالغبار أمام الريح، وكوحل الشوارع أدوسهم».

هكذا طارد موسى بن مصعب الناس وأبادهم من على وجه المسكونة، وضربهم بقوّة، فوقعوا تحت أقدامه وداسهم كالوحل في الأسواق، وجعلهم كالهباء أمام العاصفة ينهزمون من بلد إلى بلد، طالبين النجاة من الله فلم يمدّهم بالمعونة، ولم يخلّصهم من يد هذا العاتي، ولم يفكّ أسرهم، ولم يفرّج كربتهم ومحنتهم الشديدة، يبست عيونهم من الانتظار لمجيء مخلّص ينقذ بقيّتهم.

والتمس موسى الوالي من الخليفة (الملك) أن يمنحه صلاحيّة إرجاع الشعب الهارب من الموصل ويجمعه من أطراف البلاد كالذي يرغب في إصلاح الأوضاع وتحسينها. فكتب إلى كلّ الأقاليم يطلب من حكّامها العون، وأن لا يقفوا أمام مشروعه الخاصّ هذا. فأرسل إلى كلّ ثلاث مدن من مدن الجزيرة رجلاً واحدًا ومعه عساكر كثيرون. فقدم أحدهم واسمه آدم بن يزيد، وكان رجلاً شرّيرًا، قدم إلى آمد وأرزون ومَيّافرقط، وتصرّف فيها كالطاغية الذي لا يعرف الرحمة قلبه ولا نفسه تعرف الإيمان بالله.

أمّا الموصليّون الذين تركوا مدينتهم وسكنوا إقليم الجزيرة، فكانوا أغنياء جدًّا جدًّا،

---

(١) لا أدري ماذا يقصد بالشعب الأرسيديّ في الموصل. هل هم الأكراد أم آخرون. وربّما يكونون الدواسن أي اليزيديّة.

إذ كانوا يستغلّون أتعاب شعب الجزيرة كلّها ويحصلون على أرباحهم عن طريق بيعهم للسلع بالفائدة (الفائض) والربا بجشع بشع. علمًا أنّ الربّ قد قال: لا تأخذ الربا من أخيك، ولا تعطِ نقودك بالفائض. غير أنّ الموصليّين فعلوا بالعكس، وكانوا يتعاملون بالربا والسلع والأسهم، وبذلك اقتنوا الجواري والعبيد، وجمعوا الثروات الطائلة والأموال الوفيرة، وامتلكوا الأراضي والكروم، حتّى إنّهم بعد وقت قصير أصبحوا هم أصحاب الأرض كلّها وسلبوها من أيدي أصحابها السريان والنرسنبنديّين.

كان الموصليّون يجلسون في الأسواق، يأمرون وينهون، بعد أن استولوا على الكنائس، وصاروا هم الرؤساء عليها ويقومون بإدارتها. ولم يعودوا يذكرون أنّهم دخلوا الأرض غرباء مساكين لا يملكون شروى نقير، لا يعرفون تعمير الأرض بل تخريبها، خاصّة وقد خرّبوا أراضيهم بإقليمهم الذي تركوه وهربوا منه. وبهم تمّت كلمة النبيّ: لا تحسد المنافقين، ولا تغترّ بفاعلي الإثمّ. لأنّهم كالعشب ييبسون، وكالنبات يذبلون في الفجر، فبيت المنكرين يهدمه الربّ.

فلمّا جاء هذا الذي مرّ ذكره، واستولى على المدن وضبط أمورها، فرّ جميع سكّانها، حاملين معهم أولادهم وأموالهم على أكتافهم، بحالة يرثى لها، معذّبين، تائهين بين الجبال. حفاة، عراة، جائعين، عطاشًا، وقد ذبلوا كما يذبل النبات أمام العاصفة.

كنّا نراهم خائفين، يختبئون داخل المنازل كالموتى إن لم نقل كالمسجونين في قعر الظلمة، يرتجفون هلعًا، لونهم كلون الموتى في القبور، تعلو بشرتهم صفرة وشحوب. وإذ كان الفصل صيفًا، صعُب عليهم الاختفاء، وكثير من الذين هربوا، ماتوا وأولادهم من شدّة الجوع في المغائر والكهوف التي أمّوا إليها، يتنقّلون من جبل إلى جبل. والذين اختفوا في البيوت هلكوا من شدّة الحرّ والخوف والحمّى.

أمّا الناس الذين كانوا يقبلون الموصليّين عندهم، فكان خوفهم أكبر وأكثر، إذ كانت تحلّ عليه وفيه أشدّ العقوبات، فقد كان المنادي ينادي: كلّ من يخفي في داره موصليًّا، تباع جميع أمواله وتصادر إضافة إلى غرامة شديدة تفرض عليه وتؤخذ

منه، فخاف الناس من هذا النداء، وشرع كلّ من كان يأوي عنده موصليًّا، يطرده من داره خوف العقوبة والغرامة.

كما كان قد أعلن أنّ كلّ من قبض على موصليّ واحد وسلّمه للسلطات، فله مكافأة أربعون درهمًا. فلمّا سمع أبناء الظلمة والشعب القاسي هذا الإعلان، ولاسيّما الذين لا يتّقون الله من المسلمين المتصوّفين، صار عندهم تجارة رائجة وأرباح جيّدة، فكانوا يخبرون عن أيّ شخص يعلمون بمحلّ اختفائه، وإذا ما صادفوا واحدًا من الهاربين ليلاً، فكانوا يصطادونه وبدون رحمة يأتون به ويطلبون منه الأربعين درهمًا، وإلاّ مصيره المثول أمام الوالي، فيأخذون منه الغرامة – رغمًا عنه – رضي أم رفض ويطلقون سراحه، ليأخذوها منه في اليوم التالي إذا ما شاهدوه ثانية، وهكذا دواليك كان الفارّون كلعبة بين أيدي اللاعبين وبالأخير يسلمونه إلى السلطات.

ومن بعد هذا كلّه، وقع الهاربون بيد أسوأ من الأولى، حيث إنّ رجلاً محتالاً وخبيثًا نصب بنفسه فخًّا عجيبًا إذ جعل من نفسه كأنّه من الهاربين اللاجئين إلى إحدى المدن فيقف أمام دار أحدهم وينادي: أنا فلان لاجئ إليكم كالذي هو مختفٍ عندكم، فيسرع ربّ البيت ويجلسه بسرعة ويخفيه، ويبدأ هذا بالاطّلاع على معالم الدار وما فيها، ويتعارف على ساكنيه فيصبح كلّ شيء معلومًا عنده –كما هو مكتوب عن ابن الهلاك– هكذا فعل بجميع أهل المدينة، حتّى إنّه استطاع التعرّف على أولاد قسم من الموصليّين المسيحيّين الذين كانوا قد تزوّجوا من بنات تلك الكورة واختلطوا بأهليها. فقبض على رؤساء تلك المدينة، وبدأ يجلدهم بقسوة، وراحوا يقدّمون له الأموال والمقتنيات من الأغنام والبقر والماعز، وشرع من ثمّ يبيع أملاكهم ويستلم أثمانها، فبدّد ثرواتهم، حتّى صاروا كالإصبع العاري من اللحم، فاستولى عليهم الجوع والمرض، ومات كثير منهم، إذ لم يكن الخبيث يرضى منهم بالقليل، الفلس والدرهم، بل بالدينار الذهبيّ. وهذا مصّ دماءهم في حين كانوا يستطيعون فدية نفوسهم بأموالهم التي سلبها الخبيث. وفي الأخير قادهم كالماشية أمامه، وأتى بهم إلى بلدهم الموصل رغمًا عنهم.

* * * * * * * * * *

فصل عن العلامة التي ظهرت في السماء على شكل مكنسة

(سنة ١٠٨٠ي/٧٦٩م/١٥٢هـ) في شهر أيّار، ظهر في السماء من الجهة الشماليّة الشرقيّة علامة شبه المكنسة. وكانت كلّما ارتفعت بالظلمة كأنّ غبارًا تجمعه أمامها، وعند الفجر كان يظهر لها ذنب ينحدر فوق الأرض. أمّا سيرها فكان بطيئًا جدًّا، حتّى دخلت في المدار الذي للدائرة التي في السماء، فغابت وكأنّها ابتلعتها. وكان شكلها كالذي مرسوم، كأنّه المكنسة، كأنّها الكنّاس الذي يدخل البيت فيجمع أوساخه بكنسه إيّاها، هكذا هذه العلامة دلّت على كنس العالم من الشرور والآثام، فيصحّ حقًّا أن نسمّيها المكنسة. فهلكت في هذه السنة كلّ البهائم. كما كانت أيّامها شديدة وصعبة لكثرة الثلوج التي سقطت وغطّت وجه الأرض. وصارت شدّة عظيمة على الناس والحيوانات، وبادت الأغنام مع رعاتها، إذ سقط الثلج عليهم وهم في محلاّت الرعي. ثمّ هبّت ريح من الجنوب الشرقيّ ثلاثة أيّام بلياليها، مع سقوط ثلج هائل، هلك من جرّائه أناس كثيرون مع بهائم لا يحصى عددها. وكان الأشدّ قسوة وصعوبة، أنّ بعضهم أدركهم الثلج في الطرق فماتوا وهم على ظهور حميرهم.

* * * * * * * * * *

فصل عن الشعب الذي صعد من الأرض الواطئة والمدعوّ «البطل» باللغة القديمة سنة ١٠٧٨ي/٧٦٧م

سنة ١٠٧٨ي/٧٦٧م/١٥٠هـ في هذا الزمن أرسل الملك[1] (الخليفة) شعبًا من شعوب أرض فارس، وأصعده وأسكنه على حدود الرومان. والشعب هذا كان ساذجًا، أبناؤه يعيشون حياة البداوة، عراة إلاّ من وزرة يغطّون بها عورتهم. ونساؤهم وبنوهم ورجالهم وبناتهم لا يمتهنون أيّة مهنة، ولا يشتغلون بأيّ عمل. لا يعلّمون أولادهم أيّة حرفة، حتّى إنّ نساءهم لم يكنّ يعرفنَ الغزْل. إنّما كان شغلهم الشاغل قطع الطرق واللصوصيّة، يقتلون وينهبون، يسكنون الجبال الوعرة. لم يتمكّن أحد من قهرهم، لا بل تجاسروا مرّة على خزينة الملك (أمير المؤمنين). وإذ فعلوا هذه الجريمة، ثار الشعب عليهم، وأرسل الملك عسكرًا وحاصرهم، وأسرهم كلّهم قصد أن يهلكهم بحدّ السيف بعد أن شنق رؤساءهم. إلاّ أنّ أناسًا من الأتقياء أشاروا عليه بأن يرسلهم إلى الحدود أمام الأعداء، وهناك يُقتلون أو يُؤسرون بأيدي الرومان. فنفّذ الملك هذه الشورى بالسرعة الممكنة، وأرسلهم إلى بقعة في منطقة شينا مقابل قمح. وكان عددهم يقارب الثلاثمائة ألف نسمة، عدا الذين هربوا وتفرّقوا في أطراف الأرض. ولأنّ هذه المنطقة باردة، وهم يعيشون حفاة عراة، مات أكثرهم بأوّل شتاء حلّ عليهم، والذين بقوا على قيد الحياة، لم يتركوا عاداتهم وشرورهم في قطع الطرق وأعمال اللصوصيّة.

* * * * * * * * * *

(١) هو الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ /٧٥٤-٧٧٥م).

تجديد الكنيسة الكبرى في آمد

في هذا الزمن قام الآمديّون بتجديد كنيستهم الكبرى والتي بناها الملك التقيّ الفاضل هرقل. وإذ لم تجدّد منذ أيّام تشييدها آلت إلى السقوط. فسعى مار آبي أسقفها الفاضل (إيوانّيس) ومار كوركيس مدبّر أمورها، وتوما الأرخيدياقون، ومعهم كثيرون من المحسنين وجدّدوها. فأنشأوها من أساساتها المنهارة، وأقاموا عوضها كنيسة جديدة، وزيّنوها كما كانت من قبل وأجمل.

* * * * * * * * * *

تسجيل أموال الكنائس والأديرة بأمر الملك

إنّ الشيطان الذي هو عدوّ الخير، لا يهدأ دون أن يزرع الخصومات والقلق بين الكنائس والأديرة. فهو الذي جعل الفرقة بين الابن وأبيه والبنت وأمّها والكنّة على حماتها وأعداء الرجل أهل بيته.

ففي هذا الزمن صدر أمر من الملك بإلقاء القبض على رؤساء الأديرة والكنائس من أجل تسجيل أموال كنائسهم وأديرتهم مع هياكلهم (معابدهم الصغيرة) في سجلاّت الدولة ودواوينها. فهل يا ترى جرى مثل هذا الإجراء مرّة أخرى؟

إنّ الشيطان الذي انتخب له تلميذًا من ذلك الجمع النقيّ من الرسل، المسمّى يهوذا الأسير، انتخب له الآن رجلاً من عمر (أومرا) دير مار متّى القدّيس البارّ[١] بأرض الموصل واسمه زعورا[٢]. فهذا من أجل مشاجرة بينه وبين رئيس الدير[٣] -كما أنّ يهوذا أسلم سيّده للقتل - فإنّ الشيطان ألقى في قلبه ما لم يكن يفعله، ولكن بأضعاف كثيرة. إذ لم يسبّب قتل إنسان واحد بل كثيرين، ولم يهدم ديرًا واحدًا بل أديرة كثيرة، فكان كالذئب بين الخراف.

قصد الراهب زعورا ابن الملك (الخليفة) جعفر، وأخبره قائلاً: إنّ الذهب الذي لبيت هشام وبيت مروان[٤] موجود في الدير الفلانيّ. ولم يترك أمرًا من شؤون الدير إلاّ وأخبر به وقصّ عنه.

فأرسل جعفر عبيدًا قساة القلوب إلى هذا الدير وسلبوا كلّ ما وجدوه فيه، حتّى أواني الخدمة المقدّسة. وكبّلوا جميع الرهبان بالحديد، وجاءوا بهم عند جعفر، فسجنهم لأجل التحقيق، بعد أن أنزل فيهم العذابات الشديدة، مستفهمًا منهم عمّا أخبره به زعورا يهوذا الثاني. ولهذا السبب أصدر أمرًا على كلّ الأرض، ليكتب كلّ واحد أموال كنيسته وديره.

(١) هو دير مار متّى الشيخ. راجع عنه التفاصيل في كتاب البطريرك يعقوب الثالث «دفقات الطيب».

(٢) البطريرك يعقوب الثالث «دفقات الطيب».

(٣) «دفقات الطيب».

(٤) يقصد بهما البيتَين الأمويَّين وسلالتهما الذين حكموا أيّام الدولة الأمويّة (٦٦١-٧٥١م).

ظنّ الجميع أنّ هذه الأموال ستؤخذ وتصادر كما سبق وأخذت من هذا الدير لمرّات عديدة. وهذا لم يكن جديدًا عند جعفر، فقد سبقه بلطشاصّر ومدّ يده على آنية الأسرار المقدّسة[١]، وأراد أن تكون له ولجواريه. ولكنّ الله لا يهمل شعبه، بل أرسل روحًا شرّيرة على جعفر وكادت تخنقه، فأطلق الرهبان بعد أن أخذ أموالهم، وعادوا إلى ديرهم. وهكذا تركت تلك الحجّة وألغي ذلك الأمر ولم يعمل به من بعد بسبب أنّ تلك الروح الشرّيرة قتلته[٢].

* * * * * * * * * *

(١) سفر دانيال ١ : ٧ ؛ ٢ : ٢٦ ؛ ٤ : ٨ و٩ و١٨-١٩ ؛ ٥ : ٢

(٢) لم يذكر هذه الحادثة أيّ مصدر أو مرجع آخر.

خصوبة الأرض وما جرى فيها من شرور

تكلّمنا فيما سبق قليلاً عن الشدائد التي جرت في الأرض.

والآن نتكلّم بإيجاز عن قوّة الأرض وخصوبتها، وإلى أين وصلت في هذا الزمن الصعب، وخاصّة عن خصوبة أرض الجزيرة والأراضي الشماليّة المليئة بالزروع والكروم والغنى العظيم. فامتلأت بقطعان البهائم والغنم والماعز. وخزن الناس الغلاّت الكثيرة التي كان إنتاجها أضعافًا بأضعاف، حتّى من الخمر... كما ورد: «إنّ إسرائيل قد سمن، ولم يقل مبارك الذي أغنانا». ومع ذلك كلّه تجاسروا على أموال الكنائس والأديرة إذ كانوا يقولون: إلى ماذا تحتاج الكنيسة؟ أمّا نحن فنريد أن ندفع الجزية، ولدينا أولاد علينا إعالتهم - حقًّا كان لديهم أولاد كثيرون - فاغتنوا غنًى فاحشًا وكثرت الخيرات على جميعهم، فتكبّروا وتعجرفوا، وصاروا زناة فاسقين، سكّيرين خاطفين، شهود زور حسودين، يرتكبون كلّ الشرور والآثام، إذ كان بينهم ملاك الشرّ يفتح أمامهم سبل الإثمّ والخطيئة.

ولقد وصل بهم الأمر إذا ما احتاج أحدهم إلى شهود في المحكمة، بحسب طلب الحاكم، أن ينزل إلى قارعة الطريق وكلّ من يصادفه من معارفه يقول له: يا فلان أترغب في الشهادة لي أمام الحاكم؟ فيجيبه فورًا: حسب ما يقوله شرع الله، عن أيّ شيء ترغب بالشهادة؟ فيمضي معه، ودون أن يعرف القضيّة كان يُقسم بالله زورًا وبهتانًا... فماذا يستحقّ شعب كهذا غير ما حدث؟ وماذا يرجو من الربّ غير الانتقام؟

وكثيرًا ما كانت القضيّة تطول وتشتدّ صعوبتها على الرجال فيزوغون إلى الباطل. وبذلك كانوا يقيمون المحاكمات يوميًّا، فتبرز الدعاوي بين أبناء البلدة على حدود الحقول وغلاّتها وما يخصّ بها، وهم الأغبياء لا يعلمون أنّه عمّا قليل سيأتي غضب الربّ عليهم، وأنّ كرومهم وحقولهم وبيوتهم ستترك لهم خرابًا. فيئنّون ويصعّدون الحسرات، كلّ ذلك بسبب احتقارهم الإسكيم الرهبانيّ. فبدلاً من تلك التي قالها السيّد المسيح: احمل صليبك واتبعني؛ شرعوا يقتنون الخيل والبقر والثيران وقطعان الغنم والماعز، وصار لهم أسهم (شكارة)[١] عند الآخرين.

(١) اسم (شكارة) عبارة عن مشاركة في زراعة الأرض ومنتوجاتها مع آخرين، أو بمساعدتهم نقديًّا لقاء منتوج الغلّة. وقد تكون لفظة سواديّة مشتقّة من «المشاركة».

ثمّ التفتوا إلى من حولهم لينشئوا معهم أسهمًا أخرى، فصاروا كالمجوس يمتطون الخيول المطهّمة بالسروج، ويسيرون حسب رغائبهم وشهواتهم، ولم يعودوا يقدّمون الطاعة لرؤسائهم.

(فلا تظنّنَّ أيّها القارئ من أنّني أحبّ أن أشكو هؤلاء البشر الذين هم كالدخان. إلاّ أنّي أحبّ أن أبيّن نعمة الله، ورحمته وجميل أعماله، وطول أناته. وبسبب هذا، انظر واسمع إلى أيّة هوّة قد هبطنا، وأيّة شدائد أصابتنا).

* * * * * * * * * *

فصل عن تجمّع العبيد في حرّان مدينة بين النهرين

في هذا الزمن، عقد العبيد عقدًا سرّيًّا بينهم، واجتمع منهم ما يقارب خمسمائة رجل، ماديّين[(١)]، وسنديّين[(٢)]، وجزراويّين[(٣)]. وسلّحوا أنفسهم ودخلوا في منتصف النهار إلى وسط مدينة حرّان. واتّجهوا نحو دار الخزينة (بيت المال) وكلّ من كان يصادفهم يقتلونه بحدّ السيف، وغايتهم من ذلك كلّه هدم بيت المال وسلب الأموال التي فيه. فلمّا سمع عيسى (الوالي) بهذا الأمر خاف جدًّا، وجمع عسكرًا كثيرين واصطدم معهم بقتال مرير. فقتل من الطرفين عدد كبير. وأخيرًا خشي العبيد سوء العاقبة ففرّوا هاربين بعد أن سقط منهم عدد من القتلى، ووقع آخرون في الأسر، وفرّ الباقون، وقُبض على زعمائهم، فقُتل منهم، ومنهم طُرحوا في السجن.

* * * * * * * * * *

---

(١) المقصود بهم الفرس.

(٢) قد يكون المقصود بهم القادمين من السند إلى الهند.

(٣) الجزراويّون هم سكّان الجزيرة الأصليّون من السريان والعرب والروم البيزنطيّين وغيرهم.

فصل عن صعود الملك إلى الأراضي الشماليّة وبناء قلينقس سنة ٧٦٧م

سبق وتكلّمنا عن البلايا والرزايا التي تراكمت على الأرض، وما وهبته من الخيرات الوفيرة. والآن نتكلّم ونذكر أحوال الشعب المنكود الحظّ، كيف بدأت شروره ومآسيه.

مكتوب بالنبيّ القائل: إنّ الآثوريّ هو قضيب غضبي، والقضيب الذي يضربون بيدهم هو ضربتي. إنّي أرسله إلى الشعب الأقلف (غير المختون) الشعب القذر ليُنهب ويُسبى ويُسحق كالغبار الذي في الشوارع...

وقال أيضًا: إنّ كبارهم هم كالملوك، فلأجل ذلك لا يفرح الربّ بشبّانهم، ولا يرحم أيتامهم وأراملهم، لأنّهم كلّهم أشرار، وكلّ منهم يتكلّم بالسفاهة.

وكأنّه ليس القائل: يرفع جناحيه، ويفتح فمه، وينشد أمامهم... جاء إلى (عانت) ووضع حاجاته في مخمس، عبر مخاضة جعبر إلى بيت بيشان، ففزعت الرامة، وفرّت جبعة شاول. حرّك يده على جبال صهيون، وعلى روابي أورشليم.

فحسنًا قال النبيّ إذن، إذ رأى في عين النبوّة لتلك الحيّة السامّة أنّها تلتوي.

* * * * * * * * *

في هذه السنة (١٠٧٨ي/٧٦٧م) فرّ الملك[١] من عاصمة ملكه مع جميع أكابر دولته، واستقرّ في أرض الشمال ومعه عساكر لا يحصون، ودخل مدينة الموصل. فاجتمع لديه أهالي الكورة صغارًا وكبارًا، وهم ينوحون ويشكون أمامه شدّة البلايا وقسوة المخاوف، والخراب الذي أجراه موسى بن مصعب (الوالي).

أمّا هو (الخليفة) فكان مسرورًا جدًّا، لهذا طردهم من أمامه وحمّل رؤساءهم شدائد كثيرة، مبتهجًا ونشوانًا بما صنعه معهم إذ وجده كما يحبّ قلبه ويشتهي طبعه. قائلاً: إنّي قد وجدت فيه[٢] رجلاً كما يشتهي قلبي، يعمل حسب إرادتي، ويسير طبق مشيئتي، ويكمّل كلّ مقاصدي، ويسير أمامي جميع أيّام حياته بالطاعة والإكرام.

ولمّا وصل الخليفة إلى الجزيرة، وسمع بوصوله أخوه عيسى أمير الجزيرة، وإذ كان يعلم مقدار محبّته للتخريب والتدمير، أكثر من الإعمار والسلام، طلب من الشعب، وأبناء القرى خاصّة أن يتركوا قراهم ويختفوا من أمام وجهه دون خصام أو اصطدام مع قوّاته، ورضخ المساكين لأوامره دون أن يفقهوا مقاصده. وجلس كلٌ في عقر داره مسالمًا مطمئنًّا، إذ كان الوالي عيسى رجلاً هادئًا مسالمًا، شفوقًا رحومًا، كريمًا فاضلاً صاحب أخلاق رفيعة وطباع رقيقة، لاسيّما وإنّ أرض الجزيرة خصبة معطاءة، وشعبها دؤوب على العمل وحبّ الأرض، فانتعشت بأيّامه حقول المزارع والكروم فأنتجت الرخاء والرفاه.

غير أنّ الخليفة عندما دخل الكورة ورأى خصوبتها وخيراتها، خاصّة أن صادف دخوله إليها في شهر أيّار، موسم نضوج الأثمار والغلاّت، ففكّر في الإقامة بها. ولم يكافئ أخاه عيسى على ما أتى بالإقليم من رفاه وسلام، إنّما زأر كالأسد راغبًا في افتراسه. وحينما خرج إليه لاستقباله باحتفال يليق بمقامه طرده من أمامه، وألقاه كعود الحطب المرذول، وأمر أن لا يبصره أمامه ثانية، وقال: كنت أظنّ أنّ الجزيرة خربة حقيرة، وهي الآن جنّة غنّاء. وأصدر أمرًا بتنحيته عن الحكم (الولاية) وصادر كلّ أملاكه ورماه في الشقاء والعذاب جزاء أفعاله الحسنة.

---

(١) قصد به الخليفة أبا جعفر المنصور الذي لا يذكر له التاريخ هذا الهروب.

(٢) يقصد الوالي موسى بن مصعب.

ولّما انتهى الخليفة أبو جعفر من أخيه عيسى، قصد نصيبين، ومنها إلى كفرتوث[١]، ومنها سار نحو قلينقس.

* * * * * * * * * *

(١) كفرتوثا: بضمّ التاء المثنّاة من فوقها وسكون الواو وثاء مثلّثة. قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ وهي بين دارا وراس العين. ينسب إليها قوم من أهل العلم... (الحمويّ، معجم البلدان ٧: ٢٦٣).

فصل عن بناء قلينقس الثاني

بسبب أنّ هذا الرجل (موسى بن مصعب)[١] كان يميل إلى معاشرة السحرة والمنجّمين ويسعى في طلبهم، ويعمل بما يشيرون عليه، فلمّا سألهم عن الأزمنة وأحوال المملكة، جمعوا له كلّ الأساطير والخرافات الفاسدة وفسّروها كما هي العادة لدى الشياطين (الأرواح الشرّيرة) أن يضلّلوا من يتقرّب إليهم، فقالوا له: إنّ رجلاً (ملكًا) يبني مدينة على جانب قلينقس، ثمّ يذهب إلى أورشليم وهناك يبني مسجدًا، وهذا الملك يملك أربعين سنة.

فقال هذا الغبيّ: إنّ هذا هو أنا. فأرسل وجاءوا بالحدّادين والبنّائين من كلّ أنحاء الجزيرة وأمرهم أن يقطعوا اللبن ويبنوا أساسات السور لإعادة بناء المدينة.

* * * * * * * * * *

(١) قد يقصد به الخليفة أبو جعفر المنصور.

فصل عن هروب الأرمن من بيت روما يا والخراب الذي فعله المسلمون بالرومان

عندما كان الملك (الخليفة) في قلينقس، خرج الأرمن من بيت روما يا وقصدوا للعمل بالحصون الداخليّة، وطلبوا منه أن يسمح لهم بالتوجّه إلى حيث تسير بهم الطريق، غير أنّ الملك رفض ولم يرضَ أن يخرجوا من الجزيرة.

وهؤلاء الأرمن الذين كانوا قد دخلوا الكورة من كوشن[1]، لمّا أرادوا الرجوع إلى ديارهم منعهم المسلمون. فسمع بالأمر رئيس مدينة قمح وجهّز جيشًا وطاردهم حتّى أدركهم وبين أيديهم الأطفال والأموال والعيال والبهائم وقد حطّوا رحالهم في أحد المروج.

ولمّا كان الأرمن مشهورين بالحيلة منذ القديم، هرب قسمٌ منهم وأخبروا المسلمين أين هم نازلون، وكانوا غير بعيدين. وإذ كان الرومان نائمين، هجم عليهم المسلمون في الهجعة الثانية من الليل، وباغتوهم وقتلوهم بحدّ السيف، ومنهم وقعوا في الأسر وجلبوهم معهم وبأيديهم رؤوس رفاقهم القتلى وقدّموهم أمام الملك في قلينقس، وكانوا يظنّون أنّ الملك سوف يكرمهم على فعلهم هذا ويجزل لهم العطايا والهبات مع مجد النصر. إلاّ أنّه عوض ذلك قابلهم بجفاء كبير حتّى قيل إنّه أخذ أموالهم.

* * * * * * * * * *

---

(١) كوشان (كوشن) مدينة في أقصى بلاد الترك وملكها كان والمستولي عليها ملك التغزغز (معجم البلدان ٤: ٤٨٩).

فصل عن التعديل الذي أجراه الملك على الأرض

لمّا رأى الملك أنّ الأرض خصبة ومأهولة بالسكّان أراد أن يجري بعض الإصلاحات في أمور إدارتها، ليس من محبّته لشعبها ورفاهيّته،، ولكن لزيادة الخراج وزيادة المشاكل فيها. فأرسل أناسًا منبوذين محتالين وأقامهم عمّالاً، وأرسلهم إلى أطراف البلاد ليكتتبوا جميع الناس بنظام الجزية.

* * * * * * * * * *

فصل عن الصوفيّ، ومستلم الأعشار والرّزامين والختّامين والهجرة

- الصوفيّ

وكان الملك (الخليفة) قد أقام أناسًا قساة القلوب على جباية الأعشار (ضريبة العشور)، فكان القائم على جبايتها مجوسيًّا ليس في قلبه لا دين ولا رحمة. فتجوّل في جميع مدن الجزيرة، وسجّل أسواقها، ما يباع فيها من البضائع. كما سجّل الحوانيت التي فيها، وكلّ ما لم يكن مسجّلاً قبل التعديلات التي أجراها الخليفة، حتّى إنّ الرحى شرع يأخذ عنها الضريبة، علمًا أنّه قاس الأسواق بالحبل من باب المدينة إلى الباب الآخر، أي من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. كما وقاس أربعين ذراعًا من الطرفين خارج السوق، وجعل كلّ ما وقع داخل هذه المساحة، بيتًا كان أم حانوتًا تحت نير الضريبة. كما وسجّل كلّ الأماكن التي لم تكن ضمن سجلّ الخراج وبحسب التعديلات، كالحدائق والمزارع ودور الرحى، وسلّم ذلك للصوفيّ المسؤول عنها كالخليفة.

كما وسجّل السور: قطره وبروجه والمحيط الذي حوله بمسافة أربعين ذراعًا من كلّ الجهات.

وهكذا صنع في كلّ مدن الجزيرة والغرب[1] التي تجوّل فيها حتّى أرمينية. ولقد أعطى هذه الأماكن للناس بمبلغ مقطوع[2]. وبعد هذا قصد مدينة حرّان.

وهكذا انتهت عمليّة قطع الدابر والتلاعب في جمع الخراج، ولم يبق سوى الخطف والسرقة والنهب والسلب. والذي يقبض عليه مرتكبًا إحدى العمليّات ينال عقابه بمصادرة أملاكه وكلّ ما لديه من أموال. كذلك كانوا يتعاملون مع الناس العاملين بالبيع والشراء خارج السوق حيث كانوا يخرجون إلى الحقول والطرقات لرصد هذه العمليّات مع كلّ عابر سبيل فيقبضون عليه ويعاقبونه في الحال.

---

(١) لا أدري ماذا يقصد ببلاد الغرب هل هي أرضروم أم غيرها.

(٢) أي نظام الضمان أو اللزمة.

- مستلم العشور

وأقام الملك (الخليفة) عاملاً آخر على الأعشار، وهذا كان تعيينه لخراب الأرض، إذ ما دخل مدينة إلاّ ومرّ على الأسواق والحوانيت وكان يسجّل ما فيها من البضائع بضعف ثمنها. فإذا وجد مثلاً بضاعة بمائة درهم يسجّلها بمئتين، ويأخذ من كلّ مئة درهم خمس دراهم، وإذا تمكّن من صاحبها فكان يأخذ من كلّ مئة درهم عشر دراهم.

كما كان أعوانه يخرجون إلى الطرق ويسلبون العابرين فيها من الغادين والقادمين. وأشقياء المدن ولصوصها كانوا يخرجون ليلاً ويدخلون الكروم ويسحقون الأثمار التي يمرّون بها. وإذا صادف أنّ تاجرًا أو مسكينًا فقيرًا مرّ في الطريق بعد العشاء، كانوا يقبضون عليه ويهدّدونه مخيّرين إيّاه بين الغرامة والمثول بين يدي الأمير، فيسلبون ما يملكه بآن الوقت.

(يا ليت كانوا يرسلونهم عند الأمير. والناس المساكين الذين كانوا يقبضون عليهم بعد العشاء، فكانوا يسلبون ما يملكون، ويطالبونهم بالأجرة التي يأخذونها لقاء عملهم في الكروم، أو يطلبون منهم العمل لمدّة ثلاثة أو أربعة أيّام في البساتين، لقاء لا شيء. وهكذا كانوا بالكاد يعيشون بسدّ الرمق).

وإذا ما كان يزيد لهم شيء ويودعونه عند الآخرين، فكان مستلم الأعشار يصادره أو الصوفيّ المتزمّت الذي لم يكن يخفى عنه أمر. حتّى إنّ اللصوص باتوا ينتحلون صفة المسؤولين عن جمع الأعشار فيقطعون الطرق ويسلبون المارّين، وفي رابعة النهار دون خوف أوخجل، يحقّقون مآربهم بسلب الناس أموالهم.

ومن جهة أخرى كانوا يسجّلون غلاّت الناس بأضعاف مضاعفة. كان يملك أحدهم خمسين كيلة، فيسجّلونها ألف كيلة وبحسب ما يشاءون.

- الرزّامون والختّامون

وأقام الخليفة أيضًا عاملاً آخر، مسؤولاً عن الرزم والختم. فكان هذا يختم جميع الناس في رقابهم كالعبيد. وعنه قال النبيّ: من لم يحمل ختم الحيوان بين عينيه[1].

(أمّا هنا فليس فقط بين عينيه، بل على يديه وصدره وظهره أيضًا).

---

(١) سفر الرؤيا ١٣: ١٦-١٧.

فلمّا جاء هذا العامل إلى المنطقة كانت سمعته قد سبقته إلى الإقليم، فتزلزلت الأرض تحت قدميه لقسوته، وللغاية التي قدم من أجلها. فقد كان يختم الناس على أيديهم ختمًا لا يُمّحى ولا يتبدّل أو يُغيّر ما زال الإنسان على قيد الحياة.

فلمّا دخل المدن والقرى اضطرب الناس وخافوا، وهربوا جزعين بعيدًا عن ديارهم، فحجزت الحوانيت وتعطّل السوق عن البيع والشراء، وانقطعت الطرق من الداخل والخارج، وامتنع المسافرون من الدخول إلى المدينة خوف البلايا والرزايا، وكذلك امتنع الخارجون منها لمغادرتها حيث ضبطت الأبواب ولم يعد يسمح لواحد من مغادرة المدينة، وهذا ما جرى في سائر أنحاء الولاية.

وبعد مضيّ أسبوع على هذه الحالة لم يبقَ في الأسواق أيّة حركة تجاريّة، فأرسل العامل إلى صاحب الجزية الذي عُيّن مكان عيسى أن يرفع الجزية لئلاّ يقال عنه إنّه هرب، فوقع في حيرة من أمره، هل يذهب للمثول أمام الوالي أم يمتنع ولا يذهب فإنّه لن يتمكّن من جمع الجزية. فلمّا سمع بهذه الحالة، أرسل كتابًا إليه وقصده، فجرى الاطمئنان قليلاً وعادت الحالة رويدًا رويدًا إلى حالتها الطبيعيّة بسبب غيابه عنها، وشرع القادمون والمغادرون إلى المدن يتحرّكون لأعمالهم التجاريّة.

- الهجرة

وأقام الخليفة عاملاً آخر مسؤولاً عن الهجرة والإسكان والتهجير، وأوعز أن يرجع كلّ إنسان إلى دار أبيه ومسقط رأسه. وشرع هذا يرسل موظّفين إلى المدن، يجتمعون في المدينة الواحدة لدراسة الوضع والتخطيط له. وهكذا لم يعد يتجرّأ المرء على السفر والسكن كما يرغب إلاّ لغاية النهب والسلب والشرّ والإثم وأخذ الثأر. ولأجله عمّت الفوضى وصار الأخ يخون أخاه ويتجرّأ عليه بالمقابل له.

وقد أقام على ماردين[1] رجلاً فارسيًّا ليستلم أمر الهجرة والجزية بعد أن هرب

(١) ماردين: بكسر الراء والدال كأنّه جمع مارد جمع صحيح. وهي قلعة مشهورة على قمّة جبل الجزيرة مشرفة على نهر دنيسر ودارا ونصيبين. فيها أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات ودورهم فيها كالدرج كلّ دار فوق أخرى وكلّ درب منها يشرف على ما تحته من الدور ليس دون سطوحهم مانع. وعندهم عيون قليلة الماء، وجلّ شربهم من صهاريج معدّة في دورهم والذي لا شكّ فيه أنّه ليس في الأرض كلّها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم. وقد ذكرها جرير في قوله:

يا خزر تغلب إنّ اللؤم حالفكم ... ما دام في ماردين الزيت يعتصر

وقد ذكرت في الفتوح وقالوا: وفتح عياض بن غنم في طور عبدين وحصن ماردين ودارا على مثل صلح الرها. وكان فتحها وفتح سائر الجزيرة في سنة ١٩هـ وأيّام من محرم سنة ٢٠هـ في أيّام عمر بن الخطاب.

سكّانها السريان المسيحيّون، فأُعطيت للمسلمين الذين سكنوها. وكان العامل هذا اسمه خليل بن زيدان الذي حمّل المسلمين شرورًا كثيرة، إذ لم يصادَف أحد قبله ولا بعده أشدّ عداوة منه للمسلمين.

ومن أعماله الشرّيرة أنّه أرسل مأمورين من قبله (موظّفين) إلى جميع المدن والقرى في الكورة يستقصون أخبار كلّ الذين نزحوا من ماردين. وكان كلّ إنسان يُشَكُّ به أنّه هو أو والده أو جدّه بالأصل من ماردين، وكان ذلك من مدّة أربعين أو خمسين عامًا، كانوا يخرجونه من داره في قريته أو مدينته، ويأمرونه بالعودة إلى مسقط رأسه ماردين، علمًا أنّه لم يكن يقبل أيّة رشوة أو يصغي إلى أيّ طلب أو مشورة. وهكذا جمع إليها خلقًا عظيمًا حتّى إنّه لم يبقَ مكان أو بيت أو قرية ولم يمتلئ من الناس.

وأمّا المسلمون فكان ينقلهم (يرحّلهم) من بلد إلى بلد بعد أن يصادر أموالهم وما بين أيديهم من أراضٍ وبيوت ويهبها للسريان المسيحيّين. وشمل ذلك حتّى الحنطة التي زرعوها في ذلك الموسم أن صادرها وشملها بعنايته، وألقى القبض على أعيان المدينة وأغنيائها الذين أنزل فيهم العذاب وبدون رحمة. وإذ كان أحدهم يطلب رحمة أو هجرة يحلق رأسه ولحيته، ويصنع له إكليلاً من العجين، ويضعه على رأسه ويجلسه أمام الشمس في البرّيّة ويصبّ على رأسه دهنًا، فينحدر إلى عينيه ويصاب بالصداع، فيمسّه أحيانًا الجنون. ويقيّد يديه ورجليه، ويضع في عينيه جوزة من الحديد.

بهذه العذابات وأمثالها كان يتعامل معهم، فهلك منهم الكثيرون، وفرّ الباقون من بلد إلى بلد.

أمّا عن الشدائد الأخرى التي جرت ببقيّة المدن، فلندع الشيخ يوئيل أن يحدّثكم عنها بقوله: اسمعوا يا جميع سكّان الأرض. هل صار فيكم هذا بأيّامكم أم في أيّام آبائكم. حدّثوا بها أولادكم وأولاد أولادكم، يحدّثون بها أولادهم. وأولادهم يقصّون للأجيال القادمة. فإنّ ما فضل من الجراد الزحّاف، يأكله الجراد الطائر. وما يتركه الجراد الطيّار يأكله الجراد الزحّاف، وما يفضل من الزحّاف أكله الصرصر[1]. وكان المتنبّئ قد رأى شرور هذا الزمان التي حلّت على الناس، فقال قوله الذي تحقّق بالفعل. فالذي ينجو من الصوفيّ، يصادفه العشّار. والذي ينجو من العشّار يقابله مأمور الهجرة. ومن فرّ من مأمور الهجرة يلتقي به من يسلبه.

(١) سفر يوئيل ١: ١-٤.

أمّا القرويّون فكانوا مظلومين أكثر، إذ كانوا يسلبونهم بشتى الوسائل، بواسطة موظّفي الهجرة وقد ملأوا الأرض بجواسيسهم وشباكهم، للإيقاع بمنكودي الحظّ، الذين كانوا يخشون المثول أمام الخليفة. فكان عمّال الهجرة الأشرار يلقون القبض على كلّ من يشاهدونه ويسلبون ما لديه من أملاك، أو يسوقونه خارج المدينة كالبهيمة. فكان المرء لا يتخلّص من رزيّة أو نكبة إلاّ ويقع بأخرى أشدّ وأدهى.

وأمّا عن التهجير فحدّث ولا حرج، فتُسلب أموال المهجّرين ويُترك أصحابها كالإصبع الخالية لا حول لهم ولا قوّة. وكانوا لمّا يمهلون المهاجر حتّى يفرّ من بين أيديهم، يتركونه، إذ سيقع مرّة أخرى بأيديهم فيعاملونه شرًّا وأقسى من الأولى. وهكذا سرى الغضب والظلم في جميع أنحاء الجزيرة.

وفي الأخير أصدر الأمير أمرًا، لا يحصد امرؤ زروعه وغلاّته، مسلمًا كان أم مسيحيًّا، إذ كان يرغب برؤية المحاصيل بأمّ عينه بجميع أقاليم الجزيرة. وصادف أنّ تلك السنة كانت خصبة الموسم، فأنتجت الأرض غلاّت وفيرة، رآها كلّها، وجمعها كلّها.

وصنع الشرّ مع عيسى الذي أقام عمّالاً وأرسلهم إلى الديار، فإذ دخلوا محلاّت المسلين أو المسيحيّين وسجّلوا ما وجدوه من التفّاح والرمّان وأكداس الحنطة واالشعير ضعاف ما هي بالواقع، فالذي كان يملك مائة مكيال[1] يسجّلون له ثلاثمائة دون التمييز بين المسيحيّ والمسلم. وهكذا لم يشاهدوا شيئًا إلاّ وكتبوه كلاًّ بمحلّه، كأن يكون جنينة أو مزرعة أو حقلاً. وفي المدينة كانوا يطلبون النقود، لأنّهم كانوا يبيعون الغلاّت والفدادين والخمر إن وجد وبدون مقابل. فكانوا يكتبون للرجل الواحد مثلاً فدّانًا قد زرعه بكذا مكاييل. والحقيقة لم يكن قد زرعه إلاّ بخمسة مكاييل.

ولا بدّ من الإشارة هنا أنّ المسلمين كانوا أكثر من المسيحيّين يتحمّلون الشدائد والضيق. غير أنّ المسيحيّين كانوا قد فُرض عليهم الجزية بعدد الأفراد. وفي القرى كانوا يأخذون من كلّ قرية رأس غنم واحدة، يجمعونها ويرسلونها إلى القائم بالإدارة.

* * * * * * * * * * *

---

(١) المكيال يساوي أربعة أقفزة.

فصل عن المأمورين والكتبة والصرّافين ورؤساء الأقاليم والحكّام

وإذ لم يكن يفارق نصيبين[١]، أمر كلّ المأمورين والكتّاب والصرّافين ورئيس الإقليم والحاكم الذي تعيّن في أيّام عيسى أن ينزل عنده جميع المسافرين في الإقليم، حتّى لو كان في القرية الواحدة عشرون حاكمًا، فلا بدّ من أن يقصدوه مع سائر كتبهم وكتّابهم.

وهكذا قصد نَصِيبين جميع العمّال (الموظّفين) الذين اشتكوا عنده، أو قدّم الناس شكواهم عليهم فألقاهم في القيود الحديديّة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد سافر جميع الكتّاب والصرّافين وقصدوه وحلّوا في داره ضيوفًا، إلاّ أنّه تركهم يكابدون الجوع والعطش حتّى إنّهم أكلوا لحومهم. ومضى عليهم وهم يعانون من هذه الحالة التي يرثى لها زمنًا غير قصير، ولم يجرؤ أحد البحث عنهم أو استقصاء أخبارهم. علمًا أنّهم كانوا قد توجّهوا نحوه دون أوامر قسريّة أو أن يُطلب منهم ذلك.

هذا ما فعله الأثيم في الجزيرة، وفعله أيضًا في قلينقس. وكما قال أشعيا النبيّ: وضع أغراضه في مخمس، وعبر إلى بيت بيشان، خافت الرامة، وجبعة شاول فرّت هاربة[٢].

ومن قلينقس، سار إلى الغرب[٣] قاصدًا أورشليم لخوفه ممّا فعله في الجزيرة من خراب وتدمير. وكما تنبّأ دانيال على أنطيكرسطوس[٤] فبنى هيكلاً للمسجد الذي كان قد أصبح صغيرًا جدًّا، وأكمله من بعده المسلمون، وتزوّج بامرأة من خربات

---

(١) نصيبين: بالفتح ثمّ الكسر ثمّ ياء علامة الجمع الصحيح. مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام. وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان. بينها وبين سنجار تسعة فراسخ. وبين الموصل ستّة أيّام. وبين نهر دنسير يومان (عشرة فراسخ). وعليها سور كانت الروم بَنَتْه وأَتَمَّه أنو شروان الملك الفارسيّ عند فتحه إيّاها. سار عياض بن غنم إلى نصيبين فامتنعت عليه، فنازلَها حتّى فتحها على مثل صلح الرها (معجم البلدان ٨: ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) سفر أشعيا.

(٣) الصحيح توجّه نحو الغرب.

(٤) سفر دانيال.

أورشليم، وجعل يحاجج على الناس لغاية مصادرة أموالهم وأتعابهم، حتّى الأبقار التي كانت عمدة حياتهم سلبها منهم، ولم يترك واحدًا منهم إلاّ والحسرة تأكل أحشاءه، فجرى بأورشليم ما جرى في الجزيرة من خراب وتدمير إن لم نقل أبشع.

ولّما استتبّ له الأمر سافر اتّقاءً من قسوة الشتاء قاصدًا الجزيرة ثانية لتكميل مخطّطه الرهيب. وكان قبل سفره قد أقام نائبًا عنه اسمه أبو عون. وكان رجلاً فارسيًّا قاسيًا يجمع الجزية باسمه مع عمّال آخرين يهتمّون بقضايا أخرى. وهنا انتفضت الشرور من جديد كأنّها الحيوانات الوحشيّة، وكأنّهم – أي العمّال – قد وضعوا إلى جانبهم جثث ضحاياهم. فقد يصادف أن يدخل البلدة الواحدة خمسة عمّال في النهار الواحد، وأحيانًا ستّة أو سبعة، ومرارًا عديدة يصلون إلى العشرة، وكلّ منهم يسلب وينهب بحسب هواه وبمشيئته، حتّى أضحت البيوت خالية خاوية، إلاّ من الأجسام العارية. وأحيانًا كانوا يسحبون هذه الأجسام إلى الخارج ليسوموها مرّ العذاب وأقساه. وإذا ما رحل البعض منهم، حلّ غيرهم، حتّى لم يعد يكفي لهم لحمهم.

(فماذا أقول الآن إلاّ ما قاله النبيّ القائل: كالأسد كان عليهم، وكالدبّ عند الفريسة، وكالنمر بالطريق آثور. هناك يأكلهم الأسد، والوحوش تبعجهم...

وإن سمّى الإنسان هؤلاء الوحوش بأسماء فلن يهلك بسبب أنّ الإنسان أكثر من الطيور والوحوش شرًّا وشراسةً.

وأيضًا قال النبيّ: تأتي من الشرق روح الربّ، ومن البرّيّة تصعد، وتخرّب عيون مياهه، وتيبس العيون من الماء، وهو ينهب كلّ الخزائن، وكلّ مواد الشهوة، وتتخاصم مع السامرة لأنّها أغضبت إلهها.

ونبيّ آخر قال: انتبهوا أيّها السكارى وابكوا وانتحبوا يا كلّ شاربي الخمرة، على الخمر الذي خرج من أفواهكم، لأنّه صعد شعب عظيم لا يحصى أمامي، أسنانهم كأسنان الأسود، وأنيابهم كأنياب أشبال الأسد.

فانظر كيف ينعت الأنبياء هذا الشعب الشرّير بحيوان البرّيّة المتوحّش. فإنّ بستان كرمي قد جعلوه خرابًا، والتينة قد قلعوها وألقوها فيبست أغصانها. فحقًّا فقَد أصحاب الكرمة خمورهم، وشرعوا يهربون من قرية إلى أخرى، حتّى لم يكونوا يخرجون أبدًا خوفًا من السلب والنهب، حتّى إنّ العمّال (الموظّفين) كانوا

كاللصوص، فكلّ بلدة وقرية يدخلونها يعيثون فيها فسادًا، مهما اختلفت درجاتهم أو مكانتهم، سواء كان عمدة أو رئيسًا أو مدبّرًا أو وجيهًا، فهو رئيس مغارة اللصوص. وإذ كان المساكين يلتجئون إليهم أو يحتمون بهم، إنّما كانوا كالذين يحفرون قبورهم بأيديهم، تجتمع فيها كلّ الشرور والمآسي).

وهكذا تساوى حماة المدن ورؤساؤها باللصوص فيها. فالجميع يرغبون بالرشوة ويسرعون إلى الانتقام. لاْ اليتامى ولا الأرامل من يرحمهم ويعطف عليهم أمام اللّه. والأنبياء اختبروا هذا وشهدوا عليه وجسّوه بأيديهم. فلماذا العتاب على مراحم الربّ التي نضعها في الكتب سوى لترديد الأجيال من بعدنا. فالمكتوب هو: اسأل والدك وهو يخبرك، ومُرْ أولادك لِيعلّموا أولادهم عبر الأجيال القادمات...

* * * * * * * * *

فصل عن مباشرة الناس بحفر القبور وسرقتها

بسبب انتشار الشرور وكثرتها، راحت الروايات حولها تتضارب وتتناقض، والجُنُح على الجُنَح، ويدًا على يد. فكان صوت العويل يُسمع في كلّ مكان، بحيث إنّ المرء لم يعد يصدّق أنّه سينجو من هذا الضيق المرير. حتّى إنّ الموتى قصدهم الأحياء في قبورهم ليسلبوها وينهبوها. فشرع اللصوص يسرقون القبور، وأصبح ابن الهلاك واسطة للشيطان الذي يتكبّر على كلّ إله. فهو من ذات الشعب الذي أراد أن يرحم موسى قديمًا. أمّا في هذا الزمان وبسبب خطايانا فقد ظهر لنا نبتٌ شرّيرٌ، وهو موسى بن مصعب الذي لم يكن شرّه في مضايقة الناس كافّة، وإنّما للسفليّين من شعب الزناة الموجودين معه. فاشتدّ عليهم الضيق وانتشر بينهم الخراب، وهلكوا في السنة الجدباء، وباشروا يحملون أطفالهم على أكتافهم وينتقلون من قرية إلى قرية.

وفي هذه السنة أيضًا (٧٦٧م) تلقّينا أخبارًا مفزعة من البلاد البعيدة، وذلك بأنّه في الإقليم الفلاني؟ قام بعض من الناس بحفر القبور وإخراج الذهب والفضّة منها. هذا الأمر لم يُسمع به من قبل. ولم يُصدّق، إذ القضيّة مخيفة ورهيبة فيتجرّأ الإنسان أن يفعلها مع الموتى. فكانوا يُخرجون من القبور ما مع الموتى من حليّ فضّيّة وذهبيّة ونقود وما سواها. ونحن لم نصدّق في أوّل الأمر، إلاّ أنّه لم تمضِ مدّة حتّى رأيناها بعيوننا. ولمسناها بآبائنا وإخوتنا الذين توفّوا في الماضي، وقد ذكرناها هنا مجرّد إعلام وإعلان.

* * * * * * * * * * *

فصل عن القوس الذي ظهر عكسيًّا

في هذه السنة (٧٦٧م) وفي شهر أيّار، ظهرت القوس التي تظهر دائماً بعد السحب (قوس قزح)، ولكن هذه المرّة بالعكس. فقد كان جسمها (قوسها) نحو الأسفل، وطرفا رأسيها نحو الأعلى، وكأنّها قوس بيد رجل مستعدّ للقتال، تدلّ على التهديد والغضب الذي سيحلّ على العالم. وكان ظهورها في الساعة الثالثة من نهار يوم الأحد. وأكّد لنا ظهورها الشيوخ الأفاضل الذين رأوها.

(إن وجد إنسان لا يصدّق هذا، فليطالع الكتب الأولى، التي تؤكّد ظهور هكذا علامات كشهادة على حدث سيحدث).

بعد ظهور القوس، ظهرت علامة أخرى تشبه قضيبًا أبيض اللون في الجهة الغربيّة من السماء، وأخذ بالامتداد حتّى وصل رأسه المتّجه من الشرق إلى وسط السماء. سمكه كسمك الحبل. وقد تراءى لكثيرين حيث بقي أيّامًا كثيرة يظهر، وكثير من الناس قالوا عنه تأويلات كثيرة. منهم قال: إنّه قضيب الغضب. وآخرون إنّه قطعة غيم، أو واحد من النجوم التي تصعد (تظهر) قبل أوانها. وأمّا الناس التقاة فلمّا رأوا العلامة خافوا خوفًا عظيمًا، واعتبروها دلالة على الخطايا المستوجبة للغضب. أمّا الجهّال فلم يهتمّوا بذلك أبدًا. فالحكماء ينظرون إلى المستقبل، والجهلاء لا يبصرون أمام عيونهم. الحكيم عيناه في رأسه نور، والجاهل يسير في الظلمة.

كان هذا القضيب يمتدّ نحو منتصف القوس الممدودة أمامه. غير أنّ ظهوره لم يطل كثيرًا، سوى أنّه أخبر عمّا يحدث بما يرسله الله من غضب وانتقام. وإذا تجاسر أحدهم وقال إنّ الله ليس لديه القوس والنشّاب، فالأمر يقول مع المزمور: إنّ الله ينتصب ويلقي عليهم نباله بهدوء فتتوجّع ألسنتهم ويحلّون... وقال أيضًا: أرسل نبله وفرّقهم فتفرّق الناس في كلّ مكان.

خربت الأرض، وأُخليت القرى، وتشتّت القوم من بلد إلى بلد...

* * * * * * * * * *

فصل عن العلامة الثانية التي ظهرت في الجهة الشماليّة

في السنة نفسها (٧٦٧م) ظهرت علامة أخرى في الجهة الشماليّة من المشرق حتّى المغرب. وكان شكلها يدلّ على شدّة غضب اللّه. إذ كانت كخطوط أربعة ملوّنة، أحمر وأخضر وأسود وأصفر. ظهرت من الأسفل، وشرعت ترتفع نحو الأعلى. وكلّما اختفى أحد الخطوط ظهر الآخر، والناظر إليها يرى كأنّ ألوانها تتغيّر على سبعين لونًا. فجعلها المؤمنون علامة تهديد ووعيد بغضب شديد. وقالوا فيها الكثير من التأويلات، فقال بعضهم إنّها تدلّ على الدم. وآخرون بدلائل أخرى. وأنا أقول إنّها علامات اللّه في السماء وأعاجيبه على الأرض.

* * * * * * * * * * *

فصل عن الجزية والسجن في الكنيسة

- الجزية:

كلّ إنسان ملزم بدفع الجزية، ومَن لا يتمكّن من دفعها، يُلقي المأمور القبض عليه ويُلزمه بالدفع. وإذا ما كان عددهم كثيرًا، كان يوزّع عليهم الجزية بالتساوي، أو كلّ بما يتمكّن، لأنّ العمّال الذين عيّنهم عيسى لم يستقيلوا، بل زادوا شرًّا فوق شرّهم، وظلمًا فوق نطاق الحدود الواجبة. فكان الناس كالحملان بين الذئاب. نهبوا المساكين واليتامى والأرامل، ولم يتحنّنوا عليهم. وكان هذا التصرّف وهذا الإجراء من أنفسهم وليس بأوامر الملك (الخليفة). وعلى حدّ قول المثل: «طعام الأسد هو «الحصين» في البراري، والأغنياء طعامهم المساكين»... فساد الظلم على الأرض. ولم يعلم الأغنياء أنّهم بعد قليل يهلكون... بالغضب الآتي... فأسرع الأغنياء واشتروا حاجيّات الناس المساكين الذين يعيشون بينهم، وقد أقاموا في بيوتهم. وهكذا جرى للأغنياء بحسب شهواتهم، ومن ثمّ شرعوا يقرضون أموالهم بالفائدة الفائض دون رحمة بل بما هم يشاؤون، متجاهلين نهاية المنافقين إلى الهلاك... فقد كانوا يقرضون الدينار بالدينار، أو بخمسين مكيال من الحنطة أو ستّين أو سبعين... كما كانوا يدوّنون سندات بحسب رغباتهم.

أمّا الخمرة فقد أقرضوها الخمسين كيلة بدينار، أو الستّين، أو السبعين وأحيانًا الثمانين. وكانت الحنطة تباع في السوق الثلاثين مكيالاً أو الخمسة والثلاثين بدينار واحد، ووصلت إلى الأربعين. وبيع رأس الغنم الواحد بدرهم، ورأس المعزى أيضًا بدينار واحد. أمّا الثور فبخمس دراهم والحمار بأربع دراهم.

وإذ كانت الأعمال راكدة والبطالة منتشرة، وأمير البلاد كان رجلاً يكره الظلم والإثم، لم يأخذ من أحد هديّة أو مكافأة، ولم يرسل شرطيًّا واحدًا إلى الإقليم لمتابعة الجباية. أمّا المأمور، فجمع أبناء الإقليم وسجنهم في الكنيسة الكبرى.

- السجن في الكنيسة

لمّا نادى المنادي للاجتماع في الكنيسة، وخرج الشرطيّ ليسعر النار، وكان كلّ

من له اسم في سجلّ الديون قد حجز هو الآخر بالسجن، عمّت الفوضى وساد الخوف. وهنا يحقّ أن نردّد كلام النبيّ القائل: أللّهمّ لقد دخلت الشعوب إلى إرثك، ونجّسوا هيكلك المقدّس، وجعلوه موضعًا للنجاسة. سلّموا أجساد عبيدك للضرب، وجسوم صدّيقيك تهرّت وتناثرت لحومهم تحت الأسواط والعصيّ، وأرجلهم انحلّت من ثقل السلاسل، وأيديهم مبسوطة ليلاً ونهارًا نحو الأعلى، وأصابعهم في النار...

اجتمع أبناء الأحرار والنساء اللواتي رجالهنّ غائبون عنهنّ وقد سحبوهنّ من بيوتهنّ إلى الأسواق، وجاءوا بهنّ جرًّا إلى السجن في الكنيسة، أولئك النساء اللواتي لم يبصرن السوق في حياتهنّ، فأهينت كرامتهنّ بين الرجال. وهكذا فعلوا بالنساء المسلمات والرجال المسلمين، كالمسيحيّين. وفعلوا ذلك بجميع القرى قرية، قرية. وبهذا كملت الشرور بإلقاء القبض على كلّ إنسان من أجل الفدية، والذي لم يكن يملك نقودًا كان يُرغَم ليستدينها بالربا أو يُجلَد بالضرب بالسلاسل التي كانت تُقيَّد بها أرجلهم وأيديهم.

أمّا الأثيم (المأمور) فقد جعل له مقامًا رفيعًا كالعرش أمام المائدة الإلهيّة (المذبح أو الطرونس) وجلس عليه متعجرفًا، والشعب الفاسد فقد بلغت بهم الجسارة والصلافة أن يصعدوا على المائدة المقدّسة ويدوسوها بأرجلهم النجسة. وراحوا يغتسلون في المذبح ويرتكبون النجاسات، بنجاسات أجسادهم الدنسة رجالاً ونساءً. كما أنّ الرجال والنساء يزيلون الضرورة أمام بعضهم البعض ويلقونها في الوسط دون خجل أو حياء، وبقوا على هذه الحال ثلاثة أيّام بلياليها.

فعوض العطر الطيّب، صعدت الرائحة الكريهة من الجيف التي بقيت، وبسبب الضيق الشديد الذي أصابهم تجاسروا على أموال الكنائس والأديرة، البعيدة والقريبة، وهكذا ارتكبوا أفعال الحقارة والامتعاض. وأصبحت الكنائس مع الكاتدرائيّة الكبرى خيمًا للمجوس تفوح منها الروائح الكريهة. فصحّ قول النبيّ: من بيتي سأخرج، لأنّ الكهنة نجّسوا مذبحي وأبطلوا الشريعة. فلماذا أنتم لي، إنّ كثرة ذبائحكم قد شبعتُ منها، وأيضًا كثرة الذكور المذبوحة مع شحم الثيران المعلوفة والحملان والجداء لا أريدها. كما لا أريد أن تنظروا إلى وجهي. لم أطلب منكم هذا. فلا تدوسوا دياري، ولا تُكثروا المجيء إليّ بالقرابين الباطلة، فإنّ رائحتها كريهة

عندي ومرذولة برؤوس الأشهر والسبوت. إنّ نفسي كرهت رأس شهوركم وأعيادكم وصارت عندي ثقيلة. تعبت من الأخذ. عندما تمدّون أياديكم، إنّي أحوّل نظري عنكم. وإن أكثرتم الصلوات فلن أسمعها لأنّ أياديكم مملوءة دمًا.

وإذ كان النبيّ يرى جميع الشرور والخطايا بعين الروح قال: من الآن لم يبقَ إذن قيمة لكلامي يقول الربّ. فإنّي قلت، وأفعل معهم كلّ الشدائد، ألقي الضيق على كلّ إنسان بما يستحقّ.

هكذا إذن، خاف المسلمون والمسيحيّون، التجّار وأصحاب الحوانيت في السوق وخارجه من غضب الربّ، لأجل الرجاسات التي ارتكبوها في وسط الهيكل المقدّس. فلبسوا ثياب الحزن الشديد وصرخوا إلى الربّ قائلين: لماذا نسيتنا يا ألله، وازداد غضبك على غنمك، فاذكر يا ربّ كنيستك التي فديتها بدم ابنك الثمين، وخلّصها بآلام ابنك المحيية، فتكسر أعداءك وسط كنيستك، كغابة الخشب التي تكسر أبوابها وأخشابها بالفؤوس... نجّسنا بالأرض مسكنك... فلا تهلكنا كالذين نجّسوا الأرض وقلت: إنّنا نهلكهم كلّهم مرّة واحدة... فإلى متى يا ألله يهزأ بنا العدوّ الذي يبغض اسمك إلى الأبد؟ لماذا رفعت يمينك عن كنيستك؟ لماذا يا ربّ اشتدّ غضبك على شعبك، ورذلت ميراثك، وسلّمتنا بيد الشعوب، وتسلّط علينا عدوّنا، واستعْبَدنا الذين يبغضوننا، وقد صرنا كالعبيد بين أيديهم. والربّ قال هذا عن هؤلاء، من حيث إنّني نجّيتكم مرارًا كثيرة وأنتم أبغضتموني بأعمالكم...

ولمّا تضايق الجميع، وجُمعت أموالهم، حتّى الذين أقرضوا الدينار الواحد، لم يرحموا بعضهم بعضًا، إنّما راحوا يطالبون المدينين لهم بالربا القاسي البشع، فجمعها والي الإقليم القاسي القلب ورحل باتّجاه دير للمؤمنين في نصيبين بعد عودته من الغرب، وهذا ما حلّ بجميع كنائس الكورة، لاسيّما كنيسة الرها التي كان نصيبها من النهب وسلب الأموال أكثر من غيرها. فنقول مع النبيّ القائل: في كلّ هذه، لماذا غضب الربّ منّا، والآن يده مرفوعة.

* * * * * * * * * *

فصل عن أحد المضلّلين بمدينة نصيبين سنة ١٠٨١ي/٧٧٠م/١٥٣هـ

مقدّمة[١]:

من الواجب علينا أن نحكي للذين يأتون بعدنا، وهم بدورهم يخبرون الأجيال القادمة، ليكونوا حذرين، فالجاهل لا بدّ أن يُضرب، والعاقل يؤدّب، إذ يكفي كلّ يوم شرّه. وقد أوصى السيّد المسيح تلاميذه قائلاً: كونوا على حذر من الأنبياء الكذبة، الذين يأتون إليكم بثياب الحملان، فإنّهم يضلّون كثيرين. وإن أمكنهم حتّى المنتَخبين أيضًا. واعلموا لئلاّ يضلّكم أحد، إذ إنّ كثيرين يأتون باسمي، فإن قال واحد لكم إنّ المسيح هو هنا أو هناك فلا تذهبوا لأنّهم مستعدّون ليضلّوا الكثيرين. وإن قالوا لكم إنّه في البرّيّة، فلا تخرجوا، وإن قالوا إنّه في البيت الفلانيّ فلا تدخلوا[٢].

فلمّا كان السيّد المسيح قد أخبرنا بكلّ هذه العثرات، وكذلك الأنبياء سبقوا فأخبرونا، والرسل أيضًا نادوا بآذاننا كالبوق عن مجيء المضلّ والأنبياء الكذبة الذين يأتون قدّامه، ونحن لم نسمع الأنبياء ولا سيّدنا يسوع المسيح، ولم نُطِع الرسل لأنّنا أغمضنا عيوننا وأغلقنا آذاننا، وألقينا قلوبنا في هوّة الضلالة، كي لا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا ونفهم في قلوبنا الكتاب المقدّس. فقد نسينا كلّ ذلك وسرنا حسب إرادتنا وأهوائنا، ومال كلّ واحد منّا إلى طريق كما أشار دانيال النبيّ، إنّ الخراب آتٍ بالمسيح الدجّال، ورسله أبناء الهلاك وقد رأينا ذلك بعيوننا ولمسناه بأيدينا.

فهذا هو أنطيكرسطوس الآتي في آخر الزمان والمكتوب عنه إنّه يأتي، وها قد ظهر لنا واحد من رسل الدجّال. وكلّ ما هو مزمع أن يفعله الدجّال في مجيئه شاهدناه بما فعل تلميذه هذا. ومنذ الآن تكون كلّ الأماكن مخيفة ومرعبة، يُقتل فيها الإنسان كالبهيمة. وإنّ المؤمنين سيجعلون لهم علامة حتّى إذا ما جاء يرى العلامة في قلوبهم، وهي تجعلهم بحذر وحيطة، وهي التي تخبرهم بالذين ظهروا منذ القديم.

---

(١) لقد رأينا من الأفضل اختصار هذه المقدّمة.

(٢) إنجيل متّى ٢٤: ٤ – ٨.

ونحن أيضًا في هذا الزمان، علينا أن نضع علامة الإيمان نصب أعيننا، فإن صادف لنا عملاء الدجّال لنكن على حذر من هذا الشرّير لأنّه مزج مرارته بالعسل.

أحد المضلّلين:

حدث في زماننا هذا، أنّ رجلاً من تكريت[١]، من قرية بيث رِمّا[٢]. إذ كان شابًّا يكرم والديه بحسب الوصيّة. أحبّ الحياة الرهبانيّة النقيّة، فقصد دير مار متّى بأرض الموصل[٣]. ومكث فيه سنتين أو ثلاثًا. ثمّ أغراه الشيطان فترك الدير وعاد إلى حياته الأولى، ولكن بعكس ما كان يحياها أوّلاً في محبّة الفقراء والمساكين والغرباء والمتضايقين والمكتئبين... دحرجه الشيطان مثل يهوذا الإسخريوطيّ، وعوض وعوده المغرية له، مدّ له حبل المشنقة.

فهذا لمّا عاد إلى بيته، تغيّرت أخلاقه الرهبانيّة، ومحبّته للناس، فعاشر فتيانًا من سنّه واتّصف بصفاتهم الذميمة. وراح يصرف أمواله التي ورثها عن والديه في المنكرات. وعاش عيشة التبذير والأخلاق البشعة، حتّى مال إلى المجوسيّة واعتنقها له دينًا. وإذ كان يعيش بالبذخ بدّد أمواله كلّها، فلم يبقَ له شيء سوى الحبل الذي على حقويه. ففكّر في نفسه وقال: الويل لي، ماذا فعلت بنفسي.

خرج من بلدته (بيث رِمّا) وهام على وجهه في بريّة سنجار[٤]. ودخل عند ناسك

---

(١) تكريت مركز محافظة صلاح الدين في العراق. وهي مدينة على شاطئ دجلة الأيمن شماليّ سامرّاء. سكنها في الجاهليّة بنو أياد النصارى وغيرهم من القبائل المسيحيّة. كانت مركزًا أسقفيًّا كبيرًا (مفريانيّة السريان الأرثوذكس) يديره مفريان ويشرف على اثنتي عشرة أبرشيّة. فيها آثار كنائس قديمة منها الكنيسة الخضراء. فيها ولد صلاح الدين الأيّوبيّ. انظر عنها كتبًا كثيرة منها كتابنا «تكريت حاضرة الكنيسة السريانيّة» المطبوع في بيروت عام ١٩٩٤.

(٢) في المعجم، بارمّا: بكسر الراء وتشديد الميم. جبل بين تكريت والموصل، وهو الذي يعرف بجبل حمرين. وجبل بارمّا تشقّه دجلة عند السنّ. والسنّ في شرقيّ دجلة، فيجري بحافّتي الماء منه عيون للقار والنفط. وجبل بارمّا يمتدّ على وسط الجزيرة ممّا يلي المغرب والمشرق. وبارمّا أيضًا قرية في شرق دجلة الموصل وإليها نسب السنّ فيقال سنّ بارمّا (معجم البلدان ٢: ٣٣).

(٣) دير الشيخ مار متّى، في أعالي جبل مقلوب شرقيّ الموصل، أسّس في القرن الرابع الميلاديّ. اشتهر بعدد رهبانه. كرسيّ أسقفيّ للسريان الأرثوذكس. فيه قبر القدّيس مار متّى والمفريان ابن العبريّ (+١٢٨٦) ويضمّ مكتبة سريانيّة جليلة.

(٤) جبل سنجار، كتلة صخريّة ضخمة شمال غربيّ العراق بالقرب من الحدود السوريّة يشرف على مدينة سنجار . ارتفاعه ١٢٠٠م وهي مركز قضاء في محافظة نينوى يقطنها عدد كبير من اليزيديّة والعرب والمسلمين والمسيحيّين.

فاضل اسمه (زعورا) وإذ قبله هذا عنده، كلّفه بأعمال شديدة قاسية. وفرض هو على نفسه الصوم والصلاة (التأمّل) العميقين. واستمرّ على هذه الحال خمس سنوات حتّى ذاب جسمه وأصبح كأحد الهنود، شاحب الوجه، ضعيف الهيكل. فتبدّلت صورته وسحنته من شدّة حرارة الشمس والإرهاق. غير أنّ الشيطان لم يتركه، وهو في هذه الحالة من العبادة والتقشّف والتأمّل.

فشرع يتراءى له المجرِّب الشرّير بصورة الملائكة يحمدون أعماله ويحدّثونه عن أعمال المستقبل. وإذ سمع القدّيس زعورا ذلك قال له: يا بُنيّ، كن حذرًا من حيلة المضِلّ المجرِّب، حيث إنّ هؤلاء جميعهم شياطين.

وكان زعورا هذا فاضلاً ورئيسًا للحبساء في تلك البرّيّة. ويوصي هذا الراهب كلّ يومٍ بأن لا يعتمد على ما يتراءى له من رؤًى، بل يبتعد عنها ويرذلها لأنّهم شياطين ليس إلاّ... غير أنّه على العكس لم يَثبت في نذوره، بل أعطى نفسه للشيطان، وجذب أناسًا كثيرين معه، بدعوى أنّ فلانًا كذا هو... وفلانًا كذا فعل... واليوم سيأتي أناس إليّ من المكان الفلانيّ، وهكذا راح يتنبّأ. وهذه علامة يميّزها الحكماء بأنّها ليست عسيرة على الشياطين الذين يغرون أيّ إنسان ويجرفونه في الأفعال التي يرسمونها له. ويُظهر ابن الهلاك سرّه لمريده ليفعل كذا، فيفعل مظهرًا سرّه لابن مشورته بأن لا يخبر بالأمر الذي لا يحدث بمشورته ولهذا يدعى (أخلقرصا)(١) وهو كاشف الأسرار وكأنّه ليس خارجًا عن الطريق السويّ.

وهكذا زاغ هذا الغبيّ وضلّ، وخرج خارج دائرة المعتاد بسبب الرؤئ والأحلام وإغواءات الشيطان وإغراءاته، وضلّ وراءه شعب كثير. فما كان من مار زعورا لمّا سمع بهذه الأمور وأنّه غير مطيع للقوانين والأوامر، بل شرع يذمّ مار زعورا ورهبانه قائلاً لهم: إنّكم حسدًا تحسدونني... إلاّ أن قبض عليه زعورا وضربه وطرده من إقليمه وحرّم عليه الإقامة في الموصل ونواحيها أيضًا.

وأمّا الراهب الضالّ، فقصد الجزيرة بأرض دارا، إلى قرية كبيرة يسكنها شعب كثير العدد، فلاّحون نشيطون بسطاء أكثر ممّن حولهم من الناس، ومؤمنون أكثر من جميع سكّان الإقليم، إضافة إلى ذلك يحترمون الكهنة ويجلّونهم، ويشبّهون الرهبان

---

(١) أخلقرصا: لفظة سريانيّة.

بالملائكة، ذوي نيّات حسنة سليمة، بعيدون عن كلّ خداع وحيلة، يعتنون بالفضيلة كأيّ شعب متمسّك بالإيمان والتعاليم المقدّسة.

إلى مثل هذا الشعب الصالح أوصل الشيطان خادمه الراهب المضِلّ. فلمّا دخل إلى هذه البلدة وشاهدوه بالثياب الرثّة والجسم الشاحب النحيل، قد اسودّ من لفحة حرارة الشمس، قبلوه كالملاك. وراح يعظهم قائلاً لهم: إنّني مرسَل إليكم من عند الله، وإنّ قريتكم ستنقلب وتغور في بطن الأرض، وتبقى الأرض فوقها، ولن تسكن إلى الأبد إن لم يتوبوا ويطيعوا أوامره... فصدّقوه لنقاوة قلوبهم، كما كانوا يطيعونه لسذاجتهم. واسم القرية هذه حنّي في كورة طور عبدين.

كان الراهب الضالّ يكرز يوميًّا قائلاً: توبوا، صوموا، وصلّوا، قبل أن تفتح الأرض فاها وتبتلعكم، فقد طفح الكيل من خطاياكم، وزاد إثمكم أكثر من سادوم[1] وعامورة، ولم يبقَ سوى النقمة والدينونة بدون رحمة.

وكان الشعب الطيّب والنقيّ يسمع ويرى الكلام المعسول مخلوطًا بالسمّ من حيث إنّه لحلاوته لم يشعر بالسمّ القاتل. وإذ لم يكن يسمع لتعاليم سيّدنا يسوع المسيح، والأنبياء والرسل، والأساقفة رغم الصوم والصلاة التي كان يمارسها، لم يعلموا أنّ ذلك من عمل الشيطان، بل الأغرب أنّ بعض المؤمنين راحوا يتكلّمون عنه بأقاويل شتّى. فكان الجواب يأتيهم ماذا أتى من الضلال؟ إنّه يدعو للصلاح والفضيلة، وكلامه كلّه يدور حول الصوم والصلاة، ولذا لم يُصغوا لأقوال الصالحين من الناس، فسقطوا بالضلالة ومعهم جمع كثير.

لبس أتباعه المسوح وراحوا يذرفون دموع التوبة، تاركين أعمالهم وزروعهم وكرومهم، مكتفين بالدعاء والتضرّع فقط. وراحوا يخبرون عنه أنّه يجترح العجائب والمعجزات كالتي كان السيّد المسيح يجترحها. وخرج رسله يدعون له ويعطون له الطوبى ويمدحونه بمعسول الكلام.

فانتشر خبره في جميع أرض الجزيرة وكلّ الكورة، شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا. فتزاحم الناس حوله كلّ يستفسر عن آخرته بعد أن يقدّم له هداياه. قافلة تأتي وأخرى

(١) عامورة: قديمًا مدينة على البحر الميت، أمطرها الله بغضبه النار والكبريت مع مدينة سادوم (التوراة، سفر التكوين).

ترجع من كلّ الجهات، وعندما كانت القوافل تتلاقى في مفترقات الطرق، كان أفراد القافلة القادمة تسأل أفراد القافلة الراجعة: كيف وجدتم الرجل؟ فيجيبون: ما سمعنا بمثله في العالم، ولم يقم أحد بأعماله. وكانوا يكشفون جسومهم لينظروا ما فعله معهم، قائلين: هذا كان مقعدًا وشُفي، وهذا كانت يده يابسة، وها هي ذي سليمة، وذلك أجرب (أبرص) وآخر أعمى، وها أنتم ترونهم دون عاهة أو مرض. انظروا عيوننا مفتوحة وأيادينا ممدودة وأرجلنا مشافاة، فلا تسألونا، إنّما اذهبوا عنده وآمنوا وصدّقوا. وكلّ ما تسألونه تنالون منه. وبهذا الأمل كانوا يحثّون الخطى. يقصدونه بكلّ إيمان.

وهؤلاء أيضًا عندما يعودون، كانوا يخبرون القوافل الآتية بالشهادة التامّة: إنّنا قد رأينا بأعيننا. يخرج الشياطين ويفتح عيون العميان، والصمّ يسمعون، ويشفى المقعدون فيمشون.

وآخرون كانوا يقولون: رأيناه يقيم الموتى، ويجترح أمامنا جميع العجائب. فيصدّق القرويّون البسطاء ما يسمعونه من هؤلاء القادمين من عنده، فيهرعون إليه على ظهور الحمير والبغال والخيول. حتّى صار الشعب الذي حوله لا يُعدّ ولا يُحصى.

أمّا الذين كانوا يظهرون جسومهم والآيات التي جرت عليها، فلم يكونوا بشرًا بل أبالسة تطوّعوا لخدمته واشتهار اسمه وترسيخ ضلاله، ولذا كانوا يتراءون للناس قائلين لهم: إنّنا ملائكة وأسرى صلوات السيّد ماروثا. وبهذا الاسم كانوا يدعونه «ماروثا» ونحن تحت إمرته، فإذا سمح لنا لأتينا للبشر الجنون والجراد. ولآخرين كانوا يقولون عندما يتراءون لهم: إنّنا إذا يسمح لنا لأتينا بالحيّات الطيّارة على الأرض، ولا نترك أحدًا من الناس إلاّ ونال أذًى... ومثل هذه الأقاويل كانت تُسمع في جميع بلاد الجزيرة، وتُردّد في كلّ الكورة من هؤلاء الأبالسة العصاة.

ومنذ ذلك الحين لم يبقَ لا قاطع طريق ولا لصّ محترف، إلاّ وذهب إلى هناك حيث الضلالة. فاختلطت الأمور على المؤمنين بمجيء ابن الهلاك هذا، وشيوع أعماله بواسطة خدّامه الذين كانوا يتجوّلون في جهات الأرض، ويتقوّلون عليه بالمدح والثناء، مُظهرين الآيات التي اجترحها فيهم، قائلين: هذا الأعمى، وهذا الأبرص، وهذا المُقعد هو الذي شفاهم. كما كانوا يبرزون للناس كأنّهم موتى وعميان ومقعدون يقدّمونهم إليه. فيأمر المقعد فيمشي، وكأنّ الأمر حقيقة. الإنسان المقعد راح يمشي، والأعمى يبصر، وهم كالأغبياء لا يُدركون بعقولهم ماذا يجري بالحقيقة. فتركوا

الكتب المقدّسة وساروا وراءه. وبالحقيقة لم يكونوا سوى شياطين مسخّرين لخدمته.

أمّا الإنسان البشريّ الحقيقيّ فلم يقترب منه واحد وشفاه، إذ لم تكن العمليّة سوى ضربة الشيطان. حيث كان الشيطان يتراءى كأنّه مريض فيشفى. أمّا الإنسان الحقّ فيقول له: أنت لا تشفى حيث ليس لك إيمان.

(نحن قد رأينا هذه. فكلّ إنسان رأيناه وكان قد قصده ورجع، عندما كان يسأله أحدهم: هل قد نلت الشفاء؟ يجيب: إنّي مشافى، لكنّي لم أستفد منه شيئًا).

كما كان المضلّ يقول لمراجعيه من الناس الحقيقيّين: إذا آمنت. فبعد أربعين يومًا تشفى. فكانوا يقيمون معه أربعين يومًا، فإذا ماثلوا إلى الشفاء يطلق سبيلهم ويأمرهم بالعودة. ولهذا أسرع إليه أبناء البلاد وتزاحموا حوله، وقد حملوا إليه الأواني الفضّيّة والحلى الذهبيّة، فيوزّع الصدقات ويطيل بالأدعية والصلوات. يذرّ التراب على الناس إرضاءً لله. أو يقف على البِيْم العالي كالأسقف -علمًا أنّه لم يكن له من الدرجات إلاّ الدرجة الشمّاسيّة.

وكما هو مذكور في قوانين الرسل القدّيسين. إنّ الكاهن لا يتبرّك إلاّ من الكاهن والأسقف . وأيضًا لاتقبل البركات إلاّ من هؤلاء. وهذا المتجاسر ليس فقط يبارك الكهنة بيده، إنّما بالصليب حيث كان يرفعه بيده فوق رأس الكاهن. كما كان يصلّي بالمسحة أيضًا، حيث كثير من الكهنة اجتمعوا عنده ونالوا منه المسحة والصلاة. ومن ثمّ كان يتفل عليهم بعد تلاوة الصلوات، وكان يعتبر التفل هذا غاية الكمال.

وإذا صادف أنّ راهبًا أو أسقفًا مرّ بالكورة. فلا يستطيع أن يتفوّه على المضلّ هذا بأيّة كلمة خوفًا من سكّان البلدة، لئلاّ يقتلوه قائلين: إنّكم تحسدوننا به.

امّا القديس مار قوريا أسقف ذلك الإقليم. فإذ رأى أنّ رعيّته قد تبدّدت ونهبها الشيطان رغم سعيه في إرشادهم، كان الراهب الضالّ مستعدًّا للقضاء عليه، أو بالأحرى أن يثير رعيّته عليه، والتي بالفعل شرعت تهدّده. فخاف وهرب إلى عند البطريرك داويد وأخبره بكلّ ما حدث. فما كان من الطاهر داويد بعدما سمع هذه الأخبار. إلاّ أن ألقى القبض عليه وسجنه في سجن حرّان. وفي هذا أيضًا لم يترك ضلالته. إنّما كانوا يقصدونه وهو في السجن، ويمسحهم بالمسحة. ويعطي لهم تفلته ذلك النجس الضالّ والمضلّ.

(قد تركنا أمورًا كثيرة لم نذكرها هنا. لننتقل إلى أخرى نراها أهمّ. لاسيّما عن سنوات الضيق والشدائد على الأرض).

السنة الأولى من الضيق الذي حدث عام ١٠٨٤ي/٧٧٣م

١ – الكتبة والصرّافون والعمّال.

لمّا عاد الملك (الخليفة)[١] من أرض أورشليم (القدس)، قبض على عيسى (والي الجزيرة) وأقام عوضًا عنه موسى بن مصعب الذي ذكرناه سابقًا. وحاسب العمّال والكتبة والصيارفة الذين كانوا بأيّام عيسى، وانحدر هو (الخليفة) إلى بغداد. أمّا موسى هذا القاسي، فلمّا استلم زمام الأمور، جمع كلّ العمّال والكتبة والصيارفة – كما أشرنا سابقًا – الذين كانوا على أيّام عيسى، لكنّه لم يرسلهم إلى الموصل، بل سجنهم في بلد[٢]، بعد أن غلّهم بالحديد. وقبل أن يحاسبهم، شاء بالتحقيق لكي يعلم مقدار ما جمعوه من الناس، فجعل له عيونًا من الأشقياء القساة، الذين لا يذكرون الله في قلوبهم، حيث انتخبهم ابن الهلاك مثله يفتّشون عن الأسرار كالشيطان. وهكذا راح هذا الشرّير يستقصي الأخبار عن كلّ واحد في مدينته، الكاتب والعامل والصيرفيّ، ماذا كان يملك، وكيف كانت حالته الماليّة في البيت والبلدة قبل وبعد عمله في الدولة، هل ربح ذلك من ميراثه أم من عمله. فلمّا اطّلع على كلّ الأمور والأسرار، ألقى عيونه أو مخبريه في الفاقة أو الضائقة عوضًا عن المكافأة؛ ولئلاّ يفشوا أخباره، سجنهم جميعًا مدّة خمسة أو ستّة أشهر.

وهكذا اطّلع هذا المنافق على تصرّفاتهم جميعًا عن طريق هؤلاء المخبرين الذين انتخبهم من مدنهم الخاصّة، حتّى لا يُتّهم شخص من بلد من قِبَل شخص من بلد آخر، إنّما كلّ ببلده من بلده.

كما كان يفرض على المشتكي ذهبًا أو فضّة، يدفعها له بعدد أو كمّية كبيرة تتجاوز الأربعة عشر أو الخمسة عشر أو العشرين والثلاثين وأربعين وحتّى تصل إلى الألفين. وهكذا أكمل قساوته ونقمته، إضافة إلى العذاب الذي كان يسومهم إيّاه واحدًا فواحدًا بالضرب على الأرجل (الفلقة)، أو الجلد على الظهور، حتّى يدفع ما فرضه عليه من المال، وإلاّ يبقى مكبّلاً بالحديد. وإذا ما أطاع الأمر ودفع الغرامة،

(١) المقصود به الخليفة أبو جعفر المنصور.

(٢) المقصود بها بلدة «أسكي موصل» التي تقع شماليّ الموصل على دجلة في ناحية زمّار.

أطلق سراحه من السجن وأرسله إلى مدينته يرافقه الجنود الذين كفلوه كي يقبضوا منه ما فرضه عليه من الغرامة ويأتوا به إليه.

بعد هذا اتّصل بمأموري المال ليكتبوا له ماذا في دفاترهم من الأموال لكي يتحقّق من وجودها في خزائنهم.

ولّما رأى فاعل الإثم أنّ مكانته عظمت عند الملك (الخليفة) وزاد في إكرامه كثيرًا، وأنّ الخليفة نفسه كان يفرح بالتخريب أكثر من التعمير، زأر كالأسد حين يتربّص للفريسة وبدأ يعامل أهل الأرض كما عامل فرعون بني إسرائيل في مصر. فأمر أوّلاً المعدِّلين أن يعدّلوا أقاليمهم، فصنعوا بما أمر ولكن بالقسوة التي تعلّموها منه. ولكيما لا تُتّهم أوامره بالريبة، أطلق على تعديلاته اسمًا جديدًا، وشرع يجبي الضرائب بموجب التعديل الجديد. وإذ كان تعديله الجديد ناقصًا، كانت الضرائب تُجبى على النظام القديم. كما أنّ عمّال الجباية اتّبعوا الرشوة، وقبول الهدايا دون خوف أو خجل. وهكذا جرى نظام التعديل الضرائبيّ على أسس القسوة والسرقة.

٢ - الرزّامون وأصحاب الختم

إضافة إلى الكتبة والصيارفة والعمّال، أرسل إلى الأقاليم من أسماهم بالرزّامين وحملة الختم، وجعلهم على الطرق الداخليّة والخارجيّة على منافذ المدن والقرى، للتفتيش عن الباعة الجوّالين والثابتين. فكانوا مثلاً يأمرون كلّ من وجدوا اسمه واسم بلده أو مدينته بخلاف موقعه، برزم أمواله (أي حملها) ومغادرته من حيث أتى أي إلى مسقط رأسه. ولهذا لم يكترث هؤلاء بالأوامر سوى بإشباع أطماعهم، إذ كانوا بمجرّد تلبية رغباتهم، يختمون الأوامر بالختم اللازم، بعد إضافة كمّيّة من المال على استحقاقاتهم المشروعة. وبهذا قبض على رؤساء جميع البلدان، وأصدر أمرًا مفاده: لا يدخل أحد، ولا يغادر مدينته أو قريته، إلاّ بعد أن يختم أمواله ويسجّلها في سجلاّت الدولة، كلٌّ بحسب إقليمه.

كذلك كان كلّ من يدخل مدينة يختم على ذراعه الأيمن اسم مدينته، وعلى ذراعه الأيسر اسم إقليم الجزيرة. وتختم رقبته بختمين، الواحد يحمل اسم مدينته، والثاني اسم بلده. وكان يؤخذ من كلّ رجل ثلاثة دراهم. ثمّ يكتب اسم الرجل وشكله ولونه ومن أيّة قرية هو أو اسم بلده. ولقد أرعب هذا العمل الناس وأفزعهم

حيث قبض على أناس غرباء كثيرين، سجّلوا باسم المكان الذي وجدوا فيه. وصادف أنّ أناسًا لم يدخلوا المدينة أو القرية، إنّما شوهدوا في الطرق المؤدّية إليها فنسبوا إليها.

وهذه عمليّة التسجيل كانت الشرّ الأخير في جبهة الأشرار الذين أساؤوا على الأرض والعالم. وإذ رأى ابن الهلاك أنّ في قوسه سهمًا أخيرًا، خرج إلى الإقليم مفتّشًا ومتجوّلاً أكثر من عشرين مرّة، حتّى ختم جميع الناس. وصحّ فيه قول النبيّ، ويوحنّا الرسول: وأخذ جميع الناس ختمه على أيديهم وصدورهم وظهورهم[1].

٣ – العشّارون

أرسل الظالم عمّالاً (موظّفين) آخرين وأقامهم على العشور. وهؤلاء الموظّفون الجدد، زعزعوا الأرض بدخولهم المدن، إذ قصدوا الحوانيت وكبسوا ما فيها من البضائع. فإذا كان لصاحب الحانوت مالٌ بمائة درهم، كتبوا خمسمائة، وإذا كان بألف، كتبوا بخمسة آلاف. ثمّ دخلوا على دور المسلمين والمسيحيّين على حدٍّ سواء، وختموا كلّ ما في العنابير من الحنطة والشعير وما إليها، دون النظر إليها أو التدقيق بكمّيّتها. إنّما كانوا يكتفون بما يتكهّنون. كذا آلاف على فلان، وكذا آلاف على فلان. وهكذا دون حسيب أو رقيب. كما كانوا يأخذون من كلّ عشرة مكاييل مكيالاً واحدًا، وتسلّم الكمّيّة في بغداد...

وهكذا أتى الخراب على الأرض بسبب هؤلاء الأشرار أدلّاء الإثم.

أمّا موسى الوالي الشرّير، فكان يرسل عملاءه يستقصي الأخبار عن كلّ مدينة وقرية وما يملكه الناس من أموال منقولة وغير منقولة، وكثيرًا ما كان الناس يرشونهم لِيغضّوا النظر عنهم. وإذ كان العشّارون ينهبون ما بأيدي السكّان، والمخبرون من جهة أخرى يحاولون أخذ حصّتهم، كان السكّان يخسرون الخسائر الباهظة، فينفضون أيديهم من غلّاتهم. إضافة إلى ما كان يسلبه المخبرون الآخرون على مفترقات الطرق إذ كانوا يكمنون الكمائن للنهب والسلب كاللصوص، وبذا انقطعت الطرق وغاب المسافرون ذهابًا وإيابًا، حتّى قصد الأهالي موسى وناحوا أمامه، فأوصى بأن لا يقبض على أحد خارج السوق. وبهذا تمكّنوا من التخفيف من الشرور.

---

(١) سفر الرؤيا ١٣: ١٤–١٧.

٤ - قضيّة الصوفيّ

كلّ فرع يرجع إلى أصله، وكلّ نبات يثمر بشبيهه والشجرة تُعرف من ثمرتها. فإن كان المرء سيّئًا يكون الآتي منه أسوأ بسبب الأصل السيّئ القاسي. ومكتوب أنّ الجذر الشرّير ينبت ثمارًا شرّيرة. هكذا اللعين لا يشبع إلى الأبد، وإن اقتنى جميع أموال العالم. وإنّه يشتهي أن يكون له حتّى الذي لا يراه، فهو كالهلاك أو الموت والقبر لا يشبع. فهذا هو ابن الهلاك، ابن الشيول لا يشبع من كلّ الناس وأموالهم وأراضيهم ومقتناهم، وإن كانوا يعملون لديه وله. وعليه مدّ قسوته إلى مفترقات الطرق والجبال والمياه الجارية في الأنهر، وحتّى الأموات المدفونون منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، كان يُخرج عظامهم من أماكنها ويذريّها على وجه الأرض كالغبار. فالويل لك يا شيول كيف لا تشبعين من الجثث التي تتراكم في داخلك ويوميًّا، حتّى الأولاد الذين ولدتهم لم يشبعوا إلاّ بالموت الذي سدّ أفواههم القاسية.

كلّ هذه المقدّمة كتبها المؤلّف تمهيدًا للدخول في الموضوع، موضوع الصوفيّ الذي شبّهه بمأموري الضرائب، فيقول: إذ كان مأمور الضرائب (الصوفيّ) يأتي إلى كشف السوق والطرق، كان أتباعه يسلبون كلّ عابر سبيل، فلزموا الأنهر ومنعوا العابرين فيها، كما ومنعوا صيد السمك منها إلاّ بعد دفع الضريبة الواجبة.

أمّا السوق فكانوا يقيسونه بالحبل من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ولكلّ جهة أربعين ذراعًا بالضبط. وضبطوا الحوانيت والدور، وكلّ حانوت لم يجدوه مسجّلاً في السجلّ القديم يصادرونه وكذلك البيوت، حتّى اضطرّ سكّانها أن يتركوها، وإلاّ فرضوا عليه الحصار إلى حين تركها. وهكذا زادت الشرور فوق ما كانت سائدة.

كذلك سور المدينة خضع للقياس واحتساب الأبراج ومحيطه، من أجل تكميل قساوتهم ورغبتهم في الطمع. فأرسلوا المنادي لينادي، أنّ كلّ من يرغب بتأجير حانوت أو برج فليذهب لدى مأمور الضرائب للاتّفاق معه.

ومع كلّ هذه، فإنّ سيّدهم لم يشبع ولم تكمل رغبته، إنّما وجد أنّ النقص في الخزينة ما زال كثيرًا ولا بدّ من تسديده، ولذا التزم أماكن البيع، ثمّ مدّ يده والتزم العمارات السكنيّة. إضافة إلى هذا كلّه، فرض ضريبة على صيد الأسماك، حيث

كان الكثيرون يعيشون من صيد السمك، ويدفعون ضريبة الجزية من أثمانها، إضافة إلى دفع غائلة الضيق عنهم. فأمر المنادي بالمناداة: إنّ كلّ من يصيد سمكة من النهر يدفع عنها ضريبة، هذا أوّلاً، وثانيًا كلّ صيّاد عليه أن يصنع له ما يشبه البركة على ضفّة النهر خارجة عنه كثلمة يصطاد في حدودها. وبهذا حدّد أماكن الصيد، عدا ما يأمر به المأمور من الأماكن وإلاّ استحقّ الموت. وهكذا امتنع الناس عن صيد السمك، وإذا حدث وشاهد المخبرون شخصًا يصطاد سمكة أو ألقى شبكته في النهر، فكانوا يضربونه حتّى الموت، ويأخذون ما اصطاده. وفي الحالة العاديّة، كانوا يأخذون نصف ما يصيده الصيّاد.

ولّما امتنع الصيّادون عن الصيد، قصده الناس (أي العامل الصوفيّ)، وهم يبكون ويتوسّلون إليه بالسماح لهم بالاصطياد. فوافق على شرط أن يعطوا له المبلغ المفروض عليهم، إذ كان قد فرض على سكّان القرى الواقعة على ضفّة النهر ضريبة خاصّة، وهذا ما فعلوه في جميع المناطق الواقعة على ضفاف الأنهار. وكان يعيّن لهم المسافات الخاصّة بهم للصيد لقاء مبلغ معيّن من المال. كما كانوا يقبضون على الزوارق التي تعبر الأنهار، ويأخذون نصف ما فيها من الحمولة، أو نصف الأجرة. وهكذا شمل الضيق جميع الناس في كلّ الأطراف، فمن نجا من العشر يصادفه جابي الضرائب، أو يصادفهما كليهما فيقبضان عليه في ساحة واحدة مع الذين ألقي القبض عليهم ليُحشَروا في سجن واحد. ولهذا شرع السكّان يهاجرون من أماكنهم إلى أخرى بعيدة خارج دائرة سيطرة هذا الصوفيّ اللعين.

٥ – مأمورو الهجرة

إنّ عروق الدفلة أنتجت أكثر من غيرها، وكان من ثمراتها السمّ الزعاف القاتل. فقد أقيم إلى جانب الوالي عامل آخر على الجزيرة كلّها، يشرف على حركة الإسكان والتهجير.

فما إن استلم الأمر، حتّى راح يحقّق رغبته في نشر الشرّ، فانتخب له أعوانًا أشرارًا، هؤلاء الذين يصحّ نعتهم بالوحوش البرّيّة والطيور الجارحة الكاسرة. أرسلهم إلى المدن والقرى كالذئاب بين الحملان بطريقة الضمان والالتزام، إذ فرض عليهم

مقدارًا من المال يدفعونه له حال تعيينهم على كورة ما، وهم يجبون من المدينة مقدار ما يشاءون أضعافًا بأضعاف، لا رقيب ولا حسيب.

فكان هؤلاء الجباة يدخلون المدينة الواحدة في اليوم الواحد أو الأسبوع الواحد عشرة عمّال أو عشر مرّات، الواحد مسؤول عن جمع ضريبة الهجرة، والآخر ضريبة الإسكان، والثالث ضريبة العشر، والرابع ضريبة الجزية، والخامس ضريبة الصيد... إلخ. هكذا كانوا يخرجون على الناس كالوحوش الضارية يسلبون أموالهم دون رحمة، بحجّة وأخرى، حتّى لو اضطرّ المرء إلى بيع ملابسه، فهم لا يمتنعون إلاّ أن يقبضوا، مع حساب عسير. وكثير من الناس قبعوا في عقر دورهم لا يغادرونها كالمساجين خوفًا من العمّال الظالمين. لا بل والأدهى من هذا كلّه قسمٌ منهم ماتوا جوعًا من شدّة البرد وقساوة الجلد بالسياط كيما يدفعوا ما يترتّب عليهم من الضرائب الجائرة، والمصاريف الباهظة التي كانوا يحمّلونها لهؤلاء المساكين.

فكان المرء إذا ما دخل قرية، أو عمارة، أو برجًا، يلتقي بأربعة أو خمسة من العمّال الجباة. وإذا هرب من قريته مثلاً لينجو من الضريبة، وقصد قرية أخرى، فإنّه لا ينفكّ أن يلتقي بالجباة في الطريق أو باللصوص الذين كانوا يسلبون في رابعة النهار، ولا يحتاجون إلى ظلام الليل. وإذا اتّفق ونجا من الجباة واللصوص، فإنّه يقع في مصيدة أبناء القرية التي يقصدها. وهكذا على حدّ قول موسى النبيّ: إنّ النار أصابت غضبي فتحترق الشيول السفلى، وتأكل الأرض خيراتها، وتحرق أساسات الجبال، سأجمع عليهم الشرور، وحيوان البرّيّة يطاردهم مع الحيّات السامّة، التي تحفر الأرض من الخارج يهلكون... كذلك الفيلسوف الحكيم يقول: إنّي لم أر إنسانًا بصورة إنسان، إنّما بصورة الحيوان والطير[1]... وأيضًا يضيف النبيّ ويقول: سمّ الحيّات وُجد فيهم، والأكثر هو سمّ عدم الرحمة في قلوبهم. وكالنار أيضًا لا رحمة لديهم، إنّهم كالذئاب عندما يسقطون في الحفرة يفزعون.

هكذا هؤلاء العمّال، كالكلاب المسعورة في القرى يتجوّلون لأنّ صاحبهم أطلق لهم اليد لارتكاب كلّ الشرور والآثام. ولم يستطيعوا مواجهة الحقّ لأنّهم لم يتمكّنوا من الكلام بالحقّ، فقد زاغوا عن طريق الحقّ.

* * * * * * * * * *

(١) لم نصل إلى معرفة هذا الفيلسوف وأظنّه أرسطو.

فصل عن الشرور التي أصابت المسلمين

لأنّه لم ينجُ واحد من الغضب الذي جرى في ذلك الزمان، بسبب خطايانا الكثيرة...

الذئب الخاطف كلّ إدارته مملوءة غضبًا. وكذلك جميع خطواته وسلوكه. فقد عيّن عامل آخر بإقليم الجزيرة يشرف على الأعمال من حقوق وواجبات وتقسيم الأموال على الشيوخ والملالي[١]. وكان هذا نوعًا من التعديل الذي جرى على الضرائب المفروضة على المسيحيّين. فشرع المسؤول يسجّل جميع المقتنيات والغلاّت وكلّ ما يملكون من أموال منقولة وغير منقولة، كالحدائق والبساتين أو مزارع القطن. وكذلك مقتنيات سكّان القرى والأرياف من الماشية والدواجن والغلاّت. ولمّا كان هذا الإجراء جديدًا، ولم يرد تشريعه في شريعة المسلمين، ولم يتّخذ الخلفاء السابقون مثله، كانت العمليّة مذمومة بأعينهم. ولذا لم يهتمّوا بها وبسنّتها.

ولمّا أنهى كلّ شيء في سجلاّت الحسابات، جعل للفدّان الواحد أربعة وعشرين درهمًا. كما جعل للعشر الذي يستحصله من الغنم والماعز والثيران وغيرها، قيمة نقديّة كما شاء هواه. وأيضًا جعل للحنطة والشعير حتّى الحمام والنحل والدجاج، فلم يترك شيئًا إلاّ وسجّله. وإذ وجد لشخص (شكارة) مزروعة لدى أقربائه في القرية حنطة أو شعيرًا أو كرومًا سجّلها باسم خاصّته من المسلمين ومن أموال بيت المال، وفرضوا عليها ضريبة مقطوعة.

بعد هذا كلّه قدم إلى المنطقة موظّفون من مدينة الكوفة (عاقولا)[٢] والبصرة.

---

(١) جمع مَلاّ أو مُلاّ وهو رجل الدين الذي يقوم بأمور الجامع أو المسجد. وقد تكون كلمة سريانيّة من «ماليل. مَمْلو» أي المعلّم أو المتحدّث.

(٢) الكوفة مدينة في العراق على ساعد الفرات غربا مصّرها سعد بن أبي وقّاص بعد معركة القادسيّة قرب الحيرة. اتّخذها عليّ بن أبي طالب مقرًّا له وفيها قتل. جعلها العباسيّون عاصمة (٧٤٩) وتقلّص نفوذها بعد تأسيس بغداد. أنجبت علماء ومحدثين ونحويّين كانت مع البصرة مركزًا للثقافة العربيّة. وكلمة (الكوفة) سريانيّة تعني الشوكة.

وكانوا شرًّا من فرخ الحيّة الرقطاء حاقدين، غير رحومين، لايعرفون مخافة اللّه، من الشيخ لا يخجلون، والأرامل لا يرحمون، وأموال اليتامى ينهبون.

ولّما قدم هؤلاء الموظّفون لاستيفاء الرسوم والضرائب، نشبت الفتن وسرى النزاع بين الناس وبينهم، حتّى كانوا يعاملونهم بالضرب والجلد، يشدّون بأيديهم الحبال ويجرّونهم بالأزقّة ومن بينهم سراة القوم ووجهاؤهم، وكاد بعضهم يفارق الحياة. ولشدّة الأيّام راح بعض المسلمين يبيعون أموالهم كلّها ليسدّدوا ما عليهم من الطلب إذ كانوا يأخذون من العشرة واحدًا. علمًا أنّهم كانوا يلتمسون منهم أن يستوفوا ما تأمر به الشريعة التي وضعها نبيّهم محمّد والخلفاء السابقون الذين كانوا يستوفون من كلّ سلعة نوعها، أي من الحنطة حنطة، ومن الماشية ماشية... وهكذا. فلم يوافقوا قائلين: اذهبوا وبيعوا ما لديكم حسب رغبتكم وأعطونا طلبنا ذهبًا. فحقًّا هكذا انتقم منهم اللعين على حدّ قول المثل: إنّ الساحر يقدر على الساحر، وأيضًا، الترياق ينفع الترياق ضدّ سموم الحيّات.

ولّما كان المسلمون يخلدون كدودة الخشب بين القرويّين الأغبياء، فسلبوا منهم أراضيهم وبيوتهم ومزارعهم مع مقتنياتهم، حتّى أولادهم لو شاءوا، علمًا أنّ هؤلاء القرويّين كانوا يعملون عندهم كالعبيد.

ومع هذا كلّه لم يستطيعوا أن يقاوموا الحيّة الملتوية موسى بن مصعب، فجميع حيلهم باءت بالفشل، بل كانوا تحت مقارع الجَلْد القاسي من الجباة المسلمين الذين أذاقوا القرويّين الأمرّين، بعد أن اقتسموا مناصفة كلّ ما يملكون. وضايقوهم أكثر حينما جعلوا الضريبة للفدّان الواحد أربعة وعشرين درهمًا، ولكلّ ثلاثين ثورًا عجلاً، وجعلوا ثمن العجل أربعة وعشرين درهمًا. وعن الأربعين ثورًا بقرة، وجعلوا قيمة البقرة أربعة وعشرين درهمًا وإن لم تكن بالسوق تساوي أربعة دراهم. وسلّة النحل جعلوها بدرهم واحد.

وهكذا استفحلت شرورهم وشملت جميع نواحي الحياة بعد أن فرضوا عليها الرسوم الظالمة والمعاملة الخالية من الرحمة. فلم يكونوا يخجلون من الشيوخ والنبلاء والوجهاء الذين قصد قسم منهم الوالي موسى بن مصعب، وناحوا وبكوا أمامه بعد أن قدّموا شكواهم على أولئك الجباة. فأعطى لهم اثني عشر ألف درهم من ماله الخاصّ. ومكتوب أنّ الشرّير لا يحسن وإن صادف واستقام فإنّه يبقى ضالاً. حيث

نراه يعود ويطالبهم بالاثني عشر ألف درهم، لأنّ المرّ لا يصبح حلوًا، ولا الحسك يعطي ثمرًا.

(يا إخوتي، لا أحد يعاتب الكاتب إذا ما اختصر الكلام عن جميع البلايا والرزايا التي كثرت علينا. فلو صار البشر أوراقًا والأخشاب أقلامًا، والخمر كلّه صار مدادًا لتدوين جميع الشرور والمظالم التي حلّت في الأرض لا تكفي ولا ينتهي الحديث عنها.

والآن ننتقل إلى أخبار أخرى، ونترك المجال للذين يأتون بعدنا).

* * * * * * * * * * *

فصل عن الآية التي ظهرت ثانية في الجهة الشماليّة

خاطب اللّه الأنبياء بالأمثال التي كان يضربها لأبناء هذا العالم القاسي. وأخيرًا تكلّم بواسطة أبناء الحبيب مع جميع بني آدم.

والآن بيننا أبناء الأشرار لا يعبأون بالأنبياء وأقوالهم ووعودهم، ولا بما وعد المخلّص كنيسته، ولا بكرازة الرسل، فإنّهم قساة القلوب، يغمضون عيونهم ويسدّون آذانهم كي لا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم الكلمات الخلاصيّة، فنتوب عن شرورنا ونحيا. فتظهر لنا علامات السماء كنذير لانتقام الربّ من الشعب القاسي القلب والغليظ الرقبة، فكانت كشهادة لكثرة الشرور التي نقترفها، وعن الغضب المعدّ لنا والآتي من العدالة الإلهيّة.

فإنّ العلامة التي ظهرت قبل سنة في الجهة الشماليّة عادت وظهرت في هذه السنة (٧٧٣م) يوم الجمعة بشهر حزيران، وقد ظهرت ثلاث سنوات متتالية في نفس اليوم (الجمعة) وكانت فترة ظهورها نفس الفترة السابقة، وأيضًا من المشرق الى المغرب، وكان الناظر إليها يراها مختلفة الألوان، تتغيّر ألوانها بين آونة وأخرى. فإذا اختفى اللون الأحمر، ظهر الأخضر، وإذا غاب الأخضر ظهر الأصفر وإذا غاب الأصفر ظهر الأسود، وهذه كلّها تشير إلى الشرور الكثيرة والمختلفة التي ارتكبها أبناء الأرض، فليست واحدة، ولا صادرة عن واحد، إنّما المعاصي كثيرة ومتعدّدة.

* * * * * * * * * *

فصل عمّا صادف من الضيق في السنة الأولى

يا شعبي ادخل إلى مخبئك وأغلق أبوابك بوجهك ووجه أولادك، وارتح قليلا حتّى يمرّ غضبي... وقال النبيّ أيضًا: لاتخف يا شعبي من آشور الذي ضربك بقضيبه لأنّه بعد زمن قليل سيزول غضبي... ونبيّ آخر قال: إذ كان في هذا الزمان يرى بعين النبوّة وبالفناء الشرّير الذي وقع في الشعب وفي الكهنة والهيكل المقدّس. وأنّ الفرح قد زال من الناس، صرخ وقال: أيّها الكهنة البسوا المسوح وانتحبوا وابكوا أيّها الشمامسة خدّام مذبحي، ادخلوا وناموا في المسوح يا خدّام إلهي، حيث قد منع من بيت إلهكم الدقيق والسميذ. قدّسوا الصوم، اجمعوا جموعكم، اجتمعوا أيّها الشيوخ ويا جميع سكّان الأرض إلى بيت إلهكم، اصرخوا إلى الربّ وقولوا: آه، يا له من يوم، فإنّ يوم الربّ قد اقترب، وإنّ السبي آتٍ من عند الله، وقد مرّ أمام أعيننا من بيت الربّ، الفرح والانشراح، فإنّ الفرح والسرور قد زالا من الناس وبطلت الآحاد والأعياد. ومنع القربان من على المذبح، فإنّ أعيادنا صارت حزنًا، وفرحنا انقلب إلى عويل، وسرورنا صار ضيقًا وكآبة، وبذلك اليوم هتف أشعيا النبيّ: احتقر الربّ الرئيسات بنات صهيون، وشوّه أشكالهن... وفي هذا اليوم نفسه أزال الربّ مجد بنات الكنيسة المقدّسة، ومجد بنات الأحرار بثيابهنّ وملابسهنّ وجدائلهنّ، وذهب شعرهن وأصداغهنّ وزينة وجوههنّ ومراودهنّ، وفصوص العقيق بأسوارهنّ وجميع أدوات زينتهنّ وثيابهنّ الكتّانيّة والأرجوانيّة والحريريّة، وكلّ ثيابهنّ البرفيريّة والقرمزيّة، وكلّ الزينة التي يتزيّن بها صارت لهنّ... رائحة الخلّ عوض رائحة الطيب، وعوض محازمهنّ تمنطقن بالإزر، وعوض المرجان الجروح، وعوض البرفير لبسن المسوح المرقّعة، وهنّ يتجوّلن وبنوهنّ على رقابهنّ من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار وهنّ بشدّة الجوع والفاقة، عراة حفاة...

والآن لنسرد ما حدث في هذا الزمان...

١ - قدوم عامل جمع الجزية

نادى المنادي بالناس، أن اطمئنّوا واسكنوا بهدوء وسلام ولا تجزعوا لأنّني جئت لأقوم بتعديل جديد أجمع الجزية بموجبه، فلن أجمع كما جرى سابقًا كلّ إقليم بمفرده، أو كلّ قرية لوحدها، ولا عن كلّ رجل، إنّما الكلّ سواسية. وإذ صدّقوا أقواله، ركنوا إلى أحاديثه ومكثوا في ديارهم صابرين. فقد كانت كلماته الأولى حلوة كالعسل غير أنّها مملوءة بالأحزان.

فلمّا باشر بجمع الجزية، خرج كلّ واحد ليستقرّ في محلّه، وأرسل إليهم عمّالاً كثيرين، فجعل لكلّ قرية اثنين أو ثلاثة من الحكّام، وهؤلاء جعلوا لكلّ عشرة رجال رئيسًا، ورؤساء الأقاليم جعلوا لكلّ إقليم اثنين من المساعدين. هؤلاء الحكّام والرؤساء والمساعدون خرجوا بهيئة الذئاب الخاطفة إلى قطعان الغنم الآمنة. خرجوا كالبروق الناريّة، وملأوا الطرق المؤدّية إلى القرى حتّى أصبح في كلّ قرية عشرة من المعقّبين (المسؤولين) أو العشّارين يجمعون كما يشاءون ويفرضون الضريبة على أكياس الغلاّت وليس من يحاسبهم. فنهبوا الأرامل واليتامى، وثمّنوهم وباعوهم وصنعوا شرورًا كثيرة مع الفقراء والمساكين الساكنين بينهم. وكانوا يجمعون ضرائبهم بشكل حصص، فالأوّل يأخذ الثلث، ليأتي الثاني ليأخذ الثلث الثاني، وهكذا. كما كانوا يعاملونهم بقسوة ضارية ريثما يكملون ما كانوا قد ضمنوه. كما كانوا يقطعون لهم أسهمًا في الأقاليم كأنّما الضريبة الأولى لا تكفي لهم. وكثيرًا ما كان العمّال والرؤساء والحكّام يسرقون أموال الأقاليم والمدن والقرى...

٢ - العامل الثاني

إنّ هذا الرجل كان محتالاً وغشّاشًا، وقاسيًا وخبيثًا، رفيق اللصوص، دأبه كسب المال بأيّة وسيلة كانت، دون خجل أو حياء، سرًّا أو علنًا. كان يسلب أموال الناس المغلوبين والمقهورين. فإذا جاءه متخاصمان للشرع بينهما فإنّه كان يأخذ المال الذي بيد السارق مثلاً ويطلقهما. ومع هذا كلّه كان حلو اللسان، يقطر من حديثه الشهد، إلاّ أن عواقبه وخيمة تقطر مرارة الحزن والألم.

وهذا العامل (الجديد) انتخب له مساعدين لا يعرفون تقوى الله، وجعلهم أدلاّء له ومرشدين، وأرسلهم إلى البلاد كالذئاب الجائعة، وفرض عليهم أن يجبوا أولاً ضريبة سمّاها «إشعال النار» . وعندما كان هؤلاء المساعدون يأتون إلى رؤساء الأقاليم والعمّال الذين في المدن والقرى، يقبضون عليهم طمعًا بالمبلغ الذي جمعوه وهو بحوزتهم. فيفتقون الأكياس ويأخذون منها مقدار ما يشاءون قائلين: إنّ هذا للأمير، لمصرف الديوان. كما كانوا يجلدون الشيوخ والنبلاء والوجهاء والأشراف بدون رحمة، فكنت تسمع أصوات النحيب والعويل من كلّ جانب. وكان يشجّع عمّاله هؤلاء للمضيّ في قسوتهم وشدّتهم لأنّه كان شريكًا لهم. فكان يخرجهم من أماكنهم إلى الأبواب الخارجيّة ويفرض عليهم الجزية ثلاثة أضعاف أو أربعة. واحتال على شعب الله بكافّة الشرور وبكلّ قسوة، حتّى إنّ رؤساء المدينة كانوا يعطون له مطلقين اليد بسبب كونه يعدهم بأمانٍ كثيرة، وعلى هذا المنوال يجمع الجزية لنفسه وليس لبيت المال.

فكثرت الشرور وانتشرت على الأرض حتّى صاروا يستوفون أقساط الضرائب القديمة وإن كان صاحبها ميتًا وقد مضى على دفنه عشرون سنة، ويأخذون الجزية عنه أضعافًا بأضعاف دون رادع وبحجج متباينة لا تعدّ ولا تحصى، كانوا يستنبطونها لإشباع رغباتهم.

إنّ فاعل الشرور هذا لم يكن يجمع الثلث الأوّل كما أوصاه سيّده، ولا الثاني، إنّما وضع هذا المحتال كتاب الانتهاء أي (البقايا) لجميع أبناء الكورة من مسلمين ومسيحيّين، ولم يكن يدري بالكتاب هذا إلاّ القليلون من أتباعه شركاؤه في كسب الأموال وقد كتب فيه: إنّنا قبلنا برضائنا الكامل مائة وعشرين ألفًا، والجباة لا ينبغي أن يتوجّهوا نحونا ولا أيّ شخص آخر إلاّ بعد انتهاء العمليّة. وكتب في الكتاب أسماءهم ومقدار البقايا التي بذمّة كلّ رؤساء البلاد. وأرسله إلى أصل الشرور كلّها موسى بن مصعب، وأنا أظنّ أنّه منه صدر كلّ هذا الشرّ لأنّ جميع عمّاله كانوا هكذا يفعلون.

وقد ورد بالكتاب أيضًا، أمر بنزول كلّ الرؤساء الذين هم تحت سلطة موسى بن مصعب، فجمعهم كلّهم وأرسلهم عنده مع الذين قصدوه من المدينة وكان وعدهم

بالكثير إن هم مدحوه لدى ابن مصعب. وأعطى لهم من ماله الخاصّ مصاريف الطريق، ولكنّ هذه لم تخف على سكّان البلد. وبهذه الحيلة أثار بينهم الخصومة، إذ راحوا يتخاصمون عنه طول الطريق بين مريد محبّ، ومبغضٍ حسود يريد نقله. وهكذا انقسم الناس إلى فريقين، أبناء المدينة يحبّونه، وأبناء الإقليم عامّة يرغبون بآخر. وبالأخير رجحت كفّة أبناء الإقليم على أبناء المدينة، فضوعفت الجزية على أبناء المدينة. وكلّ ذلك من جرّاء الكتاب اللعين الذي وضعه ابن مصعب بمثابة كتاب الصلح والمعاهدة. فأقسموا أن لا يطيعوه، وأتوا لهم بغيره، وعقد الصلح معهم بمبلغ سبعين ألف درهم، ثمّ رجع...

٣ - العامل الثالث

وهذا هو الذي أكمل ثالوث الغضب. فقد كان شرًّا من سابقيه، لكونه ينحدر من الجذر الفاسد ومنه يستمدّ القوّة والوعيد، وإن كان أحيانًا أحسن من الذين سبقوه، إلاّ أنّه لم يكن أقلّ منهم. فقد كان مثلهم لصًّا ماهرًا، ورفيق لصوص ماهرين. أثقل كاهل الناس بالرزايا والبلايا، أباد مقتناهم وباع كلّ ما بين أيديهم، وألقى الظلم على الكثيرين بواسطة مأموريه المساعدين الذين كانوا يقبضون على المساكين ويعذّبونهم بشتّى أنواع التعذيب وخاصّة الذي يكتشفون أنّه لا يملك شروى نقير، ولا يتمكّن من دفع ما يترتّب عليه من الضرائب إذ ليس لديه ثروة ما على الأرض لا فوقها ولا تحتها. فكان أولئك العمّال المأمورون، قضاة الإثمّ، يشيرون عليه بأن يخرج إلى الشارع، وإذا ما التقى بواحد من الأغنياء الموسرين، يسرع إليه قائلاً: اجعلني عبدًا من عبيدك وإلاّ حكم عليّ بالموت. والغبيّ هذا إذ يتوجّع ويتألّم من يمينه ويساره، من أمامه ووورائه، من فوق ومن تحت، ليشهد شهادة الزور هذه، فيقع بين نارين، مخافة الله الواجبة وحكم الموت المحتّم وما يقاسيه من العذاب عند القضاة الأثمة. والمسكين المظلوم يدعو الله صارخًا أن يكون شاهدًا على الذين يرغمونه على الشهادة وليس بإرادته. ولمثل هؤلاء يوجّه القول:

إنّهم يحبّون الشرّ أكثر من الخير، والكذب أزيد من قول الحقّ. حقًّا إنّ الذي

يتكلّم بالزور والبهتان يكون محبوبًا لدى هؤلاء القضاة. والأفواه الكاذبة كانت مقبولة أكثر من أفواه الحقّ. جميعهم يتكلّمون بالإثمّ، وأياديهم ملوّثة بالدم. وإن صادفهم رجل صدّيق لا يعرف صنع السوء والشرّ، كانوا يعلّمونه كلّ سبل الشرّ. وهكذا انتشر الإثمّ في كلّ المدن وساد على كلّ الشعب. والجميع يشهدون أنّ هذا كلّه صدر عن موسى بن مصعب الذي كان قد أحصى كلّ ثروات الكورة، الغنم والماعز، البقر والدواجن، وغيرها، والشعب الساذج لخوفه من التعسّف والإهانة باع مقتنياته بسعر رخيص لتسديد الضرائب المترتّبة عليه، فباع كلّ عنزتين معشّرتين (حبالى) بدرهم واحد، واثنتين أو ثلاث غير معشّرات بدرهم واحد. وكلّ خمسة جداء بدرهم، والحمار بدرهمين، وثور الفدّان بثلاثة دراهم، والبقرة المعشّرة والجيّدة بثلاثة أو أربعة دراهم. أمّا الحنطة التي بدأت سنابلها تنضج، فالتصقت بالأرض لشدّة الحرارة والعطش الذي حدث في تلك السنة بتلك النواحي...

من جرّاء ما سبق أعلاه أصبح الناس كلّهم خونة بعضهم لبعض، وامتلأت أفواه الناس كذبًا، وسلكوا طريق الظلام والضلال. في مثل هؤلاء تفرّس إرميا النبيّ وقال: الرجل كان حذرًا من رفيقه، والإخوة لا يتّكلون على بعضهم، لأنّ كلّ أخ صار محتالاً، وكلّ صديق يتعامل بالحيلة. الرجل يكذب على رفيقه، ولا يتكلّمون بالحقّ، علّموا ألسنتهم أن ينطقوا بالزور، ولهذا وقعوا بالضيق لأنّهم بالحيلة يجتمعون ويتحدّثون، فلم يعرفوا الله أيّام حياتهم، وكلّ إنسان كذّاب مملوء من كلّ الآثام، وجميعهم تسرع أرجلهم إلى الشرّ، ولا من يفعل الخير بينهم. جميعهم سويّة مالوا وانحرفوا فصاروا مرذولين، يتنقّلون من شرٍّ إلى شرّ، ومن إثمّ إلى إثمّ ثمّ يسعون كالذئاب بين الحملان...

وهكذا سقط أولئك المساكين الذين سُلبوا ونُهبوا، وحمّلوهم كلّ الشرور، فباعوا ما يملكون وبالكاد دفعوا الجزية المفروضة عليهم، إضافة إلى الشرور الأخرى التي كانوا يحملون وزرها من مأموري الهجرة والعشّارين وجباة الضرائب ومعدّليها وكلّ ما أضيف إلى التعديل الجديد، وعليه كانوا يجبون، وبموجبه كانوا يعملون. وإذا صادف أن تكون الضريبة أقلّ بهذا النظام الجديد، فعلى القديم كانوا يأخذون، وهكذا أحاط الضيق بالشعب من كلّ جانب.

تفاقمت الشرور، فإذا نجا المرء من شرّ أدركه آخر، ويكون أسوأ من الأوّل. فلم

يكن ينجو واحد من أيدي الرؤساء، بل يفرضون على الناس الضرائب دون رحمة ودون حنان.

كما كان للرؤساء أصدقاء من اللصوص وقطّاع الطرق، فإذا ما فُرض على قرية مثلاً سبعون ألفًا، كانوا يجمعون ثلاثة أضعاف ولا يرحمون أحدًا رغم علمهم أنّ القرية هذه سكّانها ضعاف الحال ولا يتمكّنون من دفع ما عليهم من الضرائب، فلا يهتمّون لشيء، إنّما همّهم أن يجمعوا ويقاسموا ما يجمعونه مناصفة مع الحكّام.

ولهذا كان المأمور يخرج للجباية، كان ينهب الفقراء ويسلب لقمتهم، حتّى لم يبقَ لسكّان القرى شيء. وإذا صادف وكان لأحدهم ثروة ما، وهو من بلد آخر، يبيعها لئلاّ يستولوا عليها ويصادروها.

حدث مرّة أنّ سبعة لصوص كوّنوا عصابة وخرجوا للسلب وراحوا يسلبون كلّ عابر سبيل جهرًا قائلين: إنّنا نعقد معك الصلح والسلام. والناس البسطاء يصدّقون ويرضخون منقادين. لذا كنت تسمع صوت النحيب والعويل في كلّ مكان. وإذا صادف وهرب أحدهم ونجا من السلب في الطريق، سلبوه في القرية، وإذا نجا في القرية، سلبوه في البرّيّة، وكان اللصّ فيها كالأسد. وإذا رجع إلى السهل صادفه آخر بشكل الدبّ، وإذا دخل القرية ثانية مزّقوه كالوحوش، وإذا قصد الفندق تهيّأوا له بشكل العقارب وسلبوه.

أمّا الحاكم فكان يضاعف الشرّ ثلاثة أضعاف اللصوص والمأمورين. فإذا حدث وأن رفض أحدهم تلبية أمر الحاكم، كانوا يشبعونه ضربًا قائلين له: ألقِ ما عندك، ولن نقدّمك إلى الحاكم وإلاّ العكس صحيح.

ثمّ إنّ بعض الفتيان المسلمين والمسيحيّين شرعوا يتجوّلون في المدينة أو في الطرق الخارجيّة ويلقون القبض على الناس المساكين قائلين لهم: هيّا إلى الأمير فإنّه يطلبكم، هلمّوا وادفعوا ضريبة الصلح. وبهذا لم يتركوا واحدًا إلاّ سلبوه، أو يفرّ هاربًا من قيد الأفاعي الساعية حول المدينة أو القرية...

ولم يكد الناس يتخلّصون من ضريبة الصلح، إلاّ وشرٌّ آخر كان ينتظر الفقراء الذين لاحول لهم ولا قوّة، إذ قدم إلى المدن والقرى أصحاب الأختام الذين هرب الجميع من وجوههم، والتجأوا إلى الحاكم مع رؤساء الأقاليم الذين كانوا يرهبون

أصحاب الجَلد والأمشاط[1]. فلمّا حضر مأمور الصلح، قبض عليهم وعلى كلّ الحكّام والمساعدين، وسدّدوا رغمًا منهم ضرائب الأقساط والجلاء التي كانت في ذمّتهم، والذين قبض عليهم خارجًا، فرض عليهم الثلاثين والأربعين.

٤ – الضيق في مدينة الرها

أمّا مدينة الرها فكانت أكثر المدن تعاسة وشقاءً لما أصابها من ويلات البلاء. فتحمّل رؤساؤها الكثير من العذاب والأذى جرّاء تلك الإجراءات الشرّيرة. فقد حكم عليهم رجل ذو نفس مرّة اسمه رزين. فكان إذا ما قدم إليه رجل فقير لمحاكمته، ويعرف أنّه لا يملك شيئًا، يأمر شرطيّين أن يرافقاه إلى الشارع أو السوق فيجد واحدًا من الأغنياء، يتقدّم نحوه مع الشرطيّين ويقول له: اكفَلْني، ويهرب. فيلقي الشرطيّان القبض على الغنيّ، ويقدّماه إلى الحاكم وهناك يؤدّي الكفالة، إذ يجابهه الأمير بأمر الهارب وكفالته. فإذا رفض الغنيّ بعد القسم أنّه لا يعرفه ولم يكفله، يلقونه في السجن بعد تكبيله بالسلاسل، ويُجلد بالأسواط على ساقيه وقدميه، حتّى تكاد روحه أن تزهق، فيؤدّي الكفالة المفروضة عليه حتّى آخر فلس. وقد قيل في ذلك:

أوصِ كلّ أبناء الملوك، وكلّ لابسي ثياب الغرباء. ومُر الناهبين والخاطفين في ذلك اليوم أن يدخلوا إلى مدنهم بالخطف والخبث. هؤلاء الذين أخبرنا عنهم النبيّ صفنيا القائل: بيوم ذبيحة الربّ، فأيّ يوم هو ذبيحة الربّ سوى آلام المخلّص المقدّسة؟ ففي هذه السنين تراكمت علينا الشرور والضيقات حتّى الأعياد أصبحت حزنًا، وأبناء الملك والرؤساء والخاطفون والناهبون، امتلأت بيوتهم من أموال اليتامى والأرامل والمساكين الرهاويّين إذ سرقوها علانية وفي ضحى النهار، فتمّ ما هو مكتوب: إنّ حكمتهم ضاعت، ففقد الحكماء الحكمة. وسادت عليهم جهالاتهم، صارت أموالهم للسلب، وبيوتهم للخراب. يبنون البيوت ولا يسكنونها. يغرسون الكرم ولا يشربون من خمرها. ولهذا فإنّ يوم الربّ قريب جدًّا. فحلّ يوم الظلمة والنميمة والقلق والظلمة والخيال الذي يحصل بالمدن العظيمة وعلى رؤوس الروابي. إذ يحلّ على الناس الضيق، ويسيرون كالعميان لأنّهم أخطأوا أمام الربّ، من أجل

(١) الأمشاط الحديدة إحدى أدوات التعذيب القاسية.

ملذّاتهم... وإنّ الشرور العظيمة التي حدثت، لا يتمكّن العالم كلّه أن يسعها ويكتبها. تلك النوائب التي حلّت بالناس الفقراء، لم يُعرف لها بداية ولا نهاية. ولم يشبع الأشرار ممّا سلبوا ونهبوا.

ولهذا الأمر سجن الأمير الناس في الكنيسة الكبرى بالمدينة (الرها).

٥ - السجن في الكنيسة

أثمت أورشليم إثمًا. ولهذا السبب كانت ترتجف، وكلّ من كان يعزّها احتقرها. لأنّهم رأوا عورتها، وهي أيضًا تراجعت والتفتت إلى الوراء. فمدّ حسيب الضيق يده على كلّ شهواتها. رأيتُ الشعوبَ تدخل إلى مقدسكِ لأنّكِ أمرتِ أن لا يدخلوا إلى المجمع (كنشتا، الجماعة). نسي الربّ مقدسه، ورذل مذبحه، وسلّم بأيادي الأعداء أسوار ساحاتها. صرخ صوت في بيت الربّ كما في يوم العيد، خرّب عزالتها وخرّب أعيادها. وأزال الربّ العيد من صهيون، ورذل بحدّة غضب الملك والكهنة. ليأتِ الآن إرميا النبيّ ويرَ بعينيه كلّ ما تنبّأ عليه بأنّه قد تمّ وتحقّق.

ولمّا أمر عامل الظلم الظالم أن يجتمع كلّ الأهالي في الكنيسة، أعلن أنّ كلّ من يخفي رجلاً في داره يستحقّ الموت. فخرج الشرطة وفتّشوا كلّ دور المدينة. ولم يتركوا دارًا إلاّ دخلوها وحشروا في الكنيسة الأغنياء والفقراء. وإذا كان صاحب الدار غائبًا جاءوا بأهله. وإذا وجدوا واحدًا قد اختفى في دار ما، قتلوه من شدّة الضرب، وأيضًا صاحب الدار الذي اختفى فيه، وصادروا كلّ ما يملكه. وهكذا سجنوا الكبير والصغير، مسلمين ومسيحيّين. وصعد الأثمة وقبضوا على كلّ من كان له اسم في سجلّهم، وإن كان مدينًا بفلس واحد. ومن لم يكن لهم ليدفعوا ما يترتّب عليهم يرهنون نساءهم عن أموالهم ليدفعوا ما يستحقّ عليهم.

فرفع الظلم رأسه من حيث إنّه فقد الحقّ. وأصبح الكذب جهرًا إذ لا يوجد عدالة. وفعل الظالم جميع الشرور بالناس. فباع جميع مقتناهم وأخذ ثمنه. ونجّسوا الكنيسة حيث كانوا يزيلون ضروراتهم فيها الرجال والنساء. وقد أقاموا فيها ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ، ووسّخوها. فصعدت منها رائحة الجيفة عوض الروائح الطيّبة. وبذلك تنجّس الهيكل المقدّس إذ جعلوه موضع خلاء.

طالب التجّار والذين سُلبت أموالهم أن يكتبوا لهم أموال القرويّين، فلم يرفع فيهم عامل الظلم كتابًا، بل قال لهم: إذا أردتم أن أكتب، فأنا أكتب لكم ولهم. فقسمٌ وافقوا وآخرون رفضوا، والذين وافقوا لم يستفيدوا شيئًا، فقد صدر أمر ونادى به المنادي. كلّ من لا يسدّد الضريبة أو الطلب القديم أو الجديد لا يأخذ شيئًا. وهكذا اجتمع التجّار من أبناء المدينة وقدّموا طلبًا بيّنوا أنّهم مظلومون. وقصدوا موسى بن مصعب وهم لا يدرون أنّهم ضلّوا السبيل وفقدوا عقلهم، لأنّهم طلبوا العدالة من رجل الظلم والظلمة، إذ ظنّوا بأنّ أعمالهم هذه لا تلحق بهم ضررًا، ولم يدروا أنّه منه صدرت هذه الأوامر. وهكذا جرى، فعوض أن يردّ لهم أموالهم، غضب عليهم، وأخذ منهم ثلاثة أضعاف ما يستحقّونه.

هذا وانحدر ابن مصعب إلى بغداد عند الملك (الخليفة) فاغتنم شعب الجزيرة والموصل الفرصة، وتوجّهوا نحو بغداد لمقابلة الخليفة. وكان عددهم ألوفًا كثيرة وربوات. ودخلوا على الخليفة وهم يبكون ويولولون قدّامه بأنّ ابن مصعب ظلمهم. ومكثوا أكثر من خمسة أو ستّة أشهر، فلم يسمع الخليفة شكواهم. وحلّ بهم مرض (وجع البطن) وأمراض مختلفة أخرى، حتّى إنّ نصفهم لم يعودوا إلى بلادهم. والذين عادوا فبخفّي حنين، لم يحصّلوا سوى الشرّ لشخصهم ولبلادهم، لأنّ الخليفة الظالم جميع عمّاله مثله ظالمون.

* * * * * * * * * * *

فصل عن الأحكام الجائرة التي صدرت بحقّ الناس

ليس من الضروريّ أن نسرد الخبر هنا بالتفصيل، إنّما نكتفي بالإشارة عنه عبرة للقادمين بعدنا. نبيّن ما جرى من صدور الأحكام الجائرة للاتّعاظ لأنّه مكتوب: إنّ الجاهل والحكيم يتعلّم. ها إنّي أطعم الشعب وأسقيه مرارة، وأبدّده في العالم ولا يعرفونه... وبالحقّ وضع الوجع على ظهورنا. قضيب الضربات التي تحمل بين ثناياها الموت، أقيم على رأسنا، وعلى ظهورنا كَثُرَت الجلدات، والأيّام صارت طويلة علينا... قدم الآثوريّون إلينا حاملين بأيديهم قضيب الغضب وعصيًّا يابسة قويّة. ضربات الربّ بأيديهم كما سبق الأنبياء ونادوا. القمل نحن رأيناه بأعيننا، وقبضنا عليه بأيدينا، وحملناه في أجسامنا...

ومن هنا نعلن أنّ الخبر الذي ورد هنا ليس إلاّ حقيقة.

أوّلاً: صنعوا لهم أخشابًا بعرض أربع أصابع، وحادّة من الطرفين. وكانوا يلقون الناس على وجوههم. ويجلس الواحد على رأسه، والآخر على رجليه، وثالث يضربه بالسوط على قفاه بدون رحمة، وقد نُزعت الثياب عنه... وكما قيل: وضع الوجع على ظهورنا مع الذي ركب على رأسنا.

ثانيًا: كانوا يأتون بعصاتين في إحدى جهاتهما أسنان حديديّة، يضعونها على ساقَي الشخص، الواحدة من فوق والأخرى من تحت. وعلى الطرف الثاني يقف الرجل حتّى تنطبق على ساقيه. فقيل: وضعوا رجليّ في القيد.

ثالثًا: كانوا يعلّقون الرجال بأكتافهم حتّى تتقطّع عنها أجسامهم. والنساء كنّ يعلَّقنَ من أثدائهنّ حتّى ينقطعن.

رابعًا: كانوا ينزعون ثيابهم، ويحمّلونهم الحجارة مستهزئين بهم. أو يوقفونهم في الجليد والثلج، ثمّ يصبّون عليهم الماء البارد، فتتشنّج أعضاؤهم ويسقطون على وجوههم.

خامسًا: صنعوا أداة جديدة للتعذيب. شقّوا خمسة أعواد من طرف واحد، وجعلوا فيها حبلاً، يدخلون أصابع الإنسان بينها، ومن الطرف الآخر يضغطون عليها بقبضة اليد حتّى تلتصق الأصلبع ببعضها، فكانت الأصابع تنكسر لشدّة الضغط عليها.

سادسًا: كانوا يصنعون ما يشبه التختَين (سريرين) يضعون في طرف الواحد ما يشبه الحزام (رباط من جلد أو حبل)، ثمّ يجعلانهما الواحد تحت ظهر المرء والآخر على صدره. ويقف عليه رجل ضخم الجثّة، حتّى كانت أضلاع المرء تتكسّر، وأحياناً أمعاؤه تخرج إلى الخارج.

سابعًا: وكانوا يصنعون أغلالاً خاصّة للذراعين، ويحدّون قصبة يدخلونها تحت أظافرهم، أو يصنعون جوزات من حديد ويضعونها في محاجر العينين حتّى تخرج العينان وتفقآن. أو يوقفون الأشخاص المحكوم عليهم عراة على الثلج، أو في الثلج والماء البارد حتّى يغمرهم ويموتوا غرقًا. أو يعقدون عقدًا على القضبان الغليظة، ويضربون بها الناس دون رحمة وهم ملقون على وجوههم، علمًا أنّ الجلد كان ممنوعًا.

وهكذا العظماء علّقوهم بأيديهم. قال النبيّ: ليأتِ ويرَ الآن العظماء وهم معلّقون بين السماء والأرض، ويُضربون بقضبان غليظة. وآخرون وضعوا بأيديهم الأغلال وكذا بأرجلهم وهم لا يقدرون على تحمّل العذابات. وعندئذ يشمت الشامتون من رفاقهم ويَصرّون بأسنانهم.

وأحيانًا كانوا يلقونهم عراة على الثلج، ويدحرجون حجارة كبيرة عليهم، أو يضعونها على ظهورهم حتّى تنبعج بطونهم وتتكسّر أضلاعهم وتتفكّك فقرات ظهورهم.

أو يسجّرون الحمّام أو بيت التنّور حتّى يصبح كالنار اشتعالاً، ويملأونها بالدخان ويسجنونهم فيها وهم عراة. أو يأتون بالسنانير ويلقونها بينهم فتمزّق أجسامهم بمخالبها. أو يسجنونهم ببيوت مظلمة لا يدخلها الضوء أبدًا... ومكتوب هو: إنّ الضربات الأخرى غير المكتوبة في هذا الكتاب سأجلبها عليك.

بهذه العذابات وغيرها كان الظالمون يعاملون الناس الضعفاء من أهل الجزية، وإن لم يسمَّ اضطهادًا. لأنّ المسيحيّين والمجوس واليهود جميعًا شملهم هذا الويل دون تمييز، وكذلك السامريّين الذين يسجدون للنار والشمس، والمجوس الذين يؤمنون بالتنجيم، والمعروفين بالحرّانيّين.

(لا الآلهة ولا الإلهات احتفلوا بمثل هذا الاضطهاد الصعب. كما لم يتمكّن واحد

بالكلام عن الإيمان ولو بكلمة واحدة، أو يُنبئ قائلاً: أنا أسجد للشرق أو للغرب، أو للجنوب أو الشمال. فقد أبطلوا كلّ شي، وقد عزلوا المسيحيّين لوحدهم بهذا الاضطهاد.

إنّي كنت كثيرًا أمتدح الاستشهاد الوارد ذكره في يوحنّا وجميع الاستشهادات السابقة، لأنّ الموت بالسيف أهون من العذابات التي لا نهاية لها. قال القدّيس باسيليوس: إنّ الذي يذهبون به إلى السجون من أجل فقره لجَلده، فليأتِ الآن ويرَ الآلاف والربوات وبلا عدد من المسلمين والمسيحيّين، المذنبين والأبرياء، الأغنياء والفقراء، سواء بسواء. فالكأس المرّة، والطعام الذي يكرهه كلّ إنسان كانوا يتناولون سويّة. كما قال النبيّ: الغنيّ يأكل المرارة يوميًّا... ويكسرون عظامه من شدّة الضرب بسبب سلبه ما اقتناه ظلمًا، والفقير يُجلد من أجل أن يسلبوه ما ليس لديه، ولا يوجد أحد يقرض له، ولا من يلتزم بفاعل للحقل أو للكرم، فعلى هذا يكون قد أكل المرارة وشربها، ومُزجت له بالطعام.

لا يظنّ أحد يا إخوتي، أنّي أسهبت بالكتابة، ولكن لو أنّ جميع الورق والقصب في العالم سخّرناهما لكتابة جميع الأخبار وسرد كلّ البلايا التي حلّت بهذه الديار، لا تكفي. كما أنّني أرجو أن لا يعتب أحد على النقص الذي وقعنا فيه، إذ لم نتمكّن أن نُلِمَّ بكلّ الأحداث، لأنّها لم تجرِ في مدينة واحدة ولا بشكلٍ واحد).

* * * * * * * * * *

فصل عن الجوع والعطش الذي حدث بهذه السنة، ٧٧٣م وانتقال سكّان الشرق والجنوب إلى الشمال

إنّ الأنبياء في كلّ زمان هم كالأبواق يصرخون بآذاننا، لكي نعود إلى الربّ. إلاّ أنّنا قد صرنا كالحجر، فثقل قلبنا، وأغمضنا عيوننا، وأغلقنا آذاننا، وانحرفنا عن سبل الربّ. نسير بحسب هوانا. وكلّ منّا يريد أن يكمل رغبته، والله لا يرضى بأعمالنا...

وقد جاء بالنبيّ القائل: هكذا يقول الربّ: عن خراب بيتي أنتم تركضون كلّ واحد إلى بيته... فبسببكم امتنعت السماء من الندى، والأرض منعت أثمارها، والجبال غلاّتها، خمرها ودهنها، وحجبت الأرض كلّ شيء عن الناس وحتّى تعب الأيادي... تفكّرون بالكثرة والقليل تنالون. أنفخ في زروعكم فلا تحصدون...

كلّ هذه الأمور مرّت علينا في هذا الزمن الصعب المرّ. فالمطر لم يسقط بفصل الشتاء، ولا الندى سقط من السماء. فلم ينبت الزرع، والذي نبت يبس وخاصّة في الجبال. لهذا خرجت الشعوب للدعاء وصلاة الاستسقاء. كلّ شعب بلغته يصرخ بضيق شديد حينما رأى الناس انحسار المطر ففقدوا الرجاء، وطردوا من قلوبهم الرحمة، ولم يعد الموسرون يبيعون الحنطة للذين يريدون الشراء. ومن أجل هذا دخل الفقراء في ضيق شديد لا يوصف. أمّا الذين احتكروا الحنطة ففرحوا واستبشروا، وعنهم قال النبيّ صارخًا: اسمعوا أيّها الذين يذمّون المسكين، ويتخمون أثمة الأرض، ويقولون في قلوبهم متى ينتهي الشهر كي نبيع الغلاّت، وينتهي الأسبوع، وتفتح العنابير، وتُصغّر الكيلة، وتثقّل الموازين، فيبيعون للفقراء والمساكين بالتزوير، فأقسم الربّ، إنّي لا أنسى أعمالهم إلى الأبد. فأحيل أعيادهم حزنًا، وأغانيهم أجعلها نحيبًا...

فلمّا وجد أصحاب الغلاّت أنّ السماء أمسكت مطرها، أمسكوا أيديهم عن بيع الحنطة والحاصلات ابتغاء الربح. فضاقت أحوال الناس، وأمر السلطان (الحاكم أو الوالي) أن يخرج كلّ شعبٍ للدعاء والصلاة، كلّ بلغته، يتضرّعون إلى الربّ فيستجيب للدعاء، ويرحمنا ويفتح لنا باب مراحمه.

وهكذا خرج المسيحيّون يتقدّمهم أسقفهم، واليهود بأجواقهم، والمسلمون بشيوخهم. جميعهم خرجوا لصلاة الاستسقاء، فرحم الربّ شعبه وسقط المطر في بعض الأماكن ونبت الزرع كما قال النبيّ عاموص: إنّي منعت عنهم المطر قبل الحصاد بثلاثة أشهر، أُنزله على مدينة وأمنعه عن أخرى، أو على نصفها، والقسم الذي لا يسقط عليه المطر ييبس... فتجتمع كلّ مدينتين أو ثلاث على واحدة.

وإذ كانت الموصل قد حلّ عليها هذا الغضب، يبست زروعها من المشرق والجنوب، إضافة إلى ما أصابها من الخراب بسبب شرور ابن مصعب، فاجتمعت فيها جموع غفيرة من كافّة الأنحاء، وصعد كلّ التغالبة والمعديّون ومعهم جمالهم ومواشيهم وملأوا الأرض. فخرّبوها حتّى إنّه لم يبقَ شيء لترعاه المواشي فأصبحت الأرض يبابًا كأنّها مكنوسة بالمكنسة، فهلكت المواشي بجهة الشمال لاسيّما بفصل الشتاء الذي تلا ذلك الموسم. فخربت الأراضي والمدن في كورة الموصل وبيت كرماي، وحزّه، ومركا[١]، وجُندَيسابور[٢]، وسين[٣]، وقوق، وسلح، مع مدن أخرى كثيرة. فهاجر سكّانها، وقدموا إلى المنطقة الشماليّة، فاشتدّ ازدحام السكّان بالكورة كلّها، فلم يبق مكان إلاّ وقصده الناس. فانتشر الجوع بينهم لكثرتهم، وتمّ فيهم ما جاء بالنبيّ القائل: إنّي أرسل وراءهم الجوع والسبي والموت. وهذه كلّها تمّت بهم وغيرها سنذكرها في حينه. الشرّ الذي لحقهم مع السبي والمرض والجوع...

* * * * * * * * * * *

في هذه السنة أيضًا: **(سنة ١٠٨٤ي / ٧٧٣م)** مات القدّيس بولس أسقف تكريت، وزينا أسقف كرما، ويونان أسقف نوهدرا[٤].

---

(١) مركا. وردت في المعجم باسم مرج الموصل، ويعرف بمرج أبي عبيدة. عن جانبها الشرقيّ موضع بين الجبال في منخفض من الأرض شبيه بالغور. فيه مروج وقرًى. ولاية حسنة واسعة وعلى جباله قلاع... (معجم البلدان ٨ : ١٦).

(٢) جنديسابور. بضمّ أوّله وتسكين ثانيه وفتح الدال وياء ساكنة وسين مهملة وألف وباء موحّدة مضمومة وراء مدينة بخوزستان. بناها سابور بن أردشير فنُسبت إليه وأسكنها سَبْيَ الروم وطائفة من جنده (معجم البلدان ٣: ١٥٠-١٥١).

(٣) سين. مدينة سريانيّة شماليّ تكريت ينسب إليها المؤرّخ المطران إيليّا بن السني (برشينايا).

(٤) نوهدرا. هي مدينة دهوك الحاليّة. مركز محافظة في العراق بالقرب منها آثار آشوريّة.

وفي هذه السنة أيضًا، أمر الملك ببناء سور لعاقولا[١]، إذ كان هذا الملك (الخليفة) صانع الشرّ، يحبّ الذهب. فلم يكتفِ بسلب الناس كرومهم وأراضيهم ومواشيهم وبقرهم وحيواناتهم، إنّما كان يحبّ الذهب والفضّة ليقتنيها في خزائنه. كان يعامل الناس بالخبث والحيلة ولا ينفق درهمًا واحدًا. فلمّا أراد بناء السور لعاقولا احتال على سكّانها، حيث أرسل رجالاً من قبله وأمرهم أن يمسحوا البيوت واحدًا واحدًا، الطول والعرض والارتفاع. وطلب من صاحب كلّ دار أن يبني في السور على مساحة داره طولاً وعرضًا وعلوًّا، وكلّ مصاريف البناء على صاحب الدار. وهكذا أقام السور العظيم من أموال أبناء عاقولا، ولم يدفع الوالي فلسًا واحدًا من كيسه (خزائنه).

* * * * * * * * * *

(١) عاقولا، هي مدينة الكوفة جنوب بغداد.

فصل عن الشرور التي صنعها الناس بالقبور وتذرية العظام

كثرت الشرور وتراكمت بعضها فوق بعض. وازداد الضيق بالناس فوق العادة، بلا حدود ولا قياس، وبيعت أموالهم وهم لا يدرون ما يفعلون، إذ كانوا مضطهَدين ومطرودين، ولأنّ الضيق هذا طال أمده وعلى جميع البشر، طال حتّى شمل الحيوانات والطيور والسمك في البحر. ولكثرة نوائب الناس ومعاناتهم، قصدوا رؤساءهم وعرضوا أمامهم أحوالهم وما يقاسونه من الظلم والجور واحتياجهم إلى المال ليقتاتوا، ولأجله قصدوا المقابر السحيقة العهد وفتحوها وحفروها وأخرجوا عظامها وذرّوها كالأزبال على وجه الأرض. وهذا رأيناه بعيوننا ولم نسمع به بآذاننا.

نعم المتوفّون قبل ميلاد السيّد المسيح، كانوا مرتاحين في قبورهم. ذرّى الناس في الهواء تراب لحودهم طلبًا للفضّة والذهب الذي كانوا يفتّشون عنه فيها. وقد وُجد في إحدى المقابر أكثر من خمسمائة جثّة، قد اختلطت فيها عظامهم، حينما أخرجوها ليفتّشوا بها، لاسيّما المقابر القديمة، والتي كانت قد أصبحت كإحدى التلال وقد ضاع كلّ أثر لها، حفروها وأخرجوا العظام من أماكنها، إذ كان الشيوخ وكبار السنّ هم الأدلاّء عليها في مناطقهم التي ولدوا فيها ويعرفون أسرارها. وقد أقسموا اليمين بأنّه ليس من الآباء الأوّلين سمعوا ولا أحد أعلمهم بخبرها، إنّما المقابر كشفت عن ذاتها. ولهذا كان عقلاء القوم وحكماؤهم يظنّون بأنّ الشيطان هو الذي جذب الناس صوبها وحرّكهم لارتكاب هذه الأعمال.

وهكذا ذاع الخبر في كلّ الكورة، بأنّ القرية الفلانيّة وجدت فيها كمّيّة كبيرة من الذهب والفضّة، وأنّ فلانًا عثر على كذا مصوغات مع الحليّ... فشاع النفاق والمبالغة فاختلطت الأخبار وتناقضت. فإن صادف وعثر أحدهم على سوار واحد، أو درهم في حزام رجل أو في يد امرأة، صار كمّيّة كبيرة من الحليّ وثروة عظيمة من الأموال... ولو كان السوار من نحاس، غيّره الشيطان لدى الناس إلى ذهب، ولو كان قطعة صغيرة، انتشر خبرها بقطع كبيرة... وعليه قصد الجميع فتح القبور طمعًا بالنحاس الذي يتحوّل إلى فضّة والذهب الذي يكبر ويكبر، وبضع الدريهمات التي تتحوّل إلى ثروة...

وفي هذه السنة (٧٧٣م) أقيم على بطريق أرمينيا الكبرى تهمة كبرى فقتلوه بالسيف، والتهمة أنّه كان يملك أكثر من مائة ألف عبد، فصودرت أمواله كلّها وأخذوها لعند الملك.

* * * * * * * * * * *

فصل عن شهادة الزور والكذب
وما جرى من شرورهما من مصائب في العالم
لاسيّما للدائن والمدين

ندرج هنا ما جرى لنا من الشدائد بسبب شرورنا، فيطّلع عليها الذين يأتون بعدنا لئلاّ يميلوا هم أيضًا فيحلّ فيهم ما حلّ فينا من الانحراف، فيحيط بهم الحيوانات الكاسرة كما أحاطوا بنا لأنّ اللّه ليس محتاجًا إلينا، كما أنّه لم يكن محتاجًا إلى إبراهيم فأحبّه وأظهر له ماذا حلّ بالسادوميّين بسبب خطاياهم وشرورهم مع الغرباء وعابري الطريق، فأظهر الربّ لإبراهيم ولأبنائه الشرور التي تغضب اللّه وتجلب الغضب على فاعليها.

وقد كُتب في التوراة: لا أخفي عن عبدي إبراهيم ما أفعله لأنّي أعرف أنّه يعلّم أولاده وأحفاده ليحفظوا طرق الربّ من بعده ويتمسّكوا بالإيمان والشريعة. إنّ صراخ سادوم وعامورة صعد إليّ وازدادت خطيئتهم كثيرًا... وليفعل الرحمة مع السادوميّين، أظهر لإبراهيم وأعلمه بخطاياهم. وكما قال داود لابنه: اعبد إله آبائك وقدّم له الطاعة، وإذا تركته يتركك... وهذا ما حدث عندنا، إذ زغنا عن طريق الحقّ وانحرفنا، فأرخى الربّ يده عنّا وشمل معنا كلّ الخلائق من بهائم وحيوانات البرّيّة وسمك البحر وطيور السماء حتّى الأموات في قبورهم لم يرتاحوا بل نالهم الشرّ فتعذّبوا كما تعذّب الخشب والحجارة. ومكتوب: أحبب الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك، وقريبك مثل نفسك. ففي هاتين الوصيّتين الموجودتين في التوراة واللتين أكّد عليهما الأنبياء، نحن كنّا نسلك عكسهما.

وأيضًا مكتوب: لا تقتل، لا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور. أكرم أباك وأمّك، لا تشتهِ مال قريبك، ولا تعطِ نقودك بالربا، ولا تأخذ الرشوة التي تعمي عيون الحكماء. لا تتعاون مع الكذّاب لتبقى له شاهد كذب، ولا تحرّف شرع المسكين، لا تزنِ...

هذه كلّها لا فقط سمعنا بها بآذاننا، ولكن قمنا بفعلها بأنفسنا، ولئلاّ يفكّر الناس بالعتاب على اللّه تعالى بسبب هذه الشدائد التي أحاطت بنا، نقول إنّها من أجل خطايانا وباستحقاقنا جعلها الربّ علينا ثقيلة.

إنّنا نحمد مراحمه التي لا تقاس ولا تقدّر، ونعترف بأنّنا ضللنا طريق الحقّ، فإلى كم يطول صبره علينا؟ صرخت خطايانا التي بسببها جرى الغضب علينا، نحن الأبناء المتمرّدين في هذا العالم الضالّ. فكما كان أبناء قائين يصطادون الخطيئة بالخطيئة، فالسادوميّة كانت عندنا: الكذب والبغضاء، التذمّر والقساوة، الخطف والنهب، القتل وشهادة الزور، وكلّ شرور أصحاب يوليانوس الجاحد[1] قمنا بها، وارتكبنا جميع الآثام والمعاصي.

شهادة الزور التي سرت بين الناس

مكتوب أنّه لن يمرّ على فمي أعمال الناس، وأيضًا من يهجو (يغبّ) رفيقه مِن ورائه كنت أهلكه، كذلك نحن لا نودّ أن نتكلّم عن مخازي أعمال الناس، ولا نغبّ إخوتنا إلاّ لما كنّا عليه من الضيق كيما تتجنّبوا أنتم هذه الأعمال إذ قد بطل الإيمان على الأرض، والإنسان يتحدّث مع رفيقه بشفاه الخبث. ولو كان لأحد شرعٌ أو قضيّةٌ أو دعوًى مع صديقه، كان يدخل إلى السوق ويختار له شخصًا قائلاً له: أيّها السيّد فلان هلاّ تشهد لي شهادة؟ فيجيبه بسرعة وبإصرار وبكلّ ثقة، على بركة اللّه ويعده، عن أيّ شيء. وكان يقسم اليمين قبل معرفة القضيّة.

إنّ هذا الأمر لم يكن يفعله فقط المجوس، ولكنّ المسيحيّين أيضًا كانوا يتعاملون به، الرجال والشيوخ. فإذا أراد شخص من اللصوص أن يستأجر شاهد زور بقدر ما يريد، كان يفعل ويبرّئ جريمته، إذ لم يكن للناس مخافة اللّه، وبذا أبيدت حقوق المسكين في ساعة واحدة.

الدائن والمدين والكذب

أوَ لم يتكلّم جميعكم بالإثمّ، وفي الشرّ ملوّثة أيديكم، وفمكم مملوء من الإثمّ، ظلم وخبث تحت اللسان، والحقد يسيل منه؟ نقودك لا تعطها بالفائدة، ولا تأخذ الربا من قريبك، إذا أقرضت له نقودًا، وكذلك المسكين في شعبي لا تأخذ منه

---

(١) يوليانوس الجاحد (٣٣١ – ٣٦٣) ولد في القسطنطينيّة. ابن أخت قسطنطين الكبير. نودي به إمبراطورًا عام ٣٦١. جحد الإيمان المسيحيّ وشجّع الوثنيّة. قتل في معركة مع الفرس.

الربا. إنّ داود قد قال: إنّ ماله لم يعطه بالربا، إذ أقسم لصاحبه فلا يكذب، فإنّ هذه للدنيا الباطلة.

كان سكّان القرى والأرياف يهرعون إلى المدينة حينما يضايقهم جباة الضرائب وهم حاملون الهدايا للناس الذين يقترضون منهم النقود. وكان هؤلاء الموسرون بدورهم يشرحون لهم صدورهم قائلين: هلمّوا بالسلام والإكرام وعلى الرحب والسعة، حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً، وبمثل هذا الكلام المعسول يلاطفونهم. ويضيفون: إنّي مستعدّ أن أقرضك مقدار ما يلزمك، لا تقلق أبدًا فأنا أعطيك ما ترغب به، وما دمت حيًّا، لا تقصد آخر غيري، كما أنّي لا أجعل عليك شهودًا ولا كفيلاً، ولا رهائن، ولا أريد منك ربًا، حتّى ولا عملاً عوضه، بل خذ ما تريد. ولّما يحين الوقت، أعطني عوض نقودي حنطة أو خمرًا... والآن اذهب إلى دارك مطمئنّ البال وارجع بعد أيّام ريثما أهيّئ المبلغ الذي تحتاجه.

أمّا هذا القرويّ الساذج، إذ كان يسمع هذا الكلام الطيّب، يرجع إلى داره مغمورًا بالفرح والانشراح الذي لا يوصف، وإن لم يكن يصدّق أنّ هذا الشيطان سيعطيه بالذي نطق به فمه. صحيح أنّ كلامه أحلى من العسل غير أنّ نهايته حزن وعويل ومرارة.

ولّما كان هذا القرويّ الذليل قد اتّكل على كلام الهباء الهراء والذي وعده به الموسر الغنيّ، فلم يُجهد نفسه بالعمل كيما يجمع له مبلغ الجزية، بل يجلس في بيته مستريحًا ينتظر قدوم جباة الجزية. وحينما كانوا يلقون القبض عليه كان يقول لهم: أمهلوني زمنًا قليلا حتّى أذهب وآتيكم بالمبلغ. وإذ كان يقصد صاحبه الذي وعده بأن يُعطيه حاجته يقول له: تكلّم يا سيّدي وأعطني ما وعدتني به لكي لا يحتقروني. فيجيبه: اصبر قليلاً ريثما أهيّئه لك. ويتركه في الدار ويخرج هاربًا من أمام وجهه، ثمّ يعود إليه ويخبره أن ينصرف اليوم ويأتي غدًا، لأنّه في هذه الساعة ليس بين يديه شيء، فيعتذر منه ويصرفه. وهكذا يصنع لعدّة أيّام بين ذهاب وإياب، والقرويّ صابر على مضض يتحمّل الضيق والعذاب. وفي الأخير يتبيّن له أنّه ليس الوحيد الذي يقترض منه وعليه أن يعطيه، إنّما أناس كثيرون، ولهذا يصرفه معتذرًا أنّه لا يملك ما يرغب فيه إلاّ إذا كتب عليه ورقة مختومة كذِمّة، فيرضى القرويّ بالعمليّة ويختم له ورقة باسمه وبالمبلغ الذي يحتاجه. فيرسله قائلاً له: انصرف الآن وعد في الغد.

وفي الغد يفاجئه أنّه لا يكتفي بالورقة إنّما هو بحاجة أن يحتفظ بها كرهينة مقابل النقود، أو يعطيه في الموسم القادم كمّيّة من الحنطة ليس بالسعر الذي تباع به آنذاك، إنّما بالاتّفاق عليه منذ اليوم. فيوافق القرويّ المحتاج والذليل. وفي الأخير يطالبه بالكفيل تأكيدًا في التأمين على نقوده، ويرضى المسكين بالكفيل. وهكذا يظهر الدَجَل والكذب الذي جاء في كلامه الأوّل الذي ذكرناه أعلاه، من أنّه لا يريد منه أيّ شيء مقابل قضاء الحاجة. فيكتب الورقة ويأخذ الرهينة مع وجود الكفيل ومن ثمّ الحصول على الحنطة بالسعر الذي يهواه والربا في المواشي والكروم. بهذه الطريقة كان الفقراء المساكين يجابههم الأغنياء الموسرون بكلّ احتقار وقلّة معروف، والمساكين الفقراء يصبرون على تحمّل كلّ إهانة لحاجتهم الماسّة، يقبّلون الأيادي التي لا تستحقّ. لا بل يلحسون أرض أقدام الأغنياء قائلين: من الآن وحتّى اليوم الفلانيّ إن لم نسدّد لك نقودك، فنحن ملزمون بكلّ ما هو مكتوب بالكتاب.

ويهرع المساكين إلى بيوتهم ويبيعون كلّ ما لديهم ويجمعون للدائن نقوده، حتّى لو اقتضى الأمر أن يبيعوا الخيمة التي يسكنون تحت سقفها. ومع ذلك يوسوس الشيطان الخبيث، كاره الخير في قلب الدائن أنّه كيف أعطى لهؤلاء الفقراء نقوده وهم لا يملكون ما يوفون به الدين فيصوّر له صور العذاب الذي يجب به أن يسومهم، ويسلب راحتهم. فيبدأ الدائن والمدين بمبادلة الوعود الفارغة والعهود المريبة، إثمًا بإثم... وكثيرًا ما كان الدائن يطرق باب المدين، والأخير لايسدّد له دينه... أو يطرق الدائن باب المدين، ويدخل إليه متضرّعًا ليسدّد له دينه، إلاّ أنّ المدين كان يتماطل معه أيّامًا تلو أيّام... وإذا ما أراد أن يدفع فيسدّد له نصف المبلغ أو ربعه فيفرح الدائن كأنّه استوفى دينه كلّه.

وهكذا نجد أنّ الكذب والدجل والمراوغة والمخادعة تتسلّط على الفقراء والأغنياء متفشّية بين الجميع يمجّدون الكذب ويعبدون الأوثان...

الظلم والغيبة والنهب وشهادة الزور

في الوقت الذي كان فيه سكّان البلاد يقصدون المدينة لدفع الجزية المترتّبة عليهم كان أجواق قيافا، ورفاق يهوذا يتجوّلون بالمدينة يتجسّسون على الناس بما يملكون. ومن يملك الغلاّت، ومن لديه الحنطة؟ ومن لديه الخمر في معصرته وكرومه؟ ومن

يملك الأثاث الثمين؟ ومن يقتني الأموال؟ فإذا ما رصدوا كلّ شيء وتأكّدوا منه، يتّصلون بالأمير ويخبرونه بكلّ تحقيقاتهم وسجلاّتهم قائلين:

فلان ابن العائد فلان، جزيته خاصّة لنا. وفلان له كذا أموال، وفلان مطلوب بكذا سنوات لم يدفع لنا الجزية. وفلان وفلان... بحسب قوائمهم التجسّسيّة... حينئذٍ يأمر الأمير أن يقصدوا دور المعنيّين ويقتحموها، ويبيعوا ما لديهم من الغلاّت والمحاصيل، أو يصادروا الأموال، فإن قاومهم واحد من أهل الدار أو منعهم من تنفيذ الأوامر، يتدخّل الحاكم بالقضيّة مشيرًا هل لديهم شهود عليه يثبتون مدعاهم؟ فيقصد بعضهم القرية التي ينتسب إليها المدّعى عليه ويأتون بالشهود. ويشهدون عليه مؤكّدين أقوالهم، والمسكين لم يكن قد رأى هؤلاء من قبل وهم لا يعرفونه... وهكذا تبدأ عمليّة الابتزاز بشهادات الزور مع العويل وولولة أهل الدار فيبيعون جميع الأموال، ولا يتركون له حتّى لوازم عمله أو حرفته.

وإذا نطق أحدهم أنّ لهذا المدين كفيلاً، أسرعوا إلى دار الكفيل دون استئذان، يصادرون كلّ أمواله، وإذا ما علموا أنّ له حقلاً أو بستانًا أو كرمًا أو زيتونًا ولم يدفع عنها منذ عدّة سنين يضعون عليها اليد، أو يسلبونها منه مدّعين أنّه لا يملك أيّ أرض أو حقل أو بستان كرم. والسلطان (الأمير) يؤيّد كلّ الأقوال لأنّ الربح في الأخير يعود له وليس لغيره. ولأجل ذلك كان الناس يخافون الخروج إلى الأسواق من الأشرار.

وغالبًا ما كانوا يرسلون المفتّشين إلى دورهم يطالبونهم برغائبهم، وإلاّ يقصدون الأمير ليحاكمهم ويغرّمهم، وعن هذا الطريق يملأون بيوتهم بأموال الظلم والحرام. وعن هذا تنبّأ ميخا النبيّ إذ قال: إنّه يوبّخ الملوك على وجوههم. واختفى الصدّيق من الأرض. ليس عند الناس استقامة. جميعهم يجلسون بالكمائن. الرجل ورفيقه يجلبون الهلاك. أياديهم حاضرة للشرور، ولا يفعلون الإحسان. الحاكم يطلب الذهب، والقاضي يرغب بالرشوة، والكثيرون يتكلّمون بما تحبّ نفوسهم. رذلوا خبرهم كالخرقة التي يأكلها السوس. لا تتكلّموا عن أقربائكم. ولا تصدّقوا محبّيكم... وداود النبيّ قال: إنّهم سنّوا لسانهم كالسيف، وكلامهم كالنبال، يضربونها في الفقير ولا يراهم. نصبوا الفخّ، ويظنّون أنّ الربّ لا يراهم. يعوون كالكلاب، ويدورون بالمدينة. أحبّوا اللعنات أكثر من البركات. فلبسوا اللعنات كالسلاح. ودخلت فيهم كالمياه، وكالدهن في عظامهم...

كان في المدينة الخاطفون كالكلاب الوحشيّة، وقد فتحوا أفواههم كالقبور النتنة، يقبضون على كلّ إنسان، وإذا نجا واحد ألقوا القبض على غيره، وعن هؤلاء قال أشعيا النبيّ: إنّ المدينة المؤمنة أصبحت زانية، والمملوءة صلاحًا، مملوءة قتلاً وإثمًا، أيّتها المدينة المرذولة، ذهبك محتقر، حوانيتك مملوءة ماءً، عظماؤك عصاة وكلّهم شركاء اللصوص... وأيضًا أضاف إلى قوله: إنّ المستهزئين يُسلَّطون عليهم، وفي العالم يسقط رجل على رجل، ورجل على صديقه، ويسخر الشباب من الشيوخ، والأعزّاء يهانون ويُشتَمون، رؤساؤها بداخلها يزأرون كالأسود، وكدببة المساء وكالذئاب يخطفون، وأنبياؤها يحبّون العهارة، الويل للذين يفكّرون بالظلم، ويصنعون الشرّ على فدادينهم، يقومون الفجر ويفعلون ما فكّروا به، يرفعون إلى الله أياديهم، وتشتهي قلوبهم الحقول التي يسلبونها بالقوّة ويظلمون الناس.

وفي مثل هؤلاء يقول ميخا النبيّ: إنّهم أثمة أشرار. وقال أيضًا: إنّ أغنياءها ممتلئون بالظلم، وسكّانها بالكذب، لسانهم خبيث، وأنا أيضًا سأبيدك بسبب خطاياك، تأكل ولا تشبع، يكون لك معبر تمشي عليه ولا تنجو، الذي تنقذه أنت آخذه بالسيف. أنت تزرع ولا تحصد، تعصر الزيتون ولا دهن فيها، تعصر الخمر ولا تشرب منها.

(مَنْ مِنَ الناس لم يجرِ معه ذلك في الزيتون أو الحنطة أو الكرم... إنّ الغضب وصل إلى كلّ إنسان. ففي السنة الأولىهلك المساكين والغرباء والفقراء، كما كتبنا سابقًا... وفي الثانية هلك الأحسن منهم حالاً قليلاً... وفي الثالثة الأرقى والأوفر. وفي الرابعة هلك الآكلون أموال الأيتام والأرامل حيث لم يأكلوا ما سلبوا ونهبوا وحفظوه في خزائنهم... وعن هؤلاء قال النبيّ: إنّ الناس صنعوا وكمّلوا فيما بينهم ولم ينتفعوا...).

وعلى هذا الأساس تبادل سكّان المدن والتجّار القرويّون بالشرّ إذ كان الأوّلون يشترون أموال المساكين والفقراء من القرويّين، كرومهم وحقولهم، أو الخمر والحنطة التي عندهم، والأمير يساعدهم على الظلم لأنّه كان يستفيد من التجّار الذين كانوا يردّدون : إنّ القرويّين سلبونا أموالنا، والأمير يسمح لهم بوضع اليد على الأرض ومحصولاتها. وحينما كانوا يواجهونهم، كانوا يهربون أمامهم كالغنم الخائفة من الذئاب ويختفون، لا يتجرّأ الواحد منهم على الخروج وحده لشراء الخمرة من المعصرة. والأمير ليس له همّ ما سوى إصدار الأختام لختم السوق بالأسعار المعيّنة.

فكم من الشرور إذن جرت بين الناس الذين ارتكبوها بالتبادل قصدًا وعمدًا.

والآن أرى من اللزام وضع الحدّ للكلام عن تلك البلايا التي لم يتمكّن الناس من حملها. ونكتفي ختامًا لها بما قاله إرميا النبيّ في ذلك: مال شعبي ولم يعرفني، قال الربّ. إنّهم أبناء جهلاء وليسوا حكماء، الخير لا يعرفونه، نظرت إلى الأرض وأصبحت كأنّها لم تكن، إنّهم جميعًا كسروا النير وقطعوا حباله، ولذلك يكسرهم الأسد، وذئاب المساء يمزّقونهم، النمر يكمن على قراهم، وكلّ من خرج منها افترسه، لقد كثرت خطاياهم، وزادت ذنوبهم، وظهرت شرورهم كالسادوميّين.

* * * * * * * * * *

السنة الثانية من الضيق وهي سنة ١٠٨٥ي / ٧٧٤م / ١٥٨هـ

سبق وكتبنا عن الضيق المرّ الذي حلّ بالناس من جرّاء السرقات والمصائب والنكبات بسبب أعمالهم الشرّيرة التي تفشّت بين المسلمين والمسيحيّين من ثقل الضرائب والعشور والجزية، ومن ثمّ الهجرة المتواصلة مع نوائب أخرى في السنة الأولى (٧٧٣م).

أمّا في السنة الثانية فقد جرى أضعافًا مضاعفة ليس فقط في حاصلات الأرض إنّما علامات من السماء أرسلها الربّ كدلائل للمصائب –لي النقمة وأنا أجازي– يقول الربّ. فالضرائب صارت أثقل والعشور أكثر. فالعشّار أصبح يخرج إلى الطرق كالكلب المسعور لينهب كلّ من يلقاه، ومن أراد المقاومة غرّمه دون شفقة. وصاحب الجلاء (الهجرة) كان يعرقل التنقّل وينصب العقبات ويزيد من العقوبات حتّى وصلت إلى حدّ تناثر الجثث تناثر الأوراق فكانوا يمزّقون الفقراء حتّى طالت أيديهم القبور وذرّوا ترابها كما أشار إرميا النبيّ بقوله عن فتح القبور وتذرية عظامها كالزبل على وجه الأرض وليس من يجمعه. مكتوب في هذا الزمان يقول الربّ: يُخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام العظماء، وعظام الكهنة، وعظام الأنبياء، وعظام سكّان أورشليم من قبورهم، ويفرشونها أمام الشمس والقمر تحت السماء، كالزبل يبقون على وجه الأرض.

وفي هذه السنة زادت الويلات عن كلّ السنين السابقة في تواصل الشرور وفتح القبور، وقد قال إرميا النبيّ عن الأحياء الذين يعيشون بهذا الزمان، إنّهم يختارون الموت على الحياة. كلّ من بقي من هذه الطائفة الشرّيرة بدّدتهم بكلّ البلاد... وأضاف إرميا أيضًا: تكون جثث هذا الشعب طعامًا لحيوانات البرّيّة وطيور السماء وليس من يخلص. وأبطل من القرى وأسواق أورشليم صوت الفرح، صوت الانشراح، صوت العريس وصوت العروس، لأنّه ستكون كلّ الأرض خرابًا. فهؤلاء أخذوا الكمال وأعطوا جثث الناس طعامًا لحيوانات البرّيّة وطيور السماء... إنّ الشعب الذي ليس له إله، يشبه صوت فرح العريس والعروس... وأيضًا، إنّ الذين تزوّجوا ردّوا نساءهم، وطلّقوهم لكثرة الشرور والآثام...

هذه الأمور وغيرها لا موجب لتدوينها، فنمرّ عليها مرور الكرام، إلاّ ما حدث

في هذه السنة ولم يحدث في سابقاتها مثيلٌ لها. كالشتاء القاسي والبرد القارس، وقلّة المرعى وشدّة جوع البهائم والمواشي، وهلاك الحيوانات. ثمّ عن الجوع والأمراض الشديدة التي باد بها الناس كالجراد. وعن السبي والنهب الذي جرى بين القرى والنهب والقتل، وقلّة الطعام، وقطّاع الطرق. وأكل اللحم في الصوم الكبير. وأكل الجثث من قلّة الخبز... وعن هذه كلّها نكتب عبرة لمن يأتي بعدنا»[1].

الحديث عن الشتاء القاسي

«مكتوب أنّي أجعل صيفكم شتاءً».

في هذه السنة (٧٧٤م) كثر عصر مادّة الخمر التي يرتاح بها المساكين. ويسدّوا بها عيون القضاة وأفواههم النتنة كالقبور المفتوحة، لا يشبعون من الجثث التي يرمونها يوميًّا. كذلك الرؤساء لا يشبعون من خيرات الأرض وغلاّتها التي تحمل إليهم. فأفاض الربّ نعمه من خزائنه الغنيّة التي لا تنضب لأجل أن يغلقوا أفواههم الكريهة ويكفّوا عن استغلال المساكين فيؤدّوا حسابها يوم الدينونة...

شتاء هذه السنة تقدّم موسمه فحلّ بحلول شهر تشرين الأوّل، فاشتدّ البرد، وسقط الثلج على الكروم وأعنابها ودام أيّامًا فاستأجر أصحابها عمّالاً لجنيها، إلاّ أنّهم لم يتمكّنوا إذ باغتهم الثلج فسقطت العناقيد لاستمرار الثلج أيّامًا. أمّا المطر فلم يسقط هذا العام بحسب موسمه، منذ تشرين الأوّل وحتّى دخول حزيران، إنّما كان الثلج متواصلاً بالسقوط، فيومًا يسقط الثلج، وآخر تهبّ الرياح الشديدة التي تزعزع الجبال فيتراكم الجليد.

هكذا أراد الربّ أن ينزل غضبه على الأرض من كلّ الجهات، من السماء والأرض ومن أربع جهات الرياح، الثلج والجليد والرياح التي سبّبت الضيق على المسكونة كلّها، إضافة إلى الشرور التي لا تعدّ ولا تحصى.

(١) في هذا كثير من التكرار للأحداث والأفكار ولكن أمانة الترجمة يُفرض علينا ذكرها...

الفناء الذي حلّ بالبهائم والمواشي

في هذه السنة (٧٧٤م) حلّ الموت في المخلوقات الحيّة بسبب العطش الذي سبق وأشرنا إليه. فجميع قبائل التغلبيّين[1] والمعدّيين[2] صعدوا إلى المنطقة الشماليّة، بأهلهم وأغنامهم وجمالهم، وكذلك صعد سكّان الجنوب فخربت الأرض وانتهت كلّ المراعي وصارت كأنّها مكنوسة بالمكنسة. حتّى إنّ التبن والعلف اختفيا إذ كان قليلاً، فبادت البهائم من قلّة المرعى. وإذا صادف أن خرج المرء بأغنامه ومعزه إلى المراعي فلا يجد سوى التراب. ولا أوراق شجر، إذ أكلتها المواشي صيفًا، أو كنستها الرياح، أو غطّاها الثلج، فلم يبقَ لا علف ولا عليق بسبب طول الشتاء وقساوته. فامتلأت الأرض من جثث البهائم: الغنم والبقر والخيل والحمير، حتّى إنّ القرى أصبحت روائحها نتنة كنتونة القبور.

الرياح الشديدة

هبّت في هذه السنة (٧٧٤م) ريح شديدة عاصفة. لم يحدث مثلها أيّام آبائنا فهلك بها أناس كثيرون وأيضًا الماشية والبهائم والطيور، حتّى إنّ الزروع يبست، وأحدثت ترابًا كالزوابع الثلجيّة. وأذكر أنّه بين عيد الميلاد والدنح هبّت يومين متتاليتين رياح سريعة وقويّة، وكذلك في اليوم الثالث عشر من شباط، ويوم الأحد الأوّل من الصوم الكبير ويوم الإثنين. ولأنّ الأرض قد يبست من كثرة الجليد لم يبقَ فيها أدنى رطوبة، فيبست جميع الزروع في الأرض ذات التربة الهشّة. وذات يوم انعقد في الجوّ ظلمة معتمة لشدّة الغبار الذي ارتفع من الأرض فهلكت الطيور وخاصّة الحمام، ولم ندر ماذا أصابه من دون كلّ الطيور فباد واختفى من المساكن كما في الخارج.

---

(١) تَغلِب: من أعظم قبائل العرب. يمنيّة الأصل. انتقلت إلى نجد والحجاز فإلى حدود الشام فإلى ما بين النهرين. اشتهرت بشدّة البطش وكثرة المفاخر. كان بنو تغلب مسيحيّين، وكان عليهم أسقف في القرن العاشر. حالفوا الدولة الأمويّة ونصروها على أعدائها. اشتهر منهم عدد من الشعراء كالمهلهل وعمرو بن كلثوم والأخطل. ظلّت القبيلة على دينها المسيحيّ حتّى أوائل العصر العبّاسيّ. ونبغ منها في الإسلام بنو حمدان أصحاب حلب.

(٢) مَعَدّ: اسم جمع أطلق على بعض القبائل العربيّة، وخاصّة على القبائل التي نشأت في شماليّ جزيرة العرب منها ربيعة ومُضَر.

قساوة البرد وشدّته

في هذه السنة حلّ برد شديد وقاسٍ لم نرَ مثله في أيّامنا. فكان الجليد فيه كبيرًا ومختلف الأشكال، حافّاته حادّة كالسيف، وقسم من قطعة لها حدّان أو ثلاثة، وأحيانًا أربعة. أشجار الكروم تكسّرت، والمزروعات خربت وسقوف البيوت تزعزعت، وسقوف البيوت القرميديّة تكسّرت، وحدث فيها أضرار كثيرة بسبب الغيوم الكثيفة والرياح العاصفة التي كانت تحمل المياه الساقطة على الأرض، أو تصعد بها إلى السماء ومن ثمّ تسقط، فكان الناظر إليها يظنّ أنّ الأرض تصعد بالمياه إلى وجه السماء.

عودة موسى بن مصعب

عاد موسى بن مصعب واستلم ثانية حكم ولاية الموصل والجزيرة، وعادت بعودته الشدائد والمصائب، ممّا حمل السكّان أن يقصدوا الخليفة ويقدّموا شكواهم عليه بما أجراه عليهم هذا الرجل المتلوّن وصديق اللصوص، الذي لا يعرف العدالة، إنّما يثير مكانها الشرّ فيفرض عليهم الضرائب الثقيلة، ومن جرّائها ضاقت عليهم الأحوال. والخليفة (أبو جعفر المنصور) زاد في إكرام موسى وتقديره أكثر من جميع عظماء دولته، وخوّله بصلاحيّات واسعة يفعل بموجبها ما يشاء مع العمّال والمساعدين والجباة في سائر مدن الولاية وكافّة أنحائها.

ولمّا استلم ابن مصعب هذه الصلاحيّات زأر كالأسد حينما يسطو على فريسته يمزّقها إربًا إربًا، فزادت شروره أضعافًا بأضعاف لأنّ الخليفة يسانده ويعضده، إلاّ أنّ الله قد أمهله كما يقول إرميا النبيّ: خذ من يدي كأس الغضب، واسقها لكلّ الشعوب التي أرسلك إليها فيشربوا، ويحتقروا، وتضيق أنفسهم من أمام الخراب الذي سأرسله أنا إليهم، فأخذت الكأس من يد الربّ وسقيت الشعوب التي أرسلني الربّ إليها... وقال أيضًا: اشربوا واسكروا واحزنوا لكي تقعوا ولا تقوموا من أمام الخراب الذي أرسله بينكم... وقال أيضًا: إنّكم تُغلبون ولكن لن تَغلُبوا لأنّني أدعو عليكم بالخراب وعلى كلّ سكّان الأرض قال الربّ. الربّ من العلوّ يزأر عليهم ومن مسكن قدسه يعطي صوته، فإنّه يزأر زئيرًا على داره آه آه كالذي بالمعصرة، ويهزأ بكلّ سكّان الأرض لأنّ الحكم هو لله وعلى كلّ سكّان الأرض.

بالحق كان الشرع هذه السنة لله مع جميع سكّان الأرض لأنّهم ليسوا شعبًا واحدًا أو مملكة مطمئنّة واحدة، غير أنّهم كانوا متساوين بالضيق الذي أتى عليهم بالتساوي فشربوا من كأس واحدة، فالمسلمون والمسيحيّون واليهود والمصريّون والأرمن والسنديّون وكلّ الشعوب فرض عليهم الخراج القاسي والجزية الثقيلة، حتّى إنّ أبناء الروم لم يسلموا ولم ينجوا من الضيق المرّ.... وللمحبّة الكبيرة التي غرق بها رؤساء الروم للمال راحوا يسومون أبناء الشعب أنواع العذابات. فعندنا وعندهم مزيج الكأس واحد، مملوءة بالاحتقار عوض العزّ، والشتائم عوض الكرامة. قال النبيّ حبقوق: اشرب أنت واحزن فيرجع إليك كأس عين الربّ والمذمّة عوض الإكرام بسبب الخطف الذي بلبنان يوبّخك، ونهب الحيوانات يقلقك أكثر من دم الإنسان...

وهنا يبيّن النبيّ أنّ الكأس الأولى التي شربتها الأرض وسكّانها من يد الربّ هي كأس عين الربّ والمذمّة عوض الكرامة... ويردف حبقوق بقوله: ها إنّي سأضع في صهيون حجر العثرة وحجر الشكوك، فكلّ من وقع عليه أغناه، وإن وقع عليها جعلته كالهباء... وهذا ما حدث مع موسى، فإن اشتكوا عليه يأتيهم الغضب، وإن لا فيأتيهم الخراب. فمن كلّ جهة يأتي الشرّ منه وعنه كما قلنا سابقًا. والربّ أعطى المعثرة لكلّ الشعوب أمامه وضربهم بالبرد والثلج والجليد، ولم يتمكّنوا من الهروب لصعوبة الظروف.

وإذا صادف أنّ واحدًا هرب، فسرعان ما يعود إلى بلده إذ لا يستطيع العيش وحده أسير الطبيعة والعراقيل الصعبة. وعلى هذا أشار النبيّ القائل: إذا جعلتَ مقرّك في الأعالي إنّي أنزلك. وإذا نزلت إلى الجحيم أصعدك من هناك وأسلمك بأيدي الذين يطلبون نفسك... وأيضًا قال: يدوسونه كوحل الأسواق، وكالزبل على وجه الأرض، ولا يكون له مخلّص... وهكذا كان شأن الوالي الظالم مع الناس الذين جعلهم مساعدين له في مدنهم، وخاصّة المساكين الذين اشتدّ عليهم البلاء دون رحمة. علمًا أنّه انتخبهم وهو من بين رؤساء الأقاليم وعظماء مدنه، فكانوا يسرقون علانية وبوضح النهار وليس من يحاسبهم، ووقع عامّة الناس في ضيق شديد، فانحلّت أياديهم، وهبط قلبهم بداخلهم، وقُصمت ظهورهم عند سماعهم بعودة موسى بن مصعب المنافق، ومات رجاؤهم بداخلهم لأنّ الخوف كان مسيطرًا عليهم فيفزعون لأدنى حركة من حركاته. ولم تهدأ مهجهم، ولم ينشرح صدرهم بل زاد القلق ضيقًا، وأحاط بهم الغضب من كلّ جانب كما قال أيّوب.

فأقام الوالي الظالم عاملاً في كلّ قرية. يعاونه موظّفون آخرون، كما أنّه زاد من قيمة ضريبة الجزية، وصارت طلباتهم هي الأخرى تزداد أكثر فأكثر كالسرّاق واللصوص. ومن بينهم انتخب قضاة للشعب. ومكتوب أنّ الملوك الأثمة خدّامهم أثمة كذلك. فكانوا يعاملون الناس بالقتل والضرب والجلد القاسي عند مطالبتهم بالخراج، فيأخذون نصف ما يجبونه لأنفسهم كأجور العمل، ويعودون ليسلبوا الباقي من المقتنيات فيبيعونها بأرخص الأثمان. فملأوا بيوتهم بأموال الأرامل واليتامى. وإذا صادف وسافر أحدهم إلى بلد آخر وهو لا يملك شروى نقير، ويبتدئ بالعمل لقاء أجور معيّنة ما ينفكّ أن يفاجئه الجباة. فيلتزم بدفع كلّ ما يملك لتسديد الضريبة التي هم فرضوها وقدّروها عليه. فأيّ إثم هذا وأيّ حالة أمرّ منها.

وهكذا كانوا يجبون مرّتين وثلاثًا في السنة، وكثيرًا ما ألقوا القبض على أناس أحرار لهم مكانتهم في الإقليم وأهانوهم وباعوا كلّ مقتنياتهم، أو قُتلوا واختفى ذكرهم من وجه الأرض، فقد كانوا يطلبون ثلاثين أو أربعين درهمًا ممّن عليه عشرة، أو يقضي أيّامه في العبوديّة لأنّه لا يملك ما يدفعه من المسلمين والمسيحيّين على حدّ سواء، فقط لإشباع أطماعهم بالمال. وعن هؤلاء صرخ أشعيا النبيّ قائلاً: الويل لي، فإنّ الأثمة فعلوا ظلمًا... وجعلوا عليك الحفرة والفخّ... الذي يهرب من صوت الخوف، يقع في الحفرة، ومن يخرج من الحفرة تلزمه الفخّ، إنّه نصب في الأعالي وانتفخ فتزعزعت أساسات الأرض، ذوبانًا تذوب الأرض، وانحناءً تنحني، وترتجف ارتجافًا كالسكّير، وترتجّ كالعرزالة. فيقوى عليها إثمها، وتقع من قارّة إلى قارّة. ومن بلد إلى بلد.

وهكذا كثر الشرّ بين الناس، واختفى الناموس، فأصبح العجل كصاحبه، والكاهن كشعبه، والمدين يقسو على الدائن، والمذنب أكبر من ذنبه، وقد قال أشعيا النبيّ: إنّ الربّ يمحو الأرض ويخرّبها، ويخرّب وجهها ويفرّق سكّانها. فصار الشعب كالكاهن والخادم كسيّده، والجارية كسيّدتها، والمدين كالدائن، والملاّك كالبائع، وكالمذنب الذي يذنب إليه فتخرب الأرض خرابًا وتُنهب نهبًا من حيث إنّ الربّ قد تكلّم. أخذت الأرض تبكي وتولول وتحزن. لأنّ الأرض تشبّهت بسكّانها، فبطلت الشريعة وتبدّلت الوصايا الصالحة إلى الشرّيرة. وانتهت الوعود الحقيقيّة من العالم التي من الأبد، وجعلوا عوضها الإثمّ والنفاق والسرقة.

قال الشيطان للأثمة: ها إنّ عيني قد أبصرتهم. قال هذا للعبيد الذين طردوه وأدركوه، ألاّ يتمرّد أحد، ولا يترك الإنسان النفاق، فرش شبكته ليصطاد... بها وجد جميع أبناء آدم يده كأنّها عشّ لجميع الشعوب ولن ينجو إنسان من الخطيئة، لا الأسقف ولا الكاهن أو الحاكم من الخطف والسلب والنهب، الهجاء والشتم والافتراء والتذمّر والبغضاء والسرقة والزناة وفتح القبور، وكلّ بذور الشيطان التي زرعها بين الناس، وكلّ واحد كان يفعل السوء حسب درجته وقوّة تمكّنه. وعن هؤلاء قال النبيّ:

لأجل هؤلاء تجلس الأرض في الحزن، ويذنب جميع سكّانها، فيجنون بالحزن الغلاّت والفاكهة. انتهى الفرح في كلّ قلب، بطلت الأفراح وآلات الطرب، وصوت الانشراح والدفء والغناء، ولم يعد هناك شرب الخمر، ويقال لشاربه أنت سكران. نُهبت الفدية، وسدّت المدن منافذها وولولت على الخمر المراق في الأسواق. بَطُلَ كلّ فرح وانشراح، وحلّ الحزن والقلق والخبال...

هذه جميعها لم نسمع بها، بل رأيناها بأمّ عيوننا.

فعل الناس كلّ الشرور مع بعضهم، وتجاسروا على الرهبان والمتوحّدين والحبساء والعاموديّين. فأنزلوا الكثيرين عن أعمدتهم، وأخرجوا الحبساء من منازل عبادتهم، والرهبان من القلالي والأديرة، أولئك الذين كانوا مجتمعين بروح التقوى والقداسة. فتحمّلواالاضطهاد والجلد القاسي والشدائد أكثر من الجميع من أجل الإيمان. فليعلم ويفهم الذي يقرأ، بأنّه لم يحدث في العالم اضطهاد أقسى ممّا حدث في هذه السنة (٧٧٤م). وكنت معجبًا لأمدح روح الاستشهاد، إذ لم يكن باستطاعة المرء الهرب، إنّما كان مكتوفًا وأسيرًا، يُسلَب ما بين يديه، حتّى لم يبقَ له شيء. وإذا أطلق سراحه وهرب إلى جهة أخرى، في الطريق يُسلب ما بقي لديه من مال إن بقي لديه. ولو رغب في دفنه ببطن الأرض، كانت الأرض تصرخ بما فيها. وإذا ما تركه أمانة عند امرئ، كان يسرقه اللصوص والسرّاق.

وعن هؤلاء قال عوبديا النبيّ: إذا ارتفعتَ كالنسر، وإن وضعتَ مقرّك بين النجوم، أنزلك من هناك يقول الربّ... وقال هوشع النبيّ: من كثرة الإثمّ ازدادت الشهوة الفاسدة في كلّ واحد. وإلى الإثمّ والمراءاة مال شعبي ولم يعرفني. هم أبناء جهلاء، وفي الشرّ حكماء، الخير لا يعرفون، والأرض خاوية خالية...

قال إرميا النبيّ: أصبحت الأرض كلّها خاوية خالية، وانعقدت الظلمة والخطيئة والإثمّ على وجهها...

وبيّن ناحوم النبيّ: بيعت جميع أموال الأرض، كثر تجّارها أكثر من نجوم السماء...

إنّ العنزة الحامل، اثنتان أو ثلاث بيعت بدرهم واحد، وكذلك العنزة والثور بدرهما، والبغل بعشرة دراهم. أمّا باقي الأشياء فكان مآله إلى الخراب الذي يذهب مع الريح... ثيابهم الجميلة وكلّ مقتناهم من الحلى الفضّيّة والذهبيّة، والزينات البيتيّة والأثاث نهبها القضاة الظالمون، أو بيعت بأرخص الأثمان. فما كان ثمنه عشرين أو ثلاثين درهمًا بيع بدرهمين أو ثلاثة، وهكذا تلوّث وجه الأرض بالبغي والإثمّ.

فلمّا جاءت أيّام الصوم المقدّسة ودخلت الأسابيع المسمّاة بأسابيع البسما[1]، لم نسمّها سنتئذٍ بأسابيع البسما، ولكن بأسابيع الضيق والمرارة والتنهّدات، إذ كثرت فيها الشدائد أكثر من باقي السنين الماضيات.

وهكذا تعاقب الضيق جميع أيّام الصوم المقدّس إلى ما بعد الأحد الجديد، وبطل بذلك الأحد والعيد، وبطلت الطلبات التي كانت تقام في أيّام الصوم والشعانين والآحاد الباقيات. وقد بلغ الأمر بالمسيحيّين أن قلعوا كلّ المصنوعات الحديديّة والخشبيّة كالأبواب والشبابيك من دورهم وباعوها، وفي الأخير باعوا الأبواب بذاتها وقلعوا الشبابيك أيضًا من بيوتهم وباعوها ليقتاتوا بأثمانها، وفي الأخير تركوا بيوتهم خربة وفرّوا حفاة عراة، يحملون على ظهورهم شدّة البرد والضيق، وقصدوا قرًى أخرى، وهكذا ظلّوا يرحلون من قرية إلى قرية ومن بلدٍ إلى آخر.

والآن نهتف مع إرميا النبيّ القائل: إنّ الشعب يأكل المرارة ويشرب المياه المرّة ولذا تبدّد... ومع أشعيا النبيّ القائل نقول: يكونون كالظبي التي تهرب، وكالغنم لا راعي لها يجمعها، فالمرء يرجع إلى شعبه، ويهرب من أرضه...

وأيضًا: تمتلئ بيوتهم أصواتًا. والأبالسة ترقص هناك، ويحلّ فيها بنات آوى، وتغنّي سيرينس في ساحاتها، والثعالب في هيكل انشراحهم.

(١) ربّما يقصد بها أسابيع البخور، لأنّ البسما هي مادّة البخور.

وليس لنا فقط إلاّ أن نقول: لقد انتهى السميذ والخمر من بيت الله، إلاّ أنّه تركت الكنائس عزّتها، وتخلّت عن زينتها، وباعوها. وما بقي احترق بالنار، وأواني الخدمة فُقدت، والكروم خربت، والكرمة بكت، الحقول أنبتت الشوك والحسك، والتينة يبست، وكذلك الزيتون ذبل، وأيضًا الرمّان والتمر والتفّاح وجميع الأشجار يبست لأنّ الفرح زال وانتهى والناس هربوا، وأضحت بيوتهم مأوى الحيوانات.

الضيق الذي سبّبه الظلم بين القرويّين

رأيت من اللزام عليّ أن أكتب هذه الأمور هنا، فقد سبق وكتبت عن الويلات والآلام القاسية. أمّا الآن فأذكر ما هو أكثر شرًّا وأمرّ وقعًا من السابقات، وما جرى من الإهمال في هذا الإقليم إذ لم يكن همّ المسؤولين سوى الأكل والشرب. فإنّ قليلي الرحمة لم يتركوا ولا وتدًا في الحائط إلاّ أخذوه، هؤلاء اللصوص الأدنياء الأراذل. فصار عامّة الشعب عراة حفاة، وأصبح السرّاق وقطّاع الطرق أشرافًا وأغنياء من جرّاء أعمالهم الشرّيرة. هؤلاء السكارى الزناة وأرباب الكمائن والمؤامرات الليليّة ومخرّبو البيوت صاروا هم القضاة والجباة الجناة. فانظروا يا إخوة ماذا فعلت خطايانا التي ألقتنا بأيدي القساة الطغاة، حتّى إنّ الجزية والضرائب الأخرى فرضت علينا أضعافًا مضاعفة، فباع الناس كلّ ما يملكونه لأجل أن يدفعوها.

ليس فقط الجزية المقيتة والضرائب المعروفة كانوا يستوفونها، إنّما ضرائب أخرى كانوا يستنبطونها ويفرضونها بالتساوي على كلّ الناس دون تمييز بين فقير وغنيّ، بل كانوا يقولون: هذا عقاب وجزاء من أجل المنطقة الفلانيّة التي خالفت فحلّ عليكم العقاب، ولم يكن يجرؤ على الكلام أحد، بل كان الجميع يهابون الحكم الصادر.

قبضوا على عظماء القوم وقتلوهم دون رحمة، وخاصّة أنّ بعضًا من مواطنيهم القرويّين كانوا سعاة أمام الظالمين وساعدهم الأيمن، يهجمون على الناس ويسلبون أموالهم ويبيعونها ظلمًا بحجّة وأخرى وبتُهمٍ باطلة مبيّتة، يوجّهونها جزافًا. كانوا يقولون لبعضهم: إنّ لك في القرية الفلانيّة كرمًا أو حقلاً أو بستان زيتون... أو أنت كفيل فلان... أو أنت لم تدفع الجزية عن السنة الماضية أو قبلها أو قبلها لذا نلزمك بدفعها الآن. وإذا ما تجاسر أحدهم وقدّم شكوى للقاضي، كان القاضي يردّ الشكوى ولا يحاسب المنافقين.

وأحياناً كانوا يقبضون على عابري الطرق ويقيمون عليهم شهود زور من أنّهم لم يدفعوا الجزية لسنوات عديدة، رغم أنّ هؤلاء يحلفون بأنّهم لم يتّفق والتقوا مع هؤلاء الجباة ولا هؤلاء الشهود، غير أنّ كلامهم يذهب أدراج الرياح فتصادر أموالهم وتباع ويدفعون الجزية صاغرين.

وهكذا كنت ترى الجباة كالكلاب المسعورة يدورون في المدينة يتمرّغون بالأرض يسألون عن الذي عنده الحنطة والغنم والبهائم أو الحديد أو أيّ شيء آخر ينفع للتجارة، وينصرفون للتفتيش زمرًا زمرًا في الشوارع والأسواق، يتشاجرون مع الناس قائلين: نحن وراءكم إلى انقضاء الأيّام، ويحفرون الأرض تحت أقدامهم يفتّشون عن الأموال والذهب والفضّة والحليّ. فإذا الأرض كالمرأة الحامل التي يأتيها ألم المخاض.

بهذه الصور وغيرها كان الناس يسلكون في أيّام الصوم المقدّس.

والآن ننتقل إلى شرور أخرى كان يفعلها القرويّون بعضهم ببعض. كانوا يذهبون من معسكر إلى معسكر، من شرٍّ إلى شرّ، فينتقلون من قيءٍ إلى قيء. التائب على التائب، والصالح على الصالح، فاختلط الحابل بالنابل... إلخ.

المرارة التي عاناها الناس، والسبي الذي فعله القرويّون

إنّ الكمال والفرائض التي وضعها الربّ على جميع الأرض، لم يسلك الناس بموجبها ولذا غضب ولم يهدأ غضبه. زادت شرورنا كثيرًا، ويومًا بعد يوم نقترف من المآثم مختلف المآثم ونحملها على ظهورنا حملاً ثقيلاً ولا نريد تخفيفها، ولأجل ذلك صرخ إرميا النبيّ:

هكذا قال الربّ: إذا وقف أمامي موسى وصموئيل، فنفسي لا تريد هذا الشعب. أخرجهم من قدّام وجهي، وإن قالوا إلى أين نخرج؟ قل لهم هكذا قال الربّ: الذي للموت للموت، والذي للقتل للقتل، طعامًا للكلاب وطيور السماء وحيوانات البرّيّة وللخراب...

والآن نحن طردنا الربّ من أمام وجهه ولم يبقَ مقدس ولا غفران، ولا ناس طاهرون بيننا ليرضى الربّ علينا، فخربت البلاد وخرج الناس من بيوتهم، وهجم

الجباة عليهم كالكلاب لإبادتهم، وكالطيور لقتلهم دون رحمة، بل شرًّا من الكلاب والطيور الجارحات[١]...

هذه كلّها جرت على آمد وأرزون وميّافرقط، إذ وُجد فيها أناس قساة أردياء وأدنياء. فماتت المحبّة بينهم وسادت عليهم الشرور[٢]...

ولمّا رأى الناس أنّ هؤلاء المسؤولين وجوههم صفيقة لا يخجلون من الناس ولا يخافون من الله، تحقّق لديهم أنّ هذه الأعمال الأثيمة التي يفعلونها يوميًّا في البلاد كلّها بتحريض من رئيسهم موسى بن مصعب[٣]...

فإلى متى لا يشبعون من لحومنا. لا نعرف من أين نأخذ لنجلبه لهم. هذا الذي يصفّق بيديه كالأبله، وذاك يصرّ بأسنانه كالذئب الذي لحس الدم، وثالث اجتمع حوله اللصوص والقتلة وسافكي الدم... جمعوا من القرى صبيانًا كثيرين وجعلوهم في المعسكر وسلّموا لهم السلاح والحراب والمقلاع، هؤلاء من ثمّ شرعوا باقتراف كلّ الآثام ضدّ إخوتهم. إنّ اللسان عاجز عن وصفها أو سردها.

كان بين هذه المنطقة وبين الجبال من الجهة الشماليّة أرض تسمّى توتيس، وكان الشعب الذي يعيش فيها مسيحيًّا أورطيًّا. وكان هؤلاء الأورطيّون يتقاسمون الأرض مع أرمينيا، أي إنّها أرمينيا الرابعة، ويوجد فيها مناجم يستخرج منها التبر (الذهب) والفضّة، مع أنواع الحديد. ولشدّة الضيق الذي حلّ بالناس، قصد هذه المنطقة جمع غفير لاستخراج التبر منها. فتكوّن هناك معسكر عظيم أقاموا عليه عاملاً من قبل الملك (الخليفة)، وشرعوا بحفر الآبار العميقة والكبيرة لاستخراج التبر.

غير أنّ حكّام الأرض الشرعيّين رفضوا إعطاء المعلومات لعمّال الفرس[٤] قائلين: إنّ أكثرهم من إقليمكم وإنّهم يعطون الجزية والضرائب لكم، فهو شعب دخيل. ولذا شنّوا الحرب عليهم وسلبوا كلّ شيء وأمروا بطردهم جميعًا وألاّ يدخلوا إلى أراضيهم. ولمّا رفضوا تَرك الأرض باشروا بقتلهم. فهرب هؤلاء الباحثون عن التبر من أمام حدّ السيف، وإذ كان الفصل شتاءً والثلج كثيرًا والجليد جامدًا على أفواه الآبار المطمورة

(١) أربعة أسطر مضطربة.

(٢) عشرة أسطر مضطربة.

(٣) هنا يوجد نقص في النصّ.

(٤) يقصد بهم العبّاسيّين.

بالثلج والمملوءة بالماء، والهاربون لا يعرفون أمرها كانوا يسقطون فيها ويغرقون، فهلكوا خنقًا تحت الجليد الذي على فم البئر، وكثيرون قتلوا بحدّ السيف ولم يرحموا أحدًا. وسلبوا جميع المعسكرات التي أنشئت هناك.

وعن هؤلاء قال إرميا النبيّ: إنّ أعداءنا فتحوا علينا أفواههم جميعًا، ووقع فينا الخوف والرعب... عيوننا أجرت سواقي الماء على انكسار ابنة شعبي... صيدًا صادوني دون تعب، سكنت حياتي في الجبّ، ألقوا عليّ الحجارة، طافت المياه فوق رأسي...

ونضيف ما قيل في الآخرين: من يفرّ من صوت الخوف يقع في الحفرة، ومن ينجو من الحفرة يقع في فم السيف، ومن يخلص من فم السيف يقع في الأسر.

وهنا تحقّق كلّ شيء، فالذين اختنقوا وقتلوا، تحنّن عليهم قلب رفاقهم المسيحيّين فأخرجوا جثثهم ودفنوها، لئلاّ يقول عنهم المجوس الفرس[1] أن ليس فيهم مخافة اللّٰه.

ولأجل مجد الربّ وطول أناته على خطايانا نقول للاتّعاظ:

رغم كثرة الثلج المتراكم لم يهرب الناس، وإذا صادف وهربوا كان القساة يقتفون آثارهم، فإذا لحقوا بهم وهم منطرحون فوق الثلج وقد جمدت أوصالهم مع نسائهم وأولادهم وهم يرتجفون ويتفرقعون كالملح على النار من شدّة البرد، فعوض أن يساعدوهم بأفعال الرحمة كانوا يعرّونهم من ثيابهم، الرجال والنساء والأطفال ويتركونهم عراة حتّى ممّا يستر عوراتهم إذ كانوا يسلبون سراويلهم دون حياء فيموت القسم منهم خجلاً لانكشاف عوراتهم. كما أنّه لنجاستهم، هؤلاء القساة كانوا يفعلون الفحشاء مع النساء والبنات أمام بعضهم البعض دون حياء. فقد تبخّرت قطرات الخجل من على وجوههم الكالحة. وفي الأخير كانوا ينهبون أموالهم ويهربون. وكلّ ذلك كان يجري بأوامر ذلك المنافق موسى بن مصعب الذي كان يتزعّم تلك العصابة الشيطانيّة، أولئك اللصوص الذين التحقوا بصفوفه ودخلوا معهم تلك الكورة من أجل شهواتهم الحيوانيّة النجسة، التي أكملوها بأولئك المساكين بتحريض من القرويّين ورؤسائهم الذين كانوا أشدّ قسوة من المجوس. فلم يتحنّنوا على إخوتهم، لا بل فعلوا الشرّ لهم بالاتّفاق مع قطّاع الطرق الذين خربوا الكورة، حتّى

(١) أي أتباع الدولة العبّاسيّة.

إنّهم أحرقوا الخشب وكسروا أواني الفخّار وهي بعد في الأكوار وسلبوا كلّ الأدوات الحديديّة والنحاسيّة مع كلّ الفرش والمنامات والأبواب والكؤوس والصحون، فلم يتركوا شيئًا إلاّ وأحرقوه بالنار، إضافة إلى كسرهم الأكواز والجرار والدسوت والقوارير.

وأمّا الخمر المحفوظ في الزقاق فشربوه حتّى اكتفوا، والبقيّة سكبوه على الأرض. وإذا صادف واكتشفوا بعض الأواني مطمورة في الأرض ولا مجال لكسره، فإنّ واحدًا منهم كان يتبرّع بإيغال حربته في الإناء ويكسره من الأسفل أي يثقبه فيسيل الخمر في الأرض.

أمّا العسل الذي وجدوه عند الناس فأكلوا منه قدر طاقتهم والباقي منه سكبوه على الأرض، إضافة إلى أنّ جميع خلايا النحل كسروها وغمروها بالماء لأجل أن يموت النحل الذي فيها، فبلغت خسائرهم ما لا يحدّ. وكلّ ذلك بمشورة الشيطان. فأكلوا اللحم والجبن في أيّام الصوم المقدّسة وأعمال أخرى فعلوها بنجاسة أكثر من المجوس...

إنّنا حقًّا لمتعجّبون لما حدث من السوء الذي حلّ بالناس الذين تجاسروا على الكنيسة، فسرقوا كتبها وجميع أثاثها مع أواني الخدمة المقدّسة ودخل الكفّار معهم وعبثوا وخرّبوا وارتكبوا كلّ منكر.

والآن يجب أن نبكي مع إرميا النبيّ ونقول: لقد فقدت صهيون هيبتها... هكذا الكنيسة المقدّسة، فكهنتها يُحتقرون فيها لأنّ العدوّ قد ارتفع، وفرش يديه على كلّ شهواتها...

هذه الشرور صنعوها في الأرض، الرجال جاءوا بهم مقيّدين كأنّهم قتلى وقد سُلِبت كلّ مقتنياتهم وأموالهم. وهكذا فعلوا بأبناء كثيرين من القرى، وقد عبروا أرزون وميّافرقط وسرقوا كلّ ما فيهما من غلاّت.

أولئك الجناة حكم عليهم بالعذابات القاسية والجلَدات الأليمة، حتّى سرى الدود بأجسامهم فماتوا من جرّاء ذلك. وآخرون كسرت أياديهم وأرجلهم لثقل السلاسل التي كانت مربوطة بها. هكذا سلّمهم الله بيد الظالم الأثيم، جزاء كلّ النجاسات التي فعلوها...

كان الأثمة يقبضون على الصبيان (الخدم) في الأسواق ويرتكبون معهم الفحشاء. أمّا الكتبة والصيارفة الأشرار، رغم كونهم مسيحيّين فكانوا بدون حياء ولا خجل، يأتون بالعذارى ويفضحونهنّ بالاعتداء عليهنّ. وليس مع الإماء والجواري، إنّما مع بنات الأحرار والأشراف.

هؤلاء الذين تجاسروا على عروس المسيح (الكنيسة) قد وقعوا في الفخّ الذي نصبها لهم الربّ. فالأثيم سقط بيد الأثيم، وكلاهما انتقم الربّ منهما. فتسلّط القويّ الشرّير عليهم وثقب مناخرهم ووضع فيها حلقات كحلقات الإبل، كما ثقب عيونهم، وصنع لهم سلاسل ليسحبوهم بها كالبهائم... وألقاهم بالسجن، قوتهم اليوميّ الخبز اليابس، والروائح النتنة تحيطهم من كلّ جانب...

أكتفي بهذا القدر القليل اليسير من الأخبار، كتبته هنا ليطّلع عليه الرؤساء فيعيشوا المحبّة بمحبّة الله الذي سبحانه يجب أن يعيش في قلوبهم، ويضعوا الناموس (القانون) نصب أعينهم وإلاّ يسقط عنهم اسم الرئاسة ويحملوا اسم العصاة الموسوم بالغباء والفناء.

الجوع الذي حلّ بين الناس والوباء الذي انتشر

مكتوب في سفر النبيّ: ها إنّي أطعم لهذا الشعب المرارة، وأسقيه ماءً مرًّا، وأبدّده بين الشعوب الذين لا يعرفونه، وأرسل إليهم الجوع والموت والسلب والقتل... فتحقّق ما قاله النبيّ دون زيادة أو نقصان.

فقد صار ضيق شديد في البلاد الجنوبيّة. بسبب العطش الذي سبق وذكرناه. وإنّ الشدّة والقسوة اللتين مارسهما موسى بن مصعب امتدّتا على المنطقتين الجنوبيّة والشرقيّة[1]، فصعد سكّانهما الجائعون إلى أرض ما بين النهرين، فازدحمت بهم البيوت والمحلاّت والقرى والمدن، ولم يبق مكان لأحد كي يجلس أو يمشي. فاشتدّ الضيق وعمّ الألم على المساكين الذين في ما بين النهرين، لاسيّما العمّال الذين لم يكن يُعطى لهم الأجرة، إنّما كان ربّ العمل يستأجر الفعلة للخدمة بأكل البطن ليس غيره. والأكل هذا لا يتعدّى الخبز. فكنت تجد الرجال والنساء والأولاد والشيوخ يدورون على البيوت طوال النهار طلبًا للطعام. فإذا ما وجد باب مفتوحًا وقفوا أمامه

(١) ربّما يقصد بالمنطقة الجنوبيّة سوريا. وبالشرقيّة العراق؟

نحو الثلاثين أو الأربعين رجلاً كأنّهم شخص واحد، فكانوا يطلبون بصوت واحد ما يسدّ الرمق. وهكذا صارت يد الجميع ممدودة للاستعطاء والاستجداء. ولمّا صار عددهم فوق ما يتصوّره المرء لكثرة الفقراء والغرباء والمحتاجين، امتنع الناس من العطاء خوفًا من الأيّام المقبلة، لئلاّ تسوء حالهم هم أيضًا وتتعسّر الحياة. والمأمور – قسوة على قسوة، وشدّة على شدّة – سلب كلّ الغلاّت من أصحابها وباعها ظلمًا، وبذلك عمّت الحاجة إلى الطعام.

فما كان من المحتالين إلاّ أن اختلطوا بالمساكين والمحتاجين فصنعوا لهم أكياسًا كالبرص والعميان والمضروبين والمقعدين، رغم كونهم شبابًا أقوياء، حيث رفعوا عن وجوههم برقع الحياء، وشرعوا يدورون على البيوت مستعملين كلّ حيلة. أحنوا ظهورهم كالمرضى والطاعنين بالسنّ، يهدّدون كلّ من لا يعطيهم حسنة بالويل والثُبور، وأحيانًا لا يغادرون الدار حتّى ينالوا ما يطلبونه. وفي ختام النهار أو الأسبوع يقصدون السوق ليبيعوا الخبز الذي استجدوه ويشتروا بثمنه اللحم والخمر...

ولمّا تنبّه الناس على هذه الأفعال أمسكوا أياديهم حتّى عن المساكين الحقيقيّين، فحلّ على الناس ضيق شديد بسبب هؤلاء الأغبياء المحتالين. ولم يعد الناس يقرضون ولو فلسًا واحدًا للمحتاجين. كما أنّهم داسوا شريعة الصوم فأكلوا اللحم والجبن والبيض وشربوا الحليب. وبادت كلّ المواشي من تلك المناطق حتّى إنّ الخبز اختفى من السوق وعمّ الجوع على سكّان الكورة كلّها لكثرة الغرباء من المهاجرين، حتّى إنّهم شرعوا بالتفتيش على جثث البهائم الميتة للتغذّي عليها.

إنّ الغرباء الذين فرّوا من ديارهم هربًا من الجوع، اصطدموا بالبلاء أمامهم ووراءهم، فأينما اتّجهوا كانوا يواجهون الخراب والموت، فأكلوا المرارة وشربوها، وتفرّقوا بين شعوب لا يعرفونها. وهكذا أرسل الربّ السبي والجوع والموت فقضى على أغلبهم، وبهذا الضيق الشديد قضوا فصل الشتاء بأكمله، إلاّ من بعض الأيّام التي كانت حرارتها أكثر من غيرها فباشر النبات بالنموّ، وخرج الناس إلى البرّيّة كالبهائم يجمعون تلك النباتات ويأتون بها إلى السوق ويبيعونها ويشترون بثمنها الخبز، أو كانوا يقتاتون بها، فكانت تبدو على وجوههم سحنة بلون الخضار، ولم يكونوا يشبعون حتّى من فضلات الحيوانات، فتمّت فيهم كلمة النبوّة القائلة: تأكل ولا تشبع. لكي تكون لك العبرة.

أجل كانوا يأكلون ولا يشبعون، فأصابهم جميعًا مرض وجع البطن، ومرض العيون وأنواع الحمّى، وأمراض أخرى لم تكن معروفة آنذاك. كما كثر فيهم مرض الباسور والاستسقاء.

وحينئذٍ ورد لنا خبر من الموصل مفاده أنّه تفشّى بين أهليها مرض ورم الرأس. فكان المصابون يسقطون حالاً ويموتون، ولا يسعفهم أحد، إذ لم يكن بإمكان الواحد أن يصل المريض إلاّ وقد فارق الحياة. وهذا الخبر صار عندنا خبر المجالس. ولم تطل الأيّام حتّى وصل إلينا المرض وسرى في البلاد ببطء. فمن كان يصيبه، يزول نظره، ويختلّ عقله، وإن كان واقفًا يسقط كالميت، ويبقى أيّامًا كثيرة وهو لا يعي بنفسه، ولا يستطيع إكمال الأسرار في اليوم الأوّل أو الثاني، وبعدهما لم يعد يدرك شيئًا.

وإذا صادف ورجع عقل المصاب بعد أيّام – وهذا نادر – كان الذي يستيقظ من سبات عميق، لا يتذكّر أنّه كان مصابًا بمرض ومنّ اللّه عليه بالشفاء. كما أنّه لم يكن يتمكّن من النهوض لممارسة العمل لضعف جسمه وثقل رجليه.

كما أنّ هذا المرض كان يعاود المصاب أكثر من خمس أو ستّ مرّات. وكان المصاب يموت ربّما من الإصابة الأولى أو الثانية أو الخامسة أو السادسة. وآخرون كانوا لدى إصابتهم يظهر على أجسامهم خطّ أبيض يبقى يومًا أو يومين ويختفي ليظهر آخر لونه أحمر، وهذا أيضًا ييبس فيظهر خطّ أزرق كامد. والمريض يتحمّل هذا الألم أيّامًا كثيرة على أمل أنّه سيشفى فيحدث له إمساك شديد، وإذا تخلّص منه أصابه مرض الدمامل حيث كانت تظهر أربع أو خمس دمامل في مكان واحد، وكلّ منها لها نوع من الألم. منهم من كانت تظهر الدمامل في بطنه أو على ظهره أو صدره، إضافة إلى الخطوط والباسور ومرض القلب وغيرها...

هذه الأمراض كانت تظهر كلّها أحيانًا في الشخص الواحد بوقت واحد، فيتحمّل المصاب آلامها حتّى يفارق الحياة، ولهذا كانوا يلقونهم في الهيكل وأروقة الكنائس والبروج والأسواق ويدفنونهم في المزابل أحيانًا كثيرة.

وآخرون لشدّة الضيق والجوع كانوا يتجوّلون في المدينة ويقفون على الأبواب، على كلّ باب أكثر من عشرة وعشرين وثلاثين متسوّلاً، ومن بينهم المصابون بالدمامل والخطوط أو وجع البطن وغيرها... والضعفاء منهم كانوا يزحفون على أيديهم

وأرجلهم كالقطط يطلبون الخبز، والخبز بعيد عنهم حتّى إنّ الذين يحبّون توزيع الصدقات لم يعودوا يتجاسرون أن يعطوا الذين يقصدون أبوابهم لكثرة الناس الذين هم داخل الدار.

أمّا الذين قد افترشوا أرض الأسواق فكانوا يتعذّبون من شدّة الجوع والعطش، كما أشار النبيّ القائل: يكونون منطرحين في الأسواق (أسواق أورشليم) من جرّاء الجوع والموت، وليس من يدفنهم هم ونساءهم وأولادهم، فيلقي عليهم شرّهم.

إذا دخلت قرية تجد المعذّبين من الجوع، وإذا دخلت المدينة وجدت المصابين بالوباء. أمّا في البرّيّة فكنت تجد المقتولين بحدّ السيف، وهكذا كان البشر يموتون كالجراد فتتردّد من دخول المدن خوفًا من الحاكم والوباء والجوع. وشرع الناس يهجمون على الناس، ويقطعون الطرق وينهبون كلّ عابر سبيل وأحيانًا يقتلونه، وكلّ ذلك طمعًا بالحصول على الذهب والفضّة، إلى جانب استجدائهم الخبز.

ازداد عدد الموتى والقتلى فوق الحدّ من أجل الحنطة أو الطحين، الذي كان يحمله البعض إلى ذويهم. فكانوا لأجل حفنة من الطحين، أو خمسة أرغفة يسفكون دم الأبرياء. فكثر نهب القرى وقطع الطرق ونهب السالكين بها من المسافرين أو العاملين، ويدخلون المدن ومنظرهم أخضر كلون الحشيش فيبيعون ما لديهم ويشترون الخبز إذ كانوا يأكلون بلا قياس حتّى إنّ بعضهم يصلون إلى حافّة الموت للشراهة التي أصابتهم. ومنهم من يتناول الخبز بيده وما إن يأكله حتّى يسودّ لونه كالشعر الأسود ويسقط إلى الوراء وقد فارق الحياة. وقد حيّرت هذه الحالة الكثيرين، إذ مات فيها الكثيرون، ولم يكن يقترب منهم أحد لدفنهم بذات اليوم.

وعلى أيّ حال، فإنّ الله لا يهمل المساكين، إذ حلّت عليهم نعمته وعمّت رحمته، فحرّك قلوب المؤمنين بالمحبّة والغيرة للعطف على المرضى والمصابين بداء الدمامل، والمتروكين في الأسواق وقد نتنت جروحاتهم. فتغيّرت الأحوال، وشرع الناس يسعفون المرضى والمصابين، بعد أن كانوا يتقزّزون من منظرهم ويبتعدون عنهم. فصاروا باجتهاد كبير يهتمّون ويعتنون ولا سيّما الناس الأشراف والوجهاء من ذوي المكانة الرفيعة، وشرعوا بإكرام الموتى ودفنهم باحترام ولياقة، فيجلبون لهم الثياب والنعش ويخرجون بهم إلى المقبرة لوضعهم في مثواهم الأخير وسط الصلوات والمزامير على حسب عادة المسيحيّن والتقاليد الجارية. ثمّ شرعوا يجمعون الذين في الأسواق والمعذّبين من جرّاء

العطش والجوع ويأخذونهم إلى الهياكل. وعيّنوا أناسًا لخدمتهم، وبدأوا بجمع التبرّعات كلّ بحسب اقتداره وطاقته من أجل المصاريف لهؤلاء المعوزين.

وهكذا بسبب شدّة الضيق تساوى الجميع، فأضحى الأغنياء متسوّلين. وكذلك أصحاب النقود والمتنعّمين والمترفين بالبذخ في الطعام والشراب، صاروا منبوذين في الأسواق، والذين كانوا يلبسون الحرائر الآن يضّجعون على المزابل. وقد قال إرميا النبيّ بهؤلاء:

إنّ أنظارهم أظلمت وأضحت سوادًا حتّى إنّ منظرهم تغيّر ولم يعودوا يُعرفون. يبس جلدهم على عظمهم، ويبسوا كالعصا. إنّ قتلى السيف أفضل من قتلى الجوع، وهم يزحفون كالمطعونين، ألقوا بأنفسهم في الحقل.

هكذا أيضًا المرضى والمعذّبون، كانوا يجمعونهم في الأسواق، والأموات منهم يدفنونهم. ففتك ذلك الغضب بسكّان المدن وأصبحوا كلّهم سواء إذ أصيبوا جميعهم، الكبار والصغار، الأطفال والشيوخ، الشبّان والشابّات، إلى حدّ أنّه إذا دخلت عشرين دارًا لا تجد فيها واحدًا يتمكّن أن يناول لرفيقه الماء، بل كانوا كالموتى يفترشون الأرض، وواحدهم لا يميّز المضرّ من المفيد. وكما قال إرميا: إنّ لسان الطفل التصق بسقف فمه من العطش. الأطفال يطلبون الخبز وليس من يعطيهم.

وإذا نجا في البيت واحد أو اثنان، كانوا يواجهون الوجع والقلق والضيق أكثر من المرضى حيث لم يكن مَن يخبز لهم الخبز، وكان المرضى أيضًا يعانون من الجوع والعطش لأنّه لم يكن من يوزّع لهم الخبز والماء.

وهكذا كان يوميًّا جنازة أو جنازتان وحتّى ثلاث. الأب والابن، الأمّ وابنتها، أو أخوان سويّة. ويصادف أن يكون الأخَوان كلّ في جانب من جوانب المدينة فتلتقي الجنازتان مع بعضهما ويوضعان في القبر الواحد فوق الآخر. ومثل هذه الحالة صادفت كثيرًا، إذ يكون الأخَوان يعيشان الواحد في الجانب الشرقيّ والآخر في الجانب الغربيّ.

وكثير من رؤساء مدينة آمد ونبلائها ورؤساء بيوتاتها وجميع كهنة كنيستها ماتوا بهذا الوباء الخبيث الذي استمرّ فترة، ثمّ شرع يتناقص إلى أن انتهى في المدن والقرى، ومن ثمّ في الكورة كلّها، بعد أن حصد من البشر أعدادًا كبيرة.

وهنا تمّت كلمة أشعيا: شربت من يد الربّ كأس غضبه وليس لك مسلّيًا، من جميع أبنائك، ولا يوجد من يمسك بيدها من كلّ الأولاد الذين ربّتهم، وأيّهما تصعب عليك السلب أو المرض أو الجوع أو السيف، كالسلق المضروب بالوجع مملوئين من غضب الربّ إلهك، مثل لون السلق في الجليد أصبح لون الذين نجوا من هذا الوباء. وجميعهم أصبحوا صلعًا إذ سقط شعر رؤوسهم، كما أنّه لم يعد يعرف الكاهن من الراهب في ثيابهم، ولا أحد يفرّق بين الكاهن والعلمانيّ، لأنّ جميعهم أصبحوا محلوقين بيد الربّ. حتّى إنّ النظر والسمع فقدوه، كما أنّ قوّتهم فارقتهم لزمن طويل. وكلّما كان الحرّ يشتدّ كان المرض يقسو.

ولّما اقتربت أيّام الحصاد في بلاد العرب، اجتمع كلّ الشعب في الشمال حتّى الغرباء وانحدروا جميعهم إلى الحصاد ليشبعوا الخبز. فقصد حقول الحصاد النساء والأطفال بحسب عادة الشماليّين الذين كانوا يرافقون أطفالهم معهم إلى الحصاد.

وهكذا نزل الشيوخ والأطفال والنساء والشباب والبنات للعمل في الحصاد من أجل أكل الخبز، غير أنّ المساكين ما إن أكلوا وامتلأت بطونهم حتّى افتقدهم الموت، فامتلأت من جثثهم الطرق والروابي والسهول، يحصده الموت كالجراد. والأجرة لم تكن سوى الخبز الذي يأكلونه مجبولاً بعرق الجبين، ومن ثمّ صار سببًا لموتهم. فكانوا يخرجون للحصاد عشرين، ويعود في نهاية النهار خمسة. ولّما علم أصحاب الحصاد بهذا الأمر لم يعودوا يسمحون بدخول الحقل إلاّ الذي منظره حسن وجسمه قويّ البنية، وراحوا يعطون للفعلة خمسة فلوس كأجرة يوميّة ثمّ صارت عشرة فلوس إلى أن أكمل أصحاب الحصاد حصادهم. القساة القلب والغليظو الرقبة، إذ لم يكونوا يحنّون على هؤلاء المساكين وإن كان بالخبز اليابس، فضربهم الربّ لسوء تصرّفهم وإرادتهم الشرّيرة كما سنبيّن...

سرقة القبور وتذرية عظام الموتى

أشار إرميا النبيّ إلى سرقة القبور وتبذير عظام الموتى، وليس من يجمعها، إنّما تبقى كالزبل على وجه الأرض.

قال النبيّ: يكون في ذلك الزمن يقول الربّ، يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام

عظمائهم، وعظام كهنتهم وعظام أنبيائهم وعظام سكّان أورشليم من قبورهم... ويفرشونها أمام الشمس والقمر وكلّ عناصر السماء التي أحبّوها وعبدوها وتبعوها واستعانوا بها وسجدوا لها، فلا يُكنسون ولا يُدفنون، لكنهم كالزبل يكونون على وجه الأرض.

أمّا نحن فقد جاهد الشيطان في سبيل إيقاعنا بفخّه لكثرة خطايانا عبر أجيال بعيدة حتّى بلغ بالناس الأمر أن يفتحوا قبور موتاهم ويذروا عظامهم بلا احترام، فكانوا كالرجل الذي يخرج التبن العتيق ليذرّيه خارجًا، هكذا كانوا يخرجون العظام من القبور ويلقونها خارجًا بحثًا عن غاياتهم الفاسدة في العثور على الفضّة والذهب، ولذا لم يكونوا يعيدون تلك العظام إلى أماكنها ولا يخافون الله رغم توبيخ الغيورين وزجرهم إيّاهم للإثمّ الذي يرتكبونه قائلين لهم: ماذا أنتم فاعلون؟ ماذا ستجنون؟ فيردّون عليهم: إنّنا نرغب بالمأثورات التاريخيّة والأثريّة... ففلان وجد كذا وكذا مراود ولجام الخيل وعقود الذهب، والقرية الفلانيّة عثر سكّانها على كذا ألوفًا من القطع الذهبيّة. وبمثل هذه المغريات كان الشيطان يصوّر لهم تغطية لفشلهم. وإذا صادف وأنّ شخصًا عثر على مراوة من نحاس، أو ركاب الفرس من النحاس أيضًا، كان الأمر يغريهم بتخيّلات الأبالسة الذين كانوا يصوّرون لهم كلّ الأمور.

وهكذا حقّق الشيطان حلمه بأولئك المؤمنين الذين لم يستطع إيقاعهم في تجاربه لإيمانهم القويّ، فانتقم من عظامهم التي لم يتركها هادئة في قبورها، فجنّد جنوده لأن يفتحوا القبور ويذرّوا العظام الصالحة. ومن أجل فتح القبور وتذرية العظام انتشرت بين الناس الأمراض المختلفة، وتمّ ما كتب بالكتاب القائل: عندما تفتح القبور تنتشر أوبئة كثيرة بين الناس في المدن.

وهكذا انتشرت فتنة حفر القبور حتّى الحديثة منها وتعرية المدفونين من الثياب وتركها عارية دون دفنها ثانية، وكثيرًا ما شوهد على سرّاق القبور ثياب الموتى، ممّا حمل الناس على استئجار حرّاس لحراسة المدفونين نهارًا وليلاً لئلاّ يطمع السرّاق في أحذيتهم أو ثيابهم أو الزينة والحليّ التي معهم. فاشترك اليهود والمسلمون والمسيحيّون في عمليّة الحراسة ومن ثمّ كانوا يطلون ما يدفن مع الميت بالقطران لئلاّ تبلى... وكان الحرّاس يمكثون في حراسة القبور ريثما تمرّ فترة على المدفونين ليتأكّدوا من تفسّخ الجثث مع ما يوضع معها.

وهكذا بلغت بالناس الجسارة حتّى إنّ اللصوص كانوا يتباهون بارتداء ثياب المدفونين والتزيّن بالزينة ذاتها وما كانوا يستخرجونه مثل المناديل المنقوشة والعقود وغيرها.

وبهذا تحقّق ما قيل عن فتح القبور وسرقة ثياب الموتى، وهكذا ارتكبنا جميع الشرور والإثمّ والنفاق. ونشكر الربّ على كلّ مراحمه غير المحدودة علينا نحن الضالّين.

الوباء، والحيوانات الوحشيّة التي ظهرت بعده

في هذه الأيّام سقطنا جميعًا في النفاق والإثمّ، وارتكبنا كلّ الأعمال الممقوتة، الكذب والخطف، والشتم والنهب، والهجو، والزنا، والدعارة، والسرقة، وشهادة الزور، والقتل، والنميمة، وإلصاق التهم بعضنا ببعض. وبذا أحاطتنا الشرور من كلّ جانب. وعليه ينبغي ممارسة التوبة والعودة إلى الربّ قبل أن ينتقم منّا، كما قال إرميا النبيّ: سأجمع عليهم الشرور كلّها، وسهامي تأكل فيهم، يتوجّعون من الجوع فيسلمونهم إلى الأرواح النجسة، والطيور الجارحة والحيوانات الوحشيّة، يكثر الخراب في منازلهم وكذلك المخاوف.

وقال أشعيا النبيّ: يُتركون جميعهم لطيور الجبال ولحيوانات الأرض تغضب عليهم. وقال حبقوق النبي: شبعت من المذمّة عوض العزّ. فاشرب إذن أنت وتوجّع، ويرجع عليك كأس يمين الربّ، والمذمّة مكان عزّك، وإنّ اختطاف لبنان يقع عليك، وسلب الحيوانات يقلقك من دم الإنسان، والتوجّع الذي على الأرض والمدينة وكلّ سكّانها.

وقال إرميا: أخرجهم من أمام وجهي. وإن قالوا لك إلى أين نخرج قل لهم هكذا: قال الربّ من يموت فإلى الموت، والخراب إلى الخراب، والجوع إلى الجوع، والسلب إلى السلب. وأقسم على أربع ضربات قال الربّ: السيف للقتل والكلاب للسحب، وطير السماء وحيوانات الأرض للأكل والخِبال وأتركهم في الفزع والخوف.

وقال أيضًا: إذا خرجت إلى البرّيّة فتجد المقتولين في السيف، وإن دخلت إلى القرية تجد المتوجّعين من الجوع، وإنّ البلايا كثيرة بالأعمال والعسر والجوع والأوجاع

المختلفة والموت على البشر، تركوا بيتهم وصعدوا فجلسوا في الجبال والوديان. وهناك يبيدون كالجراد من الجوع والموت والبرد ويؤكلون من قبل الحيوانات لأنّ ليس من يدفنهم...

وانتشر الموت في سائر القرى والمدن إلى حدّ أخرجوا من بعض الدور أربعين أو خمسين شخصًا وأصبحت خاوية خالية. فمثلاً من الموصل كان يخرج في اليوم الواحد ألف جنازة. وكذلك من القرى وسائر المدن. فمات عظماء القوم جميعهم من الأرمن. كما أباد الموت سائر الكهنة في المدن والقرى. فمات في دير قرتمين خمسة وتسعون نفسًا وأكثرهم معروفون، ومن دير مار صليبا[1] جميع رؤسائه، فأضحت أغلب القرى والمدن خاوية خالية.

وترافق هذا الوباء ظهور حيوانات مخيفة مفترسة. وكانت لا تفرّ من قوّة الإنسان ولا تخاف من أيّ سلاح. فافترست عددًا كبيرًا من الناس. كانت هذه الحيوانات تشبه الدببة، إلاّ أنّها تختلف عنها قليلاً. لها ذيول طويلة وقويّة، آذانها كبيرة كآذان الفرس أو الخنزير، ولها شعر منتصب كشعر الخنزير في وسط ظهرها. هذا الحيوان الغريب فتك بالناس وخاصّة في منطقة طور عبدين.

وأخبرنا بعض الناس أنّه في قرية واحدة أكلت مائة شخص. ومن قرى أخرى بلغ عدد الذين أكلتهم هذه الحيوانات نحو عشرين وأربعين وخمسين وهكذا. والناس لم يتمكّنوا من طردها أو إبعادها حتّى ولا قتل واحدة منها. كما أنّها لم تكن تهرب من الإنسان، وإذا ما حاول بعضهم مطاردتها فإنّهم كانوا يجهدون عبثًا، لا بل كانوا يخافون منها ويهابون شراستها فلا يواصلون ملاحقتها، ولا هي تهرب أمامهم. إنّما كانت ترتدّ راجعة إليهم فيفزعون وترتجف أيديهم فتقفز عليهم وتأكلهم...

وقد رأيناها تدخل البيوت وتأكل الأطفال وليس من يعترضها. كما كانت في الليالي تصعد إلى السطوح العالية وتفترس الأطفال من بين ذويهم وتنزل، والكلاب لم تكن تنبح على واحدة منها.

ولهذا السبب أصاب الأرض ضيق شديد أكثر ممّا سبق وذكرنا، حتّى إنّ الناس

(١) دير صليبا بنواحي دمشق، مقابل دير الفراديس. ويعرف أيضا بدير خالد. لأنّ خالد بن الوليد لمّا نزل محاصرًا لدمشق كان نزوله به (معجم البلدان) ٤ : ١٥١).

لم يعودوا يتمكّنون من السير اثنينِ أو ثلاثة إلاّ جماعات جماعات. كما أنّ البهائم والمواشي لم تعد ترعى في المراعي الخارجيّة، وذلك لأنّ هذه الحيوانات إذا ما دخلت إلى قطيع من الماعز أو الغنم فإنّها لم تكن تفترس إلاّ الراعي.

من أجل كلّ ما جرى يمكننا أن نقول إنّ سبب هذا العذاب الأليم الذي أرسله الله وألمّ بنا هو عقاب عن خطايانا الجسيمة التي ارتكبناها والتي باستحقاقنا حلّ بنا الجوع والمرض والموت إضافة إلى السبي والنهب والطرد من بلد إلى آخر. كلّ ذلك حلّ بالبشر الذين كانت جثثهم تأكلها طيور السماء والحيوانات البرّيّة تقطع عليهم الطرق إذ كانت تترك الماشية وتطمع بالناس.

والحيوانات الوحشيّة التي ذكرناها سابقًا، عبرت إلى منطقة أَرْزَن وعاثوا بها، وكذلك في منطقة ميّافرقط، وفي الجبل العطشان. أمّا في آمد فكانت الأضرار قليلة.

فكان غضب الربّ علينا عظيمًا، ولم يرفعه عنّا بسبب خطايانا وأفعالنا الشرّيرة، فقد انغمسنا في الخطايا والآثام إلى أعماق الهاوية. ولذا زاد الربّ علينا التأديب والتعذيب...

فكانوا يقبضون على العرب والمسيحيّين بسبب الميراث مثلاً، فعلاوة على المعاملة القاسية كانوا يحرمون أقرباء المتوفّى الميراث بحسب شرع الملوك، إلاّ ما هم يقدرونه بحسب ذوقه، فكانوا لا يخصّون بالميراث سوى الابن مع أبيه، والأب لابن عمّه، والعمّ لابن أخيه، وابن الأخ لعمّه. وفي حالات الضيق فهؤلاء أيضًا يحرمون.

قال يوئيل النبيّ: أسنانه كأسنان الأسد، وأنيابه مثل أنياب الشبل. جعل كرمي خرابًا وتينتي يابسة وابيضّت أغصانها.

وهكذا جرى لمن طلب وأخذ البقيّة أخذها الأمير (موظّف الميراث، أو حاجب الميراث) فسلب الناس ظلمًا.

* * * * * * * * * *

الخبر السادس[١]:
موت أمير آمد ووصيّته، المسجونون في آمد...

إنّ المجال ضيّق للتحدّث عن الشرور التي حدثت في هذه السنة. إنّ جميع المدن كانت تعاني من الضيق بسبب بقاء الرأس الرئيسيّ سيّد الخراب في البلاد إذ لم تنته أيّامه بعد.

أقول: إنّ أوّل بليّة حلّت كما يقول أشعيا النبيّ: إذ رأى شرورهم بعين النبوّة وعرف مآثمهم... ويتّفق معه بالقول رفيقه إرميا. وهكذا على فم شاهدين تثبت كلّ كلمة. فامتلأت المدن والقرى من الشغب وسادها الاضطراب. والناس فيها ليسوا موتى مقتولين بحدّ السيف ولا أحياء عاملين[٢]...

لأجل هذا قلت: اتركوني لكي أبكي على حزن ابنة شعبي، بسبب القلق والحزن يدعو الربّ القويّ إلى البكاء واللطم ولبس المسوح... ذبت من حسرتي، وقلبي اضطرب فيّ... إنّ صراخ ابنة شعبي من الأرض البعيدة بسبب المصيبة التي أصابتها، فحزنت وأخذتني الحيرة حيث لم يحصل لها شفاء... مَن الذي يعطيني كاس الماء... عيوني ينبوع الدموع فبكيت الليل والنهار على انكسار ابنة شعبي. مَن يتركني أن أبقى نائمًا في البرّيّة... تركت شعبي وابتعدت عنهم لأنّ جميعهم زناة، وهم سفلة. أطلقوا لسانهم كنبال القوس. كثرت في الأرض شهادة الزور لأنّ الشرّ يخرج الشرّ ولا يعرفوا الربّ[٣].

هذه الشرور وغيرها حلّت في مدينة آمد والجزيرة بهذه السنة، على يد العامل (الحاكم) الأثيم القاسي الذي استلم السلطة فيها. رجل من قلينقوس اسمه مبذول.

---

(١) هكذا ورد في النصّ السريانيّ. ولم يذكر الأخبار الخمسة الأولى.
(٢) هنا اضطراب في النصّ. وتداخل في الأقوال لذا فضّلنا عدم ترجمتها وتركها... عدد الأسطر خمسة.
(٣) نصوص متفرّقة من سفر إرميا.

رجل منافق، لا يعرف الله، ولا يخجل من الناس في حركاته وتصرّفاته، ولهذا سمّوه مبذولاً[(١)]...

وهنا نستطيع أن نهتف مع أشعيا النبيّ: أين تجتمع البنات اللواتي يتركونهنّ...

فجمعوا كلّ الأرض ولم يكن من يرفع جناحه ويفتح فمه ويغنّي. فاجتمع المسلمون والمسيحيّون ولا سيّما العظماء والأقطاب، أصحاب الدور والغرباء، ولم يكن أحد يرفع جناحه أو يفتح فمه ويتكلّم. وليأتِ داود النبيّ ويرَ هل نجّسوا الهيكل أم جعلوه محلاً للخلاء يشبه بيت البعل، ويقول: أللّهمّ قد دخل الشعوب على هيكلك (ميراثك) ونجّسوا هيكلك المقدّس... وهكذا فعلوا بكنيستك المقدّسة وجعلوها بيتًا خرابًا للخلاء، وصعد منها رائحة كريهة عوض رائحة البخور.

وأشار أشعيا النبيّ بقوله:... إنّ الأرض تجلس بالحزن، ويأثم كلّ سكّانها. ناحت وجلست في الحزن الأرض. ناحت وجلست في الحزن المسكونة لأنّ جميع الموائد امتلأت...

كما قال عنهم النبيّ الذي أخبر بفم الربّ قوله: إنّ هذه هي راحتي أريح المتعذّبين، وهذه هي الراحة ولم يفعلوا أن يسمعوني. وكانت كلمة الربّ عندهم كالقيء، وقيء فوق قيء... وهنا يمكن أن يرى فيهم وجميع موائدهم مملوءة من قيئهم لقلّة المكان، فأيّ دمع، أو أيّ ألم يكفي إذ يرى الناس الأحرار والأشراف وهم يمسكون بأيديهم الخبز ويأكلون وأمامهم أكوام على أكوام من الزبل، وآخرون يتنجّسون لضيق المكان. وعن هؤلاء يشير يوئيل النبيّ صارخًا: الكهنة لبسوا المسوح وناحوا، خدّام المذبح يصرخون بالعويل، ادخلوا أيّها العبيد والبسوا المسوح ونوحوا... ليس لأن قُطع السميذ والخمر، ولكن لأنّ الكنيسة أصبحت مرذولة ومطلقة من الربّ بيد الغرباء.

وفي كلّ هذا الضيق الكبير كان الناس يخافون من هذا المنافق الذي كتب كتابًا

---

(١) في هذه الصفحة أجوبة كثيرة لا يمكن قراءتها لأنّها مخرومة. جاء فيها ذكر الحاكم المنافق والبلايا الكثيرة التي جناها منه الناس إذ نهبهم وسلبهم. حتّى اليتامى والأرامل في مدينة آمد وضواحيها وفي جبل أشوما، وفي أرض شميشاط، وكالعادة يستشهد الكاتب بأقوال الأنبياء. وأيضًا هناك صفحات عديدة لا تتجاوز السبع صفحات مشوّهة ومخرومة لا يمكن قراءتها فأعرضنا عن ترجمتها.

في رأس السنة بشكل تعديل ما قد طرأ. فكلّ من ليس له اسم مكتوب أو ليس مختومًا على يديه، ألقى عليه ضريبة قيمتها ستّين درهمًا عوض ثمانية وأربعين. وهكذا ذات الخمسة والثلاثين أو الخمسة والعشرين أو خمسة عشر درهمًا. وشمل هذا التعديل المساكين والفقراء الذين بقوا في السجن يتعذّبون من جور الجوع والرائحة الكريهة لأنّهم لا يستطيعون أن يدفعوا الضريبة. كذلك ألقى القبض على الأكابر والعظماء من أجل أبنائهم وإخوتهم وأبناء عشيرتهم غير المدوّنة أسماؤهم في الكتاب المعدّل، كما قبض على الذين أسماؤهم مدوّنة ويتعامل معهم بحقارة كبرى.

هذا العامل الأثيم اختار له أناسًا سكارى وعاهرين وجعلهم له رفاقًا مساعدين، الذين كانوا يتّهمون الكبار ويسرقون ما ينالونه منهم. ولم ينجُ أحد فقط من أيديهم الدنسة، وفرضوا عليه الغرامة بحجّة تهمة مزوّرة أو ملفّقة عليه. وبذلك قبض على أغلب أبناء البلد وأرغمهم على أن يقيموا معه العهد والصلح، فحدث لأجله شغب عظيم في البلاد، وجَلَدَ عظماء المدن بضربات حتّى الموت. وبذلك قتل وألقى القبض على كلّ إنسان بما شاء وكيفما اتّفق ولو ليزجره بقول أو بتأنيب وتوبيخ. أمّا هو فلم يكن من يوقفه عند حدّه أو يسأله لماذا فعلت هذا وهذا. ورغم أنّه نال منهم ما أراد لم يعْدل عن شرّه فكان يفرض ضرائب جديدة ويهدّدهم بحجج متنوّعة، فيخرج عمّاله إلى الطرق ويقبضون على العابرين، ويسلبونهم ما في حوزتهم من موادّ أو أموال.

إنّ الله بحسب مراحمه، جعل أن يكون هذا الضيق في شهر أيّار، فكان الناس يلتجئون إلى الجبال ويختبئون في مغاراتها ووديانها كالحمام، وانقطعت جميع الطرق بسبب كثرة قطّاعها في جميع الأقاليم وسطوة الغضب الجاثم عليها. فهلك كثير من الناس من الجوع الذين كانوا يخافون من الوصول إلى القرى والمدن. وإذا صادف لأحدهم حاجة ما ليبيعها في المدينة ويشتري بثمنها خبزًا، كان يرسل أمامه النساء ليدخلن إلى المدينة لقضاء حاجته عوضه. فالرجال كانوا يختبئون في المزارع بين الزروع بانتظار من أرسلوهنّ. وكانوا أحيانًا ينتظرون يومين أو ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا

يمتدّ الانتظار من يوم الأحد إلى يوم الأحد، ولذا بعضهم كانوا يهلكون جوعًا. أو قد يختفون بين القبور يتضوّرون جوعًا حتّى الموت، يبيعون بضائعهم بثمن رخيص يكاد يكون مجّانًا. وهكذا نَصِفُ هذا الزمان: السيف والجوع ينتظرنا في الخارج، والخوف والفزع في البيوت بالداخل.

إنّ هذا الغضب عمّ أهالي تِللاّ وأهالي الرها، والحرّانيّين بشدّة. وقد قال النبيّ: إنّ هذه اللعنة ظهرت على وجه الأرض كلّها.

كذلك نصيبين عانت من هذا الغضب القاسي فابتعدت عن أهاليها الرحمة، فالحاكم والموظّفون فرضوا عليهم الجزية بأضعاف مضاعفة، فلم يعودوا يستطيعون التجوّل في مناطقهم خوفًا من أصحاب القلوب القاسية. فألقى القبض على بعضهم وأرسلهم إلى السجن في الموصل بعد أن جعلهم في السلاسل الحديديّة، وأقسم على أن لا يخرجهم من السجن ما دام حيًّا على وجه الآرض. رغم أنّ كثيرين التمسوا منه العفو فلم يسمع منهم. فمكثوا بالسجن إلى أن سمح الربّ بخلاصهم، ونال هذا القاسي جزاءه وما يستحقّ من عقاب.

وهكذا كان الزمن يتأرجح من سيّئ إلى أسوأ، ومن شرّ إلى شرّ منه، ومصائب الدهر كثيرة.

* * * * * * * * * * *

الخبر العاشر[١]:
مأمورو العشور والضرائب والمأمور الثاني للحظيرة

مأمور العشور والضرائب

قيل إذا خرجنا من جحر الحيّة، خرج علينا التنّين وفراخه السامّة. والحيّة الرقطاء شرٌّ من التنّين. فالحاكم الشرّير أرسل جباة ومأمورين على الأرض كلّها ودخلوا المدينة، فراحوا يسجّلون على الناس الضرائب دون رحمة، حتّى إنّ المرء الذي لا يملك حنطة أو شعيرًا أو أيّة غلّة، لا بل يشتري احتياجاته من السوق، سجّلوا عليه ألف غرفة وعلى آخرين ألفين، وعلى بعضهم خمسة آلاف أو عشرة آلاف حتّى وصل الأمر إلى تسجيل الأربعين أو الخمسين ألف غَرفة[٢]. والسبب لأنّهم كانوا يسجّلون دون الدخول إلى البيت ومعاينة المحصول، إنّما كانوا يكتبون بما يشير عليهم الشيطان.

كذلك سجّلوا على أصحاب الحوانيت، والرحى، والبقّالين الجوّالين، وتجّار الدهن وغيرهم دون شفقة حتّى بلغ الأمر ببعضهم أنّه لو باع ما عنده في الحانوت، لا يساوي نصف ما يطلبون من ضريبة. فوقع الناس في ضيق شديد، بسبب ضرائب الجزية والخراج والعشور. والمأمور المكلّف بجمعها لا يهمّه إلاّ أشباع نهمه للمال بأيّ طريقة وبأيّ وسيلة.

وهكذا يمكننا القول: إنّ الذي تركه الجراد الطيّار أكله الزحّاف، والذي بقي منه أكله العصفور، والذي بقي منه أكله الماشوط أو الجندب. فما بقي من الخراج أخذه مأمور البقايا (الضرائب) وما زاد عن هذا أخذه العشّار، والذي تركه أخذه المأمور الثاني، كالذي يخاف من الصوت يفرّ ويسقط في الحفرة، ومن يصعد من الحفرة يقع في الفخّ، ومن ينجو من الفخّ تأكله الحيوانات في البرّيّة.

المأمور الثاني للحظيرة

لمّا مات خليل بن ردين مأمور الحظائر الذي ذكرناه سابقًا في الكتاب، وتعيّن مكانه

---

(١) هكذا ورد. انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٩.

(٢) الغَرفة. بفتح الغيم وتسكين الراء كيلة خشبيّة لكيل الحنطة. حجمها نصف الوزنة أو أصغر بحسب أماكن استعمالها.

أبو عون، شنّ حربًا على عمّال ابن مصعب وطردهم من المدينة، فأرسل الملك (الخليفة) رجلاً قاسيًا ومتعصّبًا وسافك دم. هذا الرجل زعزع الأرض وأرعبها حين دخوله الكورة ودخول جميع المسلمين معه، وفعل ما لم يكن الفرس يفعلونه بحسب قوانينهم القديمة والتي كانت تنصّ بعقوبة السجن الطويلة الأمد. أمّا هذا فشرع يجلد ويضرب ويقتل ويشنق، فصار ضيق عسير على الإقليم كلّه.

ولّما وصل إلى مناطق المسيحيّين فإنّه فرض عليهم ما هو أقسى وأدهى إضافة إلى الضرائب الجائرة. فراح يفرض عليهم تسديد مصاريف الخيل والمواشي التي يملكها كالعلف مثلاً أضافة إلى مصاريف جنده الذين كانوا يحلّون على دور السكّان ضيوفًا ثقلاء، يأخذون منهم الطعام والعلف للخيل والجند. أي إنّهم يسلبون صاحب الدار كلّ ما يملك رغمًا منه. وقد قال النبيّ بهذا المقام: جميعهم يأتون للنهب.

نعم كان هذا العاتي يرسل قدّامه رسولاً يخبر بقدومه لكيما يستعدّ صاحب الدار لاستقباله ويهيّئ له المكان لراحته وراحة جنده. بعد أن يرسل له دوابّه لحمل حاجيّاته، وذلك قبل مجيئه بعشرين يومًا. وكان يحلّ الخراب والدمار في تلك القرية أو المدينة بعد تلك الزيارة المشؤومة، فيتفشّى الشرّ والخطف، يجمعون البغال والخيول والحمير ويودعونها وراء الأسوار بحجّة إضرام النار بها أو يدفع صاحبها درهمين عن كلّ بغلة أو فرس فيطلقون رباطه لصاحبه، وهكذا كانت تستمرّ العمليّة يومًا أو يومين في جميع الخانات والبيوت والحظائر في سائر أنحاء الإقليم، فجمعوا مبالغ ضخمة من هذه العمليّة إضافة إلى مصاريفه ومصاريف جنده العديدين.

وبلغ بهم الأمر أن قبضوا على دوابّ عابري السبيل والتجّار ومن ثمّ باعوها لأصحابها ثانية، ومن ثمّ باعها أصحابها من أجل دفع المصاريف أو الضريبة فتحقّق قول الكتاب: إنّهم أشدّ شراسة من ذئاب المساء، يطيرون كالنسر الجائع...

ولّما انتشر هذا الخبر في البلاد لزم جميع السكّان دورهم يسودهم الخوف والفزع من هذا الحاكم العاتي الذي باشر أعماله بالقتل والشنق دون رحمة، ففي كلّ مدينة كان يشنق فيها اثنين أو ثلاثة أو خمسة... وهكذا فعل بكلّ المدن من الموصل إلى الجزيرة السفلى حتّى وصل إلى آمد[1]...

(١) هنا النصّ مضطرب وركيك العبارة. وينتهي الكتاب. وهو ناقص بالتأكيد إذ لا يكمل فيه المعنى والموضوع.

تعقيب وتعليق

الأب سهيل قاشا

المسيحيّون والدولة الأمويّة

نودّ هنا إجمال القول عن علاقة المسيحيّين مع الدولة الأمويّة، وذلك توضيحًا لما جاء في النصّ «نصّ الزوقنينيّ» من بعض المبالغات غير المنطقيّة، والتي ترفضها أغلب الكتب التاريخيّة السريانيّة والأجنبيّة، وتضعها في خانة التعصّب المقيت الذي كان يلفّ أجواء بعض الأديرة وبعض الرهبان الذين لم يكونوا مطّلعين على الصورة الواضحة إنّما عن طريق السماع، وبين الرؤية والسمع مسافات طويلة ومشوّهة. وعليه نقول:

أوّلاً: في عهد معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠م)

كان معاوية بن أبي سفيان متسامحًا مع المسيحيّين بصورة عامّة، لأسباب كثيرة منها: زواجه من ميسون وهي نصرانيّة من قبيلة كلب العربيّة، تلك القبيلة التي وقفت إلى جانبه ضدّ أعدائه[١]. ووقوف النصارى بوجه عامّ إلى جانبه في حرب ضدّ الإمام عليّ. وبهذا التسامح كسب معاوية «عطفهم المشبع بالامتنان»[٢].

وقد تسامح معاوية مع نصارى العراق، ونلمس ذلك من الأخبار التي صدرت عن بعضهم، فهذا يوحنّا برفنكاي وهو من نصارى العراق المعاصرين لمعاوية، يحدّثنا عن عهده إذ يقول: «إنّ العدالة ازدهرت في أيّامه وعمّ السلام الشامل كلّ البلاد الخاضعة لحكمه، وتمتّع الناس بحرّيّة مطلقة، فإنّ صاحب شريعتهم كان قد

(١) Graf, der Christlichen Arabischen Literature Band 1. p.54

(٢) ولهاوزن، الدولة العربيّة وسقوطها. مطبعة الجامعة السوريّة. دمشق ١٩٥٦، ص ١١٠، نقله إلى العربيّة يوسف العشّ.

أوصاهم بحقّ النصارى والرهبان، فكانوا يطالبونهم بالخراج، ويطلقون لهم الحرّيّة التامّة في أمر الدين...»[١].

ومن جملة نصارى العراق الذين اتّصل بهم معاوية: «ربّن خُودا هُوْيْ أحد معلّمي مدرسة الحيرة، وطلب منه أن يعمّد ابنة له، كانت عسماء، فعمّدها ربّن خودا هوي وأشفاها من مرضها»[٢].

وقد استشار يزيد بن معاوية (سرجون الروميّ) بشأن ولاية الكوفة فأشار عليه بإعطائها إلى عبيد الله بن زياد ففعل[٣]. وأعطيت إليه إضافة إلى ولاية البصرة. وهناك رواية تقول إنّ سبب استشارته لسرجون في ولاية الكوفة، يعود إلى أنّ يزيد قد بلغه أنّ الحسين بن عليّ يريد الخروج إلى الكوفة فغمّه وساءه. وعندما استشار سرجون أشار عليه بعبيد الله، فقال يزيد «إنّه لا خبرة عنده»[٤] فأجابه سرجون «رأيت لو كان معاوية حيًّا فأشار عليك به، أكنتَ تولّيه؟ قال: نعم، قال: فهذا عهد معاوية إليه بخاتمه وقد كان ولاّه، فلم يمنعني أن أعلمك إلاّ معرفتي ببغضك فأنفذه إليه...»[٥].

فإن صحّت هذه الرواية، فإنّ ذلك يعني أنّ معاوية كان قد أولى سرجون هذا ثقته وأسراره، التي خبأها حتّى على خليفته وابنه يزيد.

أمّا الأخطل شاعر العراق، وهو مسيحيّ ومات على مسيحيّته[٦]، فقد كان من المقرّبين والمؤيّدين لمعاوية بن أبي سفيان، وقد مدحه بقصيدة قال فيها:[٧]

تسمو العيون إلى إمامٍ عادلٍ ... معطي المهابة نافعٍ ضرّارِ
وترى عليه إذا العيون لحظنه ... سيما الحليم وهيبة الجبّارِ

---

(١) النجم ١ (١٩٢٩) ص ٤٤١.

(٢) إدّي شير، التاريخ السعرديّ، ج٢ ص ٥٩٤.

(٣) الطبريّ، تاريخ، ج٥ ص ٣٥٦، طبعة دار المعارف.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف، ج٤، ق٢، طبعة القدس ١٩٣٨، ص ٨٢.

(٥) البلاذريّ، أنساب الأشراف، ج٤، ق٢، ص ٨٢. وبنفس المعنى راجع الجهشياريّ، الوزراء والكتاب، تحقيق إبراهيم الأبياريّ ومصطفى السقّا، ط١ مطبعة مصطفى البابيّ، القاهرة ١٩٣٨، ص ٣١.

(٦) عبد القادر بن عمر البغداديّ، خزانة الأدب، ج١، ط١ المطبعة الميريّة بولاق، ص ٢٢١.

(٧) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج١، تحقيق أحمد أمين، ط٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨، ص ٣٩. ولم أجد هذا في الديوان، أي ديوان الأخطل.

ثانيًا: في عهد يزيد بن معاوية (٦٨٠ - ٦٨٣م)

أمّا يزيد بن معاوية فقد قيل إنّه شرب ذات يوم عنده الأخطل، فلمّا ثمل طلب من الأخطل أن يهجوه، فقال الأخطل[(١)]:

ألا اسلم أبا خالد وحيّاك ربّك بالعَنْقَز[(٢)]
وروى عظامك بالخندريسي قبل الممات ولم تعجز
ودينك حقًّا كدين الحمار بل أنت أكفر من هُرْمز

فرفع يده ولطمه وقال: يا ابن اللخناء ما بكلّ هذا أمرتك. وأظنّ أنّ هذه الرواية من الروايات المدسوسة، إذ لا يُعقل أن يقول الأخطل هذا الكلام بحضرة الخليفة الأمويّ يزيد بن معاوية.

وقد وقع تهاجي في حضرة يزيد بن معاوية، بين عبد الرحمن بن حسّان وعبد الرحمن ابن أمّ الحكم، وشبّب عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت بفاطمة بنت أبي سفيان، وقيل بأخته هند بنت معاوية[(٣)] فأرسل يزيد بن معاوية إلى كعب بن جعيل[(٤)] وطلب منه أن يهجو الأنصار، وذلك أنّ عبد الرحمن بن حسّان، وهو من الأنصار، وقد فضح عبد الرحمن بن أمّ الحكم، فرفض ذلك ودلّه على الأخطل[(٥)]، الشاعر النصرانيّ العراقيّ الحيريّ[(٦)]، فأرسل إليه، فهجا الأنصار، وقال فيهم[(٧)]:

لعن الله بني[(٨)] اليهود عصابة بالجَزَعِ بين جلاجل وصِرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم حمرًا عيونهم كجمر[(٩)] النار

(١) البيهقيّ، المحاسن والمساوئ، ص ٢٦١. تاج العروس ٤: ٦٠ (مادّة العقز).
(٢) العنقز: الجردان الحمر، تاج العروس ٤: ٥٩.
(٣) ابن رشيق، العمدة، ج١ ص ٢٢.
(٤) اسمه كعب بن قمير. شاعر إسلاميّ مشهور كان في زمن معاوية.
(٥) البغداديّ، خزانة الأدب، ج١ ص ٤٥٨.
(٦) الأغاني. ج٧ ص ١٦٢، (تحقيق أحمد الشنقيطيّ، مطبعة التقدّم. مصر).
(٧) الأخطل. راجع ديوانه. تحقيق الأب أنطوان صالحانيّ. المطبعة الكاثوليكيّة بيروت ١٨٩١، ص ٣١٤ برواية أبي عبيد الله محمّد بن العبّاس اليزيديّ عن أبي سعيد السكريّ.
(٨) جاء في الأغاني ١٥: ٨٣ (طبعة بيروت) (من اليهود) العقد الفريد ط٢ ص ٣٢١، (١٩٤٦).
(٩) جاء في الأغاني ١٥: ٨٣ «حمرًا عيونهم من المسطار».

ذهبت قريش بالمكارم كلّها والللؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المعالي لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجّار
إنّ الفوارس يعرفن ظهوركم أولاد كلّ مفسح[١] أكّار[٢]
وإذا نسيت ابن الفريعة خلته كالجحش بين حمارة وحمار

ومدح يزيد بقصيدة من جملة ما قد قال فيها[٣]:

أمّا يزيد فلست ناسيه حتّى يغيبني في الرمس ملحود
جزاك ربّك عن مستفرد وَحْد نفاه عن أهله جرم وتشريد
مستشرف قد رماه الناس كلّهم كأنّه من سموم الصيف مسْفُودُ

الشاعر الأخطل في العهد الأمويّ

وقد نال الحظوة عند أمير العراق عبيد الله بن زياد، فمدحه بقصيدة أوصى الخليفة فيها بعبيد الله فقال فيها[٤]:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة جزاء بنعمى قلبها ووسيل
بأنّ عبيد الله سيفك فليكن أخًا وخليلاً دون كلّ خليل
به رحم الله الجنود فأقبلت وقد مالت الأهواء كلّ ميل

ونظرًا لعلاقة الأخطل الحسنة بعبيد الله فقد حباه عبيد الله بقينة[٥]، وقد عاشر الأخطل هذه القينة، رغم أنّ الدين المسيحيّ لا يبيح ذلك.

وقد حذّر الأخطل الأمويّين من أعدائهم، أمثال زفر بن حارث الكلابيّ، الذي سبق وأن أثار على الأمويّين عندما بايعوا مروان بن الحكم. فقال الأخطل محذّرًا الأمويّين منه[٦]:

(١) جاء في الأغاني ١٥: ٨٣ «أولاد كلّ مقبح أكّار».
(٢) الأكّار: الزارع (تاج العروس ٣: ١٧) (مادّة أكر).
(٣) شعر الأخطل، مطبعة بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٧.
(٤) شعر الأخطل، مطبعة بيروت، ١٩٨١، ص ٢٩٣.
(٥) دائرة المعرف الإسلاميّة ١: ٥١٥ (مادّة: أخطل).
(٦) شعر الأخطل ص ١٠٥، ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج١، ص ٣١٤.

بني أميّة إنّي ناصح لكم فلا يبيتنّ فيكم آمنًا زفر
واتّخذوه عدوًّا إن، شاهده وما تغيب من أخلاقه دعر
إنّ الضغينة تلقاه وإن قدمت كالعُرّ[١] يكمن حينًا ثمّ ينتشر

وقد علَتْ منزلة الأخطل عند عبد الملك، إذ أصبح نديمه. وقد أركبه على ظهر جرير بن عطيّة الخطفيّ وهو مسلم. ويقال إنّ عبد الملك أمره بذلك، بسبب شعر خايره فيه بين يديه وطول لسانه[٢].

وكان عبد الملك يفضّله على غيره من الشعراء، إذ «كان يجيء وعليه جبّة خزّ وحِرز[٣] خزّ، في عنقه سلسلة من ذهب فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خكرًا، حتّى إنّه يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن»[٤].

وقد مدح عبد الملك بقصائد منها قوله[٥]:

وإنّ أمير المؤمنين وفعله لكا الدهر لا عار بما فعل الدهر

ومنها قوله[٦]:

أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالي ملك لا طريف ولا غصب

وقد مدح بني أميّة في قصيدة، تُعْتبر من أكثر القصائد تأثيرًا. من جملة ما قال فيها[٧]:

شمّي العداوة حتّى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا

وفي حديث جرى بين عبد الملك والأخطل، سأل عبد الملك الأخطل أن يزور

---

(١) العُرّ: الجرب (تاج العروس ٣: ٣٩٠) (مادّة عر).

(٢) ابن رشيق، العمدة ١: ١٢، البغداديّ، خزانة الادب ١: ٢٢١.

(٣) الحرز: الحِرز بالكسرة العوذة (تاج العروس ٤: ٢٤) (مادّة حرز).

(٤) شعر الأخطل ص ٢٤٨: الأغاني ٨: ٢٩٩.

(٥) الحمويّ، معجم الأدباء ج٦، تحقيق د. س. مرغليوت، ط٢ مطبعة هلدية بالموسكي بمصر (١٩٣٠) ص ٥١٢.

(٦) شعر الأخطل ص ٢٤. وانظر بنفس المعنى مختار الأغاني ج٢، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج، القاهرة (١٩٦٥) ص ٣٧.

(٧) شعر الأخطل ص ١٠٤. الأغاني ٨: ٣١١ (بيروت ١٩٥٧).

الحجّاج، فأجابه الأخطل: هل أزوره طائعًا أم مكرهًا؟ قال له عبد الملك: بل طائعًا. فقال الأخطل: «ما كنتُ لأختار نَواله وقربَه على قربِك، ولا أراكما إلاّ كما قال الشاعر:

كمُبتاعٍ لمركبه حمارًا ... تخيّره من الفرس الكريم[1]

فأعطاه عبد الملك عشرة آلاف درهم، وأمره بمدح الحجّاج[2]. فقال فيه[3]:

صرمت حبًّا لك زينب وقذور ... وحبالهنّ إذا عقدن غرر

إنّ وقوف الأخطل مع بني أميّة، وتسخيره شعره لخدمة أغراضهم السياسيّة، جعل عبد الملك يقول: «إنّ لكلّ قوم شاعر، وإنّ الأخطل شاعر بني أميّة»[4]. وسمّاه «شاعر أمير المؤمنين»[5].

أمّا نشاط الأخطل داخل العراق، فقد وصف بأنّه نشاط مليء بالمكاسب والتقدير والاحترام له. وكثيرًا ما خرج الأخطل عن حدود الآداب في هذا النشاط، ولكنّ المسؤولين كانوا تارة يغضّون عنه الطرف، وتارة يحاسبونه.

إنّ ما توصّلنا إليه من موارد لا تشير إلاّ إلى حالة واحدة فقط حوسب فيها الأخطل وسُجن من أجلها، وذلك لهجائه بالبصرة أناسًا، فحبسه واليها عبد الله بن عامر، فقال الأخطل في ذلك[6]:

أرى كلّ معقود له حبل ذمّة ... يرجى الإياب غير ضيف بن عامر

أيّ شعراء الناس لمّا تقاذفوا ... بكلّ عضوض تملأوا الفم العاقر

وما عدا ذلك، فإنّه لم يُسجن أو يُهان من قبل حاكم. ففي عهد الحجّاج الذي

---

(١) مختار الأغاني ٦: ٣٧.

(٢) الأغاني ٨: ٢٩٠ (طبعة بيروت).

(٣) شعر الأخطل ص ٧٣.

(٤) الأغاني ٨: ٣٠٨ (بيروت)، وانظر أيضًا ص ٢٩٤.

(٥) شعر الأخطل ص ٣٤٨.

(٦) شعر الأخطل ص ٢٩٠.

عُرف بصرامته، كان الأخطل من المقرّبين والمقدّرين من الوالي. وقد مدح الوالي العراقيّ، وهو الحجّاج، بقصيدة قال فيها[١]:

ولقد علمت وأنت أعلمنا به   أنّ ابن يوسف حازم منصور
وأخو الصفا فما تزال غنيمه   منه يجيء به إليك بشير
وترى الرواسم يختلفن وفوقها   ورق العراق سبائك وحرير
وبنات فارس كلّ يوم تصطفى   يعلونهنّ وما لهنّ مهور

ومع ذلك فقد كان الحجّاج قاسيًا في معاملته لمشاهير النصارى، فقد قتل (سرجيس) بن (يوحنّا) الكسكريّ[٢] لسبب غير معروف، ومنع النصارى من السكنى في مدينة واسط[٣].

وكان الأخطل من المقرّبين والمقدّمين لدى أمير الكوفة بشر بن مروان. ذكر الأصفهانيّ: إنّ بشر بن مروان كان قد «اشترى مرضاة الأخطل وأعطاه ألف درهم وكسوة وبغلة وخمرًا، وقال له: لا تعن على شاعرنا – يعني الفرزدق – واهج هذا الكلب –يعني جرير– الذي يهجو بني دارم.»[٤] وذلك لأنّ جرير اتّخذ من مصرع الزبير بن العوامّ في العراق «مسبّة لمجاشع بن دارم رهط الفرزدق»[٥] فقال يهجو جريرًا[٦]:

أجرير إنّك والذي تسمو له   كأسيفه فخرت بحدج حصان
حملت لربّتها فلمّا عوليت   نسلت تعارضها مع الأضعان
أتعدّ مأثرة لغيرك ذكرها   وسناؤها في غابر الأزمان
في دارمٍ تاج الملوك وصهرها   أيّام يربوع مع الرعيان

(١) شعر الأخطل ص ٧٤، إيليّا سليم حاوي، شرح ديوان الأخطل التغلبيّ، نشر وتوزيع دار الثقافة، لبنان، بيروت ١٩٦٨ ص ١٩٥.
(٢) إدّي شير، التاريخ السعرديّ ٢: ٥٢٥.
(٣) جون فيّي، آشور المسيحيّة ج٣، ص ١٦٩.
(٤) الأغاني ١١: ٥٥–٥٦. وهذه النسبة إلى دارم بن مالك بن حنظلة بن يزيد مناة تميم. انظر السمعانيّ، أبي سعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور، الأنساب ج٥، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدكن ١٩٦٦، ص ٢٧٨.
(٥) المحتسب، عبد المجيد عبد السلام، نقائض جرير والأخطل، الناشر مكتبة دار المحتسب، دار الفكر ١٩٧٢ ص ٦٣.
(٦) شعر الأخطل ص ٢٧٣.

وقد دخل الأخطل على أمير الكوفة بشر، وكان ثملاً، وفي مجلس الأمير خاله الراعي عبيد بن حصين وكان شاعرًا أيضًا «فقال بشر أأنتَ أشعر أم هذا، قال أنا أشعر منه وأكرم فإن كان في أمّهاته من ولدت مثل الأمير فقد صدق»[١]. وعندما خرج الأخطل من مجلس بشر، لامه أحدهم على قوله إنّه أكرم من خال الأمير، فقال الأخطل للذي لامه: «إنّ أبا نسطوس[٢] الخمّار وضع في جمجمتي كؤوسًا لا والله ما أعقلُ معها ما أقول...». وقد علتْ منزلة الأخطل عند بشر لدرجة أنّه مدح بشر بقصيدة اعتبر فيها الحكم الأمويّ إرادة الله في الأرض. قال فيها[٣]:

بكم أدرك الله البريّة بعدما سعى لصّها فيها وهبّ غشومها
وإنّك للمأمول والمتّقى به إذا ضيف من تلك الأمور عظيمها

وكان الأخطل قد تقرّب أيضًا إلى خالد بن أسيد المروانيّ. الذي يمتّ بصلة القرابة إلى البيت الأمويّ، وقد كان واليًا على البصرة أيّام عبد الملك، ومدحه في قصائد أيضًا ونال عنده الحظوة والهدايا[٤].

وعندما آل الأمر إلى الوليد بن عبد الملك، أصبح الأخطل من المقرّبين إليه، ومدحه. ومن جملة ما مدحه، قوله[٥]:

بني أميّة قد أحدَثْ فواضلكم منكم جيادي ومنكم قبلها نعمي

لم تقتصر علاقة الأخطل الحسنة على بشر بن مروان فقط، بل كانت علاقته حسنة أيضًا مع عكرمة الفيّاض، كاتب خراج بشر بن مروان. فقد جاء في طلب مال كان قد تحمّله عن قومه ليُصلح ذات البين، فقضى عكرمة حاجته[٦].

وعندما ثار الشيعة بقيادة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على والي بني أميّة في العراق عبدالله بن عمر[٧]. واجتمع الناس في المسجد، قال البعض للأخطل

---

(١) البلاذريّ. أنساب الأشراف ٥: ١٧٨. وانظر بنفس المعنى مختار الأغاني ٦: ٣٨.

(٢) قد يكون اسمه «نسطوريوس».

(٣) شعر الأخطل ص ١٢٣.

(٤) إيليّا الحاوي. شرح ديوان الأخطل ص ٥٥.

(٥) شعر الأخطل ص ٢٦٦.

(٦) محمّد بن سلام الجمحيّ. طبقات فحول الشعراء. شرحه محمّد محمود شاكر. دار المعارف للطباعة والنشر. ١٩٥٢. ص ٤١٦. الأغاني ج٨. ص ٣٢١. الحاوي. ص ٢٤٣.

(٧) الطبريّ. تاريخ ٧: ٣٠٢-٣٠٨ مطبعة دار المعارف.

إذا أردتَ أن تكافئ عكرمة يومًا فلن تجد أحسن من هذا اليوم»[١]، «فلبس جبّة خزّ، وركب فرسًا وتقلّد صليبًا من ذهب، وأتى باب المسجد، ونزل عن فرسه. فلمّا رآه حوشب وشدّاد – وكان قد طلب منهما المال قبل عكرمة فلم يعطياه – نفيا ذلك عليه. وقال له عكرمة يا أبا مالك، فجاء فوقف وابتدأ ينشد قصيدته «لمن الديار بحائل فرعال»[٢].

حتّى انتهى إلى قوله[٣]:

إنّ ابن ربعي كفاني سيبه ضغن العدوّ ون...وّه البخّال
آليت حين تواكلتني وائل إنّ المكارم عند ذاك غوالي
ولقد مننت على ربيعة كلّها وكفيت كلّ مواكل خذّال
مثل ابن بزغة أو كآخر مثله أولى لك ابن مسيمة الإجمال
إنّ اللئيم إذا سألت بهرته وترى الكريم يراح كالمختال
وإذا عدلت به رجالاً لم تجد فيض الفرات كراشح الأوشال

فجعل عكرمة يبتهج ويقول: «هذا والله أحبّ إليّ من حمر النعم»[٤].

وإذا صحّت هذه الروايات، فإنّ ذلك يعني أنّ النصارى كانوا يتمتّعون بحرّيّة الملبس والمركب وإبداء رأيهم في بعض المسلمين هل هم بخلاء أم كرماء أم لؤماء، بعكس ما يقال عن وجود قيود أو أوامر عمريّة، منعتهم من ركوب الخيل ولبس الحرير وتقلّد الصلبان، ودخول المساجد، وغيرها من الأوامر المنسوبة إلى عمر بن عبد العزيز – والتي سنبحثها فيما بعد – وتدلُّ هذه النصوص أيضًا على مساهمة المسلمين مع المسيحيّين في حلّ مشاكلهم القبليّة، وذلك بتبرّع المسلمين بأموال إلى المسيحيّين لحلّ مشاكلهم مع قبائل أخرى، قد تكون مشاكل الديّة أو الغرامات الماليّة التي يفرضها العرف القبليّ على قبيلة ما، عند ارتكاب أحد أفرادها حادثة قتل أو أيّ اعتداء على قبيلة أخرى، كما يحصل عند القبائل العراقيّة في وقتنا الحاضر.

(١) الأغاني ٨: ٣٢١؛ طبقات فحول الشعراء للجمحيّ ص ٤١٦.
(٢) شعر الأخطل ص ١٥٦.
(٣) شعر الأخطل ص ١٥٩–١٦٠؛ الأغاني ٨: ٣٢١؛ طبقات فحول الشعراء ص ٤١٧.
(٤) الأغاني ٨: ٣٢١.

هند بنت النعمان

ومن مشاهير نصارى العراق أيضًا هند بنت النعمان وأختها حرقة، ومطران باجُرميّ، وأسقف نجران، وحنين الحيريّ.

أمّا هند بنت النعمان بن المنذر، فقد زارها المغيرة بن شعبة في أيّام معاوية بن أبي سفيان، في ديرها في الحيرة، الذي كانت تترهّب فيه. وقبل أن يدخل عليها، استأذن منها الدخول وقدّم لها نفسه، وطلب منها الزواج، فرفضت لأنّها عرفت أنّه يريد أن ينال الشرف بالزواج منها[١].

أمّا أختها حرقة، فقد زارها زياد بن أبيه في ديرها في الحيرة. وعاملها بلطف واستفسر عن حاجتها[٢]، وقضى قسمًا منها وانصرف عنها راضيًا مسرورًا لحسن كلامها ولطافة أسلوبها وحسن استقبالها له[٣].

واتّصل خبر سبريشوع مطران باجُرميّ بعُتبة[٤] «والي ناحية باجُرميّ، فأحبّ أن يراه ووجّه في طلبه، فلمّا وصل إليه سأله أن يمضي إلى السنّ، ويصلّي على ابنتين كانتا له، قد ولع بهما الشيطان»[٥]. ففعل وأشفاهنّ من مرضهنّ. فالتمس عُتبة من المطران أن يذكر حوائجه، «فسأله أن يرفع الجزية عن الرهبان والقسّان والأسكوليّين في ناحيته، فأجابه إلى ذلك وكتب كتابًا، وأمر بألاّ تؤخذ الجزية ممّن يلبس الصوف، مسفِرًا كان أم غير مسفِر»[٦].

وكانت علاقة عبيد الله بن زياد حسنة مع القدّيس مرعبدا بن حنيف، المارّ ذكره

---

(١) المسعوديّ: مروج الذهب ج٣، ط٣، مصر ١٩٥٨، ص ٣٣-٣٤.

(٢) سنذكر هذه الحاجات التي قضى قسمًا منها في فصل الحقوق.

(٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١١٤؛ البيهقيّ، المحاسن والمساوئ، ص ٣٥٩.

(٤) لعلّها باجُمَيري بضمّ الجيم وفتح الميم وياء ساكنة وراء مقصورة. موضع دون تكريت (الحمويّ، معجم البلدان ١: ٣١٤) وجاءت في كلدو وآثور باسم باجُرما (بيت كرماي) وكانت محاطة بالزاب الصغير ودجلة (أنظر ج١، المقدّمة من كلدو وآثور).

(٥) إدي شير، التاريخ السعرديّ ٢: ٦٣٢.

(٦) إدي شير، التاريخ السعرديّ ٢: ٦٣٣.

في فصل الإدارة الكنسيّة، إذ قد أصبح هذا القدّيس صديقًا له، بعد أن أشفاه من مرضه الذي سنذكره فيما بعد. وبقي عبيد الله وفيًّا لهذا الصديق، فعندما وصل إلى عبيد الله الخبر بموت القدّيس «صار إلى قبره وهو يشكر الله الذي وهب له رجْليه بصلاة القدّيس وبَرَّ الرهبان برًّا واسعًا»[١].

ويظهر لنا من هاتين الروايتين أنّ علماء النصارى يرون أشياء عن الولاة والحكّام لا يُعقل صدورها منهم، ولعلّهم كتبوا ذلك لأتباعهم على سبيل تقوية المسيحيّة.

ودخل أسقف نجران (نجران = الكوفة) على مصعب بن الزبير في الكوفة «فكلّمه بشيء، فأغضبه فرماه بقضيبٍ كان معه فأدماه»[٢]. ثمّ طلب الأسقف من مصعب السماح له بالكلام مرّة أخرى، فأذن له، فقال الأسقف: «إنّ المسيح قال لا ينبغي للإمام أن يكون سفيهًا، ومنه يلتمس الحكم؛ ولا جائرًا، ومنه يلتمس العدل»[٣]، فرقّ مصعب لهذا الكلام «فقضى حاجته»[٤].

وإن صحّت هذه الرواية فإنّها تدلّ على سعة صدر مصعب بن الزبير وعلى حرّيّة النقد التي كان يتمتّع بها النصارى، ولولا وجود هذه الحرّيّة لما قال الأسقف «إنّ المسيح قال...».

حنين الحيريّ المغنّي

أمّا حنين الحيريّ المغنّي النصرانيّ المعروف، فقد كانت علاقته مع الخليفة هشام بن عبد الملك حسنة، إذ قد التقى بهشام بظهر الكوفة، عندما أراد هشام الذهاب إلى الحجّ، ومعه عود وزامر له، وكان يرتدي قلنسية طويلة، فلمّا مرّ به هشام، سأل

(١) إدّي شير، التاريخ السعرديّ٢: ٥٨٩.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف ج٥، (١٩٣٦)، ص ٢٨٢.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف ٥: ٢٨٢.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف ٥: ٢٨٢.

مَن هذا؟ فقيل له حنين الحيريّ، فأمر هشام فحمل في محمل على جمل وعديله زامره ويروي أمامه[١]. وهو يقول شعر الأحوص[٢]:

صاح هل أبصرت بالجِذْ ... تِين من أسماء نارا
موهنًا شبّت لعينيك ولم توقد نهارا
كتلالي البرق في المُزْ ... ن إذا البرق استطارا
أذكرتني الوصل من سعدى وأيّامًا قصارا

وقيل إنّ الذي غنّاه[٣]:

أمِن سلمى بظهر الكو ... فة الآيات والطلل
يلوح كما يلوح على ... جفون الصقيل الخلل

فأمر له هشام بمئتي دينار وللزامر بمائة دينار.

وكانت علاقته قويّة جدًّا بأمير الكوفة بشر بن مروان. وكان إذا جلس عند الأمير، فإنّ الأمير لا يسمح للناس بالدخول عليه إلاّ من يعتبره في عداد من لا يحتشم منهم. حكى الشعبيّ أنّه كان على مظالم بشر وقد أتاه عُتبة، وكان حاجبه أعين، صاحب حمّام أعين، جالسًا، فقال له: يا أبا عمرو واستأذن لي عليه، فقال إنّ الأمير لا يؤتى بالشيء، فقلت إنّه أمر لا يستهين ذكره له، فأعلمه مكاني في رقعة رفعها إليه»[٤]. «فما لبث أن خرج التوقيع على ظهرها ليس الشعبيّ مِمّن يحتشم منه فأذن له»[٥].

وبعد أن دخل الشعبيّ وجد بشرًا عليه غلالة رقيقة صفراء، وملاءة تقوم قيامًا من شدّة الصقال، وعلى رأسه إكليل من ريحان. وقد جلس إلى يمينه عكرمة بن ربعي، وعلى يساره خالد بن عتاب، وبين يديه حنين بن بلوع الحيريّ مع عوده، فقال بشر

(١) الأغاني ٢: ٣٤٢ (مطبعة دار الكتب).
(٢) الأغاني ج١، ق١، ص ٢٧٦؛ مختار الأغاني ٢: ٣٥٢؛ الأغاني ٢: ٣٤٢-٣٤٣.
(٣) البلاذريّ. أنساب الأشراف ج٥ ص ١٧٣؛ الأغاني ٢:٣٤٩. تجريد الأغاني لمؤلّفه ابن واصل الحمويّ، تحقيق طه حسين وإبراهيم الأبياريّ ج١، ق١، مطبعة مصر شركة مساهمة مصريّة، القاهرة ١٩٥٥، ص ٢٧٧.
(٤) المصدر السابق ص ٢٧٧.
(٥) الأغاني ٢:٣٤٩، تجريد الأغاني ج١، ق١، ص ٢٧٧.

للشعبيّ: «يا أبا عمرو، لو كان غيرك لم آذن له على هذه الحال»[١]. فقال له الشعبيّ: «لك عندي الستر فيما أرى»، فأجابه بشر هو الظنّ بك. ثمّ التفت إلى حنين وسلّم عليه، وكان حنين يرتدي قباءً خَشْكَشويًّا[٢]، ومَسْتَقَّة[٣] حمراء وخفّين مكعّبين، وقال له «احزق الزير[٤]، وأرخِ البمّ»[٥] ففعل وضرب فأجاد الضرب فقال بشر لأصحابه: «تلومونني على أن آذن له على كلّ حال»[٦].

وعندما حرّم خالد القسريّ الغناء، دخل عليه حنين في يوم سمح به خالد لعامّة الناس بالدخول عليه، وفي يده عود تحت ثيابه، وقال لخالد كانت لي صناعة أتقوّت بها على عيالي حرّمها الأمير، وأضرّ بي وبعيالي. وعندما سأله خالد عن صناعته، أخرج حنين عوده وقال هذا، فقال له خالد غنِّ، فحرّك أوتاره وغنّى في شعر عديّ بن زيد[٧]:

أيّها الشامت المعيّر بالدهر   أأنت المبرّأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من   الأيّام أم أنت جاهل مغرور

وتذكر المصادر أنّه غنّى إضافةً إلى البيتين السابقين، البيتين التاليين[٨]:

أين كسرى خير الملوك أنوشر   وان أم أنت قبله سابور
وبنو الأصفر الملوك كرام ال   أرض لم يبقَ منه مذكور

فرقّ له خالد، وسمح له وحده بالغناء، وشرط عليه عدم مجالسة السفهاء ولا المعربدين، فكان إذا دُعي تحقّق من عدم وجود السفهاء والمعربدين[٩].

---

(١) الأغاني ٢: ٣٥٠، تجريد الأغاني ج١ ق١ ص ٢٧٧. البلاذريّ، أنساب الأشراف، ٥: ١٧٣.
(٢) قميص خشن.
(٣) فرو طويل الكمّين (تاج العروس ٧: ٧٠، المستق).
(٤) أحزق: شدّ (تاج العروس ٦: ٣١٤، حزق).
(٥) الأغاني ٢: ٣٥٠. أنساب الأشراف ٥: ١٧٣. البمّ: الوتر الغليظ (تاج العروس ٨: ٢٠٦، البم).
(٦) تجريد الأغاني ج١ ق١ ص ٢٧٨. أنساب الأشراف ٥: ١٧٣.
(٧) الأغاني ٢: ٣٤٨. طبعة دار الكتب. مختار الأغاني ٢: ٣٥٥-٣٥٦. النويريّ، نهاية الأرب ٤: ٢٩٥. ابن عساكر، التاريخ الكبير ٥: ٧٠. لكنّه تذكّر أنّه غنّى البيتين:

أيّها الشامت المعيّر بالشيب   أقلن بالشباب افتخارا
قد لبست الشباب قبلك حبًّا   فوجدت الشباب ثوبًا معارا

(٨) مختار من كتاب بيروت ١٩٦١، ص ٤٨.
(٩) النويريّ، نهاية الأرب، ج٤ (دار الكتب) ص ٢٩٥. مختار الأغاني لمؤلّفه ابن منظور محمّد ابن مكرم ج٢ تحقيق عبد الساتر أحمد فرّاج، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٥٧.

وعندما عزل هشام بن عبد الملك خالد القسريّ عن ولاية العراق «قام عبد المسيح[(١)] وهو سيّد أهل الحيرة»[(٢)] وبطلبٍ من يوسف بن عمر الوالي الجديد بمساعدة كيسان أحد بطانة يوسف بن عمر، بإلقاء القبض على طارق، خليفة خالد على الخراج، وإرساله إلى الوالي الجديد الذي ضربه خمسمائة سوط»[(٣)].

وإن صحّت هذه الرواية فإنّها تدلّ على قوّة مشاهير النصارى وعلى حاجة أمراء العراق على مساعدتهم، في التخلّص من الخصوم بما يملكونه من عبيد وغلمان. ذكرهم الطبريّ حين قال: قال كيسان أتيت «بالحيرة دار عبد المسيح - وهو سيّد أهل الحيرة - فقلت له إنّ يوسف قد قدم العراق وهو يأمرك أن تشدّ طارقًا وتأتيه به، فجزع هو وولده وغلمانه، حتّى أتَوا منزل طارق...»[(٤)].

وبالرغم من تمتّع كبار النصارى بمركز مرموق، بشكل عامّ، في الدولة الأمويّة في العراق، إلاّ أنّ كلمة «نصرانيّ» أو «ابن نصرانيّ» تعتبر منقصة، كان الخلفاء والأمراء والناس يقولونها للتقليل من قيمة هؤلاء، والحطّ من منزلتهم إذا أرادوا تعييرهم أو مهاجمتهم لسبب من الأسباب. فهذا خالد القسريّ مثلاً كان أبوه مسلمًا، إلاّ أنّ أمّه نصرانيّة وبقيت على نصرانيّتها إلى أن ماتت. وبالرغم من مركز خالد القسريّ في العراق كوالٍ استمرّ في ولاية العراق أكثر من أربع عشرة سنة، إلاّ أنّ هشام بن عبد الملك لمّا أراد عزله كتب إليه: «أمّا بعد، فقد بلغني مقالتك... وستعلم يا ابن النصرانيّة أنّ الذي رفعك سيضعك»[(٥)]. وقال هشام لزيد بن عليّ وزيد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس عندما حلفا أن ليس عندهما مال أودعه خالد القسريّ «أنتما عندي أصدق من ابن النصرانيّة»[(٦)]. وبالرغم من أنّهما من ألدّ أعدائه. وعندما

---

(١) لا تشير المصادر المتوفّرة لديّ عن هوّيّة عبد المسيح هذا.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٧ ص ١٥٠ (دار المعارف).

(٣) الطبريّ، تاريخ، ج٧ ص ١٥٠ (دار المعارف).

(٤) الطبريّ، تاريخ، ج٧ ص ١٥٠ (دار المعارف).

(٥) اليعقوبيّ، تاريخ، ٢: ٣٢٢.

(٦) الطبريّ، تاريخ، ج٧ ص ١٥٠ (دار المعارف).

خطب يوسف بن عمر والي العراق بعد عزل خالد القسريّ، قال: «إنّ أمير المؤمنين أمرني بأخذ مال ابن النصرانيّة»[١].

وقال الحجّاج لّما أرسل له خالد القسريّ، عندما كان واليًا على مكّة، سعيد بن جبير الذي هرب بعد ثورة ابن الأشعث «لعن الله ابن النصرانيّة يعني خالدًا»[٢]. وعندما أصبح سعيد هذا في يد الحجّاج وقبل أن يأمر الحجّاج بضرب عنقه قال: «وَجّهوه إلى قِبلَة النصارى»[٣].

---

(١) الطبريّ، تاريخ، ج٧ ص ١٥١. وانظر ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٣ قسم١ منشورات دار الكتاب اللبنانيّ للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٧ ص ٢٠٦.

(٢) المؤلّف مجهول، العيون والحدائق، ج٣ منشورات مكتبة المثنى، بغداد ١٩٧١ ص ٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، مصر، ص ٩٨.

النصرانيّة
في
عهد عمر بن عبد العزيز

ذكرت الموارد أنّ عمر بن عبد العزيز أصدر مجموعة من الأوامر تخصّ النصارى عامّةً ونصارى العراق خاصّة، وسأُدوّن نصوصها كما وردت في مضانّها، وأبيّنُ آراء الباحثين فيها، ثمّ أُبيّن رأيي فيها.

الشروط العمريّة

ذكروا أنّ عمر بن عبد العزيز أمر «أن لا يُترك في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة قديمة ولا حديثة»[١]، وأنه كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم: «لا تُحدثنّ كنيسة ولا بيت نار»[٢] و«بسبب ما أحاق العرب من التقهقر والانكسار في زحفهم إلى القسطنطينيّة، أضمر عمر – يعني عمر بن عبد العزيز – الحقد الشديد على النصارى، وضايقهم وأبطل نواقيسهم»[٣]. وأمر أن لا يرفعوا أصواتهم وقت الصلاة»[٤]. وأمر أن لا يُترك لهم صليبٌ[٥] ظاهرٌ إلاّ كسر ومحق[٦]، و«يضرب الناقوس خارج من الكنيسة»[٧].

---

(١) الأبشيهيّ، المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، ج١، مطبعة أحمد بابي الحلبيّ، القاهرة ١٣١٤هـ ص ١٠٠.

(٢) الطبريّ، تاريخ، ج٧ ص ١٥٠ (دار المعارف).

(٣) الناقوس، مضراب النصارى، كانوا يدقّون به لأوقات الصلاة، وكان آنذاك مصنوعًا من الخشب الصلب أو الحديد، (برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٠٣).

(٤) ابن العبريّ، لندن ١٩٣٢، ج١ ص ١٠٩.

(٥) الصليب، هو الخشبة التي صلب عليها المسيح (برصوم، الألفاظ السريانيّة ص ١٠٤).

(٦) أبو يوسف، الخراج، ط٢ ص ١٢٣.

(٧) ابن تيميّة، السراط المستقسم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق حامد الفقّيّ، ط٢، السنة الحمديّة، عابدين، ١٩٥٠، ص ١٢٣.

وقال أبو يوسف: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: «... وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانيّ قباءً ولا ثوب خزّ ولا عصب[١]، وقد ذكر لي أنّ كثيرًا من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر[٢] وتركوا التقصيص، ولعمري لأن كان يصنع ذلك فيما قبلك، إنّ ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة وإنّهم حين يراجعون ذلك ليعملوا ما أنت فانظر كلّ شيء نهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام»[٣].

وذكر لي أنّه كتب إلى الآفاق «لايمشي نصرانيّ إلاّ مفروق الناصية، ولا يلبس قباءً، ولا يمشي إلاّ بزنار[٤] من جلود، ولا يلبس طيلسان ولا سراويل ذات خدمة[٥]، ولا نعلاً لها عذبة[٦]، ولا يوجد في بيته سلاح إلاّ انتُهب»[٧].

وذكروا أنّه أمرهم «أن لا يلبسوا ثوب الجند ولا يركبوا دابّة مسرّجة»[٨] وأن «لا يحملوا على الأُكُف[٩] وأن يجزّ نواصيهم»[١٠].

وذكروا أيضًا أنّه كتب إلى أمراء الأمصار «أن يأمروا أهل الذمّة أن يُختمَ على أعناقهم»[١١].

---

(١) العصب: هو ضرب من البرد اليمانيّة يصعب غزله أي يدرج ثمّ يحاك، تاج العروس ١: ٣٨٣ (مادّة عصب).

(٢) الجُمّة (بالضمّ): مجتمع الرأس إذا تدلّى من الرأس إلى شحمة الأذن والمنكبين، وأكثر من ذلك ما لا يجاوز الأذنين وفرة أو ما سقط إلى الشحمة وفرة أو ما جاوز شحمة الأذن لمّة لأنّها ألمّت بالمنكبين، فإذا ازدادت فجُمّة فإذا باغت الشحمة ولم تتجاوزها وفرة، (تاج العروس ٨: ٢٣٢ مادّة جم).

(٣) أبو يوسف، الخراج، ط٢ ص ١٢٧–١٢٨. ابن تيميّة، المصدر السابق ص ١٢٣. وابن القيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، قسم٢، تحقيق صبحي الصالح، ط١، دمشق ١٩٦١، ص ٧٤١–٧٤٢.

(٤) الزنّار: ما يلبسه الذي يشدّه على وسطه. (تاج العروس ٣: ٢٤٣، مادّة زنر).

(٥) ذات القطع (تاج العروس ٨: ٢٣٨، مادّة خذم).

(٦) العذب: أطراف السيور (تاج العروس ١: ٣٦٩، مادّة عذب).

(٧) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز. ط٥ بيروت ١٩٦٧ ص ١٥٩. ابن الأثير، البداية والنهاية ٩: ٢٠٧. أبو يوسف، الخراج ط٢ ص ١٢٧. ابن الجوزيّ، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق محبّ الدين الخطيب، مطبعة المؤيّد بمصر ١٣٣١هـ ت، ١٢٩١هـ ش ص ٩٩.

(٨) ابن العبريّ ج١ ص ١٠٩.

(٩) مفردها أُكَاف، وهي البرذعة (تاج العروس ٦: ٤٣ مادّة أُكْف).

(١٠) ابن سلام، الأموال ص ٧٥.

(١١) ابن القيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، قسم٢ ص ٧٦٢.

في حين أنّ الختم لم يُعرف إلاّ في حالات خاصّة عند جباية الرؤوس من أهل الذمّة. يقول أبو يوسف: «ينبغي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتّى يفرغ من عرضهم ثمّ تكسير الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها»[١].

وفيما يخصّ المركب، كتب أيضًا «... لايركبنّ يهوديّ ولا نصرانيّ على سرج، وليركب على أُكاف[٢]، ولا تركبنّ امرأة من نسائهم على رحّالة[٣]، وليكن ركبها على أُكاف»[٤]. و «لا يفحجوا على الدواب وليدخلوا أرجلهم من جانب واحد»[٥].

وذكر بعض المؤرّخين أنّ عمر بن عبد العزيز حظَرَ على النصارى الوظائف بعد أن كانوا يشغلون وظائف مهمّة كما سنرى. ونذكر هنا النصوص التي أوردها هؤلاء المؤرّخون.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمّاله «إيّاكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلاّ أهل القرآن. (فكتبوا إليه يا أمير المؤمنين إذا استعملنا أهل القرآن فوجدناهم خونة. فكتب لهم، إيّاكم أن يبلغني عنكم أنّكم استعملتم على شيء من أعمالنا إلاّ أهل القرآن) فإنّه إن لم يكن عند أهل القرآن خير، فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير»[٦].

وكتب أيضًا «أمّا بعد فإنّ المشركين نجس حين جعلهم الله جند الشيطان وجعلهم (الأخسرين أعمالاً. الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون

---

(١) أبو يوسف، الخَرَاج، ط٢، ص ١٢٧.

(٢) ترتن، أهل الذمّة في الإسلام، ط٢، ص ١٣٩.

(٣) الرحّالة (السرج) وقيل أكبر من السرج تغشّى بالجلود، تكون للخيول والنجائب من الإبل. أو هو سرج من جلود لا خشب فيه (تاج العروس ٧: ٣٤٠ مادّة رحل).

(٤) أبو يوسف، الخَرَاج، ط٢، ص ١٢٧. وابن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٥٩. ابن القيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، ق١ ص ٢١٣.

(٥) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٥٩. ابن القيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، ق١ ص ٢١٣.

(٦) ابن الجوزيّ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩ ص ٢٠٧. الأبشيهيّ، المستطرف، ج١، القاهرة ١٣١٤هـ ص ١٠٠.

صنعًا)[١]. فأولئك لعمري ممّن تجب عليهم باجتهادهم لعنة الله ولعنة اللاعنين. إنّ المسلمين كانوا فيما مضى إذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير، فكانت لهم في ذلك مدّة فقد قضاها الله بأمير المؤمنين. فلا أعلم كاتبًا ولا عاملاً في شيء من عملك على غير دين الإسلام إلاّ عزلته واستبدلت مكانه رجلاً مسلمًا فإن محق أعمالهم محق أديانهم، فإنّ أولى بهم إنزالهم منزلتهم التي أنزلتم الله بها من الذلّ والصَغار، فافعل ذلك واكتب إليّ كيف فعلت»[٢].

وذكروا أنّه كتب إلى عمّاله نسخة واحدة[٣]: «... فلا تولّينّ أمور المسلمين أحدًا من أهل ذمّتهم وخراجهم، فتنبسط عليهم أيديهم وألسنتهم، فتُذِلّهم بعد أن أعزّهم الله، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى، وتعرّضهم للكيد والاستطالة عليهم. ومع هذا فلا يؤمن غشّهم إيّاهم فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: «لا تتّخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبَالاً وَدّوا ما عَنِتّم»[٤] (لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض)[٥] والسلام».

وكتب إلى محمّد بن المنتشر، وكان كاتبًا على العراق: «أمّا بعد، فإنّه بلغني أنّه في عملك رجلاً يقال له حسّان بن برزيّ[٦]، على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول »يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا الذين اتّخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أولياء واتّقوا الله إن كنتم مؤمنين»[٧] وإذا أتاك كتابي هذا، فادعُ حسّان إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منّا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعِن به، ولا تأخذ من غير أهل الإسلام على شيء من أعمال المسلمين. فقرأ عليه الكتاب، فأسلم»[٨].

---

(١) سورة الكهف، ١٠٣، ١٠٤.

(٢) ابن عبد الحكيم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ط٥، ص ٥٨. ابن القيّم الجوزيّة. أحكام أهل الذمّة، قسم١ ص ٢١٢–٢١٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٥ ص ٦٦، دار صادر ١٩٦٥.

(٤) سورة آل عمران ١١٨.

(٥) سورة المائدة ٥٤.

(٦) هو حسّان النبطيّ المعروف. انظر ابن القيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، ق١ ص ٢١٤.

(٧) سورة المائدة ٦٠.

(٨) الطرطوشيّ، أبو بكر محمّد بن الوليد، سراج الملوك. مطبعة بولاق ١٢٨٩هـ. ص ١٣٧. ابن القيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، ق١، ص ٢١٤.

وإضافة إلى ما تقدّم، ذكروا أنّه أمر أن لا تُسمع شهادة نصرانيّ على مسلم أمام القضاء، وإذا قتَل المسلمُ النصرانيّ فالعقوبة «ديّة مفروضة»[١]. كما ذكروا أنّه منعهم من دخول الحمّامات يوم الجمعة إلاّ بعد الصلاة. ووضع مراقبين وحرّاسًا يراقبون جزّاريهم عند الذبح، واشترط عليهم أن يذكروا اسم الله واسم النبيّ محمّد عند الذبح«[٢].

وترى فئة من الباحثين أنّ الأوامر المتقدّمة هي من وضع عمر بن الخطّاب فهو واضعها[٣]، وأنّ عمر بن عبد العزيز أقرّها وزاد عليها.

غير أنّ هناك فئة ترى خلاف هذا الرأي، ترى أنّها من وضع عمر بن عبد العزيز، ومنهم الزيّات الذي يقول[٤]: «والأرجح أنّ أوّل نواة نجمت منها في زمان الخليفة عمر بن عبد العزيز، وهو أوّل من أصدر الأحكام الجائرة في حقّ النصارى، وأسف على التضييق عليهم في ألبستهم وأزيائهم» وحجّته في ذلك أنّه وقف في خزانة المتحف البريطانيّ على شاهد لا يدع مجالاً للشكّ في نسبة هذه الأمور إلى عمر بن عبد العزيز. أمّا الشاهد فهو رواية ابن عساكر بإسناد له عن مسروق قال فيه وهو يتكلّم بلسان النصارى عند ذكر الكنائس «ولا تأتي منها ما كان في خطط المسلمين»[٥]. وزاد فيه «ولا نتشبّه بهم في شيء...» قال ابن غنم: «ما رأيت هذه الزيادة فيما وقع إلينا من عهد عمر بن الخطّاب ووجدتها مرويّة من عمر بن عبد العزيز»[٦] ثمّ يقول الزيّات: «وهذه الشهادة تؤيّد كلّ التأييد نسبة الشروط إلى الخليفة المروانيّ ونفيها عن الخليفة العدويّ»[٧].

---

(١) فيليب حتّي، تاريخ العرب المطوّل، ج٢ ط٢ ص ٣٠٢.

(٢) غازي بن الواسطيّ، ردّ على أهل الذمّة، كولومبيا بدون تاريخ ص ٣٩١-٣٩٢.

(٣) فيليب حتّي، تاريخ العرب المطوّل، ج٢ ط٢ ص ٣٠٢. جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلاميّ ج٤ ص ٣٨٤.

(٤) مجلّة المشرق ج٢، ١٩٤٩ (العدد٤٣) ص ١٧٢. مجلّة المشرق ج٢، ١٩٤٨ (العدد٤٢) ص ١.

(٥) مجلّة المشرق ٤٣: ١٧٢.

(٦) مجلّة المشرق ٤٣: ١٧٢.

(٧) مجلّة المشرق ٤٣: ١٧٢. سمّي بالخليفة العدويّ، لأنّ عمر بن الخطّاب من بني عديّ بن كعب بن لؤيّ. راجع ابن خيّاط كتاب الطلقات قسم١. تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٦٦، ص ٤٨.

وأرى أنّ الزيّات مخطئ في رأيه لأنّ هذه النصوص تعني العكس. تعني أنّ عمر بن الخطّاب وضع أصل الأوامر، أمّا عمر بن عبد العزيز فقد زاد عليها.

ويقول الزيّات أيضًا في كتابه الموسوم « الديارات النصرانيّة في الإسلام»: «ومن الثابت المحقّق اليوم أنّ عمر بن عبد العزيز هو أوّل خليفة في الإسلام نظر شزرًا إلى المسيحيّين وابتدع، قبل المتوكّل على الله العبّاسيّ، أوّل خطّة لإذلالهم وحرمانهم وعسفهم خلافًا للرأي الشائع منذ القرن الخامس للهجرة بنسبة مجموع هذه المظالم المعروفة بالشروط العمريّة لعمر بن الخطّاب»[١].

ويقول فيها أيضًا: في مجلّة الخزانة الشرقيّة «ولعلّها لم ترد على هذه الصورة في كتب الأخبار والفقه قبل القرن الخامس أو السادس للهجرة، ولا يبعد أن يكون جانب منها نُسب لأوّل مرّة إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز الأمويّ»[٢]، ويعتبر الرأي الأوّل هو الرأي القاطع بالنسبة له، وذلك لأنّ الرأي الثاني كان سنة **١٩٣٨**، أمّا الرأي الثالث كان سنة **١٩٣٦**، أمّا الرأي الأوّل فهو آخر الآراء إذ إنّه ذكر سنة **١٩٤٩**.

ومن الباحثين الذين يرون أنّها من وضع عمر بن عبد العزيز ترتن إذ يقول: «وليس من شكّ في أنّ حكم عمر بن عبد العزيز في نهاية القرن الأوّل الهجريّ كان بداية سلسلة من المتاعب التي ألّمت بالذمّيّين، ففرضت القيود الخاصّة على ملابسهم، وبدأت حركة فصلهم من وظائف الحكومة وإقصائهم عنها...»[٣]. و«ربّما كان العهد الذي ذكره أبو يوسف صورة قديمة لعهد عمر بن عبد العزيز»[٤].

أمّا أنطونيو فتّال فيعتقد بجواز رجوع قسم منها إلى عمر بن عبد العزيز، ويستدلّ على ذلك بأنّ بعض النصوص[٥] التي رجع إليها تشهد أنّه منع تعيينهم في الوظائف وإعلاء أصواتهم في الصلاة ومنعهم من ركوب الخيل مسرجة[٦]. إلاّ أنّه يقول إنّها

(١) الديارات النصرانيّة في الإسلام، بيروت ١٩٣٨، ص ٣٦-٣٧.

(٢) مجلّة الخزانة الشرقيّة، ج١، سنة أولى ١٩٣٦، ص ٦.

(٣) ترتن، أهل الذمّة في الإسلام ط٢ (١٩٦٧) ص ٢٧٧.

(٤) ترتن، أهل الذمّة في الإسلام، ص ٢٨٠.

(٥) نفس النصوص التي رجعنا إليها، وانظر: Fattal, *op. cit.* pp. 68-69

(٦) Fattal, *op. cit.* pp. 68-69

كانت نظريّة، ولم تطبّق إلاّ في العصر العبّاسيّ أيّام الرشيد والمتوكّل[1]. وكذلك يعتقد «ول ديورانت» بصحّتها إذ يقول في عمر بن عبد العزيز «فرض قيودًا شديدة على من امتنعوا عن الإسلام فحرّم عليهم مناصب الدولة ومنعهم من بناء معابد جديدة»[2].

وأظنّ أنّ هذه الأوامر لم تكن من وضع عمر بن عبد العزيز والأدلّة على ذلك:

١) إنّ عمر بن عبد العزيز كان متسامحًا جدًّا مع النصارى لدرجة أنّه زجر مسلمة بن عبد الملك، عندما تخاصم مسلمة مع أهل دير إسحاق[3]، بين يدي عمر بن عبد العزيز، وكان مسلمة جالسًا على الوسائد، فقال له عمر بن عبد العزيز «لاتجلس على الوسائد وخصماؤك بين يديّ، ولكن وكّل بخصومتك من شئت، وإلاّ فجاثي القوم بين يديّ»[4]. وعندما وكّل مسلمة وكيلاً، وجرت المحاكمة. قضى على مسلمة لأهل دير إسحاق.

٢) إنّ عمر بن عبد العزيز «قضى لذمّيّ بشفعته»[5].

٣) إنّ عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولاته «لاتهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صالحتم عليه»[6].

٤) ثمّ إنّ المصادر النصرانيّة قد خلت خلوًّا تامًّا من الإشارة إلى منع عمر بن عبد العزيز النصارى من بناء الكنائس ممّا يدلّ على عدم وقوعه[7].

٥) إنّه أوجب البرّ بالعهود المعطاة للنصارى. وأمر بإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، فقد أمر عامله في دمشق أن يردّ إلى النصارى كنيستهم. فكره أهل دمشق، وقالوا: نهدم

---

(١) Fattal, *op. cit.* pp. 66

(٢) قصّة الحضارة، جح٤، ج٢ ص ٥٨.

(٣) دير إسحق يقع بين حمص وسلمية، في أحسن موضع وأنزهه، وبقربه ضيعة كبيرة يقال لها جدر. الحمويّ. معجم البلدان ٢: ٤٩٨.

(٤) ابن الجوزيّ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٧٣-٧٤.

(٥) ابن سعد. الطبقات ٥: ٢٩٦.

(٦) الطبريّ. ٦: ٥٧٢. طبعة دار المعارف. ابن القيّم الجوزيّة. أحكام أهل الذمّة. ق٢ ص ٦٩٠. Fattal, *op cit.* pp.185

(٧) ترتن. أهل الذمّة في الإسلام، ص ٥١.

مسجدنا بعد أن آذنّا وصلّينا. ثمّ أقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنّا فرضوا بذلك»[١].

٦) إنّ عمر بن عبد العزيز «أعطى بطريقًا ألف دينار استالفه على الإسلام»[٢].

٧) إنّه كان يقول لولاة الأمر من المسلمين «لا تقتلوا راهبًا ولا أكّارًا»[٣].

٨) أقام نصرانيّ الدعوة على هشام، وادّعى أنّ في يده ضيعة له فقال عمر لهشام «قم مع خصمك»[٤].

ولهذا فأنا أستبعد صدور مثل هذه الأوامر عن عمر بن عبد العزيز، لا سيّما وإنّ هناك نصوصًا تشير إلى أنّ هذه الأوامر قد أصدرت في العصر العبّاسيّ. يقول أحدهم:

«فيما كان يكتب عن الخلفاء في إلزام أهل الذمّة ما يلزم، بشريطة عقد الذمّة وأخذهم بذلك، وأوّل من كتب بذلك في خلافة المتوكّل...»[٥] ثمّ يسرد الكاتب الشروط التي فرضها المتوكّل، وهي نفس الشروط التي ذكرناها، والتي نسبت إلى عمر بن عبد العزيز من حيث المحتوى والمضمون[٦].

وهناك نصٌّ آخر يقول: «أخبرنا عن الصوليّ قال: «أمر المتوكّل أهل الذمّة أن يلبسوا العسليّ وأن تكون ركبهم حصنًا... وأمر ألاّ يستعان بهم»[٧].

ونصّ آخر يقول: «وأوّل من أمر بتغيير أهل الذمّة زيّهم ولباسهم الإمام

---

(١) سعيد ابن البطريق، كتاب المجموع على التحقيق، ج٢، بيروت ١٩٠٩ ص ٤٣-٤٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٥ ص ٢٥٨.

(٣) يحيى بن آدم، الخراج، تحقيق أحمد محمّد شاكر، ط١ (١٩٤٣)، المطبعة الإسلاميّة بالأزهر، ص ٤٨.
والأكّار: الزارع (تاج العروس ٣: ١٧، مادة اكر).

(٤) المؤلّف المجهول، العيون والحدائق، ج٣ ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٥) القلقشنديّ، مآثر الأناقة، ج٣. تحقيق أحمد عبد الستّار فرّاج. الكويت ١٩٦٤، ص ٢٢٨.

(٦) القلقشنديّ، مآثر الأناقة، ج٣. ص ٢٢٨.

(٧) العسكريّ، الأوائل، مطبعة دار أمل طنجة، ص ٢٢٠.

المتوكّل»[١] في سنة ٢٣٥هـ[٢] ألبس النصارى الأزرق، واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر»[٣].

ومن ناحية أخرى فلو كان لهذه الأوامر أصل يعود إلى عمر بن عبد العزيز، أو حتّى إلى عمر بن الخطّاب، لأشير له من قبل العبّاسيّين عندما شرطوا على النصارى لتكون قاعدة وسندًا يستندون عليه مع العلم أنّ الاثنين تمتّعا باحترام الخلفاء العبّاسيّين.

ثمّ إنّ الطبريّ والبلاذريّ، وهما من أئمّة المؤرّخين المتقدّمين، لم يشيرا قطّ إلى هذه الأوامر المنسوبة إلى عمر بن عبد العزيز.

وفي الختام أرى أنّ هذه الأوامر وضعت في العصور المتأخّرة لأسباب سياسيّة ودينيّة، حيث اشتدّت العداوة بين النصرانيّة والإسلام، فوضع البعض هذه الشروط تبريرًا لسلوك الحكّام للتصادم الذي كان بين الصليبيّين والعرب والمسلمين.

---

(١) هو المتوكّل على الله جعفر بن المعتصم، ولد سنة ٢٠٦هـ. وأصبح سنة ٢٣٢هـ خليفة للمسلمين، ودام عهده خمسة عشر عامًا. وهو الخليفة العبّاسيّ العاشر. انظر الطبريّ. تاريخ. ج٩. ص ١٥٤ فما بعد. (مطبعة دار المعارف).

(٢) جاء في الأصل خمسمائة للهجرة. وهذا خطأ. انظر الطبريّ. المصدر نفسه، ٩: ١٧١. مطبعة دار المعارف.

(٣) علاء الدين دده السكندراريّ. محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر. طبعة١ المطبعة العامريّة الشوقيّة ١٣١١هـ ص ١٣١.

المسيحيّة في عهد خالد القسريّ

خالد القسريّ[١]، هو خالد بن عبد الله من قبيلة بَجِيلة[٢]. وقد كان أخًا لهشام بن عبد الملك في الرضاعة، وكانت أمّه نصرانيّة روميّة، والظاهر أنّه كان متأخّرًا بها. فعندما ولّي مكّة سنة ٨٩هـ خطب قائلاً: «أيّها الناس، أيّهما أعظم؟ أخليفة الرجل على أهله، أم رسوله إليهم؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلاّ أنّ إبراهيم خليل الرحمن استسقى فسقاه ملحًا أجاجًا، واستسقاه الخليفة فسقاه عذبًا فراتًا»[٣]. يريد بذلك أن يقول إنّ الوليد بن عبد الملك أعظم من الرسول محمّد «يعني بالملح الفرات بئرًا حفرها الوليد بثَنْية طوى في ثنية الحمّون»[٤]. وكان ماؤها عذبًا وكان ينقل ماءها ويضعه في حوض إلى جنب زمزم ليُعرف فضله على زمزم»[٥]. وكان «يحمل الناس على التبرّك بها»[٦]. وقد ذمّ زمزم «وسمّاها أم جعلان»[٧]. وقيل إنّه لهشام «إنّي لا أرى فيك علامة الخلافة، فما أنت صانع بي إن ولّيتها، فقال هشام أولّيك العراق»[٨]. فلمّا ولّي هشام الخلافة ولّي خالد القسريّ على العراق سنة ١٠٥هـ وبقي فيها أكثر من أربع عشرة سنة[٩].

---

(١) عرف بالقسريّ، نسبة إلى قسر وهو بطن من بجيلة، وهو قسر بن عبقر بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث (تاج العروس ٣: ٢٤٩ قسر). وانظر كذلك ابن خلّكان، وفيّات الأعيان ٢: ١٠.

(٢) النسبة إليها البجليّ. والبجليّ هو ابن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث أخي الأسد بن الغوث. وقيل إنّ بجيلة اسم أمّهم وهي من سعد العشيرة وأختها باهلة، ولدتا قبيلتين عظيمتين. نزلت بالكوفة منهم أبو عمر بن جرير بن عبد الله البجليّ، توفّي سنة ٥١هـ (راجع السمعانيّ، الأنساب، ج٢ ط١. حيدر آباد، الدكن ١٩٦٣ ص ٩١. البلاذريّ، فتوح البلدان. قسم٤ ص ٣٩٦).

(٣) الطبريّ، تاريخ، ج٦ ص ٤٤٠. (طبعة دار المعارف).

(٤) الحمّون: الجبل المشرف حذاء مسجد البيعة لذي يقال له مسجد الحرس وفيه ثنيّة تسلك من حايط عوف من عند المجالين اللذين فوق دار مال الله إلى شعب الجزّارين (الأزرقيّ، أخبار مكّة ج٢، تحقيق رشدي الصالح ملّه حسن ص ٢٧٣. مطابع دار الثقافة، مكّة المكرّمة.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص ٥٣٦ (١٩٦٥).

(٦) الحلبيّ، عليّ برهان الدين. أنساب العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبيّة، ج١، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٦.

(٧) المصدر السابق والصفحة.

(٨) المؤلّف المجهول، تاريخ الخلفاء، موسكو ١٩٦٧ ص ٤٠٢، نشر بطرس غريان ينويج.

(٩) اليعقوبيّ، تاريخ ج٢ بيروت ١٩٦٠ ص ٣٢٣.

وعندما ولّي العراق بعد عزل ابن هبيرة حبس ابن هبيرة وطالبه بأموالٍ قدّرت بخمسين ألف ألف[١]. فقال في ذلك الفرزدق[٢]:

لقد حبس القسريّ في سجن واسط فتًى شيظميًّا ما ينهنهه الزجر
فلم تربّيه النصارى ولم يكن غذاء له لحم الخنازير والخمر

ميله إلى النصرانيّة

لقد انتعشت النصرانيّة في عهد خالد القسريّ انتعاشًا كبيرًا وقد بالغت المصادر كثيرًا في وصف هذا الانتعاش. قال أبو الفرج الأصفهانيّ «أخبرني الحسن قال حدّثنا الخزّاز، عن المدائنيّ عن عيسى بن يزيد وابن جعديّة وأبي اليقظان. قالوا: «كانت أمّ خالد روميّة نصرانيّة فبنى لها كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة، فكان إذا أراد المؤذّن في المسجد أن يؤذّن ضرب لها بالناقوس. وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراآتهم»[٣]. وهي رواية أشكّ في أصالتها للأسباب التالية:

١) لا يعقل أنّ أهل الكوفة يصبرون على ذلك.

٢) إنّ سند الرواية يتسرّب إليه الشكّ. فمصدر الرواية الأصليّ هو ابن جعديّة وهو «يزيد بن عياض»[٤] من المتّهمين بعلم الجرح والتعديل يقول فيه كذّاب، ومنهم من يقول ليس بشيء، ومنهم من يقول أظنّه كان يضع للناس، ومنهم من يقول ضعيف، وقال النسائيّ «متروك الحديث وقال في موضع آخر كذّاب...»[٥].

أمّا صاحب ميزان الاعتدال فقال فيه: «قال البخاريّ وغيره منكر الحديث وقال يحيى ليس بثقة، وقال عليّ ضعيف ورماه مالك بالكذب... وقال الدارقطنيّ ضعيف»[٦]. وأمّا أبو اليقظان وهو عثمان[٧] بن عمير فمنهم من ترك حديثه ومنهم

---

(١) مجهول. تاريخ الخلفاء ص ٤٠١.

(٢) المبرد. الكامل ج٣. تحقيق إبراهيم الدجمونيّ. المطبعة الأزهريّة بمصر، ص ٣٩.

(٣) الأغاني ٢٢: ٢٢ طبعة بيروت.

(٤) ابن حجر العسقلانيّ، تهذيب التهذيب ج١٢ ط١. حيدر آباد، الدكن ١٣٢٧هـ ص ٢٨٨.

(٥) ابن حجر العسقلانيّ. تهذيب التهذيب ١١: ٣٥٣.

(٦) الذهبيّ، تحقيق عليّ محمّد البجّاويّ، قسم٤ طبع بمطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ ص ٤٣٦.

(٧) ابن حجر العسقلانيّ، تهذيب التهذيب ٧: ١٤٤.

من قال «ليس حديثه بشيء» ومنهم من قال «ضعيف الحديث منكر الحديث... وذكر أنّه حضر فروى عن شيخ، فقال له شعبه كم سنّك؟ قال كذا، فإذا قد مات الشيخ وهو ابن سنتين»[١]. وفي ميزان الاعتدال «وهو ضعيف الحديث... رديء المذهب»[٢].

وأمّا المدائنيّ وهو عليّ بن محمّد المدائنيّ المتوفّى سنة ٢٢٥هـ فهو «ليس بالقويّ في الحديث، وهو صاحب الأخبار قلّ ما له من الروايات المسندة»[٣]. ومن كلّ ما مرّ بنا يمكن أن نقول إنّها من المحتمل من صنع أعداء خالد القسريّ[٤].

وذكروا أنّه بناها أي الكنيسة «في قصر الإمارة وأمر المؤذّنين أن لا يؤذّنوا حتّى يضرب فيها الناقوس أوّلاً»[٥]. وهذه الرواية، كالرواية السابقة، يتسرّب إليها الشكّ ويظهر أنّها هي الأخرى من خلق أعداء القسريّ.

٣) إنّ المصادر الأخرى لا تشير إلى هذه التفصيلات، وكلّ ما تقوله إنّه بنى لأمّه النصرانيّة بيعة تتعبّد فيها[٦]. ممّا ينهض دليلاً على أنها من وضع أعدائه.

ويروى أنّ نصارى البصرة عندما سمعوا أنّ خالدًا بنى بيعة لأمّه في الكوفة، كتبوا إلى من كلّمها للتوسّط لديه لأجل أن يبني لهم بيعة في البصرة[٧]. فسألت خالدًا أن يبني لهم بيعة، وكتب إلى بلال بن أبي بُردة أن يبني لهم بيعة، فكتب إليه بلال أنّ أهل البصرة لا يقارونه على ذلك، فكتب إليه خالد ابنها، لعنة الله عليهم، إن كانوا شرًّا منكم دينًا»[٨] فبنى بلال لهم البيعة بالبصرة.

وزعم عمر بن شُبَّه «أنّ خالدًا اتّخذ طستًا في مسجد الكوفة مَبْضَأة، وحفر لها قناة من الفرات، ثمّ أخذ بيد الأسقف يمشي به في المسجد حتّى وقف على

(١) ابن أبي حاتم الرازيّ، الجرح والتعديل. قسم١ مجلد٣، ط١، حيدر آباد، الدكن ١٩٤١ ص ١٦١.

(٢) ميزان الاعتدال، القسم الثالث، دار إحياء الكتب العربيّة، ص ٥٠-٥١.

(٣) ميزان الاعتدال. القسم الثالث ص ١٥٣.

(٤) أعتقد أنّها دسيسة من المؤرّخين والكتبة المسلمين على ابن القسريّ، باعتباره أنّه ابن النصرانيّة الروميّة.

(٥) مجهول، تاريخ الخلفاء ص ٤٠٧.

(٦) مجهول، تاريخ الخلفاء ص ٤٠٧.

(٧) انظر على سبيل المثال، البلاذريّ، فتوح البلدان ق٤ ص ٢٠٢. الهمذانيّ، مختصر البلدان، ص ١٨٣. الحمويّ، معجم البلدان ١: ٥٣٢. ابن الأثير، الكامل ٥: ٢٧٩. ابن خلّكان، وفيّات الأعيان ج٢ ص ٧.

(٨) مجهول، تاريخ الخلفاء ص ٤٠٧.

الطست، ثمّ قال للأسقف: ادع فيها بالبركة، فوالله لدعاؤك عندي أرجا من دعاء عليّ بن أبي طالب»[١].

وزعم أنّه هدم المنائر بسبب قول أحدهم من موالي الأنصار[٢]:

ليتني من المؤذّنين حياتي إنّهم يبصرون من فوق السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كلّ ذات دلال مليح.

وقد أشار إلى ذلك الطبريّ بقوله، كان خالد القسريّ يُتّهم بأنّه «يهدم المساجد ويبني البيع والكنائس...»[٣]. ويقول ابن الأثير، كان خالد القسريّ « يهدم المساجد ويبني البيع والكنائس»[٤].

وزعم أنّ خالد القسريّ سمح لأهل الذمّة أن يشتروا «الجواري المسلمات، ويطؤونهنّ، فيطلق لهم ذلك ولا يغيّره عليهم»[٥] وذكروا أنّه سمح للنصارى وغيرهم من أهل الذمّة بنكح المسلمات. ويقول الطبريّ: «وينكح أهل الذمّة المسلمات»[٦].

وأنا أشكّ في هذه الروايات وأرى أنّها من معارضي خالد القسريّ، إذ لا يعقل أن يقوم بمثل هذه الأعمال، وهو في ظلّ حكومة إسلاميّة مهما قيل فيها، فإنّه لا يمكن أن يقوم أحد ولاتها بمثل هذه الأعمال.

ابن القسريّ والشعراء

وللفرزدق شعر ذمّ فيه خالد القسريّ، كما وله شعر مدحه فيه. أمّا شعر الذمّ فنذكر منه قوله[٧]:

---

(١) مجهول، تاريخ الخلفاء ص ٤٠٧.
(٢) المبرد، الكامل ٣: ٤٠. ابن الأثير، الكامل ٥: ٢٧٩.
(٣) الطبريّ، تاريخ ٧: ١٣١، مطبعة دار المعارف.
(٤) ابن الأثير، الكامل ٥: ٢١٠، مطبعة بيروت ١٩٦٥.
(٥) الأغاني ٢٢: ٢٣ طبعة بيروت. مختار الأغاني ٣: ٤٥٧.
(٦) الطبريّ، تاريخ ٧: ١٣١ مطبعة دار المعارف. Muir, claphate p.396
(٧) الأغاني ٢٢: ٢٢، طبعة بيروت ١٩٦٠.

أبلغ أمير المؤمنين رسالة فعجّل هداك الله نزعك خالدا
بنى بيعة فيها الصليب لأمّه وهدم من بغض الإله المساجدا[١]

وقال في قصيدة أخرى[٢]:

عليك أمير المؤمنين بخالد وأصحابه لا طهّر الله خالدا
بنى بيعة فيها الصليب لأمّه ويهدم من بغض الصلاة المساجدا

وقال في قصيدة أخرى[٣]:

ألا قطع الرحمن ظهر مطيّة أتتنا تتهادى من دمشق بخالد
وكيف يؤمّ الناس من كانت أمّه تدين بأنّ الله ليس بواحد

وأمّا شعر المدح فقوله[٤]:

وما الشمس ضوء المشرقين إذا بدت ولكن ضوء المشرقين بخالد
هو القائد الميمون والكاهل الذي يثوب إليه الناس من كلّ واحد

وعلى كلّ حال فالفرزدق شاعر يسير وراء عاطفته ولا يمكن الاعتماد على أقواله لتناقضها.

ابن القسريّ والإدارة

وفي مجال الإدارة، فقد استخدم خالد القسريّ النصارى وغيرهم من أهل الذمّة في الوظائف. ولم يكن استخدام هؤلاء بالشيء الجديد الذي وجد في عهد خالد القسريّ لأوّل مرّة كما سنرى في فصل آخر، إلاّ أنّه، كما يظهر، زاد من عدد

---

(١) في وفيّات الأعيان ج٢ ص ٧: « ويهدم من بغض منار المساجد». وفي مختار الأغاني ٨: ١١٢: « وهدم من كفر منارة المساجد». وفي تاريخ الخلفاء لمؤلّفه المجهول ص ٤٠٧: «ويهدم للبيعات فيها المساجد». وفي الكامل لابن الأثير ٥: ٢٧٩: «ويهدم من كفر منار المساجد». وفي الديوان م١ طبعة بيروت ١٩٦٠، ص ١٦٠: «وهدم من بغض الصلاة المساجدا».

(٢) المبرد، الكامل في الأدب ج٣ ص ٤٠.

(٣) المبرد، الكامل في الأدب ٣: ٤٠. وانظر ابن خلّكان، وفيّات الأعيان ج٢، تحقيق محمّد محيي الدين، مكتبة النهضة المصريّة، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ص ٧٠. الجمحيّ، طبقات فحول الشعراء، ص ٢٩٣.

(٤) أنظر ديوان الفرزدق م١ بيروت ١٩٦٠ ص ١٣٢–١٣٣. وهناك قصائد أخرى مدحه بها في المصدر السابق، المجلّد١ ص ١٦٠، ٢٧٠ و٣٠١؛ وم٢ من نفس المصدر ص ٥٩ و٣٣٤، طبعة بيروت ١٩٦٠.

هؤلاء. وقد بالغ الرواة في وصف سوء معاملة هؤلاء الموظّفين للمسلمين، فيقول أبو الفرج الأصفهانيّ «كان خالد القسريّ يولّي النصارى والمجوس على المسلمين، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم»[١].

وهذه الرواية هي الأخرى يتسرّب إليها الشكّ، فمن ناحية المتن، نعتقد بوجود عنصر المبالغة فيها، ومن ناحية السَنَد، فهي عن أبي عبيدة عن أبي الهُذَيْل العلاّف. فأمّا أبو عبيدة، فآراء المختصّين بالجرح والتعديل فيه مختلفة، منهم المادح ومنهم القادح له[٢]. وأمّا أبو الهُذَيْل، وهو غالب بن الهُذَيْل الأوديّ، فقد «روى عن أنس وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعيّ... وقال أبو حاتم عن أبيه لا بأس به... عنده قليل، وذكره ابن حيّان في الثقاة»[٣]. وبما أنّ أحد رواتها مطعون فيه، فلا يمكن الاطمئنان لها، لاسيّما وإنّ متنها يثير الاستغراب ولا يتّفق مع «طبيعة العمران» كما يعبّر بذلك ابن خلدون في مقدّمته عن الرواية التي لا يقبلها العقل.

ومع ذلك فإنّ هناك من الموظّفين النصارى والمجوس من أساءوا التصرّف، فعندما أراد بهلول الحجّ بعث بخادمه ليشتري خلاً من دكّان إحدى قرى السواد، فجاءه الغلام بخمر بدل الخلّ، وعندما أمر غلامه بإرجاع الخمر وإرجاع الدراهم، رفض صاحب الدكّان. فجاء بهلول إلى صاحب القرية، فكلّمه، فقال العامل «الخمر خير منك ومن قومك»[٤].

وذكروا أنّ امرأة جاءت إلى خالد القسريّ شاكية من غلامه المجوسيّ أنّه وثب عليها وأكرهها على الفجور، فقال خالد القسريّ «كيف وجدت قلفته؟[٥]» وأظنّ أنّ هذا الكلام من صنع أعداء خالد القسريّ، لاسيّما وإنّ رواته من المؤرّخين المتأخّرين.

إنّ إكثار خالد القسريّ من النصارى في وظائف الدولة، جعل البصريّين ينبّهونه

(١) الأغاني ٢٢: ٢٣ طبعة بيروت ١٩٦٠.

(٢) الجرح والتعديل. قسم٢ من مج٤ الطبعة١. الدكن ١٩٥٣ ص ٤٠٣-٤٠٥.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ج٨، حيدر آباد، الدكن ١٣٢٦هـ ص ٢٤٤. وبنفس المعنى الجرح والتعديل قسم٢ مجلّد٣ ط١ (١٩٤٢) ص ٤٧.

(٤) الطبريّ. تاريخ ٧: ١٣٠، طبعة دار المعارف. ابن الأثير. الكامل ٥: ٢١٠.

(٥) ابن عساكر، التاريخ الكبير ٥: ٧٩. ابن خلّكان، وفيّات الأعيان ٢: ٨.

إلى أنّه يحابي أخواله – النصارى – ويكثر لهم الوظائف. فقال: «وما خير الصديق إذا لم يقطع لصديقه قطعة من دينه»[١].

وقد أورد ابن الأثير أبياتًا من الشعر، قال يحيى بن نوفل عندما عزل خالد القسريّ وعيّن بدله يوسف واليًا على العراق، هذه الأبيات تبيّن المدى الذي تغلغل فيه النصارى في تقلّد الوظائف أيّام خالد القسريّ، فقال[٢]:

أتانا وأهل الشرك أهل زكاتنا — وحكّامنا فيما نسرّ ونجهر
فلمّا أتانا يوسف الخير أشرقت — له الأرض حتّى كلّ وادٍ منوّر
وقد رأينا العدل في الناس ظاهرًا — وما كان من قبل العقيلي يظهر

ثمّ قال بعد ذلك من قصيدة أخرى:

أرانا والخليفة إذ رمانا — مع الإخلاص بالرجل الجديد
كأهل النار حين دعوا أغيثوا — جميعًا بالحميم وبالصديد

ولّما تحدّث ابن خلدون عن خالد القسريّ أشار إلى ما أشار إليه الشاعر تقديمه أهل الذمّة وإسناد المناصب إليهم. فقال: وقد نزلت «الذلّة بالعراق في العرب، وصار الحكم فيه لأهل الذمّة»[٣].

ولقد كان لتقريب خالد القسريّ للنصارى وغيرهم من أهل الذمّة والإكثار منهم في وظائف الدولة، ردّ فعل عنيف لدى الأوساط المعادية للدولة، إذ قد اتّخذت من ذلك حجّة للثورة ضدّ الدولة، وقد كلّفت هذه الثورات الأموال الطائلة من أجل قمعها. ومن بين هذه الثورات، ثورة بهلول الخارجيّ الذي قال[٤]: «إنّا والله ما نصنع بابن النصرانيّة شيئًا – يعني خالدًا – وما خرجت إلاّ لله، فلِم لا نطلب الراس الذي يسلّط خالدًا وذوي خالد...». ومن الذين خرجوا على خالد للسبب المذكور العنزيّ صاحب الأشهب ووزير السختيانيّ، فأمّا العنزيّ صاحب الأشهب، فقد خرج

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد الفريد ج٢ تحقيق أحمد أمين، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٦٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل ج٥ ص ٢٢٤–٢٢٥، بيروت ١٩٦٥.

(٣) ابن خلدون، تاريخ، حج٣ قسم١ طبعة ١٩٥٧ المطبعة السلفيّة ص ٢٠٧.

(٤) الطبريّ، تاريخ، ٧: ١٣٢، طبعة دار المعارف.

في ستّين من أصحابه، فأرسل إليهم خالد القسريّ السمط بن مسلم البجليّ على رأس جيش قدّر بأربعة آلاف والتقى الطرفان بناحية الفرات، وشدّ العنزيّ على السمط، فضربه السمط بين أصابعه وألقى سيفه وشلّت يده وحمل عليهم جيش السمط فانهزموا «فتلقّاهم عبيد أهل الكوفة وسفلتهم فرموهم بالحجارة حتّى قتلوهم»[١].

أمّا وزير السختيانيّ فقد خرج في الحيرة في نفر من أصحابه وقد أحرق الكثير من القرى التي مرّ فيها وغلب على ما هنالك وعلى بيت المال، فأرسل إليه خالد شرطته وقاتلوه، فقاتل حتّى قتل أصحابه، أمّا هو فقد أُثخن بالجروح وأُخذ أسيرًا إلى خالد. فأُعجب خالد بذكائه وفطنته وحسن بيانه. فأمسك عن قتله. إلاّ أنّ الخليفة هشام غضب على خالد، وأمر بقتله. فبعث إليه خالد وإلى نفر من أصحابه «فدخلوا المسجد وأدخلت أطنان من القصب فشدّوا فيها ثمّ صبّ عليهم النفط، ثمّ أخرجوا فنصبوا في الرحبة ورموا بالنيران فما منهم أحد إلاّ من اضطرب وأظهر جزعًا إلاّ وزيرًا فإنّه لم يتحرّك ولم يزل يتلو القرآن حتّى مات»[٢].

ومن الخارجين كذلك على خالد القسريّ شَرِيّ الصحاريّ ابن شبيب سنة ١١٩هـ وقد أيّده بنو تِيْم اللات بن ثعلبة وقالوا له: «كنت لأن تخرج إلى ابن النصرانيّة، فتضربه بسيفك أحرى»[٣]. وعنما أيّده بنو ثعلبة قال[٤]:

لم أرد من الفريضة إلاّ طمعًا في قتله أن أنالا
فأريح الأرض منه ومن عاث فيها وعن الحقّ مالا
كلّ جبّار عنيد أراه ترك الحقّ وسنّ الضلالا
إنّي شارٍ بنفسي لربّي تارك قليلاً لديهم وقالا
بائع أهلي ومالي أرجو في جنان الخلد أهلاً ومالا

إلاّ أنّ حركته هي الأخرى أُقمعت وقُتل هو وجميع أصحابه أيّام الشدائد. وقد شعر الخليفة هشام بن عبد الملك بأنّهم سوف يقفون إلى جانبه، فعندما أراد عزله

(١) الطبريّ، تاريخ، ٧: ١٣٤.
(٢) الطبريّ، تاريخ، ٧: ١٣٤.
(٣) الطبريّ، تاريخ، ٧: ١٣٧.
(٤) الطبريّ، تاريخ، ٧: ١٣٧. ابن الأثير، الكامل ٥: ٢١٣.

وتعيين يوسف بن عمر واليًا على العراق، أمر يوسف أن يكتم الأمر ويقبض عليه سرًّا، إذ كتب هشام بخطّ يده «أنْ سِرْ إلى العراق، فقد ولّيتك إيّاه، وإيّاك أن يعلم بذلك أحد»[١]. فظهر يوسف فجأة، وإذا «بنصارى الحيرة ورجال ثقيف وغيرهم من المضربين الكوفيّين يضعون أنفسهم تحت تصرّفه فلا يقاومه إنسان»[٢]. أي إلى جانب خالد القسريّ.

إنّ تأييد القبائل العربيّة، ونعني بها ثقيف وغيرهم من مضر يرجع سببه إلى العصبيّة القبليّة لأنّ قبيلة ثقيف وبجيلة التي ينتمي إليها خالد القسريّ هما من القبائل المضريّة[٣]، والقبائل المضريّة هي قبائل يمنيّة[٤]. وقد لاحظ هذا الأمر «مور» (Muir) إذ قال: «وقد أدّى إقصاء خالد إلى استياء عامّ، ولاسيّما بين عشيرته اليمانيّة في العراق»[٥].

وعندما تمّ عزله، وطولب بمبلغ ستّة وثلاثين ألف ألف: «... اجتمع من دهاقين العراق ومياسير الناس، فقالوا نحن نتحمّل هذا المبلغ عنه ونؤدّيه، ويقال إنّ يوسف بن عمر قبل ذلك»[٦]. فإن صحّت هذه الرواية، فإنّ الأمر لا يخلو من سبب مهمّ وهو أنّهم حفظوا له منّته عليهم، واستفادوا من حكمه فأبرّوا على حساب الآخرين واعتقدوا أنّ مصيرهم مربوط بمصيره.

* * * * * * * *

أمّا علاقة خالد القسريّ بفطاركة كرسيّ المدائن فقد كانت متينة وحسنة. فيُذكر أنّ الجاثليق بيثون[٧]، الذي تمتّع النصارى في عهده باحترام وتقدير خالد والي العراق،

---

(١) الطبريّ، تاريخ، ٧: ١٤٩. اليعقوبيّ، تاريخ ٢: ٣٢٣.

(٢) فلهاوزن، الدولة العربيّة وسقوطها، ص ٢٦٧.

(٣) السمعانيّ، ابن سعيد عبد الكريم بن محمّد بن منصور (ت٥٦٢هـ) ج٣، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه عبد الرحمن بن يحيى، طبع بإعانة وزارة المعارف للتحقيقات العلميّة والأمور الثقافيّة تحت مراقبة د. محمّد عبد المعين خان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد، الدكن، الهند ١٩٦٣، ص ١٣٩.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠ ص ٦٤.

(٥) The claphate, p. 396

(٦) اليعقوبيّ، تاريخ ٢: ٣٢٣.

(٧) كان بيثون من أهل باجُرميّ (كركوك). وكان أسقفًا على الطَّيْرَهان قبل أن يتفطرك، ولم يكن بالكبير العمر عند فطركته. خدم الكرسيّ إحدى عشرة سنة ومات سنة ١٢٣هـ في المدائن.

كثيرًا ما كان خالد يزوره ويكرّمه. وكثيرًا ما زار الجاثليق بيثون خالدًا، وأجلسه خالد على الكرسيّ وخلع عليه وسأله الدعاء[١]. وقد تمكّن هذا الجاثليق نتيجة لهذه العلاقة الحسنة بينه وبين خالد القسريّ أن يوافق خالدًا «على شيء يسير يؤدّيه عن الخراج بالمدائن وكتب له كتابًا»[٢].

أمّ خالد القسريّ

أمّا أمّه فاسمها (باقية)[٣] وكانت نصرانيّة، وقد عيّره بنصرانيّتها مسلمة بن هشام لعداوة بينهما[٤]. فعندما مات أسد شقيق خالد عن إمارة خراسان وأعمالها، نيابة عن أخيه كتب إليه مسلمة شامتًا به، أبياتًا هجاه فيها وتطرّق إلى نصرانيّة أمّه، فقال[٥]:

وأمّــه همّـهـا وبغيتـهــا ... هـمّ الإمــاء العـواهر الشرد
كــافــرة بـالنـبيّ مؤمنـة ... بقسّها والصليب والعمـد[٦]

وبقيت أمّه على نصرانيّتها بالرغم من محاولته تحويلها إلى الإسلام[٧] ولم تختتن، فعيّره الناس فأنف من ذلك وقيل إنّه اختتن لها كارهة. فقال أعشى همذان يعيّره بها[٨]:

---

(١) ماري بن سليمان، ص ٦٦.

(٢) ماري بن سليمان، ص ٦٦.

(٣) المؤلّف المجهول، تاريخ الخلفاء ص ٤٠٦.

(٤) سبب العداوة أنّ هشامًا رشّح ابنه مسلمة للخلافة. فقال الكميت:

إنّ الخلافة كائن أوتادها ... بعد الوليد إلى ابن أمّ حكم

يعني مسلمة وأمّه أمّ الحكم «فبلغ الشعر خالدًا. فقال: أنا كافر بكلّ خليفة يكنّى أبا شاكر يعني مسلمة الذي كان يكنّى أبا شاكر، فسمعها أبو شاكر فحقد عليه» (انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٥، دار صادر بيروت ١٩٦٥ ص ٢١٧. وانظر أيضًا الزيّات، مجلّة الخزانة الشرقيّة ج٢، تصدر مرّتين في السنة، مطبعة القدّيس بولس، حريصا، نيس، فرنسا، السنة الأولى ١٩٣٦ ص ٦٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل ٥: ٢١٧.

(٦) يعني المعموديّة، ابن الأثير، الكامل ج٥ ص ٢١٨.

(٧) المؤلّف المجهول، تاريخ الخلفاء ص ٣٠٦.

(٨) الأغاني ٢٢: ٢٢. مختار الأغاني ٣: ٤٥٥. جاءت كلمة (الصادق) بدل (السائل).

لعمـري لا أدري وإنّـي لسائـل أبظراء أم مختونة أمّ خـالد
فإن كانت الموسى جرت فوق بظرها فما ختنت إلاّ ومصان قاعد
يـرى سوءة من حيث يطلع رأسه تـمرّ عليها مرهفات الحدائد

وقد عيّره أيضًا بذلك الفرزدق، حيث قال[١]:

وأنت ابن النصرانيّة طـال بظرها غذتك بألبان الخنازير والخمر

إنّ سبب هذا التعيير يعود إلى أنّ المسلمين على رأي زيد بن عليّ يرون أنّ الختان هو «سنّة للرجال تكرمة للنساء»[٢]. وعلى رأي أبي حنيفة ومالك إنّه سنّة في حقّ الجميع، وقد أوجبه فيما بعد أحمد والشافعيّ والنوويّ.[٣]

وقد هجاه الفرزدق بقوله[٤]:

رجونا هداه لا هدى الله خالدًا فما أمّه بالأمّ يهدى جنينها

أمّا أصلها: فقد اتّفقت الروايات على أنّها روميّة الجنس، ولكنّها اختلفت في مصيرها إلى أبيه، فمن الروايات من تقول إنّ أباه رآها في أحد أعياد النصارى وأُعجب بجمالها، فابتناها وأولدها خالدًا وشقيقه أسدًا[٥]. وهو الرأي الراجح. والرواية الأخرى تقول إنّ الخليفة عبد الملك وهبها لأبيه[٦].

وقد وصف أحد الشعراء أمّ خالد بقوله[٧]:

يقولـون نصرانيّـة أمّ خالد فقـلت دعوها كلّ نفْس ودينها
فإن تكن نصرانيّـة أمّ خالد فقد صوّرت في صورة لا تشينها
أحبّـك إن قالـوا بعينيك زرقة كذلك عتاق الطير زرقًا عيونها

(١) الأغاني ٢٢: ٢٧. مختار الأغاني ٣: ٤٥٨.
(٢) زيد بن عليّ، مسند الإمام زيد بن عليّ، بيروت ١٩٦٦ ص ٤٢٥.
(٣) النوويّ، محيي الدين بن شرف (ت٦٧٦هـ) المجموع ج١ (شرح المهذّب) الناشر زكريّا عليّ يوسف، مطبعة العاصمة، شارع الفلكيّ، القاهرة ص ٣٥٦.
(٤) ديوان الفرزدق، م٢ دار صادر ص ٣٣٤. العقد الفريد ج٤ ص ٤٢٩.
(٥) ابن الأثير، الكامل مج٥ ص ٢٧٩، بيروت ١٩٦٥.
(٦) الأغاني ٢٢: ٢٦، طبعة بيروت ١٩٦٠.
(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار ج٤ دار الكتب العربيّة، القاهرة ١٩٣٠ ص ٥٨.

وممّا يؤيّد أنّها روميّة هذا الوصف لها من قبل الشعراء من زرقة عينيها وبياض وجهها.

إلاّ أنّ بعض المؤرّخين، أمثال سبط بن الجوزيّ يذكر أنّها سوداء قبيحة المنظر[١]. وهو رأي متأخّر بالنسبة للمؤرّخين الذين وصفوها قبله بزمن طويل. ثمّ إنّ ابن الجوزيّ المذكور، له شطحات من هذا القبيل. وهو قصّاص لا يتقيّد بالتاريخ، فكيف تكون سوداء وهي روميّة لأنّها ليست حبشيّة. والظاهر أنّ بعض خصوم خالد القسريّ قال ذلك، فوصلت الحكاية إلى سبط بن الجوزيّ إذا صدّقنا بها.

ومن الأعداء المعاصرين لخالد القسريّ وأمّه، والذين وصفوها بأنّها سوداء، الشاعر الفرزدق الذي قال في خالد القسريّ عندما فرّ من مصعب بن الزبير يوم الجَفْرَة بالبصرة[٢]. فقال فيه الفرزدق[٣]:

وكلّ بني السوداء قد فرّ فرّه ... فلم يبق إلاّ فَزّة في إسْتِ خالد

فضحتم أمير المؤمنين وأنتم ... ترون سودانًا غلاظ السواعد

والفرزدق لا يُعتمد عليه في هذه الناحية وغيرها من النواحي التي يسبّ فيها خالدًا، أو يعيّره لأنّه شاعر يسير وراء رغباته، وكثيرًا ما مدح خالدًا القسريّ وذَمّه كما ذكرنا ذلك من قبل.

وكثيرًا ما تجاسر على أمّ خالد أعداء خالد القسريّ، وتكلّموا ضدّها كلامًا بذيئًا - كونها نصرانيّة - فقد ذكر الطبريّ، لمّا خرج المغيرة بن سعيد في الكوفة وادّعى السحر وأنّه يحيي الأموات، وأخبر خالد القسريّ بخروجه وكان خالد على المنبر، قال خالد القسريّ «أطعموني ماء»[٤]، فقال ابن نوفل[٥]:

---

(١) الخزانة الشرقيّة ج٢ ص ٩٩.

(٢) هو اليوم الذي اغتنم فيه المروانيّون غفلة مصعب بن الزبير عنهم بالكوفة، وكانوا بالبصرة فثار بهم خالد يدعو إلى عبد الملك بن مروان. فلمّا بلغ مصعبًا الخبر، أقبل من الكوفة إلى البصرة، ففرّ خالد إلى الشام (انظر الطبريّ ٦: ١٥٢ فما بعد. ط دار المعارف).

(٣) ابن عبد ربّه، العقد الفريد ج١ ص ١٥١.

(٤) الطبريّ ٧: ١٢٩. ط دار المعارف، مصر.

(٥) الطبريّ ٧: ١٢٩-١٣٠ ط دار المعارف، مصر.

أخالد لا جزاك الله خيرًا   وأمير في حرامك من أمير
وأمّك علجة[١] وأبوك وغد   وما الأذناب عدلاً للصدور

والهجاء هنا بسبب قوله «أطعموني ماء»، فالماء لا يُطعم لكنّه يُسقى. وبالرغم من أنّ أمّ خالد روميّة الأصل، إلاّ أنّها تأدّبت بآداب العربيّة، ونظمت الشعر. فقد روي: «لمّا بلغ سليمان ما فعله خالد برأس الحجبيّ، أخذته لذلك حميّة فأمر أن يبعث إلى خالد من يقطع يمينه لضربه القرشيّ، وعنده سليمان بن يزيد بن المهلّب، فلم يزل يفديه حتّى أعفا عنه وعن قطع يده. وأمر أن يُضرب مائة كما ضرب الحجبيّ. فقال الفرزدق[٢]:

لعمري لقد صابت على ظهر خالد   شآبيب استهلّهنّ من سبل القطر
أتضرب في العصيان تزعم من عصا   وتعصى أمير المؤمنين أخا قسر[٣]
فلولا يزيد بن المهلّب حلقت   بكفّك فتخاء إلى الفتخ في الوكر

فردّت عليه أمّ خالد قائلة[٤]:

لعمري لقد باع الفرزدق عرضه   بخسف وصلى وجهه حامي الجمر
فكيف يساوي خالدًا ويشينه   خميص من التقوى بطين من الخمر

وإذا صحّت هذه الرواية فإنّ أمّ خالد قد جمعت إلى الجسم حلية العقل والعلم.

(١) العلج: الرجل من الكفّار العجم. (تاج العروس ٢: ٧٥).
(٢) ديوان الفرزدق م١ دار بيروت ١٩٦٠ ص ٣٠١. العقد الفريد ٤: ٤٢٩.
(٣) يريد أنّه لولا ابن المهلّب كانت يده قطعت وحملتها الفَتْخاء، العقاب، الليّنة الجناح إلى فراخها طعامًا. أُنظر الديوان م١ ص ٣٠١ هامش رقم (١).
(٤) ابن عبد ربّه، العقد الفريد ج٤ ص ٤٢٩. القاهرة ١٩٤٤.

موقف النصارى من الدولة الأمويّة ومعارضيها

يُعتبر العصر الأمويّ بصورة عامّة عهد ازدهار النصرانيّة. فعن عهد معاوية بن أبي سفيان يقول معاصره يوحنّا برفنكايي «إنّ العدالة ازدهرت في أيّامه، وعمّ السلام الشامل كلّ البلاد الخاضعة لحكمه، وتمتّع الناس بحرّيّة مطلقة. فإنّ صاحب شريعتهم قد أوصاهم بحقّ النصارى والرهبان. فكانوا يطالبونهم بالخراج، ويطلقون لهم الحرّيّة التامّة في أمر الدين. ومن جنسهم كان مسيحيّون كثيرون، بعضهم هراطقة وبعضهم من مذهبنا»[١].

ويقول كاتب آخر «على أنّ النصارى من عهد الأمويّين كانوا حتّى استخلاف عمر بن عبد العزيز يعاملون بالحسنى»[٢]. وقال باتولد إنّ سبب هذا التسامح هو «لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المتفوّق على العرب حضارة»[٣]. وأرى أنّ في هذا الكلام مبالغة كما سأبيّن ذلك فيما بعد.

ومن الباحثين من اعتبر الراشديّ والأمويّ كلّه، عصر تسامح بالنسبة للنصارى إذ يقول: «إلاّ أنّه بعد فترة التسامح في عهد الراشدين والأمويّين نال المسيحيّون من العبّاسيّين ضروب التنكيل. فلا شعائر عبادة ولا معابد جديدة ولا إقامة حجّ وقرع أجراس وما إلى ذلك...»[٤].

ويقول كاتب نصرانيّ آخر: إنّ النصارى المشارقة قد تمتّعوا في عهد الدولة الإسلاميّة بحياة «سعيدة مكتنفة بالحماية والتوقير عملاً بالتوصيات التي تركها صاحب الشريعة وخلفاؤه عليهم»[٥].

---

(١) مجلّة النجم. سنة أولى. الموصل ١٩٢٩ ص ٤٤١. كان يوحنّا بَرْفَنْكايي من نصارى العراق، وهو نسطوريّ المذهب، وقد عاصر جيورجيس الجاثليق.

(٢) فيليب حتّي، تاريخ العرب المطوّل ٢: ٣٠١.

(٣) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلاميّة، نقله إلى العربيّة حمزة طاهرة ط٢، دار المعارف، مصر ص ١٨، ١٩٥٨.

(٤) مجلّة المسرّة مجلّد ٤٠ (العدد ٣٩٨) ١٩٥٤، ص ٦٨٧، عدد خاصّ بالسنة المريميّة.

(٥) بطرس نصري، ذخيرة الأذهان ج١ ص ٢٦٥.

موقف قبيلة تغلب من الدولة

إنّ هذا الموقف الذي وقفته منهم الدولة، والحقوق والامتيازات التي تمتّعوا بها، والتي جعلت النصارى في العراق حتّى أيّام الحجّاج يقفون موقف المؤيّد للحكومة الأمويّة في بعض الحالات التي كان فيها الأمويّون يحتاجون فيها لمساعدتهم في العراق. فقد ساهمت قبيلة تغلب في قمع حركة مصعب بن الزبير في العراق، وفي ذلك يقول الأخطل مادحًا عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان(١):

وأهل إذا غَنَط العدوّ بفيلق تحت إرشاد عريضه الآثار
حتّى رأوه بجنب مسكن معلّمًا والخيل جاذية على الإقتار
ورجال عبد القيس تحت نحورها كانوا لها جزرًا من الأجزار
وعلى خزاعة والسكون تعطّفت وأصابهم ظفر من الأظفار

وقال أيضًا في يوم صفّين وتأييد معاوية(٢):

ويوم صفّين والأبصار خاشعة أمدّهم إذا دعوا من ربّهم مدد
فثمّ قرّت عيون الثائرين به وأدركوا كلّ تبل عنده قود
فلم تزل فيلق خضراء تحيطهم تنعى ابن عفّان حتّى أفرغ الصيد
والمسلمون بخير ما بقيت لهم وليس بعدك خير حين تفتقد

وقال أيضًا واصفًا موقف قبيلة تغلب من ثورة مصعب بن الزبير(٣):

ولمّا تبينّا ضلالة مصعب فتحنا لأهل الشام بابًا من النصر

ليس هذا فقط، بل إنّ الأخطل هجا قيس عيلان لا لاعتبارها عدوّة تغلب قومه،

(١) شرح ديوان الأخطل، إيليّا سليم (الحاويّ) ص ١٠٩.
(٢) شعر الأخطل، طبعة بيروت ١٨٩١، ص ١٧٤-١٧٦.
(٣) شعر الأخطل، ص ١٣٤.

بل لأنّها ناصبت البيت الأمويّ العداء وأيّدت حركة بن الزبير. فقال في قصيدة يهجو قيس عيلان مطلعها[(١)]:

ألا يا سلمى يا هنـد هنـد بني بدر وإن كان حيّانا عدى آخر الدهر

فهو يهجو معظم قبائل بني القيس، وهم: بنو العجلان، غنم، جشم، باهلة، بنو عامر، سليم، محارب، سلول، بنو بدر وسواءة وغيرهم. وهو يفتخر بانتصار قومه ثمّ بعد ذلك يتوجّه إلى الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان، فيخبره نيابة عن قومه بأنّ تغلب لا تحتاج إلى صلح قيس عيلان، وذلك عندما علم بأنّ عبد الملك يبذل المساعي لهذا الصلح. وقد ذكّر عبد الملك بغدر قيس، واستمرارها في الفتنة، وأنّها لم تبايعه طائعة باختيارها بل بايعته بعد هزيمتها تطلب بذلك عذرًا عمّا أقدمت عليه حين أعانت مصعبًا ضدّ عبد الملك. والضحّاك بن قيس الفهريّ في حربه لمروان بن الحكم يوم مرج راهط. وإنّ مبايعتها هذه لم تكن عن إسلام وهدًى، كلّ ذلك ليؤلّب عبد الملك عليها، وليوقع الشكّ في نفسه من مبايعتها له. ومن جملة ما قاله ليحقّق هذا الهدف:

أعـنّـي أمـيـر المؤمـنين بنـائـل وحسن عطـاء ليس بالريث النزر
وأنت أمـيـر المؤمنين ومـا بنـا إلى صلح قيس بن مروان من فقر
فإن تكُ قيس يا ابن مروان بايعت فقد وهلت قيس إليك من العذر
علـى غيـر إسلام ولا عـن بصيرة ولكنّهم سيقوا إليك على صغر[(٢)]

ثمّ قال[(٣)]:

كـانـوا مـوالي حقّ يطلبـون بـه فـأدركـوه ومـا ملّـوا ولا لغبـوا
إن يـكُ لـلـحقّ أسبـاب يمدّ بهـا ففـي كِفّهـم الأرسان والسبب
هـم سعوا بأنّ عفّان الإمـام وهـم بعد الشماس مروها ثمّت احتملوا
حربًا أصاب بني العوّام جانبها بعـدًا لمن أكلتـه النـار والحطب
حتّى تناءت إلى مصر جماجمهم تعدو بها البرد منصوبًا بها الخشب

---

(٣) شعر الأخطل. ص ١٢٨-١٣٥.
(١) شعر الأخطل، ص ١٣٣ وما بعدها.
(٢) شعر الأخطل، ص ٣٩.

وفي نقيضته (عتبتم علينا آل عيلان كلّكم) التي يمدح بها عبد الملك ويهجو جريرًا وقيس عيلان، نجده يؤكّد أحقّيّة الأمويّين للملك والخلافة. أمّا خصومهم من قيس عيلان فقد وصفهم بالضلال. واعتبر ملك الأمويّين ملكًا ليس بمغصوب ولا بمستطرف، بل هو قديم موروث فهو يقول[١]:

ملـوك وحـكّام وأصحاب قوّة ... إذا شوغبوا كان عليها ذوي شعب
أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا ... مـوالي ملك لا طريق ولا غصب
فلم تـر عينـي ملكًا رأيته ... أتاك بلا طعن الرمـاح ولا ضرب
وقـد جعل الله الخلافة فيكـم ... لا أبيض لا عاري الخوان ولا جدب
ولكـن أراك الله موضع حقّها ... عـلى رغـم أعداء وصدادة كذب

وفي قصيدة أخرى مدح بها بشر بن مروان نجده يدافع عن حقّ بني أميّة بالخلافة والملك يهاجم خصومه من الزبيريّة والقيسيّة إذ يقول[٢]:

فالله لم يرض عن آل الزبير ولا ... عن قيس عيلان حيا طال ما ضربوا
يعـاظمون أبا العاصي وهم نفر ... في هامـة من قريش دونها شذب
بيض مـصاليت أبناء الملوك فلن ... يـدرك مـا قـدّموا عجـم ولا عرب

المسيحيّون بين الأمويّين والبيزنطيّين

ومن مظاهر تأييد السياسة العربيّة المعارضة للسياسة البيزنطيّة هو منع الكنيسة الشرقيّة رجالها من الذهاب إلى القسطنطينيّة أو روما، فقد صدر قانون في زمن حنّانا الحِدْيابيّ معاصر البطريرك إيشُوعْياب الثاني (+٦٤٥م) «الإخوةالذين في الإسكول ليس لهم سلطان أن يطرقوا ديار الروم من دون أمر الإخوة والمدبّر... ومن فعل هذا لا يقبل في البيع، ومن دخل ديار الروم في الدفعة الأولى إن رأى الإخوة والملفان الصفح عنه يفعلون بعد أن يكون دخوله للعلم والصلاة وبعد أن يوبّخ»[٣].

(١) أبو تمّام، نقائض جرير والأخطل. نشرها الأب أنطوان صالحانيّ، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت ١٩٢٢، ص ٩٩. ١٠٦.
(٢) شعر الأخطل. ص ٣٨ وما بعدها.
(٣) ابن الطيّب. فقه النصرانيّة ج٢ ص ١٦٣.

وقد يكون هناك سبب آخر مهمّ لهذا المنع وهو الخلافات المذهبيّة، إذ كان أهل العراق بشكل عامّ هم على مذهب نسطوريوس، وأمّا أهل الروم فهم على المذهب (الملكانيّ)، وينظرون لأهل العراق بأنّهم خوارج وأهل بدع وهراطقة. وهذا العداء المذهبيّ قد يكون هو السبب الرئيسيّ الذي دعا إلى منع كبار النساطرة أتباعهم من الذهاب إلى بلاد الروم، إمّا خشية تغيير المذهب أو لأسباب أخرى تتعلّق بأمور الدين.

وعلى الرغم من هذا التأييد العامّ لحكم الأمويّين، فقد كان الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، كما سنبيّن ذلك في موضعه، ضدّ النصارى وهذا ما دفع بعضهم إلى تأييد ثورة ابن الأشعث، بسبب سياسته العنيفة ضدّ النصارى.

وكان من بين النصارى، نصارى عرب يحتفظون بالعادات العربيّة مثل الضيافة، وبذل الجوار؛ فلمّا غضب زياد بن أبيه على الفرزدق، وأرسل صاحب شرطته ابن زُهْدُم الفقيميّ لطلبه، «فطلبه في بيت نصرانيّة يقال لها ابنة مرّار، من بني قيس بن ثعلبة، تنزل قصيمة كاظمة... فسلته من كسر بيتها فلم يقدر عليه»[1] حتّى هرب إلى المدينة، فقال الفرزدق يهجو ابن زُهْدُم[2]:

أنبئت أنّ العبد أمس ابن زهدم يطوف وللغيني له كلّ تنبال[3]
فإن يغاني إن أردت بغايتي عراض الصحارى لا اختباء بأدغال
أتيت ابنة المرّار تهتك سترها ولا يبتغي تحت الحُوَيْلِت أمثالي
فإنّك لو لاقيتني يا ابن زهدم رجعت شعاعيًّا[4] على سرّ تمثال

وبالنظر لموقف النصارى الضعيف لكونهم أقلّيّة، وما قد تجرّ مساعدتهم للثائرين على الحكم من مصاعب، فقد كانوا يتجنّبون جهد إمكانهم معاونة الثائرين على الحكم لخوفهم من انتقام الدولة منهم. فعندما نزل شبيب الخارجيّ بيعة البتّ[5] أتاه أهلها وقالوا له: أصلحك الله أنت ترحم الضعفاء وأهل الجزية، ويكلّمك من تلي

---

(١) الطبريّ، تاريخ ج٥ ص ٢٤٥. طبعة دار المعارف.
(٢) الصاويّ، شرح ديوان الفرزدق ص ٦٢٤-٦٢٥.
(٣) التنبال: القصير (تاج العروس ٧: ٢٤٣ مادّة تل).
(٤) الشعاع: تفرّق الدم (تاج العروس ٥: ٣٩٨ مادة شع).
(٥) بينها وبين سواد الكوفة نهر يسمّى نهر حواليا (الطبريّ، تاريخ ٦: ٢٥١).

عليه، ويشكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم وتكفّ عنهم، إنّ هؤلاء القوم جبابرة لا يكلّمون ولا يقبلون العذر، والله لئن بلغهم أنّك تقيم في بيعتنا ليقتلنّنا إن قضى لك أن ترحل عنّا. فإن رأيت فانزل جانب القرية ولا تجعل لهم علينا مقالاً»[١].

موقف المسيحيّين من الخوارج

ولعلّ ما ذكرتُ جعل النصارى يقفون موقفًا حياديًّا تجاه الخوارج، لأنّهم – أي النصارى – أهل ذمّة، وقد أدرك الخوارج ذلك. فبعد معركة النهر، وإن كان الخوارج قد عرضوا لمسلم اسمه (زاذان فرّوخ) ما بين نُفّر[٢] والكوفة. فقالوا له: أَمسلمٌ أنت أم كافر؟ فقال: بل أنا مسلم. فقالوا: فما قولك في عليّ؟ قال: أقول فيه خيرًا. أقول إنّه أمير المؤمنين وسيّد البشر. فقالوا له: كفرتَ يا عدوّ الله. ثمّ حملت عليه عصابة منهم، فقطعوه ووجدوا معه رجلاً من أهل الذمّة، فقالوا: ما أنت؟ قال: رجل من أهل الذمّة، فقالوا: أمّا هذا فلا سبيل عليه»[٣]. وكذلك «لقوا مسلمًا ونصرانيًّا، فأعفوا النصرانيّ وقالو احفظوا وصيّة بيّكم فيه وقتلوا المسلم»[٤]. وقال أبو العبّاس: «فمن طريف أخبارهم أنّهم أصابوا مسلمًا ونصرانيًّا فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانيّ فقالوا احفظوا ذمّة نبيّكم»[٥]. وقد لقيهم في طريقهم رجل مسلم وهو عبد الله بن ضباب وكان في عنقه القرآن الكريم ومعه امرأته، وكانت حاملاً، فلمّا رأوه قالوا إنّ الذي في عنقك يأمرنا بقتالك، فقادوه إلى شاطئ النهر –شطّ النهروان– وذبحوه[٦].

وقد حرص الخوارج على حفظ أموال النصارى، فقد أساموا نصرانيًّا لنخلة، فقال

(١) الطبريّ، تاريخ ٦: ٢٥٢. ابن الأثير، الكامل ٤: ٤١٤.

(٢) من نواحي بابل بأرض الكوفة (الحمويّ ٥: ٢٩٥).

(٣) الطبريّ. تاريخ ج٥ ص ١١٧.

(٤) الحنبليّ، أبي الفلاّح عبد الحيّ بن العماد. شذرات الذهب ج١ القاهرة ١٣٥٠هـ، ص ٥١.

(٥) المبرد. الكامل ج٣ ص ١٢٣.

(٦) المبرد. الكامل ج٣ ص ١٢٤.

لهم هي لكم، فقالوا له: «ما كان لنا أخذها إلاّ بثمن، فقال: ما أعجب هذا، أتقتلون مثل عبد الله بن ضباب ولا تقبلون منّي جني نخلة؟»[١].

ليس هذا فحسب، فقد اتّهموا الحجّاج بأنّه ظلم هؤلاء ومنعهم من دخول الإسلام بإبقاء ضريبة الجزية على من أسلم منهم، فقد جاء إلى الحجّاج طفل خارجيّ يبلغ من العمر عشر سنوات، وجرت بينه وبين الحجّاج محاورة طلب الحجّاج فيها من الخارجيّ أن يقرأ له شيئًا من القرآن، فقرأ الصبيّ: «أعوذ بالله منك ومن الشيطان الرجيم إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجًا، قال الحجّاج ويلك إنّهم يدخلون، قال الغلام كانوا يدخلون وأمّا اليوم فقد صاروا يخرجون. قال: ولمَ؟ ويلك. قال: لسوء فعلك بهم»[٢].

وأرى أنّ في هذه القصّة شيئًا من المبالغة، إذ لا يُعقل أن يتجرّأ طفل ويقول هذا الكلام أمام الحجّاج الذي خافه الصغير والكبير رغم شجاعة الخوارج المعروفة.

إنّ تفضيل الخوارج، وهو «أنّ من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله إلى العرب، لا إلينا كما تقول العيسويّة من اليهود... فإنّهم مؤمنون أولياء الله تعالى، وإن ماتوا على هذا العقد وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى»[٣].

إضافة إلى ذلك إنّ الخوارج كانوا يؤكّدون على حفظ ذمّة أهل الرسول، كما ذكرنا.

---

(١) المبرد، الكامل ج٣ ص ١٢٤.

(٢) السيوطي، تحفة المجالس، عني بتصحيحه محمد بدر الدين، طبع على نفقة محمد أفندي ط١ مطبعة السعادة، مصر ١٩٠٨ ص ٧٦.

(٣) ابن خرم، الفصل في الملل، ج ٤ طبع على نفقة أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي ط١ مطبعة التمدّن ١٣٢١ هـ ص ١٨٨ - ١٨٩.

فهرس الكتاب

	الصفحة
مقدّمة المؤلّف	٥
مقدّمة المترجم	٧
الراهب الزوقنينيّ وتاريخه وترجمة النصّ من السريانيّة	٩
١ – هويّة الراهب الزوقنيني	٩
٢ – ملاحظات حول تاريخ الزوقنينيّ	١٢
٣ – ترجمة النصّ من السريانيّة	١٣
٤ – ومضات من سيرة المترجم (تراثه ومآثره، من مؤلّفاته وترجماته)	١٤
تمهيد: تاريخ الزوقنينيّ المنحول لديونيسيوس التلمحريّ	١٩
المخطوطة	١٩
موطن المخطوطة	٢٠
المؤلّف	٢٣

أسلوبه ومنهجه ٢٨

مصادره التاريخيّة ٣٠

أهمّيّة هذا التاريخ ٣٢

١) ردود الفعل السياسيّة ضدّ المركزيّة العبّاسيّة والضغط الذي كان يمارسه الوالي ٣٣

٢) الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في بلاد ما بين النهرين ٣٤

٣) الإجراءات التي اتّخذتها الدولة في البلاد ٣٦

٤) أحداث فريدة لم تتناولها المطوّلات التاريخيّة ٣٨

أحوال الكنيسة في بلاد ما بين النهرين ٤٦

نصّ الكتاب المترجم

وقائع تاريخيّة (سنة ٨٩٨ – ١٠٨٥ي) أي (٥٨٧ – ٧٧٤م) ٤٩

سنة ٥٨٧م – ٧٢١م ٤٩ – ٦٦

(تعقيب وتعليق) ٦٧

الجزيرة في العهدين الراشديّ والأمويّ ٦٩

المسيحيّون في الجزيرة ٧٣

خبر المعجزة التي حدثت بواسطة القدّيس حبيب أسقف الرها ٧٥

سنة ٧٢٣م – ٧٣٦م ٧٩ – ٨٥

(تعقيب وتعليق) ٨٦

سنة ٧٤١م – ٧٤٦م ٨٨ – ٩٠

فصل في رؤساء الكنائس الذين عرفوا بهذا الزمن ٩٣

فصل في نقل خزينة الملوك من المغرب إلى الجزيرة ٩٤

سنة ٧٤٧م – ٧٥١م ٩٤ – ٩٧

فصل عن الشتاء القارس ١٠١

فصل عن الجوع الذي حصل بهذه السنين
ونزوح الشعب الأرمنيّ والأرطناويّ الى سوريا ١٠٢

فصل عن المنّ والدودة التي صارت بالأرض في هذه السنوات ١٠٣

فصل عن الشعب الأرمنيّ والأورطيّ الذي خرج من سوريا
بسبب الجوع من البلاد ١٠٤

سنة ٧٥٢م – ٧٥٥م ١٠٥ – ١٠٧

فصل عن المجمع الذي عقد يوم ارتقاء كيوركي بطريرك أنطاكية
في مدينة مبوغ على الفرات ١١٠

سنة ٧٥٤م – ٧٦٧م ١١٣ – ١٢٣

فصل في أسباب المخاصمات والاضطرابات التي حدثت في الكنيسة بين رعاتها
في هذه السنة ١٠٧٨ يونانيّة، وخاصّة مع كيوركي البطريرك ١٣٦

سنة ٧٦٧م – ٧٧٠م ١٣٦ – ١٤٤

فصل عن العلامة التي ظهرت في السماء على شكل مكنسة سنة ٧٦٩م ١٤٨

فصل عن الشعب الذي صعد من الأرض الواطئة، والمدعوّ «البطل» باللغة القديمة سة ١٠٧٨ي/٧٦٧م ١٤٩

تجديد الكنيسة الكبرى في آمد ١٥٠

تسجيل أموال الكنائس والأديرة بأمر الملك ١٥١

خصوبة الأرض وما جرى فيها من شرور ١٥٣

فصل عن تجمّع العبيد في حرّان مدينة ما بين النهرين ١٥٥

فصل عن صعود الملك إلى الأراضي الشمالية وبناء قلينقس سنة ٧٦٧م ١٥٦

فصل عن بناء قلينقس الثاني ١٥٩

فصل عن هروب الأرمن من بيت روما يا، والخراب الذي فعله المسلمون بالرومان ١٦٠

فصل عن التعديل الذي أجراه الملك على الأرض ١٦١

فصل عن الصوفيّ، ومستلم الأعشار والرزّامين والختّامين والهجرة ١٦٢

– الصوفيّ ١٦٢

– مستلم العشور ١٦٣

– الرزّامون والختّامون ١٦٣

– الهجرة ١٦٤

فصل عن المأمورين والكتبة والصرّافين ورؤساء الأقاليم والحكّام ١٦٧

فصل عن مباشرة الناس بحفر القبور وسرقتها ١٧٠

فصل عن القوس الذي ظهر عكسيًّا ١٧١

فصل عن العلامة الثانية التي ظهرت في الجهة الشماليّة ١٧٢

فصل عن الجزية والسجن في الكنيسة ١٧٣

– الجزية ١٧٣

– السجن في الكنيسة ١٧٣

فصل عن أحد المضلّلين بمدينة نصيبين سنة ١٠٨١ي/٧٧٠م/١٥٣هـ ١٧٦

مقدّمة ١٧٦

أحد المضلّلين ١٧٧

السنة الأولى من الضيق الذي حدث عام ١٠٨٤ي/٧٧٣م ١٨٢

١ – الكتبة والصرّافون والعمّال ١٨٢

٢ – الرزّامون وأصحاب الختم ١٨٣

٣ – العشّارون ١٨٤

٤ – قضيّة الصوفيّ ١٨٥

٥ – مأمورو الهجرة ١٨٦

فصل عن الشرور التي أصابت المسلمين ١٨٨

فصل عن الآية التي ظهرت ثانية في الجهة الشماليّة ١٩١

فصل عمّا صادف من الضيق في السنة الأولى ١٩٢

١ – قدوم عامل جمع الجزية ١٩٣

٢ – العامل الثاني ١٩٣

٣ – العامل الثالث ١٩٥

٤ – الضيق في مدينة الرها ١٩٨

٥ – السجن في الكنيسة ١٩٩

فصل عن الأحكام الجائرة التي صدرت بحقّ الناس ٢٠١

فصل عن الجوع والعطش الذي حدث بهذه السنة: ٧٧٣م وانتقال سكّان الشرق والجنوب إلى الشمال ٢٠٤

فصل عن الشرور التي صنعها الناس بالقبور وتذرية العظام ٢٠٧

فصل عن شهادة الزور والكذب وما جرى من شرورهما من مصائب في العالم لا سيّما للدائن والمدين ٢٠٩

شهادة الزور التي سرت بين الناس ٢١٠

الدائن والمدين والكذب ٢١٠

الظلم والغيبة والنهب وشهادة الزور ٢١٢

السنة الثانية من الضيق وهي سنة ١٠٨٥ي/٧٧٤م/١٥٨هـ ٢١٦

الحديث عن الشتاء القاسي ٢١٧

الفناء الذي حلّ بالبهائم والمواشي ٢١٨

الرياح الشديدة ٢١٨

قساوة البرد وشدّته ٢١٩

عودة موسى بن مصعب ٢١٩

الضيق الذي سبّبه الظلم بين القرويّين ٢٢٤

المرارة التي عاناها الناس، والسبي الذي فعله القرويّون ٢٢٥

الجوع الذي حلّ بين الناس والوباء الذي انتشر ٢٢٩

سرقة القبور وتذرية عظام الموتى ٢٣٤

الوباء والحيوانات الوحشيّة التي ظهرت بعده ٢٣٦

موت أمير آمد ووصيّته، المسجونون في آمد... ٢٣٩

مأمورو العشور والضرائب والمأمور الثاني للحظيرة ٢٤٣

مأمور العشور والضرائب ٢٤٣

المأمور الثاني للحظيرة ٢٤٣
(تعقيب وتعليق) ٢٤٥
المسيحيّون والدولة الأمويّة ٢٣٥
النصرانيّة في عهد عمر بن عبد العزيز ٢٦٠
المسيحيّة في عهد خالد القسريّ ٢٦٩
موقف النصارى من الدولة الأمويّة ومعارضيها ٢٨٢
موقف قبيلة تغلب من الدولة ٢٨٣
المسيحيّون بين الأمويّين والبيزنطيّين ٢٨٥
موقف المسيحيّين من الخوارج ٢٨٧
فهرس الكتاب ٢٨٩

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر أيلول سنة ٢٠٠٦

سلسلة
التراث المسيحي العربي
٤

تاريخ الزوقنيني المنحول لديونيسيوس التلمحري

الأب سهيل قاشا

منشورات المكتبة البولسيّة
٢٠٠٦